

مجلة شهرية . العدد الرابع . السنة الأولى مايو ١٩٩٩ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل يكتب :

حوارات مع القذافى

عن الأفكار
والأزمات
والناس ... والزمن

الوضع الدينى فى مصر .. وخريطة حركات العنف الإسلامى

ميلوسوفيتش
هكذا صعد.. وهكذا يسقط

سوروس
وكارثة رأسمالية "السداح مداح"!

فلسطين
أى دولة .. وعلى أى أرض؟

مهرجان كان
خمسون عاماً

فصل
الخطاب
فى الجدل حول
"الخبز الحافى"

جداريات الحج
فن
شعبى
أصيل

سعد زغلول
الزعيم فى المنفى.. والثورة فى الوطن

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الأولى

العدد الرابع
مايو ١٩٩٩

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للتحرير
جميل مطر





محتويات العدد:

● كلمة .. ٣
● محمد حسنين هيكل ٤
«حوارات مع القذافى.. عن الأفكار والأزمات والناس والزمن»
● طارق البشرى ١٦
«الوضع الدينى فى مصر بين المنطوق به والمسكوت عنه»
تقرير الحالة الدينية فى مصر (التقريران الأول والثانى) تحرير: نبيل عبدالفتاح.
● محمد صلاح ٢٠
كيف تصدعت لوحة الموزاييك؟.. «خريطة حركات العنف الإسلامية فى مصر»
الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث. تأليف: ديليب هيرو، ترجمة: عبدالحميد الجمال، جماعات العنف المصرية المرتبطة بالإسلام. تأليف: أبو العلا ماضى
● تيم يوداه ٢٦
«ميلوسوفيتش: هكذا صعد وهكذا يسقط»
● محمد يوسف عدس ٢٩
«كوسوفا: بين هيمنة الأطلنطى ووحشية الصرب»
Kosovo: A Short History تأليف: نويل مالكوم
● محمود عبد الفضيل ٣٤
«سوروس يحذر العالم من نفسه.. الكارثة المقبلة لرأسمالية السداح مداح»
The Crisis of Global Capitalism تأليف: جورج سوروس.
● مايكل بودرو ٣٨
«كيف نفهم العالم من خلال الفن»
Emotion and the Arts تحرير: ميت هيورت وسولافر، *Arts and Emotion* تأليف: ديريك ماتريفرز، *Aesthetics and Ethics* تحرير: جيرولد ليفنسون
● «جداريات الحج: فن شعبى مصرى أصيل» ٤٠
من كتاب: *Hajj Paintings: Folk Arts of the Great Pilgrimage* تأليف: آن باركر وأفون نيل.
● شهود عيان على التاريخ.. «من مذكرات سعد زغلول: الزعيم فى المنفى والثورة فى الوطن» ٤٨
مذكرات سعد زغلول (الجزء التاسع) تحقيق: عبد العظيم رمضان
● إحسان بكر ٥٢
وجهة نظر: «فلسطين.. أى دولة؟.. وعلى أى أرض؟!»
● تشارلز جلاس ٥٤
«ياسر عرفات: العودة إلى اللامكان.. وحلم الدولة الفلسطينية»
Arafat : From Defender to Dictator تأليف: سعيد أبوريش
● وليد خدورى ٥٦
«الصراع على كعكة النفط فى بحر قزوين»
The Internationl Politics of Eurasia تحرير: كارين داروبشه و بروس باروت
● جلال أمين ٦٠
«فصل المقال فيما بين «الخبز الحافى» و«موسم الهجرة» من انفصال
الخبز الحافى: سيرة ذاتية روائية (١٩٣٥-١٩٥٦) تأليف محمد شكرى، *For Bread Alone* تأليف: محمد شكرى، موسم الهجرة إلى الشمال: تأليف الطيب صالح
● رفيق الصبان ٦٤
«خمسون عاما.. ومهرجان كان»
Cannes Memoires تأليف: جان كلود رومير، *Histoires de Cannes* تأليف: انطوان دوباك، *Les Realisteurs de la Quinzaine* تأليف: بيير هنرى دولو، *D'or et des Palmes* تأليف: بيير بيلور
● عروض موجزة ٧٠
● قراءات جديدة ٧٤
● رسائل ٧٨
● سلامة أحمد سلامة ٨٢
«نون»: إنتاج المعرفة واستخدامها

كتاب العدد:

- إحسان بكر .. خبير فى الشئون الفلسطينية من مصر
- تشارلز جلاس .. كاتب من المملكة المتحدة
- تيم يوداه .. عمل مراسلا لجريدة تايم ومجلة الإيكونومست فى بلجراد بيوغسلافيا السابقة ونشر له كتاب عن الصرب فى العام الماضى.
- جلال أمين .. كاتب من مصر وأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
- رفيق الصبان .. ناقد سينمائى
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى
- طارق البشرى .. مؤرخ وكاتب من مصر
- مايكل بودرو .. كاتب من المملكة المتحدة
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد صلاح .. صحفى متخصص فى شئون الحركات الإسلامية المصرية
- محمد يوسف عدس .. خبير فى الدراسات البلقانية ومقيم فى لندن وله كتاب عن كوسوفا تحت الطبع
- محمود عبدالفضيل .. خبير اقتصادى ورئيس قسم الاقتصاد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة
- وليد خدورى .. خبير فى شئون النفط من العراق ورئيس تحرير نشرة ميس *Middle East Economic Survey*

رسوم العدد للفنانين: محمد حجى - سعد الدين شحاتة - نبيل تاج



المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٨٠ دولاراً أمريكيًا - دول أوروبا وأمريكا وكندا: ١٢٠ دولاراً أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٥٠ دولاراً أمريكيًا.
إدارة اشتراكات الأهرام - مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - ت: ٣٣٩١٠٩٠

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالا - اليمن ١٥٠ ريالا - الكويت دينار واحد - الإمارات ١٥ درهما - البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٢٥ درهما - تونس ٣ دنانير.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــة ..

بين الإيقاع السريع للأحداث، وماتنطوى عليه من مفاجآت خاطفة غير متوقعة، وما يواجهه إنسان العصر من تحديات وقضايا تصنعها تراكمات التغيير على آماد تطول أو تقصر، يقف القارئ العادى فى كثير من الأحيان مشدوها غير مصدق. يبحث عن الحقيقة فى ثنايا التقارير والأخبار والنشرات التى تتحفه بها الصحف «اليومية» وتحاصره بها الرسائل والصور الإذاعية والتلفزيونية، لعله يجد تفسيرا مقنعا لما يعج به العالم من آلام ومآس، أو يستريح إلى تصور شامل متكامل للبواعث والأسباب التى تحرك قوى الخير والشر، ونوازع السلام والحرب بين الشعوب.

وليس بوسع المرء أن يستغنى عن أى من الجانبين إن هو اختار أن يحاط علما بما يجرى حوله، وأن يكون مشاركا فى صنع مصيره ومصير أمته. فالأحداث التى تقع فى العالم تصل إليه مجزأة، متقطعة، منفصلة متسارعة، مسطحة. قد لايكون لكل حدث بذاته معنى أو دلالة. وقد لايثير لدى المرء شعورا بالراحة أو بالقلق. ولكنها مجتمعة، وبمرور الوقت واستمرار التغيير، وتواصل الحركة، تصبح تيارا يحفر مجراه فى صيرورة الزمن لتصبح جزءا لا يتجزأ من حركة التاريخ التى تحدد مصائر الشعوب والأمم.

ومن هذا المنطلق تحرص مجلة «الكتب .. وجهات نظر» على أن تساير إيقاع الأحداث، وتواكب مجرى الزمن تبحث عن الحقيقة فى إطار النظرة الشاملة، وتطل على الأحداث فى عمقها التاريخى، وتفاصيلها المركبة، بكل ما تنطوى عليه من صلف الغرور بالقوة أو من مركبات النقص الكامنة فى الطبيعة الإنسانية. وتحاول الكشف عن العوامل والظروف التى تصنع الزعامات التاريخية أو تحطمها.

وفى الحوار المثير الذى يديره الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل مع الزعيم الليبى العقيد معمر القذافى ، تترقرق على سطح الأحداث خيوط وخطوط من ذكريات أيام سالفة تحمل عبق الماضى بكل ما فيه من آلام وآمال، وتستدير حركة الصحفى الكامن فى أعماقه استدارة كاملة، تبحث وتنقب فى النتائج والاحتمالات الناجمة عن حادث لوكربى بعد التطورات الأخيرة التى أدت إلى تسليم المشتبه فيهما للمحاكمة فى هولندا.

وفى خضم الحرب الدائرة فى البلقان، والتى تصاعدت فجأة لتصنع مأساة مئات الألوف من اللاجئين الألبان، مع احتمالات تفاقم النزاع واتساع دائرة الحرب، نقدم فى هذا العدد عرضا تاريخيا لجذور مشكلة كوسوفا وتطوراتها الراهنة، ونلقى الضوء على تاريخ الرجل الذى تلوثت يداه بدماء الألبان المسلمين فيما عرف بعمليات التطهير العرقى والمذابح الجماعية التى راح ضحيتها الآلاف حتى اليوم.

ولاشك فى أن العنف السياسى والدينى والطائفى مُدان بكل أشكاله وفى أى مكان فى العالم. وقد تضمن هذا العدد تقويما شاملا لحركات العنف الإسلامية فى مصر، يؤكد أن هذه الحركات قد دخلت مرحلة الانحسار والخسوف الكلى. مع نظرة نقدية لآخر تقرير صدر عن مركز الدراسات الاستراتيجية للأهرام عن الحالة الدينية فى مصر.

وحيث مازالت أشباح الأزمة الاقتصادية التى تهدد الدول الآسيوية تطل على العالم، فقد عرضنا للكتاب المثير الذى ألفه أكبر مضارب فى العالم المالى والمليونير المعروف سوروس، والذى شارك بمضارباته فى انهيار اقتصاد بعض الدول الآسيوية.

فضلا عن موضوعات أخرى عديدة، تناقش مستقبل الدولة الفلسطينية، والصراع على النفط فى القوقاز.. وتجدد للقارئ ذاكرته عن فترة حاسمة من تاريخ مصر بمناسبة مرور ثمانين عاما على ذكرى نفى الزعيم الخالد سعد زغلول.

بالإضافة إلى عديد من الموضوعات الفنية عن جداريات الحج كفن شعبى مصرى أصيل، وعن جوائز السينما العالمية فى مهرجان كان، وانطباعات أحمد فارس الشدياق فى كتابه الشهير: «الساق على الساق».

وهكذا تؤدى «الكتب ..وجهات نظر» رسالتها كجسر يربط بين فكر العالم وأحداثه وبين قارئها على امتداد الوطن العربى.

وجهات نظر

حـــــــــــوارات مـــــع

[١]

قابلت العقيد «معمر القذافي» مساء يوم الاثنين ١٣ مارس ١٩٩٩ ـ في الجناح الذي نزل فيه ضيفا رسميا على الدولة المصرية بقصر القبة.

وأهمية تحديد التاريخ هنا أن هذا اللقاء جاء بعد انقطاع ـ ولا أقول قطيعة ـ امتد بما زاد على ربع القرن ... خمس وعشرين سنة!

وعندما لمحني تحت السلم الرخامي الكبير للقصر مُتَّجِها نحو المصعد إلى الدور الأول حيث يقيم صاح من بعيد مُرَحِّبا، ثم تسارعت خطاه تسبق العكاز الذي يسند ساقه، وأقبل معانقا وبحرارة شاعت فيها تلقائية العاطفة ممتزجة بالحيرة والدهشة قائلا:

«يا رجل هل هذا معقول، أنت أول شخص قابلته في العالم من خارج ليبيا نفس المساء الذي قمنا فيه بالثورة (أول سبتمبر ١٩٦٩)، وكنت أعتبرك أقرب الأصدقاء إلينا، ثم تذهب وتقطع حبال الود بهذا الشكل وكأن لم تكن بيننا في يوم من الأيام رابطة؟!»

وقلت للعقيد ـ بصوت خفيض ـ ونحن وسط حشد من الناس (خليط من مرافقيه وحراسه والعاملين في القصر): «سوف نتكلم في ذلك تفصيلا حين نجلس معاً».

وطلب أن أصعد إلى جناحه ويلحق بي على الفور بعد أن تُلتَقَط له صورة مع وفد من الطلبة الليبيين، انتهى لتوه من حوار معه (في صالون الانتظار الرئيسي في قصر القبة)، ودخلت إلى المصعد ـ ثم إلى جناحه، وجلست في انتظاره (ثلاث دقائق).

وفي هذه الدقائق الثلاث كانت قصص الأيام والتواريخ تجري مشاهد حية في ذاكرتي.

نعم، صحيح أنني قابلته لأول مرة مساء يوم أول سبتمبر ١٩٦٩.

نعم، وصحيح أيضا أنني قابلته بعد ذلك لآخر مرة ظهر يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣.

نعم، وبين هذين التاريخين (١٩٦٩ ـ ١٩٧٣) ـ التقينا مرات كثيرة يصعب حصرها.

نعم، وهذا اللقاء ـ يجيء ـ الآن مساء يوم ١٣ مارس ١٩٩٩.

أي أنه بالفعل غياب خمس وعشرين سنة ـ وفوقها أكثر من خمسة شهور!

ولم تطل تأملات السنوات والأيام كثيرا، فلم يلبث صوت «القذافي» (أو الأخ العقيد «قائد ثورة الفاتح العظيم» كما يسميه الإعلام المصري هذه الأيام!) ـ أن وصل إلى سمعي قادما من الردهة، ثم داخلا إلى حيث كنت أجلس.

ومرة أخرى تكرر المشهد: ترحيب وعناق وعتاب!

....

....

وكما تكرر المشهد، تكرر السؤال مع إضافة جديدة:

«كيف يا رجل، خمس وعشرون سنة دعوناك خلالها عشرات المرات، وانتظرناك، وأنت لا تجيء. قل لي ما هو عذرك، ما هو تفسيرك، ما هو ردك؟»

ورجوته أن يتمهل على أجيب ـ وقلت له:

«إنها حكاية طويلة، والمسائل فيها متشابكة، والكلام فيها يستغرق وقتا بينما شاغلي الآن أن أسأل عن مستجدات اللحظة الأخيرة.. عما وصلتم إليه في أزمة لوكربي؟»

وقال «القذافي» أنه لن يرد على أسئلة «اللحظة الأخيرة» إلا إذا عرف سر الغيبة السابقة عليها لأنها مشكلة حَيَّرته ولم يجد لها مبررا برغم كل ما حاول».

ولم يبق مَفَرٌّ من عودة إلى ما جرى وكان!

....

....

ورحت أزيح عن حسباني ولساني كل الرتب من «الرئيس» إلى «العقيد»، وكل الألقاب والأوصاف وبينها ما خلعه الإعلام المصري على «معمر القذافي» في رحلته الأخيرة (قائد ثورة الفاتح العظيم) ـ ثم أستعيد الصورة التي كنت أعرفه بها في أيام خلت باعتباره «الأخ معمر».

وقلت له «إنني بداية أريد أن أؤكد أنها لم تكن قطيعة ولا مقاطعة، وإنما كانت نوعا من إيثار الابتعاد أوصلتني إليه دواع وجدتها لازمة من وجهة نظري على الأقل!»

وقاطعني: «أية دواع يا رجل؟»

ورجوته أن «ينتظر على أشرح موقفي ويتحمل صراحتي ما دام يصر»!

... وبدأت فطلبت منه أن يتذكر آخر مرة التقينا فيها من قبل ـ وكانت ظهر ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ ...

....

....

يومها جاء إلى مكتبي في الأهرام مُستَفِزا وثائرا، وكان قادما إلى عندي من مكتب القائد العام المشير «أحمد إسماعيل علي» (وزير الحربية والقائد العام للقوات)، كان «القذافي» قد ركب الطائرة إلى القاهرة يريد أن يعرف أوضاع الجبهة العسكرية في سيناء ويطلع بنفسه على خطوط القتال التي توقف عندها إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣.

واتصل «القذافي» بالرئيس «السادات» يقول أنه وصل إلى القاهرة ويريد أن يذهب إلى غرفة العمليات ويرى الموقف العسكري على الخريطة. ورحب به الرئيس «السادات» ـ لكنه اتصل على الفور بالقائد العام يلقي إليه أوامره فيما يخص طلب «القذافي».

وكانت الأوامر إلى «أحمد إسماعيل» أن يعطي «القذافي» فكرة عن المواقع دون أن يسمح له بدخول غرفة العمليات «لأنه لا شيء فيها الآن يراه»!

وتوجه «القذافي» إلى مقر القائد العام، وبعد نقاش قصير أحس بما وصفه بـ «الإهانة»، وفي نفس الوقت أحس لدى القائد العام بما كان بالفعل شعورا بـ «الحرج»!

وباختصار فقد أحس «القذافي» بأنه كان مسموحا له أن يسمع بعض «الكلام» ـ ولكنه كان ممنوعا من أن يرى خرائط غرفة العمليات!

وخرج من القيادة العامة إلى مكتبي ـ مُستفِزا وثائرا كما أسلفت، وسمعته حتى اكتفى وكان هدفي تهدئة خواطره وانتهاز فرصة ـ دون علمه ـ أتصل فيها بالرئيس «السادات» عله يتدارك المشكلة.

وتعللت في لحظة من اللحظات بعمل يستدعي وجودي في صالة تحرير الأهرام،



عن الأفكار والأزمات والناس والزمن

محمد حسنين هيكل



وذهبت إلى غرفة مجاورة أتصل بالرئيس «السادات» أحدثه برأيى «وأسأله عن السبب الذى يمنع معمر القذافى إذا شاء من دخول غرفة العمليات حتى ولو لم يكن فيها شىء» ؟!

كان رأيى أن «معمر» له الحق كصديق موثوق به.. وله الحق كرفيق مهتم.. وله الحق كجار مباشر استخدمت أرضه بغير عوائق عمقا إستراتيجيا للجهد العسكرى المصرى.

وأكثر من ذلك فقد ذكَّرت الرئيس «السادات» بأن «معمر» شريك فى المعركة، ففى عام ١٩٧٣ وحده دفعت ليبيا تكاليف أسلحة لمصر وصلت قيمتها إلى ألف مليون دولار (كان ضمنها القوارب المطاطية التى استخدمتها قوات الموجة الأولى فى عبور قناة السويس، وكان شراؤها من إيطاليا).

ولكن الرئيس «السادات» بدا لى مُصِرا على موقفه «لأن معمر سوف يحكى لطوب الأرض عما يرى فى غرفة العمليات، ثم لأنه ....» (أوصاف أخرى لا داعى لها الآن).

وعدت إلى مكتبى حيث كان «معمر القذافى» ينتظرنى، وكانت محاولتى الآن إقناعه أن يذهب للقاء الرئيس «السادات» ويتحدث إليه مباشرة دون وضع المشير «أحمد إسماعيل» فى «مرامى نيران» متقاطعة ودون وساطة أو تدخل من أحد، ثم يتوصلا معا إلى صيغة تفاهم بينهما «الآن» و«مستقبلا» لأن ذلك ضرورى لكفاءة وسلاسة إدارة العمل القومى فى المرحلة الحساسة القادمة.

كانت التغييرات التى لمحتها لأول وهلة أن السنين تركت آثارها خطوطا عميقة على صفحة وجهه، تعكس توترات الأيام وشدائد التجربة. وكانت عيناه الآن أكثر حذرا فى النظر إلى ما حولهما، وكانت لهجة حديثه ناطقة بنوع من الغربة.. وربما أن الأيام علمته أن مكامن الخطر ليست دائما حيث يتوقعها

بين ثلاثين سنة قضاها معمر القذافى فى الحكم، فإن عشرا منها انقضت فى علاقات حب وهجر بينه وبين مصر، وعشرا ثانية منها جرت طوافا بمواقع القلق على اتساع المعمورة من حركة «أبو نضال» إلى حركة الجيش السرى الأيرلندى، ثم ضاعت عشر سنوات ثالثة فى هموم «لوكربى»

وأفاض «معمر القذافى» فى شكاواه وشجونه طوفانا متدفقا وحكى كيف «أن الرئيس «السادات» يصد دائما ويعرض، بل وأحيانا ما يتجاوز ويقسو ناسيا أن «معمر القذافى» قومى عربى مؤمن بدور مصر المحورى فى العالم العربى، وليس موظفا فى خدمة الحكومة المصرية مسئولا أمام بيروقراطية الحكم فيها».

وحاولت أن أهدئ خواطره قدر ما أستطيع عارفا فى صميم قلبى أنه محق فى الكثير مما يشكو منه، لكنه ليس بريئا بالكامل مما يضايق أنور السادات من تصرفاته».

....

....

وذكَّرت «معمر القذافى» ببعض ذلك ثم اضفت ونحن جلوس الآن بعد ربع قرن فى قصر القبة: «إنه فى ذلك الوقت - ولعله لم ينس - كانت مشاكلى كبيرة مع الرئيس «السادات» بسبب الطريقة التى تفاوض بها مع «هنرى كيسنجر» (يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣) وبسبب النتائج التى توصل إليها بفك الارتباط الأول، ثم بلغت خلافاتى معه (الرئيس «السادات») ذروتها حتى طلب إلىّ أن أكف عن كتابة ما أكتب «لأنه يحدث بلبلة فى أفكار الناس». والذى حدث أننى لم «أكف» معتقدا أننا أمام موقف يتطلب من كل رجل أن يقف وأن يجعل صوته مسموعا مهما كان أو يكون. والنتيجة أن الرئيس «السادات» أصدر أمرا بتعيينى مستشارا له، واعتذرت عن تنفيذ أمره وتركت الأهرام إلى بيتى أرتب نفسى لعمل آخر.

ويوم ٣ فبراير ١٩٧٤ غادرت مبنى الأهرام لآخر مرة بأسى ولكن دون أسف.

وفى نفس اللحظة كنت على قناعة تامة بأنه ضمن أشياء كثيرة أخرى يتحتم علىَّ تجميد علاقة الصداقة بينى وبينه هو: «معمر القذافى»!

كان «معمر القذافى» جالسا أمامى على الأريكة الكبيرة فى صدر صالون جناح الضيافة بقصر القبة، وكان يسمعنى وهو يميل إلى ناحيتى مستندا إلى عكازه.

وقاطعنى وهو يعود برأسه فجأة إلى الوراء سائلا «عن السبب الذى يدعونى فى هذا كله إلى الابتعاد (حسب وصفى!) - مع أنه يراه بالطريقة التى جرى بها قطيعة حار فى أمرها ولم يعثر على تفسير مقنع لها»..؟

وقلت: «إنه بإلحاحه على فهم موقفى لا يترك لى مجالا إلا أن أصارحه بكل ما خطر لى - وقتها - حتى وإن ضايقه».

واستطردت: «إننى فى اللحظة التى غادرت فيها مبنى الأهرام قررت أن ألزم نفسى بأنه «لم تعد لى صلة بالقرار السياسى المصرى من قريب أو بعيد». لى موقف إزاء القضايا التى يتعرض لها هذا

القرار بالطبع، لكن الموقف من القضايا شيء والمعايشة والقرب من مواقع القرار شيء آخر .

موقفي من القضايا متصل برأيي وحقي أن أبديه .

وأما المعايشة والقرب من موقع القرار السياسي فأمر مختلف يتعلق برؤى آخرين لهم رأيهم، وعليهم المسئولية بحقائق الأمور وبمقتضى الدستور».

وقلت لـ «القذافي» : «إنني بحكم ظروف سبقت اقتربت من علاقته بالرئيس «جمال عبد الناصر»، ثم من علاقته بالرئيس «أنور السادات»، ولم يكن ذلك بحق إبداء الرأي - كصحفي - وإنما كان بمصادفة صداقة مع قمة الدولة .

وفي زمن الرئيس «جمال عبد الناصر» فإن علاقتي بالسياسة المصرية كانت مفتوحة . ثم إنها ظلت كذلك في زمن الرئيس «أنور السادات» حتى انتهت حرب أكتوبر، لكنها ما لبثت أن ساءت ثم وصلت إلى طريق مسدود بسبب أسلوب التفاوض مع «كيسنجر»، وبسبب اتفاق فك الارتباط الأول مع إسرائيل .

وعندما كنت قريبا من صنع القرار أيام الرئيس «السادات» فقد حاولت قدر ما أستطيع أن أكون - كما كنت أيام «عبد الناصر» - «صلة بينك وبينه» . وبنفس المعيار «فإنه في الوقت الذي أبتعد فيه عن دائرة القرار السياسي كان يجب أن أبتعد عنك أنت الآخر وإلا تشابكت خطوط لا يصح أن تتشابك وتعقدت أمور لا أريد لها أن تتعقد».

وقلت : «زيادة على ذلك فإنني أحسست أن الرئيس «السادات» (أو بعض المحيطين به) - يحاولون تلوين علاقتك بي، وعلاقتي بك، بأن يحسبوني عليك أو يحسبوك عليّ. وهو شيء لم أكن أريده. فأنت رجل له بمسئولية بلده سياسته، ولي بمسئولية رأيي موقفي. وقد تلتقي الاجتهادات أحيانا وقد تختلف، لكن حدود الأطراف لا بد أن تكون واضحة .

لا تنس أن «أنور السادات» كان رئيس الجمهورية. وبصرف النظر عن خلافي معه فهو رئيس الدولة التي أنتمي إليها . وأنت أيضا رئيس دولة، ولكنها دولة ثانية ولا أقول أخرى. وكلاكما يستطيع أن يواجه زميله بقوة ما لديه من وسائل. وهذا الصدام بين الوسائل لا يخصني بل أريد البعد عنه، لأن ما لديّ «اجتهادات» مواطن، وليس «وسائل دولة»».

قلت : «بمعنى مباشر أنت والرئيس «السادات» أصبحتما طرفين في خلاف سياسي تحوّل إلى عراك شخصي، ثم وصل إلى أن يكون حاجزا نفسيا .. وذلك أحزنني، لكنه في النهاية أمر يخصكما ويخص رؤاكما لما يجمع بينكما أو يفرق. وليس لي فيه شأن بعد حزني بسببه ولكني لا أريد الدخول فيه. وكان الحل الوحيد المانع والقاطع أن أبتعد وأن يكون الابتعاد كاملا».

....

....

برغم ذلك - قلت لـ «معمر القذافي» ونحن جلوس في صالون قصر القبة - فإن الرئيس «السادات» بذل جهدا كبيرا ليعطي انطباعا للكافة بأنني واقف في معسكرك، لدرجة أن كثيرين من الناس في مصر ظنوا أنني أقيم لاجئا في ليبيا لأنه لا يعقل من منظورهم أن أقف موقف المعارضة الصريحة على هذا النحو لسياسات الرئيس «أنور السادات» دون سلطان أحتمي به، وأن أظل في مصر تحت طائلة قوانينها دون ملجأ أهرب إليه».

قلت له : «كان بعض الناس يسألون أفراد أسرتي وأصدقائي الأقربين «عما إذا كنت ما أزال في ليبيا» - ولم أكن قد وضعت فيها قدما منذ سنة ١٩٧٠ .

ووصلت أنا نفسي إلى حد أنني كنت أضيق بكل قائل لي «حمدًا لله على السلامة» وأسأله بحدة مرات : «حمدًا لله على السلامة من أين ؟ إنني هنا لم أترك مَصر على الإطلاق - أسافر أحيانا لبعض عملي أياما أو أسابيع ثم أعود إليها قابلا مقاديري فيها (وحين أراد الرئيس «السادات» وضعي في السجن .. وجدني في متناول قبضته وأخذني بوليسه إلى سجن طرة مع مئات غيري ضمن اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة) - وكان معظم السائلين يرد كريما «حمدًا لله على السلامة في كل الأحوال».

وأطرق «معمر القذافي» برأسه قليلا ثم عاد يستند إلى عكازه ويعود برأسه إلى الوراء ويقول : «طيب ... عذرك عن الانقطاع طول فترة السادات فهمته، أراك مخطئا ولكني أقدر حقك فيما ارتأيت ... بعد السادات لم تعد لديك أسباب ...»

قلت : «بعد السادات وجدت سببا آخر».

وقاطعني بسرعة : «الرئيس حسني (يقصد حسني مبارك) لم يمنعك !»

قلت : «لم يمنعني بالتأكيد، وإنما منعت نفسي» .

ورفع حاجبيه كأنهما علامتا تعجب !

وقلت : «إنني عندما خرجت من السجن آخر سنة ١٩٨١ وجدت الطرق بين القاهرة وعواصم عربية غيرها - مزدحمة بمواكب ذاهبة راجعة .

وبصراحة أكثر فإن ليبيا أصبحت مقصدا لطلاب حاجات مشروعة وغير مشروعة حتى أصبح التواجد في ليبيا مجلبة للظنون صحيحة أو باطلة !».

ثم قلت : «هل تتصور أنني تلقيت خطابات من ليبيين عاديين يشكرون لي أنني لست ضمن زوار بلدهم في هذه الأوضاع» !

- إلى هذا الحد .

وقاطعني «القذافي» معترضا، وقلت : «خطر لي أنه عندما يتواجد الناس في نفس المكان فالظنون تفترض أنه نفس القصد» .

وكان «معمر القذافي» يهز رأسه نفيا وربما استنكارا .

وأضفت : «وهناك سبب ثالث للإبتعاد».

وسألني، وقلت ما أريد قوله (وأعتذر عن الدخول في التفاصيل الآن !) .

ورد عليّ : «تصدق شائعات مغرضة ودعايات سوء لها دوافعها ضد ليبيا وأنت أول من ينبغي له أن يعرف أنها مؤامرات الاستعمار والسائرين في ركابه».

وقلت محتجا : «إنك صممت من البداية أن تجعلني أتحدث، وكان هدفي عندما جئت أن أسمعك ... وما دمنا قد وصلنا إلى الشائعات والدعايات، والاستعمار ومؤامراته ضد ليبيا، فقد حان دورك الآن في الكلام .»



[٢]

جاءت صينية شاي يحملها شاب لا تبدو ملامحه عربية، وتصادف ذلك مع مرور سيدة تحمل ملاءات ومناشف إلى غرفة نومه تعدها فيما يظهر قبل أن يأوي إلى فراشه، وهي الأخرى لا تبدو لها ملامح عربية . وبشكل ما بدت لي الملامح مألوفة، وسألته : «كلاهما يوجوسلاف فيما أظن ؟

ورد «القذافي» : «مسلمون من البوسنة» !

واستند بصدره على عكازه يتناول فنجان شاي من الصينية التي وضعت أمامنا على المائدة، وسألني وهو يعود بظهره ليستند إلى ظهر مقعده :

- «من أين تريدني أن أبدأ ؟»

وقلت : «كان آخر ما وقفنا عنده هو حكاية المؤامرات ضد ليبيا، وإذن نبدأ من آخر نقطة وصلتم إليها في أزمة لوكربي» .



« المثقفون العرب، أو من يظنون أنفسهم كذلك، اهتموا كثيرا بما قيل عن الطريق الثالث الذي يتبعه بلير (رئيس وزراء بريطانيا) ويكثر من الحديث عنه.. الطريق الثالث هو نفسه نظرية الكتاب الأخضر.. النظرية العالمية الثالثة »

- القذافي -





قال بنبرة يظهر عليها أثر جرح : «لوكربي .. لوكربي ... كأنه لم يعد أمام الخلق مشكلة غير لوكربي ؟ ما هي لوكربي هذه ؟!»

ثم مضى يقول: «إنه سوف يؤجل الحديث في «لوكربي» إلى ما بعد، وأما الآن فهو يريدني أن أعرف ماذا يحدث في ليبيا لأن ما يجري هناك تجربة إنسانية عظيمة بكل المقاييس» .

ورحت أسمعه دون اعتراض .

قال : «إن ليبيا ليست جمهورية، وهو ليس رئيسها، وقد كرر هذا للعالم كله ولكن كثيرين لا يفهمون وربما لأنهم لا يريدون أن يفهموا .

ليبيا جماهيرية، أي أن الجمهور بنفسه يحكم بديمقراطية مباشرة تمارسها اللجان الشعبية المنبثقة من المؤتمرات العامة، وليس بين الجماهير وصنع القرار مجالس وسيطة تصدر القوانين، وإنما هو الشعب بنفسه يحكم نفسه .

الشعب الليبي كله في السلطة، كله يصنع السياسة في كافة المجالات .

وأفاض في الحديث موجة طالت ربع ساعة - ثم توقف وسألني :

«ألا يساوي ذلك أن تهتم به - أن تكتب عنه ؟»

....

....

وقلت : «إن لديّ حيرة إزاء هذا النوع من الديمقراطية المباشرة . ذلك أننا في زمن يختلف عن زمان «أثينا» عندما ظهرت فكرة الديمقراطية . أيام «أثينا» كان الذين يمارسون الديمقراطية مباشرة وفي الاجتماعات المفتوحة مئات على أكثر تقدير. النساء والعبيد لم يكن لديهم الحق في المشاركة . وإذن يجتمع في «الساحة» مائتا رجل أو ثلاثمائة - أكثر أو أقل ربما - ولكنهم دائرة محصورة، ورأيهم نافذ على مدينة واحدة، والقضايا المطروحة بسيطة يسهل الكلام فيها بعموم، والعالم الخارجي مدن مجاورة أو قريبة .

الآن صورة مختلفة . شعوب وأمم بالملايين وعشرات الملايين ومئاتها في أقاليم طويلة عريضة كثيرة، واجتماع هؤلاء في ساحة وسط «الأكروبول» مستحيل ماديا . والرأي بحر متلاطم في أقاليم ممتدة بعد أقاليم، والقضايا معقدة متشابكة، والعالم الخارجي حاضر عند خط الأفق ووراء البحر والمحيط .

الآن يصعب عليّ أن أرى كيف يعمل نمط الديمقراطية المباشرة في الجماهيرية. نحن الآن دول ولسنا مدنا، والسلطة الشعبية - إذا كان لا بد أن تكون مؤثرة وفاعلة - تحتاج تمثيلا يعبر عنها ويجسدها، والنظام لا بد أن يتخذ لنفسه حكمة القانون كفالة تحكم فوق الأوطان طولها وعرضها، اتساعها وامتدادها، تشابك وتعدد قضاياها وعلاقات أهلها، وإلى جانب ذلك فإن العلاقات مع الخارج صراعات تتعدد وسائلها من قوة الحق إلى قوة الردع .

ويصعب عليّ هنا أن أتصور كيف يعمل هذا النوع الذي تحدثني عنه من الديمقراطية الجماهيرية المباشرة ؟»

قال : «إذن تأتي بنفسك لترى» .

وسألني «معمر القذافي» : «هل قرأت الكتاب الأخضر ؟»

وقلت : «قرأته» .

وقال: «كثيرون في هذا العالم لا يريدون قراءته حتى لا يكتشفوا أن العرب لديهم نظرية عالمية يستطيعون تقديمها لمستقبل التطور الإنساني».

ومضى «معمر القذافي» يشرح الخطوط الرئيسية في الكتاب الأخضر الذي يعتبره الوثيقة الفكرية لثورته.

ومرة ثانية لم أقاطع حتى أكمَلَ، ثم سألني كما فعل مرة من قبل: «ألا يساوي هذا كله أن تهتم به وأن تكتب عنه؟»

ثم استدرك:

«المثقفون العرب، أو من يظنون أنفسهم كذلك، اهتموا كثيرا بما قيل عن الطريق الثالث الذي تبتعه «بلير» (يقصد «توني بلير» رئيس وزراء بريطانيا) ويكثر من الحديث عنه ...

الطريق الثالث هو نفسه نظرية الكتاب الأخضر .. النظرية العالمية الثالثة».

ووجدتني مضطرا إلى إبداء ملاحظة قلت فيها «إنه يصعب عليّ الربط بين نظريته وبين الطريق الثالث، فهذا الطريق الثالث الذي كثر الحديث عنه منذ ظهر كتاب «أنتوني جيدنز» (الأستاذ بكلية لندن للعلوم الاقتصادية) - ليس طريقا مستقلا ثالثا، وإنما هو حتى بنص عنوان مؤلفه على غلاف كتابه «الطريق الثالث» - يشير في سطر فرعي إلى أن المُجَلَّد «محاولة لإصلاح الليبرالية الديمقراطية».

وفي حقيقة الأمر - أو كذلك ظني - فإن الطريق الثالث ليس نظرية جديدة وإنما هو سياسة حل وسط يريد أن يعطي وجها إنسانيا للرأسمالية الجديدة، وقد هرعت إلى هذا الطريق الثالث أحزاب يسارية أو اشتراكية أو تقدمية وصلت إلى الحكم في بلادها (مثل حزب العمال البريطاني) واكتشفت أن اللحظة الراهنة «رأسمالية»، ولما كانت تريد أن تجد وسيلة للتوفيق بين وهج المبادئ وبين سطوة الحقائق - فإنها عثرت في مقولة «الطريق الثالث» على غطاء نظري وفكري يمنحها مرونة أكثر في الحركة بين المبادئ والحقائق!

وهكذا فإنني أستطيع أن «أتابع» ما يقوله عن نظرية «الكتاب الأخضر»، ولكني أجد نفسي عاجزا عن «المتابعة» إذا جرت المقارنة بالشبه بينه وبين فكرة «الطريق الثالث»!

ودار بيننا نقاش حول هذه المسألة، ثم كان اقتراحه مرة أخرى: «إنه لا بد أن أذهب إلى ليبيا لكي أرى بنفسي «الكتاب الأخضر» حيا وفاعلا».



وتصورت أن مجرى الحديث أصبح مهيئا لأزمة «لوكربي».

ولم يعترض، ولكنه اختار أن يكون مدخله إلى الحديث عن «لوكربي» هو مخطط التآمر المستمر ضد ليبيا وشعبها وثورتها، وضمن الحرب المتواصلة على القومية العربية فكرة وتجربة ومستقبلا.

وفجأة توقف يسألني:

- هل صحيح أن أنور السادات بطل قومي في مصر الآن؟»

وأبديت دهشتي من السؤال وموضعه في سياق الحديث، وقال:

- «الرئيس حسني قال لي: لا تنتقد أنور السادات في كلامك لأن ذلك يؤدي إلى نفور الشعب منك لأنه يعتبره بطلا قوميا».

وقلت:

- «إذا سألتني رأيي فقد أتفق مع «الرئيس حسني» في نصيحته لك بأن لا تنتقد الرئيس السادات - أما أن يكون الرئيس السادات بطلا قوميا فهذه قضية خلافية، والأفضل تركها للتاريخ يحكم.

من وجهة نظري فإن الرئيس السادات رجل اجتهد وأخطأ، لكن له فضل الاجتهاد، وأول اجتهاده - وهو أول فضله - قرار القتال في أكتوبر ١٩٧٣.

وربما أن خطأ الاجتهاد في رأيي يجيء في الإدارة السياسية وسط القتال وبعده - لكن رأيي هنا تقدير سياسي - وأما البطولة فهي حكم تاريخي مؤجل إلى زمان آخر تُمتحَن فيه المقدمات والنتائج والأهداف والأدوات والظروف والأجواء، وتُمتحَن بغير هوى وغرض وبعيدا عن التحزب ضد ومع مما هو جار في حياتنا هذه الأيام!

....

أما عن نفور الشعب المصري من نقدك لأنور السادات فدعني أذكرك برأي طرحته أمامك في زمن بعيد.

أثناء اشتداد خلافك مع أنور السادات (إلى حد الاشتباك مرات) عرضت عليك: «إنني متأكد من حبك لمصر، ولكني لست متأكدا من فهمك لها».

عرضت عليك يومها «أن مصر ليست واثقة كل الثقة بعد من عروبتها، وربما أنها الوطن العربي الوحيد الذي يملك منطقا كاملا لعوامله (بالحق أو بالوهم) يغريه باختلافه عن بقية شعوب الأمة.

● «العامل الأول هو الجغرافيا المصرية بوادي النيل - النهر وضفافه - حيث تتركز الحياة في حصار حزام من الرمال يحوط كل شيء: الناس والنهر والوادي، وذلك يخلق مجتمعا مكتفيا بذاته وليس بالضرورة منكفئا على ذاته.

● العامل الثاني هو الحضارة الفرعونية القديمة، وهنا فإن مصر تخلط أحيانا بين «الميراث» و«التراث».

«الميراث» تركة خلّفها وراءه تاريخ مضى.

في حين أن «التراث» ثقافة وضعها على الأرض تاريخ حي.

● والعامل الثالث هو ضرورة وقوة الدولة المركزية التي تدير مسئولية التعامل مع الجوار وراء الصحاري المحيطة بالصراع أو بالغزو.

....

....

تذكر أنني في زمن سبق عرضت عليه أنه «عندما تخرج مصر من الدائرة المحكمة والمغلقة للإرث، وتتجه إلى فكرة التراث فإنها تتوه في المحيط الإسلامي الكبير وتتصور نفسها مركزه بنفوذ الأزهر، وقلبه بدفاعها عن موطنه ضد الصليبيين وفرسانهم أو ضد التتار وسيوفهم.

وهنا تلتبس الأمور في مصر بالخلط بين الإسلام والعروبة.

ننسى كلنا - أو بعضنا - في مصر أن العرب لم يصنعوا حضارة، وإنما الإسلام هو الذي صنع الحضارة عندما التقت روافد ثقافية عظيمة من مصر والشام وفارس والهند وبيزنطة وخلقت مجمعا حضاريا ليس له مثيل في زمانه.

وسط هذا المحيط الحضاري ظهرت الأمة العربية متفردة - ولا أقول مميزة - بلغة واحدة وتاريخ مشترك وجغرافيا ممتدة، وتواصل إنساني لم ينقطع، وأصبحت لها هوية قومية تستحق لدواع من المستقبل وليس من الماضي أن نقول في شأنها ويجد «أنها إذا لم تكن موجودة كحقيقة فإن المطلوب اختراعها كضرورة».

وإذن فنحن فعلا أمام التباس يتأتى من أننا أمام واقع قومي، ثم إن الحضارة الإسلامية هي المحتوى الحضاري له.

(كان الزعيم الوفدي القبطي العظيم «مكرم عبيد» أبلغ معبر عن ذلك بمقولته المشهورة «إنه مسلم وطنا وقبطي دينا»).

وإذا كانت تلك إشكالية يتعين على العرب جميعا أن يجدوا حلا لها - فإنها في مصر مشكلة مستعصية أكثر من غيرها نظرا لما عرضته عليك من أسباب.

....

يزيد على هذه العوامل الثلاثة عامل رابع هو سبق مصر إلى الاتصال بأوروبا (وهي المقر المعاصر للحضارة الإنسانية) وقد نؤرخ لهذا السبق بحملة «نابليون» على مصر، وقد نؤرخ له بمشروع «محمد علي» حتى وإن كان مشروعه في صميمه عثمانيا أكثر منه مصريا أو عربيا. والنقطة المهمة هنا أن «محمد علي» في سبيل تحقيق مشروعه العثماني أسس دولة حديثة في مصر سبقت غيرها في المنطقة، وكان سحر الدولة الحديثة هو الذي جعل كتلا كبيرة من الشعب المصري تنسى أنها لم تعش في أي عصر من العصور داخل واديها وإلا تحوّل الوادي إلى سجن تحاصره رمال الصحراء.

....

واستطردت ونحن في قصر القبة ١٩٩٩ أذكّر «معمر القذافي» بما عرضته عليه من قبل قائلا:

«إن مصر خرجت في العصور القديمة من الوادي بحافز الإمبراطورية - لكنها لم تلبث أن عرفت بالتجربة أن الجغرافيا تملي عليها أن تكون جزءا مما حولها موصولا به ومنسجما معه، وهكذا تعايشت مصر مع الزمان اليوناني، والروماني، ثم عاشت - ولم تتعايش فقط - في صميم عصرها الإسلامي، وحين أخذت اللغة العربية وشاركت في إقامة حضارة مشتركة تفاعلت فيها ثقافات المنطقة التي قبلت بالإسلام حتى وإن لم تقبل باللغة العربية، فإن هذه العملية من الصهر التاريخي جعلتها لأكثر من أربعة عشر قرنا كيانا منسجما مع عالم محيط به في السلطة وفي التشريع وفي الفن والأدب، وفي الصلات المفتوحة بين الناس على مدى اتساع جغرافي واضح، لديه بالإضافة إلى هذا كله أمنه المشترك (التتار - الصليبيين - الاستعمار - إسرائيل .. إلى آخره).

ولقد حاول بعض الناس أن يعودوا بالهوية المصرية إلى العصر الفرعوني، ثم وجدوا أن الإرث غير التراث. ثم حاول بعضهم أن يجدوا لمصر هوية أوروبية، ولكنهم أدركوا أن قضايا الثقافة أعمق كثيرا من تقابل الشواطئ، وأن البحر الأبيض نافذة عريضة لمصر وليس بابا.

وعلى أي حال فإن مجمل كل تلك التصورات - وهي ليست جميعا أوهاما بلا أساس - تغري مصر بعض المرات - خصوصا في ظروف التراجع - بالانكماش داخل محلية ضيقة.

....

تلك كلها خطوط وعلامات من الإطار المحيط بحياة مصر.

ثم تجيء أنت وتنتقد أنور السادات.

وبحساسية الانكماش في محلية ضيقة يظن بعض الناس أن نقدك له موجه إلى البلد ذاته، إلى مصر.

أضف إلى ذلك أن هناك كتلة مؤثرة من الشعب المصري ترى أن ما فعله أنور السادات، سواء كان صوابا أو خطأ، سواء كان في استطاعته بلوغ ما هو أكثر أو لم يكن، سواء أحسن استغلال نتائج حرب أكتوبر أو لم يحسن - أراح مصر ولو عصبيا من مأزق الارتهان لضرورات السلاح خصوصا وقد اختلفت الظروف الدولية.

وفي النتيجة فإن استثارة النعرات الوطنية - المحلية إذا شئت - سهلة في مصر.

وهكذا فإنك ما أن تنتقد أنور السادات حتى يشعر بعض الناس في مصر فعلا بنوع من العصبية.

والآن «أرجوك لا تتضايق إذا قلت لك أنني

كانت خشيته أن يصل التصعيد في العقاب إلى الحالة العراقية. ومع أنه - أي القذافي - يرى أن الحالة العراقية مختلفة عن الحالة الليبية، فإن القوة - في وسائل الإعلام قبل أدوات السلاح - تستطيع إعادة ترتيب الأشكال والصور بحيث تتماثل الحالة الليبية مع الحالة العراقية





أستطيع انتقاد أنور السادات فى مصر دون حرج، وأما أنت فلا بد لك أن تحاذر كى لا توقظ كوامن عصبية خامدة، لأن الجمرة تحت الرماد كما يقولون !».

كان «معمر القذافى» يسمعنى، وأحسست أننى أطلت لكننى أردت - من قلبى - أن أضعه - مرة أخرى - فى صورة فكرى حرصا على اعتبارات كثيرة تتجاوز هوى الأفراد وتتخطى مزالق السياسة .

وسكت .. سكت طويلا، ثم عاد يقول بحيرة :

- «إن السادات ساعد فى العدوان على ليبيا وكان فى نفس الدائرة مع ريجان ومع تاتشر .

لدينا الأدلة، ولا أريد أن أنكأ جراحا قديمة، لكننا نعرف أن ضرب ليبيا بالطائرات الأمريكية - وبمعاونة بريطانية - سنة ١٩٨٦ كان عملا شجعت عليه وشاركت فيه بشكل أو آخر أطراف عربية بينها السادات.

وكان ذلك قبل «لوكربى» .

[جرى ضرب ليبيا من الجو يوم ١٤ أبريل ١٩٨٦، وسقطت الطائرة الأمريكية فوق قرية لوكربى الاسكتلندية فى ديسمبر ١٩٨٨].

كانوا يقصدوننا دائما ولا زالوا . لقد ضربوا بيتى وقصدوا إلى قتلى، وأصابوا أفرادا من عائلتى !».

وقلت : «أعرف» .

قال : «وهُم فى حكاية «لوكربى» من وقتها وحتى الآن - أكثر من عشر سنوات - لا يريدون تحقيقا عادلا، ولكن يريدون الإيقاع بنا».

قلت : «وهنا أيضا أعرف، ولعلى لا أفاجئك بشىء لا تعرفه إذا أضفت أننى فى لندن ذات مرة سمعت مارجريت تاتشر تقول صراحة أنها لا تريد اثنين من ضباط المخابرات الليبية للتحقيق معهما، ولكنها تريدك أنت شخصيا فى القفص» !».

قال : «شريرة هذه المرأة» !

وقلت : «لا أعرف إذا كانت شريرة أم طيبة، لكنه فى صراعات الشعوب والأمم يكون الحَكَم هو إمكانيات القوة وليس إجراءات العدل !

ومع ذلك قل لى : «أين نحن الآن فى أزمة لوكربى» !».

وقال «معمر القذافى» : «إننا نبذل كل جهد ممكن ونمشى إلى نهاية الطريق حتى نصل إلى حل . والحصار على ليبيا يؤلم، ومع أنه ليس فى شدة الحصار على العراق لكن الشعب الليبى يعانى» .

وسكت .

وأحسست دون أن يقولها صراحة أن «تداعى العوارض المتشابهة فى الظروف المتماثلة» (Syndrome) يضغط عليه، فهو بعد الحصار على ليبيا كما جرت ممارسته طوال السنوات الأخيرة - أمام إنذار أمريكى بريطانى بالتصعيد إذا لم يستجب ويسلم المتهمين الليبيين («عبد الباسط على المقراحى» و«الأمين خليفة فحيمة») لمحاكمة خارج ليبيا .

وخشيته أن يصل التصعيد فى العقاب إلى الحالة العراقية . ومع أنه يرى أن الحالة العراقية مختلفة عن الحالة الليبية فإن القوة - فى وسائل الإعلام قبل أدوات السلاح - تستطيع إعادة ترتيب الأشكال والصور بحيث تتماثل الحالة الليبية مع الحالة العراقية .

....

كان يدرك أن الحالة العراقية قد استجابت تماما لطلبات مجلس الأمن، ولكن الذرائع وجدت لنفسها فجوات حتى وإن كانت بخداع البصر .

كان مطلوب من العراق شيئين :

أولا - أن ينسحب من الكويت (وقد فعل) .

ثانيا - أن لا يكون لديه من أسلحة الدمار الشامل ما يهدد جيرانه (ولم يعد لدى العراق شىء يهدد به جيرانه أو جواره) .

لكنه الإصرار على إيذاء العرب وإهانتهم (هكذا قال) .

ولقد اتكأ الأمريكان (هكذا تقديره) على ما يظهره جيران العراق من «ادعاء الخوف المستمر من خطره»، واعتبروا أن قرارات مجلس الأمن لم تنفذ بالكامل حتى الآن .

وفى حالته (معمر القذافى) «فهو يعلم أن قواته لم تخرج من حدوده وأنه ليس مطالبا بالانسحاب من شىء، وكذلك يعرف أن جيرانه لا يعتبرونه خطرا يهدد أمنهم، ولا يدَّعون عليه بشىء من ذلك، ولكن من يضمن ؟»

«فى حالته - وبرغم كل الحقائق - فإن اصطناع الذرائع سهل إذا كانت لدى الطرف الآخر وسائل الإعلام يصور بها الأمور على هواه، وأدوات السلاح يستعملها دون كوابح فى وقت تراجعت فيه سلطة ما سمى بـ «الشرعية الدولية» .».

أمريكا - والكل يرى وليس هو وحده - انفردت بالأمم المتحدة . وأخذت مجلس الأمن بكامله فى طاعتها . والمجلس لم يعد يجتمع علنا، وإنما أصبح يجرى مشاورات داخلية تديرها واشنطن وتوجهها حسب مطالبها وتقدمها للدنيا باعتبارها إرادة مجلس الأمن !

وحتى بدون مجلس الأمن - إرادة أو شهادة - فإن الولايات المتحدة تستطيع أن تتصرف بعيدا عنه إذا رأت لمثل ذلك ضرورة. تتصرف كما تشاء، وتبرر كما يحلو لها، وعندما تحتاج ففى استطاعتها أى وقت أن تعتمد على «محلل» بريطانى - سواء كان اسمه «مارجريت تاتشر» فى عهد «ريجان»، أو «جون ماجور» فى عهد «بوش»، أو «تونى بلير» فى عهد «كلينتون» !

«كوفى عنان رجل طيِّب» .

قالها «معمر القذافى» وهو مرة أخرى يستند على عكازه ويميل ناحيتى ... ثم يسأل :

- «هل تعرفه ؟»

قلت :

- «سألنى عنك عندما لقيته على العشاء - وكنا على مقعدين متجاورين - وكان ذلك عندما زار القاهرة رسميا قبل أكثر من عام، وقال له وزير الخارجية «عمرو موسى» (بذكائه المتوهج وبروحه المرحة) - «ها هو بجوارك رجل عرف القذافى من اللحظة الأولى، فاسأله إذا كنت تريد» !».

وقاطعنى «القذافى» سائلا :

- «وماذا قلت عنى لكوفى عنان ؟».

ورددت :

- «قلت له الحقيقة - قلت له «سيادة الأمين العام إن معلوماتى المباشرة عن القذافى ترجع إلى ربع قرن - ولا أعرف إذا كانت الآن تفيدك» ؟».

سألنى «القذافى» :

- «وهل ترانى تغيرت ؟».

قلت ضاحكا : «هذا ما أحاول اكتشافه الآن، ولذلك أرجوك أن نعود إلى أزمة (لوكربى)».

....

[كانت التغيرات التى لمحتها لأول وهلة أن السنين تركت آثارها خطوطا عميقة على صفحة وجهه تعكس توترات الأيام وشدائد التجربة . وكانت عيناه الآن أكثر حذرا فى النظر إلى ما حولهما، وكانت لهجة حديثه كما عرفتها فى السابق ناطقة بنوع من الغربة، لكنه بدا لى أن الغربة الآن فيها نبرة من التوجس، وربما أن الأيام علمته أن مكامن الخطر ليست دائما حيث يتوقعها !

كان التغير الآخر الذى لمحته بانطباع سريع هو اختلاف ملابسه : فهى الآن أكثر رقة وانسجاما، الحذاء «موكاسان» إيطالى خفيف وأنيق، والبنطلون والقميص فوقه قطن مصنوع فى إنجلترا غالبا، والبلوفر فرنسى بلونه الأحمر وكذلك علامة مصنعه المشهورة، والشال حول العنق يشير إلى إيطاليا، لكن عباءة الشعر الشفافة فى الغالب عربية].

....

....

وقال «القذافى» مستأنفا كلامه من حيث وصلنا :

- «كوفى عنان رجل أمين وأنا أثق به .

معه أثق فى رجلين : «نلسون مانديلا» زعيم أفريقى شريف، وثائر لم يتنكر لمبادئه وهو فى الحكم .

الرجل الثانى الذى أثق فيه هو الأمير «عبد الله» ولى عهد السعودية - أعطانى كلمة وأنا أثق فيه».

....

....

[قلت لـ «معمر القذافى» : «إن الأمير «عبد الله» أعطانى الإحساس بأنه مهتم بالفعل، وكان ذلك عندما دعانى إلى فنجان قهوة حيث كان يقيم أثناء زيارته الرسمية لبريطانيا فى شهر أكتوبر الأخير . إن الأمير «عبد الله» فى ذلك اللقاء - وهو أول لقاء بيننا - روى لى أنه قبل أن يلقانى بساعات كان يتحدث مع «تونى بلير» رئيس وزراء بريطانيا فى شأن ليبيا والعقوبات المفروضة عليها سبع سنوات حتى الآن !»

وحكى لى الأمير «عبد الله» أنه قال لرئيس وزراء بريطانيا أنه «لا يخشى من استمرار الحصار على ليبيا فقط، ولكنه يخشى - كذلك - على هيبة الأمم المتحدة . ذلك أن زعماء أفريقيا قرروا تحدى الحصار الأمريكى، وراح كل واحد منهم يركب طائرته يوما قاصدا إلى زيارة «القذافى» تحديا للحظر . وإذا استمر هذا الحال فماذا تفعل واشنطن ولندن - هل تقومان بإسقاط كل طائرة تحمل رئيسا أفريقيا يكسر الحظر، أو تسكت الدولتان على هيبة مجلس الأمن تتبعثر كل يوم فى الهواء ؟».

وطبقا لروايته - وهو بالتأكيد صادق - قال ولى العهد السعودى لرئيس الوزراء البريطانى : «هذا وضع لم يعد قابلا للاستمرار ولا بد من حل يضع نهاية له».

وطبقا لتقدير ولى العهد السعودى فإن «تونى بلير» أبدى تفهما، وبعد نقاش طال نصف ساعة طلب منه (من الأمير عبد الله) أن يستعمل نفوذه ويساعد].

....

....

[ومهما يكن - وهذه الآن عودة من حديثى مع ولى العهد السعودى فى لندن إلى قصر القبة فى القاهرة حيث كان حديثى مع «معمر القذافى» - فقد كان ذلك - ومن أول «نلسون مانديلا» وحتى «عبد الله بن عبد العزيز» شوطا بعيدا بعيدا جدا تقاس عليه ثقة «القذافى» بالناس وبالأفكار والمؤسسات .

لقد ذهب إلى الأبعد جغرافيا - أقصى الجنوب من أفريقيا السوداء ... «نلسون مانديلا» .

وقد ذهب إلى الأبعد فكريا - أقصى اليمين - تقليديا - فى العالم العربى ... المملكة العربية السعودية ... ولى عهدها الأمير «عبد الله» .

ثم ذهب أخيرا إلى أبعد الشواطئ وراء

**لم أفاجأ حين قال لى
جيسكار ديستان: نحن نعرف
أن المفاوضين لشراء طائرات «الميراج»
مصريون، وأن جوازاتهم مستعارة، وأن الطائرات
ليست مطلوبة لليبيا وإنما لكم.
وفرنسا تتفهم الظروف
لكننا نطلب الحذر**



الأطلنطي، إلى نيويورك - الأمم المتحدة - «كوفي عنان» - وهو القائل أكثر من مرة أن الأمم المتحدة هي الولايات المتحدة متنكرة في زي آخر!

سفر طويل في كل الاتجاهات متعارضا تماما مع بوصلته الأصلية الأولى].

....

....

[وقد أضيف إلى هذا السفر الطويل ملحقا بملاحظة قد تكون مهمة - إلى جانب جهود «نلسون مانديلا» و«عبد الله بن عبد العزيز» و«كوفي عنان» - وهي أن واحدا من أكبر دوافع الوصول إلى حل في شأن قضية «لوكربي» هو أن جنوب أوروبا المتوسطي (فرنسا وإيطاليا وأسبانيا) زاد تشوقه إلى شمال أفريقيا المتوسطي (المغرب والجزائر وتونس وليبيا).

وأوروبا المتوسطية تريد عودة إلى نوع ما كان ذات يوم، حتى وإن كانت عودة مختلفة - بين الشاطئين شمال وجنوب البحر الأبيض.

وبعبارة أصرح فإن هناك شوقا فرنسيا إلى المغرب والجزائر - وتونس إذا أمكن.

كما أن هناك شوقا إيطاليا إلى ليبيا.

ثم إن هناك شوقاً أسبانيًا يرش مشاعره على رمال الشاطئ الشمالي لأفريقيا حيث وجد فرصة.

ومن الضروري للولايات المتحدة أن تترك لحلفائها مجالا.

وأظن أن «معمر القذافي» كان يريد شاطئا عربيا يرسو عليه، لكنه لم يجد، ولقد تصور أنه يستطيع أن يلجأ إلى غابات الجنوب في أفريقيا بديلا عن شواطئ الشمال، لكن الهجرة إلى الجنوب لم تنجح لأنها ضد التاريخ - بصرف النظر عن قرب الجغرافيا.

وهكذا فإن «القذافي» حتى وإن لم يقصد - وحتى إن لم يشعر - عاد إلى الشواطئ التي تتدافع أمواجها نحوه - وبالطبع ليس مُهمًا أن يعرف الناس مصادر الحركة إذا كان فعلها محسوسا - وذلك هو الحال في حركة الزلازل مثلا!].

....

كنا ما زلنا في صالون جناحه في قصر القبة، وانتقل «القذافي» إلى ما تم الاتفاق عليه في شأن أزمة «لوكربي».

ولاحظت، وكان ينبغي أن ألاحظ، أنه عندما وصل «معمر القذافي» في حديثه إلى هذا الموضوع - فإن ميله على عكازه ناحيتي زاد، وفي نفس الوقت فإن صوته انخفض إلى درجة الهمس.

ولم أعلق وإنما أصخت السمع أدقق في تفاصيل ما يقول.

....

[وعندما تصل هذه السطور إلى قرائها فإن ما قاله «القذافي» عن النتائج التي توصل إليها المهتمون بحل أزمة «لوكربي»، وخصوصا الثلاثة المعتمدين من جانبه: «نلسون مانديلا» - و«عبد الله بن عبد العزيز» - و«كوفي عنان» - لم يعد سراً على أحد.

● سوف يجري - وقد جرى فعلا - تسليم الليبيين المتهمين من قبَل الولايات المتحدة وبريطانيا - بنسف طائرة شركة «بان أمريكان» فوق قرية لوكربي الأسكتلندية فجر يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ - إلى محاكمة دولية في لاهاي.

● وسوف تجري المحاكمة طبقا للقانون الأسكتلندي، وهو قانون الدولة التي انفجرت الطائرة وسقطت على أرضها.

● ولقد تأكد له وكتابيا أن التحقيق مقصور على الرجلين دون أن يحاول أحد بسبق الإصرار اتخاذهما جسرا إلى ما وراءهما أو من فوقهما.

● ولقد أخذ كل الضمانات اللازمة لعدالة التحقيق والمحاكمة، وكذلك عن شروط تنفيذ العقوبة إذا ما حدث وأدين الرجلان.

● وهو واثق من براءتهما لأنه يعرف الحقيقة. كذلك فإن ما سمعه من المحامين الذين اطلعوا على ملفات التحقيق السابقة - ضعيف في الدليل وفي السند ولا يمكن لمحكمة من أي نوع أن تأخذ بشيء منه.

● «والأهم أنه فور تسليم الرجلين في «لاهاي» تُعلَّق العقوبات على ليبيا - وقد عُلِّقت فعلا - وهذا يعني عمليا رفع العقوبات نهائيا، لأنه إذا أرادت الولايات المتحدة لسبب ما إعادة فرضها فلن تجد في مجلس الأمن أصواتا (تسعة أصوات لازمة للنصاب) تؤيد إعادة فرضها (كذلك جاء في إيضاحات دولية قُدِّمت إلى الحكومة الليبية)].

....

....

وحين كان لقاؤنا في قصر القبة ذلك المساء (١٣ مارس ١٩٩٩) فقد كانت هناك - ما تزال - نقطتان يتراوح تفكيره حولهما بين الشك واليقين:

□□ النقطة الأولى: أنه كان يريد أن تجري المحاكمة طبق القانون الاسكتلندي نعم - ولكن بواسطة قضاة من هولندا.

ولكن الذي حدث أن المقترحات النهائية التي قُدِّمَت إليه في الثانية الأخيرة أخذت برأي أنه القانون الاسكتلندي وقضاة من اسكتلندا - مع الموافقة على أن تكون المحاكمة في هولندا...

وبدا قلقا من أنه لم يحصل - وحتى الثانية الأخيرة - على قضاة من هولندا.

ولكنه طمأن نفسه: «بأنه ربما كان ذلك خيرا لأن قضاة هولنديين قد يرغبون في تأكيد حيادهم ونزاهتهم عن طريق التشدد بأكثر مما يقتضيه القانون حتى لا يتهموا بالممالأة».

□□ والنقطة الثانية: أنه كان يريد في حالة صدور حكم بالإدانة - والسجن - أن يكون قضاء العقوبة في اسكتلندا نعم - ولكن تحت حماية وضمانة الأمم المتحدة.

وكانت الفكرة التي طرحت نفسها عليه أن تشتري ليبيا بيتا في مكان ما من اسكتلندا وأن يتحوَّل هذا البيت إلى سجن، وأن تُرفع فوقه على نحو ما إشارة تومئ إلى تبعيته للمنظمة الدولية، وبالطبع فإنه من المستحسن أن تكون الإشارة علما أزرق اللون من أعلام الأمم المتحدة!

....

....

وطال الحديث، وطال، وتشعب إلى كل اتجاه وموقع.

وكانت عقارب الساعة تزحف إلى ما بعد منتصف الليل.

وقلت له: «طال حديثنا، فهل أستأذن منك ثم نستأنف مرة أخرى؟»

وسألني إذا كنت أذهب معه إلى الفيوم غدا، فقد أنهى ما لديه في القاهرة وموعده الباقي مع جماهير تنتظره هناك.

واستأذنته أن يذهب إلى الذين ينتظرونه ولا ينتظرون غيره، وليكن موعدنا لاستئناف حديثنا الطويل في موعد نتفق عليه فيما بعد.

وقال: «عندنا.. لا بد أن تجيء إلى ليبيا».

[٢]

وعندما خرجت من قصر القبة عائدا إلى بيتي كانت القاهرة ما زالت ساهرة ومزدحمة حتى في هذا الوقت قرب الواحدة صباحا.

وكانت ذاكرتي مثل القاهرة ساهرة يقظى ومزدحمة بالمواقف والمشاهد من ماضي معرفتي بـ«معمر القذافي».

كان اعتقادي أنه لو تعاون الاثنان - السادات والقذافي - معا بقلب صادق وعقل متفتح، لكانت تلك خدمة كبرى للمعركة القادمة ولمستقبل العمل العربي بعدها، خصوصا إذا ساعدت الظروف على قيام نوع مؤسسي من صلة القرب بين البلدين



وعلاقتي به من سنة ١٩٦٩ وحتى أكتوبر ١٩٧٣، حين كان آخر لقاء بيننا تلك الأيام، ثم طرأ بعد أسابيع منه ما جعلني أقرر أن أبتعد تماما عن الساحات التي يتحرك أو يتواجد فيها صديق قديم، لقيته أول مرة في ظروف مشهودة!

كانت أول مرة ألقاه فيها بعد ساعات من قيام الثورة في ليبيا (ثورة الفاتح العظيم كما يسميها الإعلام المصري هذه الأيام!)

كانت أنباء الثورة في ليبيا قد أعلنت للعالم الخارجي من إذاعات طرابلس وبنغازي ضحى يوم أول سبتمبر ١٩٦٩.

وكان الإعلان مصحوبا بالبيان الأول للثورة على مكتبي حوالي الساعة العاشرة صباحا، واتصلت بـ«جمال عبد الناصر» لكنه كان قد دخل إلى قاعة اجتماع طارئ لدول المواجهة (كما كانت تسمى في ذلك الوقت، وكانت تضم مصر وسوريا والعراق والأردن) - وكان المطلوب من هذه الدول تنسيق العمل العسكري على الجبهة الشرقية استعدادا للمعركة القادمة مع إسرائيل.

وبعد دقائق اتصل بي «جمال عبد الناصر» لأن الاجتماع الذي وصلته أنباء الثورة في ليبيا انشغل بالحدث الطارئ الذي فرض نفسه فوق جدول الأعمال المعد سلفا، خصوصا أن المجتمعين كانوا في أجواء تساؤل يتحرق إلى معرفة اتجاه الثورة في ليبيا: وهل هو قومي (أي أقرب إلى القاهرة)، أم هو بعثي (أي أقرب إلى حزب البعث بصرف النظر عن انقسامه إلى فريقين بين بغداد ودمشق).

وحاول المجتمعون في إطار دول المواجهة لدقائق معدودة أن يواصلوا مناقشاتهم على أساس جدول أعمالهم، ولكن المحاولة كانت عبثية لأن إلحاح الحدث الليبي فرض نفسه قبل جدول الأعمال، وهكذا قرر المؤتمر أن يَنْفضَّ نصف ساعة ثم يعود إلى استئناف جلسته.

وسألني «جمال عبد الناصر» عندما اتصل بي عما أستطيع استقراءه من بيان إعلان الثورة في طرابلس، وكان سؤاله يحمل نبرة من طلب التدقيق شاغلها ومغزاها في النهاية: «أهُمَّ (يقصد القائمين بالثورة في ليبيا) أقرب إلى القاهرة، أم أقرب إلى البعث، وأي بعث منهما؟»

وقلت أن استقرائي للبيان أنهم أقرب إلى القاهرة، ذلك أنه بصرف النظر عن العبارات الإنشائية في النص فإن ترتيب شعار الحرية والاشتراكية والوحدة جاء متفقا مع الترتيب الذي يُستعمَل في القاهرة، ومخالفا للترتيب الذي يستعمله حزب البعث والذي ترد فيه الوحدة قبل الاشتراكية وقبل الحرية.

وكان رأي «جمال عبد الناصر» أنني ربما أتعسَّف في دلالة ترتيب الكلمات، «لأن الذي يقوم بما قام به هؤلاء الضباط في ليبيا لن يتوقف طويلا أمام مواضع الشعارات. وحتى إذا جاءت الشعارات المعلنة في طرابلس متوافقة مع الترتيب الذي تستعمله القاهرة فمن الاحتمال أن تكون تلك محض مصادفة».

وقلت: «ربما - ولكنني أشعر في نبرة البيان العامة بما يعزز استنتاجي».

وكان اعتقادي أن «جمال عبد الناصر» يميل إلى استنتاجي سواء لأنه رأى مثلما رأيت، أو لأن ذلك كان مناه، فقد كانت قوى الأمة المقاتلة ذلك الوقت وسط معارك حرب

الاستنزاف المستمرة على الجبهة المصرية - فى حاجة إلى دعم معنوى من الحركة القومية العامة فى الوطن العربى .

....

....

وعاد «جمال عبد الناصر» إلى اجتماع دول المواجهة (وقد تحوَّل إلى اجتماع مغلق)، وعدت إلى متابعة تطورات ما يجرى فى ليبيا، ولم يكن هناك من مصدر غير إذاعة طرابلس وما تعلنه ومعظمه إنشائى حماسى، ثم وكالات الأنباء العالمية وما تنقله وقد كان ضئيلا يعاد تكراره، وكان كل ما يصدر عن الإذاعات وما تحمله الوكالات أقل بكثير من مستوى الحدث وهو خطير فى موازين الشرق الأوسط .

- ثورة فى ليبيا وهى موطن كنز نفطى كبير، وأهم ميزاته أنه نفط من النوع الخفيف تتدفق منابعه مباشرة نحو البحر الأبيض .

- وثورة فى ليبيا وهى شاطئ بامتداد البحر الأبيض - ثلاثة آلاف كيلو متر تشمل منطقة القلب على شاطئه الجنوبى ومركزها خليج «سرت» .

- وثورة فى ليبيا وهناك قواعد بريطانية (فى «العظم»)، وهناك قواعد أمريكية فى طرابلس «هويلس»، وهذه القواعد جزء متصل بخطط وعمليات الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض .

وكانت الأسئلة الملحة مع مرور الساعات : كيف نجحت الثورة ؟ - وإلى أى مدى يتعرض لها الغرب ؟ - وكيف يتصرف القائمون بها إزاء ما يتهددهم من خطر ؟ - وهل هم منتبهون إلى حجم هذا الخطر ؟ وعشرات الأسئلة الأخرى !

....

....

فى الساعة الثالثة والربع عاد «جمال عبد الناصر» إلى الاتصال بى يقول أن ضابطا ممثلا لقيادة الثورة فى ليبيا قصد القنصلية المصرية فى بنغازى وأبلغ رسالة مفادها أن قيادة الثورة فى ليبيا تريد إقامة اتصال سريع مع القاهرة، والهدف منه بحث التطورات المحتملة . وتقديرهم أن الثورة نجحت وتسيطر على كل أنحاء ليبيا، لكن هناك قواعد بريطانية وأمريكية والمخاطر قائمة .

وقال لى «جمال عبد الناصر» أن هناك الآن اتصالات جارية بقصد الاتفاق : إما على مجيء وفد من الثوار إلى القاهرة، أو على ذهاب وفد مصرى إلى ليبيا يقابل ممثلا أو ممثلين لقيادة الثورة لبحث الاحتمالات.

....

....

وفى الساعة الخامسة والربع بعد الظهر عاد «جمال عبد الناصر» إلى الاتصال بى وأتانى صوته على التليفون ضاحكا قبل أن يقول كلمة واحدة، وتساءلت، وكان قوله :

- «يظهر أنك سوف تقضى ليلتك فى بنغازى - لأنهم طلبوا حضورك» ؟

وقلت مستغربا : «من هُم ؟».

وقال : «قيادة الثورة هناك، اتفقوا على أفضلية أن يسافر وفد من هنا إليهم، فليس بينهم من يستطيع أن يترك «البلد» فى هذه الظروف».

وأضاف «جمال عبد الناصر» : «إنهم طلبوك بالاسم، وهُم يعرفون صلتك بى، كما أنهم يقرأون مقالاتك أو يسمعونها من الإذاعات، ورأيى أن تذهب .

إننا سوف نبعث بمندوب ينسق مسائل الأمن معهم، ولكنى رحبت بطلبهم لك ورأيى أن تذهب وتعود بسرعة وتعطينى تقييما سياسيا».

وقلت متحمسا : «إنه بصرف النظر عن أى شيء فأنا أريد أن أذهب - مادامت هناك فرصة - كصحفى بالدرجة الأولى» - وتساءلت «هل أستطيع أن آخذ مصورا من الأهرام معى ؟».

وقال «جمال عبد الناصر» الذى كان يتبرم أحيانا من «هَوَس» صحفى يجده لا يفارقنى فى كل الأوقات : «خذ من تشاء» .

وكان رفيقى من الأهرام صديقى وكبير مصوريه فى ذلك الوقت : «محمد يوسف» .

....

....

فى الساعة السابعة والنصف مساء وجدت نفسى على متن طائرة حربية مصرية، تقلع من مطار «ألماظة» فى اتجاه الحدود الليبية ... وتقاطعها عند «طبرق» رسالة من قاعدة «العظم» البريطانية تسألها عن هويتها وعن اتجاهها وعن حمولتها - وترد الطائرة المصرية على الأسئلة بطريقة عامة تريد كسب دقائق تبدأ بعدها الهبوط فى مطار «طبرق» .

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف وجدت نفسى فى القنصلية المصرية فى بنغازى وقيل لى أن رئيس مجلس قيادة الثورة قادم إلى لقائى فيها .

وبعد قرابة نصف الساعة أقبل جمع من الضباط الشبان، أربعة أو خمسة، وتقدم أحدهم نحوى قائلا : «لا أصدق أنك هنا» .

ثم قدم نفسه «معمر القذافى» (نطقها «الجذافى») .

وكان سؤاله الأول : «كيف حال الرئيس جمال ؟ طمئنا عليه» .

وقلت له : «إن الرئيس جمال هو الذى يريد أن يطمئن عليكم ...»

وقال : «اقترح بعض الإخوان أن نتصل به قبل قيام الثورة لكنى آثرت أن لا نفعل . كنا سوف نحرجه بمجرد إخطاره . وكنا إذا لا سمح الله فشلنا فيما اعتزمناه - سوف نلقى عليه المسئولية . ولذلك فضلنا أن نفعل ما هيأنا أنفسنا له ونفاجئه بالنجاح إذا تحقق».

....

....

وحتى الساعة السادسة صباحا كنت ما أزال أستمع إليه، وأسأله ويجيب، وأحاوره ويناقش .

ثم قلت فى النهاية : «إننى الآن عائد بالطائرة إلى القاهرة» .

وكان فى رأسى كثير مما أريد أن أحكيه لـ «جمال عبد الناصر» .

وكان فى عدسة صديقى «محمد يوسف» ألبوم كامل من صور قائد الثورة الليبية ورفاقه .

وعدت إلى القاهرة قبل الظهر، وكانت هناك رسالة من «جمال عبد الناصر» بأن أتوجه إليه فى بيته مباشرة .

ودخلت عليه وكانت الأسئلة تطل من عينيه قبل أن تجرى على لسانه، وقلت له :

- «عندك مشكلة» .

وسألنى إذا كنت وجدت لديهم ميولا حزبية أو عقائدية من أى لون ؟ - وقلت له : «على العكس ... مشكلتك أنهم رجالك» .

وأحسست أنه استراح بأعصابه ولم يسترح بفكره، وسألنى : «أين المشكلة إذن؟»

وقلت : «لأنك الآن أمام شباب برىء إلى درجة محرجة، وشباب رومانسى إلى درجة خطرة» .

وكان فى شوق إلى التفاصيل .

وجلسنا لحديث متدفق وغزير أكثر من أربع ساعات .

[٤]

ولا أريد أن أطيل فى روايات الماضى وحكاياته . لكنى أتوقف عند بعض المشاهد فى السنة التى عاشها «جمال عبد الناصر» مع الثورة الليبية من سبتمبر ١٩٦٩ إلى سبتمبر ١٩٧٠ .

كانت سنة خصبة بمقدار ما كانت سنة مثيرة .

فى أكتوبر ١٩٦٩ - أى بعد شهر من الثورة - جاء «معمر القذافى» إلى القاهرة للقاء مباشر وجها لوجه مع «جمال عبد الناصر»، وكان مشهد اللحظة الأولى من اللقاء مؤثرا من الناحية العاطفية - ومع ذلك فإن الكلام الذى دار بعد اللحظة الأولى كان فى صميم أزمة الشرق الأوسط .

ولم يكن لدى «جمال عبد الناصر» تردد فى الإجابة عما سأله فيه «معمر القذافى»، وإنما كانت إجاباته واضحة :

● «لا تقتربوا من امتيازات البترول فى ليبيا الآن - ليس ذلك هو الوقت المناسب .

● لا تحاول التسرع بإلغاء اتفاقيات القواعد فى ليبيا - ذلك الآن استفزاز لا تحتاجون إليه . إنكم الآن بمقتضى المعاهدات على وشك التفاوض لتجديد هذه الاتفاقيات سنة ١٩٧٠ - ادخلوا إلى التفاوض عندما تجيء المهلة المطلوبة للشروع فيه وهى ستة شهور قبل انتهاء الاتفاقيات، وعندها تطلب ما تشاء !

● لا داعى لأى حديث عن الوحدة الآن بين مصر وليبيا - تلك مسألة يُستحسن تأجيلها إلى ما بعد مواجهة مشكلة القواعد الأمريكية والبريطانية، وربما أفضل إلى ما بعد المعركة .

● هناك كثير تستطيعون المشاركة فيه ضمن الجهد العسكرى العربى، ولكنى أفضل أولا أن تبحثوا أموركم فى ليبيا وأن تعطوا أنفسكم فرصة للاستقرار والتركيز على خدمة الشعب الليبى حتى يمشى معكم بما هو أبعد من عواطفه القومية .

● لا تقلقوا من تأجيل إسهامكم العملى فى الجهد العسكرى، وتذكروا أن مجرد قيام الثورة فى ليبيا فى هذا الوقت بالذات إضافة إستراتيجية كبرى إلى القوة العربية».

بعد شهرين من اجتماعهما فى القاهرة أتيحت لـ «جمال عبد الناصر» و«معمر القذافى» فرصة التعرف الحقيقى كلاهما على الآخر بالصحبة المباشرة . ففى ديسمبر ١٩٦٩ كان هناك موعد لمؤتمر قمة عربى ينعقد فى الرباط يتدارس فيه الملوك والرؤساء العرب أحوال أزمتهم ومستجداتها، ودرجة استعدادهم للعمل المشترك من أجل هدفهم المعلن وهو إزالة آثار العدوان (سنة ١٩٦٧) .

وكانت تلك أول مرة يشارك فيها «معمر القذافى» فى مؤتمر على مستوى القمة عربيا أو غير عربى، ومن سوء الحظ أن تدشين دخوله إلى محيط القمة جرى فى ذلك المؤتمر لأنه كان من أسوأ مؤتمرات القمة على الإطلاق !

كان آخر اجتماع قبله على مستوى القمة هو اجتماع الخرطوم الشهير (أغسطس ١٩٦٧) وفيه - وكرد فعل لما جرى قبله (فى يونيو) - كان العالم العربى كتلة نار مشتعلة بالحماسة والإصرار على الصمود . وتحت الضغط الشعبى الجارف - وباقتراح مصرى - توزعت المهام بين الدول العربية المؤثرة فى النظام العربى على ثلاث فرق: دول المواجهة (مصر وسوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية) - ثم دول المساندة (العراق والجزائر والمغرب) - وأخيرا دول الدعم (السعودية والكويت وليبيا) . وكانت الفكرة أن تقوم كل دولة بما تهيأت له دون أن يعهد إلى طرف بمهام تتخطى قدرته عليها .



صباح يوم ٣٠ أغسطس ١٩٧٣ خرجت الجرائد المصرية كلها وعناوينها الرئيسية سوداء وحمراء بعرض الصفحات تعلن للناس أن ميثاقا للوحدة بين مصر وليبيا تم توقيعه فى «ميت أبو الكوم».. لكنى (ومع الأسف) كنت أعرف أكثر من غيرى أنه حبر على ورق!





وكان على دول الدعم (وهى فى الواقع دول البترول وفوائضه) أن تقدم لدول المواجهة سنويا حوالى ١٨٠ مليون جنيه استرلينى (وكان نصيب مصر منها مائة مليون) .

وكان أهم قرارات القمة من الناحية السياسية «لاءات الخرطوم الثلاثة» الشهيرة بأنه لا تفاوض ولا صلح ولا سلام مع إسرائيل .

....

....

وعلى مدى عامين ونصف العام كانت مصر على وجه التحديد تقود عملية مواجهة على الأرض وفى البحر والجو، وقد عُرِفت هذه المواجهة بوصف حرب الاستنزاف . وفى نفس الوقت فإن التخطيط كان يمشى حثيثا للانتقال إلى مرحلة الحركة والتقدم والإعداد لعبور قناة السويس بالقوة والعودة إلى سيناء، وكانت معارك حرب الاستنزاف مشهدا بطوليا جليلا وكريما . وكانت الخطوة التى يمكن أن تلى هذه الحرب شاغل السياسة الدولية ودافعها إلى البحث عن طريق لتسوية أزمة الشرق الأوسط قبل أن يقع الانفجار الكبير المنتظر .

وفى تلك اللحظة تقررت الدعوة إلى مؤتمر على مستوى القمة فى الرباط، لكن الأجواء لم تكن صافية سواء لأن قوى كبرى (الولايات المتحدة أولها) كانت لها تصورات ومخططات ـ أو لأن بعض القوى الإقليمية (الدول العربية المحافظة بالذات) كانت لديها مخاوف وتحفظات خصوصا بعد ثورة ليبيا التى أسقطت واحدا من الأنظمة الملكية.

....

....

وسارعت الولايات المتحدة الأمريكية قبل موعد انعقاد المؤتمر بأيام إلى التقدم بمشروع للحل يحمل اسم وزير الخارجية الأمريكى وقتها (ويليام روجرز) وكان ذلك يوم ٩ ديسمبر ١٩٦٩ (وقد رفضته مصر ولم تعلن رفضها له قبل مؤتمر القمة العربى حتى لا تحرج بذلك الرفض وقبل مؤتمر القمة دولا عربية صديقة للولايات المتحدة خصوصا من دول الدعم) (١) .

وفى طريقه إلى مؤتمر الرباط مَرَّ الملك «فيصل» ملك السعودية بالقاهرة يتباحث فى شأن جدول الأعمال مسبقا مع «جمال عبد الناصر»، وتصادف أن هيئة التسليح فى الجيش المصرى كانت فى حاجة ماسة إلى مبلغ عشرين مليون جنيه استرلينى إضافية مطلوبة لشراء نوع خاص من قوارب العبور . وتصور «جمال عبد الناصر» أنه يستطيع طلبها من الملك «فيصل»، ولكن الملك «فيصل» اعتذر مبررا اعتذاره بسببين أولهما أن المملكة تواجه أزمة سيولة مالية، والثانى أن الشعب السعودى ليس راضيا عن قبول مصر بقرار مجلس الأمن ٢٤٢، وهو يعتبر ذلك القرار ـ ٢٤٢ ـ حلا يتضمن قبولا بوجود إسرائيل، وذلك ضد مبادئ وعقائد الشعب السعودى الذى لا يقبل أساسا «بالوجود الصهيونى المحتل» .

وأظن أن «جمال عبد الناصر» لم يتضايق من الاعتذار فى حد ذاته لكنه استغرب مبرراته (وتلك قصة أخرى).



هكذا وصل الملوك والرؤساء العرب إلى العاصمة المغربية، والأفق غائم، وأروقة المؤتمر يشيع فيها نوع من التحسب للمفاجآت، ولم يكن أقلها أن هناك وافدا جديدا على القمة اسمه : «معمر القذافى» !

وقبل أن يدخل الملوك والرؤساء إلى قاعة المؤتمر كان «معمر» قد «فرقع» أول أزمة فيه.

جاء مولاى «عبد الحفيظ» رئيس الديوان الملكى المغربى يبلغ الملك «الحسن» أن القاعة جاهزة وكل شىء فيها معد لدخوله ودخول ضيوفه كى يبدأوا أعمالهم ـ وطبقا للتقاليد فى «البلاط الشريفى» فإن مولاى «عبد الحفيظ» أخذ يد الملك الممدودة إليه فقبلها . وفوجئ «معمر» بما رأى وإذا هو يصيح بأعلى صوته : «ما هذا؟ تقبيل أيادى؟ عدنا إلى عصر العبودية ... لا .. لا .. هذا شىء مرفوض .. مرفوض تماما» .

وتوقف كل الملوك والرؤساء عن السير نحو باب القاعة . وكانت الأزمة الأولى .

....

....

وعقب انتهاء الملك «الحسن» من كلمته الافتتاحية ثم انتقال الحديث إلى إقرار جدول الأعمال ساد الجلسة شعور بالقلق لأن «معمر القذافى» تدخل لإبداء ملاحظات، لكنه أثناء إبداء ملاحظاته راح يخاطب الملك «الحسن» بعبارة : «يا حسن». كما راح يخاطب الملك «فيصل» بقوله : «يا فيصل» !

وكتب الملك «الحسن» بخط يده رسالة من سطر واحد أرسلها مع أحد مرافقيه إلى حيث يجلس «جمال عبد الناصر»، وجاء فيها : «فخامة الرئيس.. ألا تساعدنا بالتدخل لوضع ضوابط على تصرفات أخينا الليبى» .

وتصور «جمال عبد الناصر» أنه يستطيع الحديث مع «معمر القذافى» بعد انتهاء الجلسة، لكنها بضع دقائق وعَنَّ لـ «القذافى» أن يبدى تعليقا على مداخلة قام بها الملك «فيصل»، فإذا هو يقول موجها الكلام له : «يافيصل اتق الله ... اتق الله يا شيخ» .

وبعد دقائق قليلة لَمَّ الملك «فيصل» أطراف عباءته ونهض بهدوء خارجا من القاعة .

ثم رأى الملك «الحسن» أن يرفع الجلسة لاستراحة قصيرة .

....

....

أثناء الاستراحة بدا أن هناك تقدما أمكن إحرازه فى ضبط «قواعد السلوك فى حضرة الملوك» ! ـ ولم يكن «القذافى» مقتنعا، لكنه فى نهاية مناقشته مع «جمال عبد الناصر» قال على مضض «إنه سوف يقفل فمه ولا يتكلم، وهو يريد أن يسجل أن ما رآه حتى الآن من المؤتمر أقنعه أن كل هذا الذى يجرى على مستوى القمة العربية عبث لا فائدة منه إلا الضحك على عقول الناس» .

ولم تمض غير دقائق حتى كان «معمر» قد نسى تعهده .

جاء يجلس إلى جوارى على مقعد فى أحد الممرات المؤدية إلى قاعة الاجتماعات. ومَرَّ ضابط عسكرى مغربى رفيع الرتبة تغطى صدره نياشين التكريم، وسألنى «القذافى» : «من هو ؟» ـ وقلت له أنه الجنرال «محمد أوفقير» وزير الداخلية المغربى . وفتح «معمر القذافى» فمه وعينيه من الدهشة وسألنى : «أليس هذا هو الرجل الذى خطف «بن بركة» (٢) وقتله ؟» ـ وقلت هامساً : «نعم هو متهم بذلك» . ورد «معمر القذافى» : «ليس متهما، إنه فعلها ولذلك فهو مجرم»، ونهض واقفاً يصيح : «اقبضوا على هذا الرجل .. ما الذى جاء به معنا ؟ هذا قاتل ... مكانه السجن وليس هنا» .

وحاولت تهدئة انفعاله والإمساك بحركته لكن المشهد أصبح حديث المؤتمر، وذهب الملك «الحسن» إلى لقاء مغلق مع «جمال عبد الناصر». وعلى أى حال فإن ما أنقذ الموقف كان امتناع «القذافى» عن حضور الجلسات لأنه لم يعد مقتنعا بشىء مما يسمع أو يرى !

....

....

باختصار غادر «معمر القذافى» عاصمة المغرب وقد فقد ثقته فى إمكانية «فعل عربى» عن طريق مؤتمرات القمة .

وكان «جمال عبد الناصر» الذى توجه معه إلى زيارة ليبيا لأول مرة يشاركه بعض شعوره ولكن بطريقة مختلفة، بمعنى أنه بأثر التجربة الطويلة كان «جمال عبد الناصر» يرى الفائدة السياسية العامة لاجتماعات القمة العربية، لكنه فيما يتعلق بالفعل المباشر خصوصا إذا اتصل باستعمال القوة المسلحة فإن مستوى القمة العربى ليس قاعدة الانطلاق الأمثل نحو ميادين القتال، وتحميل القمة العربية بهذا النوع من المسئوليات «امتحان خارج المقرر» (حسب تعبيره فى تلك الأيام) .

وفى ليبيا كان «معمر القذافى» يريد أداء دور .

عرض وحدة بين مصر وليبيا (كان رأى «جمال عبد الناصر» أن المبدأ مقبول ـ لكن التنفيذ مؤجل، والأفضل أن يؤجل إلى ما بعد المعركة) .

وعرض المساهمة فى المعركة (ورحب «جمال عبد الناصر» على أن تُترَك له فرصة التفكير فى طريقة مساهمة ليبيا) .

وكان «جمال عبد الناصر» على وشك أن يقوم بزيارته السرية الشهيرة إلى موسكو (يناير ١٩٧٠) يطلب مددا من السلاح والذخيرة لتوفير مطالب خطة العبور، وكانت الصواريخ أهم طلباته !

وحصل «جمال عبد الناصر» على معظم ما أراد بما مكنه من بناء حائط الصواريخ العتيد .

ولكنه خرج من موسكو وليس ضمن ما حصل عليه قاذفة مقاتلة يريدها قواده، والاتحاد السوفيتى يعتذر بأنها ليست عنده لأنه ببساطة لم يصنعها، والسبب أنهم (السوفييت) ركزوا على الصواريخ بعيدة المدى لحمل الشحنات المتفجرة (نووية بالدرجة الأولى) . كان تركيزهم الأساسى على المقاتلات ـ وليس القاذفات ـ وبالنسبة للمقاتلات فقد قدموا أسرابا أو أساطيل منها إلى مصر .

....

....

وبعد العودة من الرحلة السرية إلى موسكو حَمَلْتُ رسالة مكتوبة من «جمال عبد الناصر» إلى «معمر القذافى» (وكانت المهمة رسمية كعضو وقتها فى مجلس الوزراء) .

وكان ملخص الرسالة المكتوبة ومؤدى العرض الشفوى الذى مهدت به لها :

ـ «إننا الآن فى حاجة إلى قاذفة مقاتلة، والسوفييت ليس عندهم ما نطلبه، وإذا كان عندهم فلا يبدو أنهم على استعداد لتقديمه لنا .

والمهمة التى تستطيع ليبيا أداءها للمعركة هى توفير قاذفة مقاتلة، وذلك ممكن لأن ليبيا قادرة على الدفع بسخاء فى الشروط، ونقدا، وربما مقدما .

وهناك نوعان من القاذفات المقاتلة صالحان لأداء الغرض : «الفانتوم» الأمريكية، أو «الميراج» الفرنسية .

والحصول على «الفانتوم» من أمريكا صعب لأن الموضوع سياسى أكثر منه ماليا، وأما الحصول على «الميراج» من فرنسا فممكن سياسيا وماليا، بمعنى أن فرنسا تريد أن تعود إلى منطقة الشرق الأوسط ـ سياسيا، ثم إنها تريد أن تدخل سوق السلاح فيها ـ ماليا».

وبدا «معمر القذافى» حائرا أمام ما يُطلَب منه، لكنه فى ظرف ثلاثة شهور كانت هناك بعثة تتفاوض (ضباط من الطيران المصرى يحملون جوازات سفر ليبية) ـ وكانت المفاوضات تتقدم . وذهبت إلى

أمريكا ـ والكل يرى وليس القذافى وحده ـ انفردت بالأمم المتحدة، وأخذت مجلس الأمن بكامله فى طاعتها. والمجلس لم يعد يجتمع علنا، وإنما أصبح يجرى مشاورات داخلية تديرها واشنطن وتوجهها حسب مطالبها وتقدمها للدنيا باعتبارها إرادة مجلس الأمن

باريس أقابل الرئيس الفرنسي «جيسكار ديستان»[٣] ـ ومكتبه ذلك الوقت في قصر «اللوفر»، ولم يكن معنا في مكتبه غير كلبته السوداء وقد بقيت ساكنة طول الوقت تحت قدميه. ولم أفاجأ كثيرا حين قال لي:

ـ «نحن نعرف أن المفاوضين لشراء طائرات «الميراج» مصريون، وأن جوازاتهم مستعارة، وأن الطائرات ليست مطلوبة لليبيا وإنما لكم، وفرنسا تتفهم الظروف لكننا نطلب الحذر، وقد وافقنا على الصفقة بكاملها (مائة وواحد طائرة ـ وأربع للتدريب ـ والمجموع ١٠٥)».

....

....

وفي تلك الظروف رحل «جمال عبد الناصر» ـ وأصبح «أنور السادات» رئيسا.

وبدأت مرحلة جديدة في حياة «القذافي» ـ في علاقاته بمصر وربما في علاقاته بالعالم.

[٥]

ظني من وقتها ـ وحتى الآن ـ أن رحيل «جمال عبد الناصر» المفاجئ، وبعد سنة واحدة من ظهور «معمر القذافي» كان هزة عنيفة للضابط الشاب الذي مشى من الخيمة إلى قمة السلطة في بلاده بغير تمهيد.

وكانت الهزة إلى جانب العنف في شدتها، عريضة كذلك في مساحتها.

في البداية ظهر واضحا أن «معمر القذافي» لم يكن مقتنعا بأن «أنور السادات» يستطيع ملء مكان ومكانة «جمال عبد الناصر»، وعلى نحو ما فإن الكيمياء بين الرجلين (القذافي والسادات) تعطل تفاعلها، وتنافرت عناصرها بدل أن تمتزج.

وبعد أسابيع من رئاسة «أنور السادات» كان رأيه أن «معمر القذافي» شاب بلا تجربة، وأن استعداده للمغامرة أكبر من قدرته على حساباتها. وفي نفس الوقت فإن «أنور السادات» في رأي «معمر القذافي» كان ـ هو الآخر ـ بلا تجربة لأن عدد سنين التواجد في دائرة السلطة دون مسئولية لا يؤهل لشيء ـ ثم إن «أنور السادات» ليس صاحب فكر ثوري يناضل لتحقيقه، وإنما هو رجل أذهلته السعادة حين وصل إلى السلطة في لحظة فراغ أصاب الكل بالدوار!

وكان كلاهما ظالما للآخر لا يرى منه إلا سطح جلده الخارجي!

وبعد شهور كان «معمر القذافي» قد فقد ثقته أيضا في عدد من الناس قدموا إليه أنفسهم على أنهم «رجال عبد الناصر»، وقد صدَّق في البداية لأنه رآهم في الصور داخل الدائرة القريبة من الرجل الذي اعتبره بطله، وكان كثير من هؤلاء رجالا ذوي نوايا طيبة لكن مشكلتهم أن الأوهام كانت أكبر من الحقائق في طموحاتهم، ثم لم يلبث «القذافي» أن اكتشف بنفسه مسافة البعد بين الطموحات وبين الهمم.

وبعد سنة كان «معمر القذافي» عاتبا على شعب مصر كله، كيف لم يقم بثورة يطيح فيها بكل هذه الأوضاع جميعا: «رئيس غير ثوري»، و«رجال لعبد الناصر» لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم قبل الدفاع عن تراث قائدهم.

وأزعم أنني كنت أتابع أزمته وأحاول.

في البداية كان عتبه عليَّ شديدا لأنني وقفت مع «السادات» ضد «رجال عبد الناصر» في أزمة مايو الشهيرة والتي عُرفت بـ«أزمة سقوط مراكز القوى».

وبعد البداية ـ كانت الساحة قد أصبحت أكثر وضوحا أمامه.

وكان «الأهرام» مقصده الأول حين يجيء إلى مصر وذلك بحكم الصلة بيني وبينه منذ يوم قيام الثورة، ثم بسبب ملاحظته بعد ذلك لما كان بين «جمال عبد الناصر» وبيني.

وفي تلك الأيام حاولت جاهدا بينه وبين «أنور السادات»، وكنت أتمنى عليهما أن يعطي كلاهما للآخر فرصة يتعرف فيها على ما لا يراه من مزاياه بدلا من التوقف عند ما يراه من عيوبه.

وكان اعتقادي ـ ولا يزال حتى هذه اللحظة ـ أنه لو تعاون الاثنان معا بقلب صاف وعقل متفتح، لكانت تلك خدمة كبرى للمعركة القادمة ولمستقبل العمل العربي بعدها خصوصا إذا ساعدت الظروف على قيام نوع مؤسسي من صلة القرب بين البلدين في هذا الموقع المتصل المتكامل من شمال شرق أفريقيا وجنوب شرق البحر الأبيض.

لكن المحاولات كلها نفد وقودها مبكرا، وربما نجحت محطات البنزين على الطريق أحيانا في توفير ضخة أو ضختين، لكن علاقات السياسة تحتاج إلى مدد مستمر لمحركاتها، وهكذا فإن العلاقات بين الرجلين كانت تمشي مسافة ثم تتوقف، وتعود للمشي ثم تتعطل!

وأستأذن في عرض أمثلة عليها تشرح أكثر من أي تحليل يتعمق في دخائل النفوس، وتنافر المخفي في أعماقها.

....

....

المثال الأول: في أواخر سنة ١٩٧١ كان «معمر القذافي» في القاهرة، ودُعي ودُعيت معه إلى غداء في بيت الرئيس «أنور السادات» في الجيزة. وجلسنا ـ نحن الثلاثة ـ بعد الغداء في شرفة تطل على النيل لحديث على فنجان قهوة رجوته حديثا رائقا ومتوازنا.

وفجأة قال «معمر القذافي» وهو ينظر إلى مجرى النهر: «لو أن لدينا في ليبيا مثل هذا النيل لاختلفت أوضاعنا».

ورد «أنور السادات» ضاحكا: «أعطني بترول ليبيا وأنا أحَوِّل إليك فرعا من نهر النيل».

ورد «معمر القذافي»: «هل هي عملية مقايضة؟»

وبسرعة تسرى فيها حدة أجاب «السادات»: «أنت الذي كنت تحسدنا على مياه النهر».

وقال «القذافي»: «أنا أحسدكم؟ أنا أتمنى لهذا البلد كل الخير!».

وأحسست أن الحوار قد يجمح، وتدخلت قائلا: «بالراحة من فضلكما.. أولا: النيل لا يجيء لمصر بفائض مياه تستطيع أن تعطي فرعا منه لليبيا، كل ما يجيء منه سنويا إلى هنا أكثر قليلا ـ في العادة ـ من خمسين مليار متر مكعب من الماء، وهي بالكاد تكفي».

وكنت على وشك أن أكمل ـ لكن الرئيس «السادات» قاطعني قبل مواصلة عبارتي وسألني وكأنه ضبطني متلبسا: «كيف تعرف أن ما يجيء إلى مصر من مياه النيل خمسون مليار متر مكعب في السنة؟ هل قستها ووزنتها؟».

وقلت له: «الأرقام هناك عند وزير الزراعة أو الري... ولك أن تتفضل بسؤال أيهما»!

[وقد أدهشني نفاد صبره، وأدهشني أيضا أنه لم يكن يعرف أهم الأرقام في حقائق الحياة على «بر مصر» (ولم أعقب بشيء)].

وجاء فنجان القهوة، وشربناها، ولم تكن رائقة ولا موزونة!

....

....

المثال الثاني سنة ١٩٧٢، وكنت كتبت مقالا أبديت فيه ملاحظات عن مجرى العلاقات بين مصر وليبيا وانتقدت تعريضا مستمرا دأب «معمر القذافي» على توجيهه إلى الاتحاد السوفيتي وقيادته ووصل فيه إلى حد القول بأنه لا فارق بين «كيسنجر» و«كوسيجين» (رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي وقتها) ـ ثم أشرت فيما كتبت إلى أن ليبيا اشترت حصة من أسهم شركة «فيات» الإيطالية لصنع السيارات في «تورينو»، وتساءلت: لماذا لا تشتري ليبيا حصة من مصانع مصرية («المحلة» مثلا ـ هكذا كتبت) ويكون من ثمنها سيولة مالية تساعد مجمع الصناعات المصرية الضخم الذي كان يعاني في ذلك الوقت من نقص في النقد الأجنبي المتاح له؟

ويومها تصادف وجود «القذافي» في القاهرة، وبدون إنذار وجدته داخلا إلى مكتبي ومعه الرائد «عبد السلام جلود»، وهو في موضع رئيس وزرائه.

وبادرت «معمر القذافي» بمنطق أن «الهجوم خير وسيلة للدفاع»، قائلا: «أعرف أنك غاضب مما كتبته اليوم عنك».

وقال (وبدا لي قوله من خارج السياق): «أبدا وإنما لديّ سؤال عندك».

وكان سؤاله:

«هل صحيح ما جاء في كلامك اليوم من أن المجمع الصناعي الذي بناه الرئيس جمال عبد الناصر يعمل بأقل من طاقته بسبب مشاكل من نقص في النقد الأجنبي؟».

وقلت: «إذا كان ذلك ما فهمه من كلامي فهو صحيح».

وقال: «ماذا نفعل؟ ـ ماذا تستطيع ليبيا أن تفعل مع العلم بأنني غير موافق على اقتراحك بأن نشتري مصانع مصرية.. هذه المصانع لمصر ويجب أن تبقى لها، أما نحن فعلى استعداد لأي شيء.. هل تعرف ما هو المطلوب؟».

وقلت: «ليست لديّ فكرة دقيقة لكن ذلك أمر يمكن بحثه ـ وأول خطوة في هذا البحث أن تعرف أنت مدى استعدادك على ضوء ظروف ليبيا».

وانتحى «معمر القذافي» بـ«عبد السلام جلود» إلى جانب في ركن من مكتبي، ثم عاد إليّ يقول: «هل إذا قدمت ليبيا ثلاثمائة مليون جنيه استرليني تنحل المشكلة؟».

وبدا لي المبلغ وقتها هدية نزلت من السماء تستحق أن تُعْرَض على الرئيس «السادات».

وتركت «القذافي» و«جلود» في مكتبي وذهبت إلى مكتب مجاور أطلب الرئيس «السادات» في بيته (وكان في الجيزة) ـ ورويت له ما حدث، وأحسست به «طائرا من الفرح» (كذلك قال)، ثم كان اقتراحه:

ـ «إنه لا بد من تثبيت هذا العرض الآن».

وكان طلبه:

ـ «هات معمر وجلود فورا وتعالوا إلى عندي في الجيزة، وسأطلب من حجازي (الدكتور عبد العزيز حجازي وكان وزيرا للمالية) أن ينضم إلينا لنضع الترتيبات اللازمة، تعالوا فورا.»

وكان تعليقه وقد كرره أكثر من مرة: «خير ما عملت.. خير ما عملت»!

وعدت إلى «القذافي» و«جلود» قائلا أن الرئيس «السادات» ينتظرنا لبحث الموضوع على مستواه الرسمي والطبيعي.

وعندما وصلنا إلى بيت الرئيس «السادات» في الجيزة كان الدكتور «عبد العزيز حجازي» قد وصل قبلنا بدقائق.

ورأيت مناسبا أن أعرض ما حدث في مكتبي وأكده «معمر القذافي»، وبدأ الحديث من هنا، وكان رأي الرئيس «السادات»

عندما وقع القذافي في أزمة لوكربي، بصرف النظر عمن أوقعه فيها.. حمق أصدقائه أم تربص أعدائه؟ فإن وسطاء كثيرين حولوا الأزمة إلى فرصة.. بينهم من عرض أنه يستطيع مساعدة العقيد بوساطة مع «بوش» أو «كلينتون». ومن ينقل رسالة عنه إلى «ميتران» أو «شيراك». ومن يسعى له عند «جون ماجور» أو «كوفي عنان». وجرب العقيد وجرب. ثم اكتشف أن بعضهم أخذوا ليبيا وأخذوه إلى نزهة في ضوء القمر!



بعد ذلك أن يجلس الدكتور «حجازى» مع «عبد السلام جلود» فى غرفة المائدة المواجهة لصالون بيته حيث كنا نجلس، وأن يتفقا على الخطوات العملية لطريقة التنفيذ، وطلب إليهما الرئيس «السادات» أن يفرغا من المهمة فى أقل من ساعة واحدة .

وجلسنا ثلاثتنا ـ الرئيس «السادات» و«معمر القذافى» وأنا ـ ننتظر ونتحدث فى بعض ما يجرى من الشئون.

وفجأة قال «معمر القذافى» موجها حديثه للرئيس «السادات» :

ـ «يا ريس أنور أريد أن أشكو إليك «الأستاذ هيكل» !»

وأطلت علينا ابتسامة الرئيس «السادات» المشهورة وهو يقول برضى : «خير يا معمر .. ما هى شكواك منه؟».

وكنت أنظر مستغربا إلى «معمر القذافى» الذى إستطرد يقول :

ـ «هل رأيت جريدة الأهرام اليوم.. فيها أربع صفحات عن منجزات الشيخ زايد فى الإمارات».

وقاطعته شارحا :

هذه الصفحات الأربع إعلان، وقد كُتب أعلى كل منها ما يفيد ذلك احتراما لتقاليد نلتزم بها، ثم إن هناك إطارا بالخط يحيط بكل المنشور عن الإمارات بحيث يكون معزولا وبوضوح عن تحرير الأهرام العادى».

ورد «القذافى»:

ـ «هذا تمجيد فى الرجعية، ولا يكفى أن يقال أنه إعلان».

وتدخل الرئيس «السادات» يقول:

ـ «معمر .. هذا إعلان واضح .. وليس فيه تمجيد ..».

ولم يقبل «معمر القذافى» وإنما واصل حديثه :

ـ «اليوم يُمَجِّدون فى الشيخ زايد، وغدا يكون التمجيد فى فيصل».

(واضاف «معمر القذافى» وصفا للملك «فيصل»)

وبدا الضيق على وجه الرئيس «السادات» وقال :

ـ «معمر .. لا تغلط فى حق فيصل، هو صديقى ؟».

ورد «معمر القذافى» بحدة :

ـ «لا هو صديقك ولا شىء.. هو لا يحبك ولا يحب مصر».

وقاطعه «السادات» :

ـ «معمر .. إلزم حَدّك ... قلت لك هو صديقى».

ورد «القذافى» :

ماذا جرى لك يا ريس أنور ؟ ـ هل فقدت ثوريتك ؟».

وكانت تلك هى الطامة الكبرى، فقد رد «السادات» :

ـ «هل تعلمنى الثورية يا معمر .. اسمع، إذا كنت تتصور أنك تشترى سياساتى بأموالك فانا فى غنى عنها».

ثم راح الرئيس «السادات» ينادى على الدكتور «عبد العزيز حجازى» ـ حيث كان يجلس فى غرفة المائدة مع «عبد السلام جلود» ـ بان يوقف المفاوضات، فهو «لا يريد شيئا ما دام معمر يتصور أنه بأمواله يستطيع «شراء مصر» .».

وفى هذا التداعى السريع فى الموقف فقد رحت أحاول إيقاف التردى : مرة بأن ما أثاره «معمر القذافى» عن إعلان الشيخ «زايد» أمر أستطيع تسويته معه مباشرة فيما بعد، ومرة بأن نداء الظروف أقوى من المشادات خلافا فى تقدير الأشخاص، ومرة بأن الأوطان لا دخل لها فى مشادة توترت فيها أعصاب رجلين .

لكن الرئيس «السادات» وصل بالأمور إلى الحافة عندما نهض واقفا يخرج من حيث كنا غاضبا ومتجهما .

ولحقت به أقول له : «الرجل فى بيتك ـ ضيف عليك».

وكان قصارى ما فعله كحل وسط أن التفت قائلا للجميع : «البيت هنا ليس بيتى ولكنه بيتكم جميعا».

....

....

ومثال ثالث جرت وقائعه أواخر شهر أغسطس ١٩٧٣ .

فقد اتصل بى الدكتور «أشرف مروان» ـ وهو وقتها مدير مكتب الرئيس «السادات» للمعلومات ومنسق خاص للعلاقات المصرية الليبية ـ يقول لى أن «العقيد معمر القذافى» وصل فجأة إلى مطار القاهرة، وقد تَوَجَّهَت لملاقاته على عجل سيارات ضيافة من رئاسة الجمهورية تحمله إلى قصر «الطاهرة»، ولكنه رفض ركوبها وقصد بسيارة تاكسى إلى فندق «النيل» على الكورنيش فى جاردن سيتى، ومن الواضح انه متأثر لطريقة المعاملة التى يلقاها من مصر .

واتصلت على عجل بالرئيس «السادات» الذى كان عائدا لتوه من رحلة واسعة حملته إلى رومانيا وإيران وبعض دول الخليج ـ وتوجه مباشرة ليستريح فى بيته بقرية «ميت أبو الكوم» . وبالطبع فقد كنت أعرف أن وقت المعركة يقترب وإن لم يكن اليوم والساعة قد تحددا بعد بالدقيقة والثانية .

وقال لى الرئيس «السادات» أنه «لم يعد يستطيع أن يعرف كيف يتصرف مع معمر»، وأضاف أنه قرأ لى مقالا منذ أيام قلت فيه أنه «إذا لم يستطع العمل الوحدوى بين مصر وليبيا أن يتقدم إلى الأمام فإنه لا يجب أن يعود إلى الوراء» . وأضاف مبديا اندهاشه «فسِّر لى هذا اللغز : لا نستطيع التقدم خطوة إلى الأمام ولا يصح أن نعود خطوة إلى الوراء، ما هو معنى ذلك ؟» ـ ثم أجاب بنفسه على سؤاله : «ننط فى الهواء يعنى ؟».

وكان رأيى والمعركة على الأبواب وليبيا تُمَوِّل أسلحة ومعدات تحتاجها القوات قاربت تكاليفها البليون دولار، إضافة إلى ثمن صفقة طائرات «الميراج» الفرنسية ـ أن هناك قضية تستحق الحرص حتى لو لم تكن هناك علاقات خاصة بين البلدين .

وسألنى، واقترحت عليه أن يدعو «معمر القذافى» إلى مقابلته غدا فى «ميت أبو الكوم» مع تسليمى بأنه عائد من رحلته متعبا ومرهقا .

وقال لى : «إن معمر اتصل بى هنا فى ميت أبو الكوم وقلت لهم أن يبلغوه أننى نائم».

وكان ظنى أن ذلك لا يصح، وأذكر ـ وبغير تجاوز ـ أننى قلت له : «إننا فى مصر أحيانا نُعْرِض عن الذين يُقْبِلون علينا، ونجرى وراء الذين يُعْرِضون عنا» ولست أعرف لذلك تفسيرا مريحاً .

وأحسب أنه تنبه إلى أن علاقته بـ «القذافى» تستحق محاولة أخيرة، فقد فوضنى أن أتصرف، وكان اقتراحى أنه «من المهم أن يصدر إعلان على نحو ما يؤكد الأهداف المشتركة للبلدين مع إشارة لاتفاقيات سبقت فى محاولة تحقيق نوع من الوحدة بينهما» .

وإنصافا للحق فإنه تفضل وقبل اقتراحى .

وعدت إلى المشروعات القديمة، وأضفت إليها إعلانا جديدا سميته «ميثاق ميت أبو الكوم»، وقرأته عليه فى التليفون وأقره . ثم اتصلت بـ «معمر القذافى» أعرض عليه أن نذهب جميعا إلى «ميت أبو الكوم»، وكان «القذافى» غاضبا يقول : «إن الرئيس أنور لا يريد أن يرد على تليفونى فكيف أذهب إليه؟».

وقضينا جميعا يوم ٢٩ أغسطس فى «ميت أبو الكوم» وجرى أمام الميكروفونات والعدسات إحتفال لتوقيع وثيقة «إعلان ميت أبو الكوم» (هكذا سَمَّاها الرئيس «السادات» فى لحظة حماسة ونشوة !) .

وبدا «معمر القذافى» مرتاحا، وبدا «السادات» صبورا . وقرر «القذافى» أن يعود إلى ليبيا من أقرب مطار إلى «ميت أبو الكوم» وكان مطار «قويسنا» العسكرى .

وعدت مع الرئيس «السادات» من «قويسنا» إلى «ميت أبو الكوم»، وكنا وحدنا بعد انفضاض مهرجان توقيع ميثاق «ميت أبو الكوم».

وجلسنا فى سيارة الرئيس (وكانت «رولز رويس» فخمة أهداها إليه أحد مشايخ الخليج) ... ومضت دقائق ونحن سكوت، وأحسب أن كلينا كان يستعيد فى ذاكرته ساعات ومشاهد يوم حافل .

وقطع الرئيس «السادات» صمته وقال لى (مناديا باسمى الأول كما كان يفعل عادة) :

ـ «محمد ـ هل تريد أن أدخل فى وحدة مع «ولد» مجنون ؟».

وأعترف الآن أننى تضايقت ولعلى تجاوزت حدى، فقد قلت للرئيس «السادات» :

ـ «هل تريد رأيى بصراحة.. إذا كان مجنونا فهو مجنون لأنه يريد الوحدة معنا . وبصراحة فانا لا أعرف ما الذى يغريه بها ؟ نحن بلد فى حالة حرب، وجزء من أرضنا محتل، وأمامنا معركة معلقة بمقادير لا نعرفها، وليبيا عمق إستراتيجى نستعمله بغير عوائق، وهذا الرجل مسكون بفكرة يحلم بها وهو يحاول، وانا أول من يسلم أن أسلوبه فى المحاولة مثير للأعصاب ومرهق أحيانا لكنى تصورت ....»

وقاطعنى الرئيس «السادات» :

ـ «لقد وقعنا اتفاقا وانتهى الأمر، ولعل أعصابه تهدأ حتى تجىء المعركة ويذهب كل منا إلى طريقه» !

وبدا لى ذلك نذير قلق ينبئ بشكل ما هو قادم.. مكتومٌ اليوم ومتفجرٌ غدا .

وصباح اليوم التالى ٣٠ أغسطس خرجت الجرائد المصرية كلها وعناوينها الرئيسية سوداء وحمراء بعرض الصفحات تعلن للناس أن ميثاقا للوحدة بين مصر وليبيا تم توقيعه فى «ميت أبو الكوم» .

لكنى (ومع الأسف) كنت أعرف أكثر من غيرى أنه حبر على ورق !

....

حين توقف القتال

ـ حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـ وجد معمر القذافى نفسه ممنوعا من دخول غرفة العمليات. وإلى حد ما فإن الرئيس «السادات» كان على حق أن يتضايق من كلمات قالها «معمر القذافى» فى عز المعركة متسائلا: هل هى حرب تحرير أم هى حرب تحريك؟

وأخيرا ...

أخيرا ومهما كانت الأسباب فإنه حين توقف القتال وجد «معمر القذافى» نفسه ممنوعا من دخول غرفة العمليات، وإلى حد ما فإن الرئيس «السادات» كان على حق أن يتضايق من كلمات قالها «معمر القذافى» فى عز المعركة متسائلا: «هل هى حرب تحرير أم هى حرب تحريك ؟»

فقد بدا أن ذلك لعب بالألفاظ لا يتحمله قرار الحرب ولا تضحيات الرجال .

وكانت «شعرة معاوية» الباقية بين الرجلين على وشك أن تنقطع !

وفى كل الأحوال وفيما يتعلق بى (شخصيا) فإن وقف القتال والطريقة التى جرت بها المفاوضات مع «كيسنجر» أتى معه بتعقيدات كثيرة فى علاقتى بالرئيس «السادات»، وكان أن تركت موقعى صحافة (وسياسة) وابتعدت .



[٦]

ابتعدت، ولكننى لم أنفصل، بمعنى أننى نزلت من فوق خشبة المسرح ـ أيا كان موقعى عليها وحركتى حول هذا

الموقـع ـ وانتقلت إلى مقاعد المتفرجين أشاهد وأتابع معنيا بكل ما يجرى أمامى ومهتما . وأما عملى وشاغلى الحقيقى وقد تفرغت له بالكامل فقد كان القلم وليس الخشبة، والورقة البيضاء وليس الستار المخملى للمسرح .. قرمزى فى العادة !

والغريب أن الرئيس «السادات» حاول أن يستدرجنى لأداء دور على الخشبة عدة مرات كانت إحداها قريبة من «معمر القذافى» أو متصلة بأمره .

قرأت ـ يوما ـ على غير انتظار وعلى لسان الرئيس «السادات» أنه مطلوب عنى أن أشهد ما إذا كان «جمال عبد الناصر» قد أوصى من بعده لـ «معمر القذافى» . وبدا لى الموضوع بالغ الغرابة .

كان السبب أن بعض المحيطين بـ «معمر القذافى» بدأوا يصفونه بأنه «الأمين على القومية العربية» بعد رحيل «عبد الناصر»، وكان الاعتماد على عبارة نشرتها فى مقال قديم لى وجهها «عبد الناصر» إلى «القذافى» قال له فيها: «معمر أنت تذكرنى بشبابى» .

واعتبرها البعض استخلافا من «عبد الناصر» لـ «القذافى» . وكانت تلك فى ذلك الوقت قضية كبيرة لدى قطاعات واسعة من المشتغلين بالسياسة فى العالم العربى، وعلى هذا الأساس طلب الرئيس «السادات» شهادتى، وكذلك فعل بعض أنصار «معمر القذافى» .

وألح بعض المحيطين بالرئيس «السادات» فى الأمر إلى درجة بدا لى طلب شهادتى جزءا من الحملة ضد «معمر القذافى»، وقد اشتدت أيامها إلى درجة اتهامه بالجنون علنا ـ وليس داخل سيارة الـ «رولز رويس» فقط!.

ثم وصل الأمر بالرئيس «السادات» إلى درجة اتهمنى معها بالتواطؤ مع «القذافى» إذا لم أتكلم، وفى نفس الوقت كان رأى آخرين أنه يجب أن يصدر وعلى لسانى ما يفيد أن «السادات» وإن خلف «جمال عبد الناصر» على رئاسة الدولة المصرية لا يصلح لخلافته على المستوى القومى الأبعد .

ورأيت أن ألزم الصمت برغم ضغط الجانبين .

كان تقديرى أن الموضوع كله «خفيف» وإلى درجة السخافة . فالعبارة التى رويتها منسوبة إلى «عبد الناصر» وهى صحيحة ـ ليست وصية وإنما ملاحظة قصد بها «جمال عبد الناصر» وصف وتخفيف حدة اندفاعات «معمر القذافى» وقتها، وهى اندفاعات لم يشفع له فيها غير شبابه ـ لكنها لم تكن وصية .

وفى مطلق الأحوال فإن «جمال عبد الناصر» ـ أو غيره ـ لم يكن فى مقدوره أن يوصى بمكانه فى الدولة أو بمكانته فى الأمة لأحد بعده، لأن مكانه فى الدولة مسألة دستور وقانون، كما أن مكانته فى الأمة مسألة زعامة يراها الناس بمدى تقديرهم لأدائه تعبيرا وحركة عن أهداف مكنونة فى ضمائرهم .

(إلى جانب ذلك فقد نسى كل الأطراف أهم حقائق الموضوع وهى أنه لو ظهر «جمال عبد الناصر» فى غير مصر لما استطاع) .

وهنا فإن الكلام عن وصية رجل خارج الموضوع .

ثم إن طلب شهادة رجل فى الموضوع خارج المنطق .

وسكت عارفا أننى لم أرض الطرفين رغم اختلاف الطرق بينهما .

وكان «معمر القذافى» فى طريق آخر غير طريق «أنور السادات» .

لكنى أعترف أنه فى حين أن طريق «السادات» بدا لى خطرا، فإن طريق «القذافى» لم يبد لى أكثر أمانا رغم مسافة الاختلاف بين الطريقين !

وفى بعض المرات كنت أجد أعذارا لـ «القذافى»، وفى بعض المرات لم أجد !

[وبين ثلاثين سنة قضاها «معمر القذافى» فى الحكم فإن عشرا منها انقضت فى علاقات حب وهجر بينه وبين مصر، وعشرا ثانية منها جرت طوافا بمواقع القلق على اتساع المعمورة من حركة «أبو نضال» إلى حركة الجيش السرى الأيرلندى، ثم ضاعت عشر سنوات ثالثة فى هموم «لوكربى» (للإنصاف كان هناك مشروع النهر العظيم أيضا)].

كانت أكبر أعذارى لـ «القذافى» طبيعة ظروفه متفاعلة مع ظروف عصره :

١ـ لقد مشى من «الخيمة» إلى «القمة» مباشرة دون مرور بمحطات يتوقف عندها ويجرب ويدرس ويتعلم . خرج من «الخيمة» إلى المدرسة، ومن المدرسة المدنية إلى مدرسة عسكرية، وأرسلوه إلى إنجلترا لدورة تدريبية، وكان معسكر التدريب الذى التحق به على بعد خمسين كيلومترا من العاصمة «لندن»، ومع ذلك لم يذهب إليها مرة واحدة لأنه كان يرتب مع مجموعة من زملائه الشبان ليوم قريب يستطيعون فيه «إطلاق الثورة فى ليبيا» .

٢ـ ولقد نجح فى «إطلاق الثورة» فى موقع خطر (٣ ملايين برميل بترول يوميا، و٣ آلاف ميل على الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض) ـ وبسهولة لا تكاد تصدق (٤ ساعات، ومائة ضابط وخمسة آلاف جندى) . وربما كانت من هنا أسباب النجاح، فلم يكن هناك من ينتظر، ولا كان هناك من يتصور، وبالتالى فلم يكن هناك من استعد أو قدَّر .

وحين تنجح أكثر المحاولات خطورة بأقل التضحيات تكلفة ـ فإن محصلة التجربة تعطى الأحلام مساحة تتجاوز قدرة الحقائق على بلوغها لأن ثقافة المصادفة تختلف تماما عن ثقافة القانون ـ خصوصا إذا كان قانون القوة !

٣ـ ومن سوء الحظ أن «معمر القذافى» لم يلبث ـ بعد أن نجح فى محاولته ـ أن فقد مَثَلَه الأعلى الذى قال له يوما «إنك تذكرنى بشبابى»، وكانت تجربة «جمال عبد الناصر» ـ ربما ـ تقدر على تركيز أحلام «القذافى» ـ لكن المقادير سبقت ووجد «معمر القذافى» نفسه أمام رجال جدد لا تدعو هاماتهم إلى رفع رأسه ليراهم !

ولعل تلك هى الأحوال التى أغرت «معمر القذافى» بأن يعتبر نفسه الأقدر والأجدر .

٤ـ ولقد ساعد على الإغراء أن موارد ليبيا النفطية وضعت تحت تصرف «القذافى» ثروة سال لها لعاب كثيرين لم يكن معظمهم فى حاجة إليها، لكن رياح زمان محدث كانت تهب حاملة معها الكثير من عوامل التآكل والتعرية .

وهكذا أصبح «القذافى» مقصدا تتزاحم على الدروب إليه قوافل الطالبين ـ واستقبلهم بحفاوة !

وقد قصدت إليه بعض النخب فى العالم العربى تتحدث بالشعر وبالنثر، وبلغة التنظير والعقائد، والتعقيد أحيانا ـ واستمع إلى الكل ولكن دون فرز .

وتقدَّمت إليه الكتب أشكالا وألوانا ـ وقرأها جميعا دون نقد .

وفى زحام يشبه زحام «سوق عكاظ» خطر له أنه يستطيع أن يقول أفضل مما سمع، وأن يكتب أحسن مما قرأ (وفى ذلك لم يكن متجاوزا !)

٥ـ وعندما وقع «القذافى» فى أزمة «لوكربى» ـ بصرف النظر عمن أوقعه .. حمق أصدقائه أم تربص أعدائه ؟ ـ فإن وسطاء كثيرين حوَّلوا الأزمة إلى فرصة، فقد كان بينهم من عرض أنه يستطيع مساعدة «العقيد» بوساطة مع «بوش» أو «كلينتون»، ومن ينقل رسالة عنه إلى «ميتران» أو «شيراك»، ومن يسعى له عند «جون ماجور» أو «كوفى عنان» . وقد جرَّب «العقيد» وجَرَّب ثم اكتشف أن بعضهم أخذوا ليبيا وأخذوه إلى نزهة فى ضوء القمر، وهذا هو كل شىء !



وربما يكون من ذلك كله عذر لـ «القذافى» وربما لا يكون، لكن تلك ظروفه، ولم تكن له فيها حيلة، ولعل عذره المقبول يجىء بالنظر أكثر إلى ظروفه وظروف العصر الذى ظهر فيه .

والحقيقة أن أقدار الرجل جاءت به إلى الساحة العربية فى آخر نهار عالمى وعند لحظة مغيب أزمنة ـ يطلع بعدها صباح اليوم التالى زمن جديد .

وفى الزمن الجديد اكتشف «معمر القذافى» غربته ووحدته سواء على المستوى القريب أو على مدد النظر :

● على المستوى القريب مثلا فإنه عندما وصل إلى ملتقى الطرق قام بنصب خيامه على موقع فكرى معين وبجوار قبائل ظن أن قرابته بها شجرة نَسَب واحدة ـ لكنه فى مطلع الزمن الجديد صحا ليكتشف أن القبائل الأخرى خلعت أوتارها وطوت خيامها ورحلت بجمالها وراء الأفق !

● وعلى المستوى الأبعد قليلا فقد اكتشف أن «الكنز» (البترول) الذى يستطيع خدمة هدفه تغيرت قيمته . بمعنى أنه فى أزمنة ماضية كان الراغبون فى «الكنز» يأتون إليه، وصاحب «الكنز» يتحكم فى الراغبين كما يشاء ـ لكنه فى الزمن الجديد أدرك المحتاج للنفط أنه ليس مطالبا بالذهاب للمنابع فهى كثيرة، وإنما المنابع هى التى أصبح عليها الآن أن تحمل بضائعها إلى الأسواق تعرضها عليه متنافسة فى ذلك مع كثيرين يعرضون .

● وعلى المستوى البعيد ـ حتى وراء الأفق ـ فقد اكتشف أن القوى المسيطرة غيرت أساليبها، فلم تعد تحتاج إلى قواعد تحتلها حتى تسعى للسيطرة، وإنما هى فى الأزمنة الجديدة تمارس إرهابها من الجو والفضاء العالى حيث لا يطولها دفاع، فإذا عادتها سياسة أو أغضبها تصرف ففى يدها أن تعاقب وأن تظل تواصل العقاب بلا تضحيات عليها تقريبا حتى يتأتى لها الإخضاع .

● وفى المحصلة النهائية ـ اكتشف «القذافى»، ودون أن يفصح صراحة عما اكتشف خلال حديثنا فى قصر القبة ـ أن القوى الغالبة تستطيع الآن أن تشن الحرب على الدول الصغيرة ـ وحتى الدول المتوسطة ـ دون حاجة إلى ميادين قتال .

سلاح الإعلام من ناحية يقوم بتلوين الصورة أو تغطيتها بالتمويه إلى درجة التغييب .

وفى نفس الوقت فإن سلاح المخابرات يستطيع أن يهز الحكومات إلى درجة الخلخلة أو التقويض .

وهكذا فإن وكالة (C.N.N. الإخبارية) من ناحية، ووكالة (C.I.A. الاستخباراتية) من ناحية أخرى، وحتى بدون ترتيب وتنسيق بين الاثنتين، تستطيعان معا دفع حركة كماشة تطبق وتزنق .

وإذا حدث غير المتوقع واستطاعت حكومة من الحكومات أن تهرب من مطاردة الوكالتين ـ فإن أساطيل الطائرات، وحاملات الصواريخ، على استعداد للعقاب دون حاجة إلى ميادين قتال تتجلى فيها «شجاعة الفرسان وقوة الإيمان والشهادة من أجل الأوطان» !!

....

وقد كان «معمر القذافى» أول من جرَّب ضربات الجو عقابا ـ وآخر من استطاع الإفلات من الحصار بمعجزة بعد سبع سنوات من القحط !



بقيت ملاحظة أخيرة وهى أنه مهما كانت ظروف «القذافى» أو ظروف العصر فإن الرجل بصرف النظر عن كل شىء وأى شىء ـ استطاع أن يظل على قيادة ليبيا منذ سبتمبر سنة ١٩٦٩ وحتى الآن ـ قرابة ثلاثين سنة.

وعندما رأيته أول مرة فقد كانت خشيتى خصوصا بعد رحيل «عبد الناصر» أنها سنوات قليلة ـ اثنتان أو ثلاث على الأكثر ـ ثم تجرف العواصف الهوج خيامه من حيث نصبها وحده فى وحشة الصحراء .

لكنها الآن ثلاثون سنة والرجل فى موقعه ـ هزته العواصف صحيح ـ ولكنها لم تقتلع مضاربه .

....

....

وعندما كنت عائدا من قصر القبة بعد ساعات طويلة معه، وحديث مستأنف بعد أكثر من ربع قرن ـ كان السؤال الذى ما زال يلح علىَّ هو :

ـ «كيف استطاع أن يبقى حتى الآن، وظروفه ما أعرف، وظروف العصر ما عرف ؟»

ولم أجد غير جواب واحد :

ـ «لابد أنه سمع أو قرأ أو تعلم أشياء كثيرة لا أعرف كيف ولا متى ولا أين وصلت إليه أو وصل إليها».

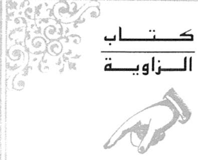
وفى كل الأحوال، فإن «معمر القذافى» ـ بدايته واستمراره وتعامله مع التاريخ ـ يظل ظاهرة تستدعى الدرس، وأظنها سوف توضع يوما فى دليل «الخوارق» من ظواهر النصف الثانى من القرن العشرين !

الهوامش

(١) يختلف مشروع روجرز المقدم فى ديسمبر ١٩٦٩ والذى رفضته مصر وكان مشروعا للحل ـ عن مبادرة روجرز فى يوليو سنة ١٩٧٠ والتى قبلتها مصر ـ وكانت مجرد طلب بوقف إطلاق النار لمدة تسعين يوما .

(٢) الزعيم المغربى الشهير الذى أنشأ تحالف القوى الشعبية فى المغرب، والذى فكر وسعى لعقد مؤتمر كفاح القارات الثلاث فى «كوبا»، وقد جرى خطفه وقتله فى باريس فى السنة الأخيرة من حكم «شارل ديجول» الذى وَجَّه الاتهام علنا إلى المخابرات المغربية.

(٣) كان «جيسكار ديستان» وقتها وزيرًا للمالية تحت رئاسة «جورج بومبيدو»، ولكنه كان المرشح المقبل على دخول قصر «الإليزيه».



«الساق على الساق فى ما هو الفارياق»

مؤلفه الأديب اللبنانى المعروف: أحمد فارس يوسف الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٨)

من رواد الصحافة العربية الأوائل، ولد فى عشقون (قضاء كسروان) وتوفى فى استانبول، سافر إلى مالطة وفيها انتقل من المذهب المارونى إلى المذهب البروتستانتى، ثم إلى تونس، وفيها اعتنق الإسلام وسمى نفسه أحمد. ثم قصد الآستانة، حيث أصدر جريدة «الجوائب». جال فى أوروبا، وامتاز بمعرفته الواسعة باللغة العربية، وسهولة أسلوبه. من مؤلفاته «الجاسوس على القاموس»، و«الساق على الساق فيما هو الفارياق» والفارياق هنا لفظة مشتقة ومركبة من المقطع الأول من اسمه الأول «فارس» والمقطع الأخير من اسم عائلته «الشدياق»

وكتاب «الساق على الساق» هومجموعة لأربعة كتب، مكتوب بأسلوب غريب متمكن فى أسرار اللغة العربية، وهو أشبه بأدب الرحلات الذى يصف فيه بدقة الحياة اليومية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، لشعوب عربية وأوروبية.

فى وصف مصر:

قد قمت حامدا لله شاكرا فأين القلم والدواة حتى أصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح من كل من رآها. لأنها بلد الخير ومعدن الفضل والكرم. أهلها ذوو لطف وأدب وإحسان إلى الغريب، وفى كلامهم من الرقة ما يغنى الحزين عن التطريب. إذا سألوك فقد أحيوك، وإن سلموا عليك فقد سلّموك. وإن زاروك زادوك شوقا إلى رؤيتهم. وإن زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلا عن مجالسهم. أما علماؤها فإن مدحهم قد انتشر فى الآفاق. وفات فخر من سواهم وفاق. بهم من لين الجانب ورقة الطبع وخفض الجناح وبشاشة الوجه مالايمكن المبالغة فى إطرائه. ولكل نوع من الناس عندهم إكرام يليق به سواء كان من النصارى أو غيرهم. وربما خاطبوهم بقولهم ياسيدى ولا يستنكفون من زيارتهم ومخالطتهم ومعاشرتهم خلافا لعادة المسلمين فى الديار الشامية. وبذلك لهم الفضل على غيرهم. وكأن هذه المزية وهى حسن الخلق ورقة الطبع أمر مركوز فى جميع أهل مصر. فإن لعامتهم أيضا مخالقة ومجاملة. وكلهم فصيح اللهجة بيّن الكلام سريع الجواب، حلو المفاكهة والمطارحة...

«المحــــرر»



الوضع الدينى في مصر بين المنطوق به و المسكوت عنه

طـــــارق البشـــــرى

الجانب المسكوت عنه
هو من أخطر جوانب الموضوع،
ومن أكثرها إثارة للجدل والإشفاق،
وهو الآثار التى تترتب على الحالة الدينية
فى الحيــاة الســياســيــة والاجتماعيــــة.
وهى عــلاقــة المواطنــة بيــن
المســــلمين والمســيحيين
مـن مواطنـى مصــر

[١]

نحن فى الاستخدام اللغوى نفرق بين «الوضع» و«الحالة»، فالوضع هو هيئة الشىء التى يكون عليها، وهو يشير إلى ماهية الشىء. بينما الحالة تشير إلى الوقت الذى أنت فيه، وتتعلق بكيفية سريعة الزوال. فالحديث عن الوضع هو حديث عن ثوابت وماهيات، والحديث عن الحالة حديث عن عوارض ومتغيرات. وهكذا يرد الأمر فى الاستخدام الجارى على الأقلام والألسنة.

وعندما نتكلم عن الدين فى مصر، فثمة الوضع الدينى بما هو عليه من هيئة ومن ثوابت، وثمة الحالة الدينية بما هى عليه من تغيرات. ونحن لانستطيع أن نعرف متغيرا إلا إذا عقلنا ثوابته، ولاندرك التنوع إلا إذا فطنا إلى أصوله.



وقد أصدر مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، حوليته الجديدة عن «الحالة الدينية فى مصر» أصدرها من سنتين وأخرج منها عددين حتى الآن.

ونحن نعلم أن التقارير الحولية وإن كانت تتابع الأحداث فى مجال تخصصها خلال الحول الذى تصدر عنه، ومن ثم فهى تتابع «الحالات» والمستجدات وطوارئ الواقع، إلا أنها دائما ما تكون الأعداد الأولى منها أعدادًا تأسيسية، لأن الأحداث الجارية خلال أمد محدد لا تحدث من فراغ ولا تقع فى فراغ، إنما هى دائما خارجة من سياق سابق وموصولة بسياق لاحق. فالحدث الواحد «نقطة»، والنقطة لا تشير إلى اتجاه سابق أو لاحق، إنما تكسب معناها من نقاط سبقت أو لحقت. بمعنى أن «الحالة» تكسب معناها من «الوضع». لذلك نتوقع دائما من الأعداد الأولى للحوليات أن تضع البنية التحتية فى المجال الذى سيكون محلا للرصد والمتابعة. وهذه البنية التحتية تشمل عرض السياق التاريخى السابق، كما تشمل الجذور الفكرية والتجهيزات الثقافية التى تستنطق الحدث التالى بمعنى من المعانى. ولذلك أيضا فإن الحوليات التأسيسية الأولى تظل ترمى بظلها على الحوليات التالية، تمدها بالفهم وتعطى «الحالة» الطارئة مفادها فى إطار «الوضع» الحاصل. وفى ظنى أن الحوليات التالية مهما نزلت وبعدت عن الحوليات التأسيسية الأولى، فهى لن تنجو منها ولن تتخلص من معانيها التى رسخت من البداية، إلا بعدول فكرى صريح يشكل علامة تحول، أو بتراكم فكرى مخالف يرد من بعد فى تتابع وإصرار، ويتكشف مفاده بعد حين أو أحيان.

ونحن لازلنا فى طور الأعداد الأولى التى تتأسس بها حولية «الحالة الدينية فى مصر» ومن ثم وجب عرض العددين الصادرين معا، ثم انتظار الثالث إن كان فى العمر بقية نافعة بإذن الله.

[٢]

والحديث عن الدين فى مصر، يتعلق بالحديث عن الإسلام وعن المسلمين بوصفهم الدينى، كما يتعلق بالحديث عن المسيحية والمسيحيين بوصفهم هذا أيضا. وهو يتعلق بتاريخ عقائد ومذاهب ومؤسسات، وبعلامات اجتماعية وأنشطة سياسية، والقضايا هنا متداخلة ومتشابكة، تشمل الفكر مع السياسة مع أوضاع أغلبيات وأقليات. وقضايا هذا الشأن تأثرت فى السنوات العشرين الأخيرة بمعارك وصراعات فكرية وسياسية، منها:

* إن اتجاهات العنف الإسلامى هيئ لها أن تضغط على الحكومة بالإساءة إلى العلاقات المسيحية فى الصعيد، فأضرت بالموقف الإسلامى وأضرت بالعلاقات الإسلامية المسيحية، كما أن اتجاهات الغلو العلمانى هيئ لها أن تضغط على الموقف الإسلامى بالتحصن وراء «حقوق المسيحيين» لتثبت عدم إمكان الفكر الإسلامى أن يرعى حقوق المواطنة.

* وسياسات الوضع العالمى الجديد، المسمى بالنظام الدولى الجديد، تتركز فى السعى لإلغاء الحواجز الذهنية والنفسية بين ما يعتبر شأنا داخليا للأمم والدول وبين ما يعتبر شأنا خارجيا، حتى لا تقوم عوائق فكرية وثقافية فى وجه تدخل الكبار فى شئون غيرهم، ومن ثم تذوب مسالة الاستقلال الوطنى وحركاته التى كانت وصلت ذروتها فى الستينيات، ودعمها فكر سياسى قامت على أساسه نصوص معاهدات ووثائق دولية وأحكام فى القانون الدولى.

* وتركزت هذه السياسات فى العمل على إضعاف قوى التماسك فى الجماعات السياسية التى تحقق بها انتصار حركات التحرر الوطنى، فطرح الفكر السياسى العالمى (للنظام الجديد) موضوع حقوق الإنسان (الفرد) لا لتحقيق هذا الهدف النبيل، ولكن ليستعاض به عن حقوق الإنسان (الجماعى). وليسع إثارة موضوع الأقليات الدينية والقومية فى كل دولة، وليسع التصديات التى تقوم بين كل شعب وحكومته، وليكون المثل الطوباوى فى ذلك هو مجتمعات الغرب، وبذلك تتخذ قوى الهيمنة العالمية وضع الحكم بين الشعوب بعضها البعض أو بين الشعوب وحكوماتها، بعد أن كانت فى وضع الخصم.

وفى المجال الداخلى، فإن النداءات الإسلامية كانت تصوغ مطالب النهوض والاستقلال والعدل السياسى والاجتماعى، حتى وفد الفكر الغربى بنظمه ونظرياته وصياغاته، وعلى مدى جيلين منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى، جرى العدول إلى صياغات الغرب ونظرياته تحت ضغط أوضاع السياسة، وبحجة تراءت من نشدان الرشد والكفاءة، وعلى مدى جيلين فشل بلوغ الأهداف الاجتماعية السياسية وتحقيق المثل الفاضل، سواء وفقا للصيغة الليبرالية الإصلاحية من العشرينيات إلى الخمسينيات، أو بالصيغة الاشتراكية الثورية من الخمسينيات إلى السبعينيات. فعادت النداءات الإسلامية تصوغ نداءات النهوض والاستقلال وتجانس بينها وبين مطالب العدل السياسى والاجتماعى.

احتضنت النداءات الإسلامية صيغ حركات الإصلاح وحركات الثورة، وصيغ السعى السلمى أو السعى بالعنف، وصارت المعارضة فى تشكيلاتها الفعالة تخرج من هذه البردة، وعاجلتها النظم والحكومات بما تملك من مواجهات، ومن ذلك إذكاء الصراع الفكرى الذى استخدمت فيه ما استخدمت من خلال الحركات السياسية القديمة وقوى التغريب الثقافى، الصادق منها وغير الصادق. ومن بين الأدوات التى استخدمت موضوع المواطنة لدى مختلف الأديان، ولم يكن الجانب الإسلامى فى نشاطه الشعبى قد استوعب بعد الاجتهادات الإسلامية الرائدة فى هذا المجال.

كل ذلك كانت له أعماقه فى الحاضر الذى

١- تقرير الحالة الدينية: التقرير الأول
تحرير: نبيل عبد الفتاح
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٩٧.

٢- تقرير الحالة الدينية: التقرير الثانى
تحرير: نبيل عبد الفتاح
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٩٨.

بدأ يشكل في السبعينيات ثم بلغت صراعاته ذراها في الثمانينيات والنصف الأول من التسعينيات.

وظهرت حولية «الحالة الدينية في مصر» وهذا الصراع في ذراه، وموجه هائج وأعاصيره مزعزعة، وإدارة الصراع في الداخل أو الخارج تصب الزيت على النار، فيتعالى لهيبها، والمسيحيون يشعرون بأعظم درجات الخوف من الإسلاميين، والإسلاميون يشعرون بأعظم درجات الخوف من نظم الداخل والخارج، وأشد ما يولد القسوة في الإنسان هو الخوف، وأكثر ما يصيبه بالتعصب هو فقدان الأمن، وأغطش ما يصيب البصر والبصيرة يكون من عدم الاطمئنان.

في هذا الظرف الصعب، تصدر الحولية وتكتب أعدادها الأولى التأسيسية. وهي تتراوح بين أن تكون فاعلة أو أن تكون منفعلة، مهاجمة أو مدافعة، فلا يمكنك أن تتجاهل موقفي الهجوم والدفاع إذا وقفت في أرض المعركة.



[٣]

إن الحولية تصدر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بدار الأهرام، المركز الذي أنشئ في عام ١٩٦٨، وكاد أن يكون من أول مراكز البحوث والدراسات السياسية العلمية في بلاد العرب، وكان له من بداياته العلمية الرصينة ما أثقل موازينه نوعا ما، في مواجهة تقلبات وأعاصير سياسية هبت عليه من منتصف السبعينيات. ثم أصدر تقريره الاستراتيجي السنوي، وخطابه في رصد أحداث السياسات الجارية ووقائعها ما جعله محلا للاهتمام والاحتفاء، بمراعاة ما حاول المركز أن يتشبث به بقدر الإمكان من مراعاة وجود النظر المتباينة في الساحة السياسية والاقتصادية.

مع ملاحظة أن المركز في مراحله الأخيرة بدأ يميل إلى بلورة تيار سياسي متحدد المعالم، وبدأ يقوم بوظائف الدعوة لهذا التوجه مما انعكس على أعماله، وبخاصة في شأن سياسات الشرق الأوسط، وفي شأن العلاقات المصرية الأمريكية، أو بالأحرى موقف مصر إزاء «النظام العالمي الجديد»، وهي مواقف تجاوز بها المركز رصيده السابق في التوازن.

أقول ذلك، لأعبر عن الخشية والإشفاق من أن يكون هذا التجاوز لخطوط التوازن القديمة التي كان رسمها المركز لنفسه، مما يضيق به أفق التعبير لدى المركز عن السياسات المتنوعة التي تتراوح فيها رؤى الدولة المصرية وتتنقل بينها بمراعاة الخطوب والنوازل، وإن من تقاليد مؤسسة الأهرام في إنتاجها السياسي والفكري أن يكون «قماشها» عريضا يتسع لتعدد وتنوع ما تطيقه التوازنات العامة للدولة المصرية، وإن الحياة الفكرية والسياسية المصرية تخسر خسرانا يؤبه له، إن ضاقت هذه السعة وآلت إلى موقف سياسي أو فكري محدد لا يحتمل غيره.

وإن حولية «الحالة الدينية» على وجه الخصوص، بحكم موضوعها شديد الحساسية، وبحكم الطبيعة الخاصة جدا للفروق الدينية. إن حولية تصدر في هذا الشأن إنما تحتاج إلى درجة عالية من اليقظة والنظر المتعدد الجوانب، ومعرفة حد «الصراط»، والحالة الدينية لا تختزل في أنها محض «حالة سياسية»، ولا يجرى التعامل معها بحسبانها مجرد أحداث تجري، والمواقف بشأنها - في أصولها الثقافية - تكاد أن تستعصى على التعديلات التي تجرى مجرى الوقائع اليومية، مما تعرفه مجالات السياسة والاجتماع.

ومن جهة ثانية، فإن الدين أو «الحالة الدينية» ذات اتساع وشمول، هو عقيدة وشريعة وعبادات ومعاملات ومدارس فكرية ومذاهب فقهية، وهو تصور عن الكون وبارئه وعن الرسالة ونزولها وعن الزمان الممتد وعن الإنسان وصلته بربه وعلاقاته بالمجتمع وأنشطته المتباينة. وهو حركات سياسية وطرق صوفية وجمعيات خيرية ومنتديات ثقافية. والبناء واسع والمداخل متعددة ومتنوعة. وعندما ينشغل المنشغل بالدين، لابد أن يلج من أحد أبوابه، ولم تترك المقدمات الأولى للحولية التأسيسية الأولى مجالا للبحث في هذا الشأن. فقد أوضحت أن الأمر أمر «الإسلام السياسي» أو هو أمر الأداء السياسي للإسلام، وهو أمر ظاهرة طرأت من ١٩٧٤ انتقل بها الإسلام من محض استلهامات خلقية إلى مجال السياسة والثقافة. واكبت هذا الانتقال «العودة إلى الدين». ومع ما تشمله الحوليتان من وجوه النشاط الديني غير السياسي، تبقى النقطة التي يتعين إثارتها هي أن مجال النشاط السياسي الإسلامي وفكره يقع ضمن ذات المجال الذي يصدر بشأنه التقرير الاستراتيجي الحولي من ذات المركز، على أنه من الظاهر، أن الحولية وإن كان باعثها المستحث هو الشأن السياسي، فإن ما يميزها عن التقرير الإستراتيجي هو أنها ترصد وتتابع هذا الشأن في إطار الوعاء الإسلامي الأشمل، من حيث العمق العقيدي والشمول الثقافي، ومن حيث المؤسسات والهيئات العاملة في أي من جوانب النشاط الإسلامي، أو المسيحي، مثل الأزهر والأوقاف والمعاهد والطرق الصوفية، ومثل الكنيسة في كل من المذاهب المسيحية الموجودة بمصر.

وإن هذه الصلات والعلاقات والأنشطة، إن كان المعايشون لها يدركون تداخلها وتأثيراتها المتبادلة، إلا أن غير المعايش لها في مصر وغيرها من المهتمين بهذه الأمور، سواء في أجهزة صنع القرار أو غيرها، يحتاجون إلى مزيد إيضاح وتبين لإدراك مجالات التأثير المتبادل ولإيضاح الروافد والمنافذ. لذلك تبقى للحولية وجوه فوائد ووجوه تميز تتعلق بهذه المتابعات.

[٤]

على أن الحولية وهي تعتبر النشاط السياسي ظاهرة غير لصيقة بالدين، عزلت نفسها عن إدراك الروابط التي تصل بين الحالة الدينية والظاهرة السياسية، لدى من يربطون بين الدين والسياسة، وخسرت بذلك بعض قدرات التحليل للظواهر. والقارئ في النهاية يريد أن يفهم وأن يحسن تصور الواقع، وأن شرح الآلية الداخلية لأي فكرة وكيف يفكر العاملون بها، مما يهم القارئ وينفعه. ولكن المقررين للحولية لم يكن لديهم من التأني والمثابرة ما يبلغون به هذه الغاية، ومن ثم جاء الرصد والتحليل - وخاصة في الحولية الأولى - خارجيا وظاهريا يحكم على الظاهرة بمعايير ليست مستمدة منها، وليست متجردة من الفكر المخاصم، وترتب على ذلك، قدر كبير من فقدان التوازن، وخاصة بالنسبة للحولية الأولى.

فإن من تحدثوا عن الشق الإسلامي من الوضع الديني، يكشف نظرهم عن غربتهم عن إدراك هذه الصلات الفكرية والتاريخية، ومن الجلي أن «السياسة» أكثر ظهورا في الوضع الإسلامي منها في المسيحية، كما أن الظاهرة التي تتفتق لدى الكثرة العددية تكون أخطف للبصر وأجذب للاهتمام من الظاهرة ذاتها إذا تفتقت لدى الأقلية العددية، لذلك فإن الحولية كشفت عن ظواهر الإسلام السياسي، بما لم يظهر صنو له بين المسيحيين.

وجاء تحليل الظاهرة السياسية في الإطار الإسلامي وفي جو سياسي ينقسم بين مؤيد ومخاصم، وعرضت مع الشعور بالغربة، ومن وجهة نظر لا تدخل في حسابها، النسق الثقافي وآليات العمل الفكري لما يعتبر دعوة إسلامية.

ثم يجيء دور الثقافة الغربية السائدة لدى البعض من الباحثين لتبدو بها غربة أخرى تتعلق بالبحث في المؤسسات الإسلامية غير ذات الدعوة السياسية، كالأزهر والجمعيات. فجاء كل ذلك العرض يتخلله شعور، لا أقول مخاصم للأوضاع التاريخية والحاضرة في هذا المجال، ولكن أقول إنه شعور غير متفهم يتعامل مع ما يتصور أنه وضع غير طبيعي. وعلى خلاف هذه المعالجة، فإن الحولية تعرض للوضع المسيحي بواسطة دارسين وباحثين ينتمي كل منهم للمذهب الذي يعرضه، ولأهل هذا المذهب، لذلك تجيء العروض في أغلبها الأعم عروضا غير نقدية، وهي متفهمة وشارحة للنسق الفكري الداخلي لكل ظاهرة ولآليات العمل المذهبي الذي قام عليه أي من الأحداث والأوضاع في الشأن المسيحي..

وقد ترتب على ذلك خلل في التوازن بين العروض الخاصة بالشأن الإسلامي والعروض الخاصة بالشأن المسيحي، إذ افتقد التفهم في الأولى وتوافر التفهم والتعاطف في الثانية. وبدا ذلك أكثر ما بدا عند الحديث عن الأزهر مقارنا بالحديث عن الكنيسة الأرثوذكسية، بل إن الحديث عن الكنيسة الأرثوذكسية صورها بحسبانها مؤسسة صنوا للدولة المصرية، ورصد علاقتها مع الدولة في إطار علاقة بين مؤسستين ندين تقتربان وتبتعدان وتتآلفان وتتخاصمان، وخاصة في عشرات السنين الأخيرة.

وبدا ذلك أيضا عند النظر في الإعمال السياسي للإسلام وللمسيحية، فيرد الأمر في سياق عرض مخاصم بالنسبة للإسلام وفي سياق عرض يتراوح بين التفهم والتبرير بالنسبة للمسيحية. وبدا ذلك أيضا في عرض شئون من بالخارج، فاقتصر على الإسلاميين وهم ذوو نشاط سياسي معارض للحكومة المصرية، واقتصر على أقباط المهجر من المواطنين العاديين غير السياسيين، فجاءت صورة الإسلام في الخارج صورة عنف وتدمير وتفجير، وجاءت صورة المسيحية في الخارج صورة بناء للمدارس والكنائس والأديرة. وكان ذلك من دلائل الخلل المنهجي الذي اعتور الحولية الأولى.

على أن الصورة تعدلت في الحولية الثانية، وجرى التدارك للنشاط السياسي القبطي في الخارج في الولايات المتحدة وغيرها. أما في داخل مصر فقد انتقل الحديث إلى المعاهد الدينية والطرق الصوفية والجمعيات، واتسم الأمر بالبعد نوعا ما عن التقييم وإصدار الأحكام، وبقدر أكبر من الاستغراق في ذكر البيانات والمعلومات مما يعد ذا فائدة لا بأس بها للباحثين والدارسين.



[٥]

طبعا عندما يستقيم للحولية توازنها، ستكون مما ينتفع به الناس والدارسون، وستفيد في إلقاء الضوء على جوانب من الحياة المصرية، ولذلك فنحن هنا لا نناقش كتابا كتب وانتهى، ولا نناقش فكرا ورد في مؤلف واكتملت ملامحه، وإنما نحن نتابع عملا يجري في صيرورة، ويهمنا أن تكتمل وأن تنمو جوانب النفع الوطني العام منه. وإن التركيز على الأعداد الأولى وإعادة القول عنها يقدم باعتبار أثرها التأسيسي للحولية في قابل أيامها. والحقيقة أن الحولية الأولى فيما ورد بها تحتاج إلى إعادة بناء قد تتوافر أدواته، ويجرى العدول عن مقررات هذه الحولية في المتابعات القادمة. ونحن نأمل في ذلك وننتظره.

وثمة مسألة تستدعي التدقيق، فالحولية حولية نوعية تتعلق بوجه من وجود النشاط والفعل الإنساني، وتمتد في مجالات الثقافة والاجتماع والسياسة، فما الذي يميز الحالة الدينية أو الوضع الديني عن غيره من الحالات والأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية. ونحن عندما نتكلم مثلا عن المساجد أو الطرق الصوفية فلا شك نكون إزاء رصد لنشاط ديني، ذلك أن قلب الظاهرة لا يثير شبهة ولانحتاج إزاءه إلى البحث في معيار للتمييز، إنما نحتاج إلى هذا المعيار إذا عرضت لنا «المتشابهات» وهي كثيرة جدا في كل مجال ومتداخلة.

إن اتجاهات العنف الإسلامي هيئ لها أن تضغط على الحكومة بالإساءة إلى العلاقات المسيحية في الصعيد، فأضرت بالموقف الإسلامي وأضرت بالعلاقات الإسلامية المسيحية

فبالنسبة للأحزاب مثلا، لاشك فى شمول الظاهرة الدينية لجماعة الإخوان المسلمين وللجماعات الدينية، ولكن ما هو الوضع بالنسبة لحزب العمل مثلا وحزب الأمة، أين موقعهما من الظاهرة أو من الحالة الدينية. والجمعية الشرعية وجمعية التوفيق القبطية تدخلان فى الحالة الدينية، ولكن ما هو الشأن بالنسبة للجمعيات الخيرية. ثم ما هو الشأن بالنسبة للأحزاب التى تضع الشريعة الإسلامية واحدا من أهدافها والدستور الذى يضع الشريعة مصدرا رئيسيا للتشريع، ويصف الدولة بأنها إسلامية، وقانون الأحزاب الذى يسير إلى الشريعة الإسلامية، أو كليات الحقوق التى تدرس الفقه الإسلامى ماهوموقع هذه الظواهر.

أشير إلى هذه النقطة لا لأوضح مسألة معيارية فقط، ولكن لأوضح أن الدين متداخل فى المجتمع ومؤسساته وأفكاره ورجاله بما يصعب معه فرزه عن الظواهر الثقافية والتعليمية والاجتماعية والمؤسسية، ونحن عندما نقول الظاهرة أو الحالة الدينية، نكون على اختلاف وتداخل مع أمور كثيرة، كما لو قلنا الظاهرة أو الحالة اللغوية ونتساءل ما الذى نرصده وما الذى نتركه. أقصد بذلك أن نكون على إدراك بحجم التداخل والترابط الكبير، وأن نستجيب لهذا الإدراك بأن تكون معاييرنا مرنة جدا وفضفاضة فلا نعزل الشأن الدينى عن شئون الحياة التى تمارس به فى العديد من وجوه النشاط البشرى، ولا نعزله عن شئون الثقافة التى يشكل منها فى التكوين الذهنى للمواطن سهما بعيد الغور. وإننا لو أجرينا هذا العزل فلن نضر الدين شيئا ولكننا سنضر قدرتنا على الفهم وتحليل الظواهر الثقافية والاجتماعية والسياسية. وما وضعت الحولية وصدرت إلا على أمل زيادة قدرات الفهم لدى من يطالعونها.

ونحن نعرف أن محاصرة النشاط الثقافى الإسلامى فى مجال معين، ينقل هذا النشاط إلى مجال آخر، هكذا كانت الدعوة الثقافية تقوم من الأزهر، ثم انتقلت إلى جماعات خارج الأزهر على مدى القرن الماضى، بل إنها انتقلت إلى عناصر ووجود نشاط من الجامعة المصرية منذ الثلاثينيات، وانتقلت من الطرق الصوفية إلى جمعيات مثل الجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة وغير ذلك، ومع ضم المساجد إلى وزارة الأوقاف مما يجرى فى السنوات العشرين الأخيرة، ويحتمل لها انتقالا من نوع جديد وهكذا، ونحن نلحظ مثلا أن الدعوة إلى حجاب السيدات ظهرت منذ السبعينيات من خلال الممارسة والانتشار أكثر كثيرا مما ظهرت من خلال الكتب والمقالات والندوات والمؤتمرات.

لذلك فالأمر هنا عند بحثه أو متابعته لا تفيده كثيرا المعايير الجامدة لأنها لا تقدر على ملاحقته، ولا تعيره المعايير الفاصلة لأنها تنحسر عن متابعته. وهنا تنفعنا الفكرة الجميلة التى ساقها مالك بن نبى، الذى فرق بين الفكرة المشخصة والفكرة المجردة، والفكرة المشخصة هى ما يتوقف وجودها على وجود شخص أو هيئة أو جماعة أو حزب يدعو إليها ويرعاها، وتذوى باختفاء وجود من يقوم عليها، والفكرة المجردة هى ما يسرى بين الناس دون توقف على وجود شخص أو مؤسسة دعاية أو رعاية، وعلينا أن نرعى هذا الفارق عند النظر إلى الأفكار والثقافات.



[٦]

يظل الجانب المسكوت عنه هو من أخطر جوانب الموضوع، ومن أكثرها إثارة للجدل والإشفاق، وهو الآثار التى تترتب على الحالة الدينية فى الحياة السياسية والاجتماعية. وهى علاقة المواطنة بين المسلمين والمسيحيين من مواطنى مصر، والعلاقة الثقافية بين ذوى النزوع الثقافى الإسلامى وبين ذوى النزوع الثقافى العلمانى. ولا أعرف هل الحولية تعتبر هذا الجانب من جوانب «الحالة الدينية فى مصر» مما يستدعى أن تتضمنها أبحاثها التأسيسية الأولى من جانب، ثم تجرى المتابعة الدورية لها من بعد.

والأمر هنا يتعلق برصد الوقائع المتعلقة بهاتين المسألتين، فما أكثر ما يثور الجدل حولهما وما أكثر ما تقوم التساؤلات بشأنهما. ولا ترتيب على الحولية إن تفادت العرض التأسيسى فى هذين الأمرين استمساكا بالبعد عن مجال حرج، ولكن تبقى أهمية متابع الوقائع على هذين الصعيدين. فإن الشواغل تشغلنا عن الإحاطة بكل ما يجرى فى حياتنا المعيشية من وقائع تهمنا، ونحن نحتاج إلى من يجمعها ويصنفها، حتى نكون أكثر يقظة وأبعد نظرا وأدق فهما لما يجرى حولنا ونكون أقدر على معالجة المشاكل.

وهذا الجانب فى ظنى يحتاج إلى جهود وإلى بصر بالأمور، وأنا لا أنسى كلمة قالها لى الأستاذ الجليل الراحل إبراهيم فرج باشا، الذى كان توليه الوزارة وجواره لمصطفى النحاس فى ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ وكونه مساعد أمين عام حزب الوفد وقتها، كان كل ذلك يجعله واحدا من المطالعين لأدق أوضاع السياسة المصرية فى تلك السنين، ومع ذلك لما قرأ كتابا ظهر فى السبعينيات عن هذه الفترة، قال لى إنهم لم يكونوا يرون كل هذه الوقائع والاتجاهات وقتها. ولاتزال كلمته هذه تجول فى صدرى.

وإن أنسى لا أنسى وأنا فى أواخر الستينيات أواظب على مطالعة الصحف، طالعت صحيفة كانت تصدر فى مصر باسم «إسرائيل» أصدرها ألبرت مزراحى منذ سنة ١٩٢٠، وكانت صحيفة تدعو للصهيونية. قرأت ذلك فى الستينيات ومشكلة فلسطين وإسرائيل وحروبنا معها فى ذروتها، وعجبت ولا أزال، كيف لم يدرك المصريون خطر أن يوجد بين ظهرانيهم من يدعون هذه الدعوة جهارا ونهارا، و تصورت أن الأمر يعود إلى أنهم لم يفطنوا إلى وجودها، فلاشك أن كان تداولها جد محدود، فضلا عن ثقة المصريين برسوخ الوجود العربى، واستبعادهم أن هذا الواقع التليد يمكن أن يتغير.

صيرتنى مثل هذه الدروس أشد حذرا مما يمكن أن يقوم بيننا من ظواهر لا نفطن إلى قيامها ولانراها فى غمرة ما يحيطنا من جلبة وضجيج وأضواء خاطفة، أو يمنعنا فرط الثقة بالوجود الراسخ التليد عن تصور ما قد يلحق من هدم وتغيير، لذلك أثارت لدى مشاعر القلق، زيارتى لمتحف النوبة فى أسوان فى العام الماضى. وجدته متحفا يحكى قصة النوبة من محافظة قنا إلى جنوب الحدود المصرية ويصور مجدها الغابر وممالكها وفراعينها وآثارها، بمثل ما يصور هامشية وجودها الحاضر، ووجدته يفصل تاريخها عن تاريخ مصر، وأول ما تتميز به الأمم وتنفصل الشعوب هوفصل التاريخ بعضه عن بعض، ووجدت زائرين ومشاهدين كثيرين يتكشفون تاريخهم بهذه الصورة. وتذكرت برامج أجنبية ومقالات كتبت عن شعب النوبة وما يشكو منه الآن فى مصر. وتذكرت عجبى وأنا بدار الكتب فى الستينيات أطالع الصحف القديمة، وتساؤلى كيف غفل أهل ذلك الزمان عما يجرى أمام أعينهم.

وطبعا لايدخل المثال السابق فى مجال «الحالة الدينية» ولكننى أسوقه مثلا لنتدبره وننظر فيه، ولنقول أن ليس من حقنا أن نغفل عن وقائع من هذا النوع تتراكم قليلا قليلا مع الوقت، ثم نفاجأ بها من أمور الواقع بعد أن لايكون منها مناص. ونحن اليوم نشاهد دعوة لتعليم اللغة القبطية القديمة التى لا يتكلمها الأقباط، وممارسة لهذا التعليم على مستوى شعبى فى الصحف السيارة لا فى مطبوعات المتخصصين، ونحن نعرف أن اللغة المستعملة شعبيا هى المقوم الأساسى للجامعة السياسية التى تقوم على الأساس القومى.

وسيبقى الصالح الوطنى العام هو ما يكون الفيصل ومعيار الحكم على الظواهر والوقائع، أيا ما كان مصدر الفعل وأيا ماكان موقعه من جماعات الأمة وفئاتها الثقافية والسياسية والإقليمية على سواء. وكما أن الصالح الوطنى العام يفرض حدوده وضوابطه على أى تجاوزات أو نتوءات تتبدى وتتعارض معه، فإن هذا الصالح الوطنى العام هو فى النهاية متكون مما يضم ويحتضن من صوالح ذاتية لكل مكوناته البشرية، ثقافية كانت أو سياسية أو إقليمية أو عرقية، وواجبه مراعاتها والمحافظة عليها.



[٧]

نحن نرنو إلى أن تكون الحولية سجلا لحياتنا ومرآة لواقعنا ونحن نحاول التركيز على ما يزكو به العمل، وقد كنت لاحظت فى الحوليتين أن واحدة منهما لم تتعرض للأحجام ولا للأوزان النسبية لكل من ذوى الأديان أو المذاهب فى مصر. وظننت أننا ما دمنا فى إطار الأعداد التأسيسية الأولى، فقد يكون أُرجئ الحديث فى ذلك العدد لعدد لاحق، أو قد يتدارك ما نسى فى هذا الأمر فى عدد لاحق. ولكننى رأيت فى افتتاحية العدد الثانى ما يشير إلى أن هذا الإغفال يكاد يكون مدركا ومعروفا سلفا عند إعداد الحوليات، واعتُبر ذلك فتحًا فى النظر لأنه ينظر إلى الدين الإسلامى أو المسيحى «على قدم المساواة ودون اعتبار لأعداد البشر الذين ينتمون لكل الديانات السماوية»، ولم أفهم كيف يكون عدم الاعتبار بالأعداد البشرية هو من قبيل المساواة، ونحن إذا أسقطنا الاعتبار بالأعداد البشرية فسيكون للصفر شأن الألف أو المليون، بمعنى أن يصير العدم شأنه شأن الوجود، وإذا كان عدم الاعتبار بالأعداد البشرية قد سانح به الحديث عن اليهود فى مصر وهم الآن من النزر اليسير جدا، فقد يكون الإمعان فى عدم الاعتبار مما يسوغ به الحديث عن البوذية فى مصر. وعدم الاعتبار بالأعداد بهذا المنطق يسوى بين اليهود والمسيحيين فى مصر، ويسوى بين الأدفنتست بأفرادهم المعدودين وبين قبط مصر الأرثوذكس بملايينهم المعروفة، ويسوى بين مسلمى مصر الذى يبلغون نحو ٩٤٪ من السكان وبين غيرهم، كما يسوى بين المسلمين السنة وهم كل مسلمى مصر وبين أفراد من الشيعة، لا يكادون يحسبون بالمئات، كما يسوى بين أقباط مصر الأرثوذكس الذين يشكلون ما يجاوز أربعة أخماس مسيحيى مصر وبين المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت، وإذا كان هذا الإغفال مدركا باعتباره مما يصور العقائد على قدم المساواة فهل يصلح تصويرا للواقع المصرى، وهل يقضى الأمر كله إلى فهم حقيقى لمصر، لمن يريد أن يتدبر أمره وأمرها.

وكل ما نرجوه ونأمل فيه ونثق فى إمكان تحققه إن شاء الله ـ أن تكون الحولية مرآة نقية للأحوال التى تعكسها.

والحمد لله

الجانب المسكوت عنه هو من أخطر جوانب الموضوع، ومن أكثرها إثارة للجدل والإشفاق، وهو الآثار التى تترتب على الحالة الدينية فى الحياة السياسية والاجتماعية. وهى علاقة المواطنة بين المسلمين والمسيحيين من مواطنى مصر، والعلاقة الثقافية بين ذوى النزوع الثقافى الإسلامى وبين ذوى النزوع الثقافى العلمانى

كيف تصدعت لوحة «الموزاييك»؟

خريطة حركات العنف الإسلامية فى مصر

محمد صلاح

«أثبتت الأحداث
عدم صحة ما توقعه البعض
من أن مصر ستتحول إلى دولة
أصولية تهز العالم على غرار
ما حدث مع تفجر
ثورة إيران»

فرضت «الحالة الإسلامية» نفسها على كتابات المفكرين والسياسيين إلى درجة يصعب معها حصر الكتب والأبحاث والدراسات التى تناولت نشأة وتطور ونشاط الحركات الإسلامية التى توالدت وتكاثرت وانتشرت وتشعبت، وتخطت حاجز المحلية وصارت لها فروع ومحطات ومراكز فى دول لم يكن يخطر على بال أحد فى الماضى أن يكون للأصوليين الإسلاميين مواقع فيها.

ومنذ اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات فى شهر أكتوبر من عام ١٩٨١ زاد الاهتمام بأحوال الأصوليين وصراعهم مع السلطة، خصوصًا بعدما كشفت أوراق قضية اغتياله أن خريطة توزيع عناصر تنظيمى «الجماعة الإسلامية» و«الجهاد» - اللذين التقيا عام ١٩٨٠ فى تحالف أسفر عن اغتيال رئيس مصر فى ذلك الوقت - تفوق فى مساحتها والمراكز المتناثرة على رقعتها داخل مصر تصورات خبراء الأمن وتوقعاتهم.



وإذا كان الخط البيانى لنشاط الحركات الإسلامية الراديكالية شهد منذ عام ١٩٩٢ صعودًا بالغًا وتكثيفًا جعل من مرور أسبوع واحد دون وقوع حادثة من «الوزن الثقيل» أمرًا نادرًا.. فإن حالة الهدوء وانحسار عمليات العنف - منذ حادثة الأقصر الشهيرة التى وقعت فى شهر نوفمبر عام ١٩٩٧ وأسفرت عن مقتل ٥٨ سائحًا وأربعة مصريين إضافة إلى منفذى العملية الستة فتحت مجالاً آخر للبحث والنقاش عن مستقبل تلك الحركات، خصوصا أن الشهور القليلة الماضية أثبتت أن المواقع المهمة فى خريطة توزيع تلك الحركات شهدت تغييرات وتطورات كبيرة خارج البلاد.

وفى الغالب فإن كتابات المحللين والمفكرين الأجانب حول «الظاهرة الأصولية» لا تعكس فهمًا لحقيقة الأحداث وطبيعة الأمور. وبالتالى فهى تصل فى معظم الأحيان إلى افتراضات غير مقبولة ونتائج غير صحيحة. وفى كتاب «الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث» للكاتب الباكستانى دليب هيرو، بدا المؤلف متأثرًا بوجهة النظر الغربية وطريقة التحليل التى تقوم على سرد وقائع عن نشأة الحركات الإسلامية فى كل من مصر وسوريا وليبيا والمملكة العربية السعودية وأفغانستان والفوارق بينها على المستوى الفكرى والحركى من منظور تاريخى اعتمد فى غالبيته على معلومات منشورة فى الصحف دون الحصول على توثيق لها من الجهات المعنية بالأمر، أى قادة الأصوليين أنفسهم، إضافة إلى الأجهزة الرسمية فى الدول التى تناولها المؤلف. وبالنسبة لمصر فإن ذلك كان السبب فى أن المؤلف وصل إلى نتيجة أثبتت الأحداث أنها غير صحيحة حين حذر من أن «بزوغ مصر كدولة أصولية وهى دولة سنية لها أهميتها الاستراتيجية فى داخل الوطن الدينى سيهز العالم الإسلامى وغير الإسلامى على نحو يشبه كثيرًا ما حدث لدى تفجر الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩»[١].

خرج كتاب هيرو إلى الضوء عام ١٩٨٨ أى قبل سنوات الصراع العنيف بين الأصوليين والحكومة المصرية فى التسعينيات. لكن ترجمته إلى العربية ظهرت عام ١٩٩٧ وعلى الرغم ذلك فإن نحو سنة ونصف سنة من الهدوء التام تقريبًا نعمت به مصر أخيرًا أثبت

---

١ - الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث
تأليف: دليب هيرو
ترجمة: عبد الحميد فهمى الجمال
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٢ - جماعات العنف المصرية المرتبطة بالإسلام: الجذور التاريخية والأسس الفكرية والمستقبل
أبو العلا ماضى
القاهرة: المركز الدولى للدراسات، ١٩٩٧.

أن المؤلف بنى توقعه على افتراض غير منطقى، وهو اكتفى بعرض تاريخى لنشاط جماعة «الإخوان المسلمين» والحركات الإسلامية الراديكالية التى تفرعت أو تولدت منها، وتلك التى نشأت عشوائيًا دون أن تمتد جذورها إلى «الإخوان»، دون أن يرصد خريطة توزيع تلك الحركات والأراضى الخصبة التى استغلها قادتها والتى أثبتت أحدث قضية نظرت أمام القضاء العسكرى المصرى والتى عرفت باسم «العائدون من ألبانيا» أنها بدأت فى الجفاف تحت أقدام الإسلاميين. وأن تبدل الظروف والأوضاع الدولية والإقليمية أطاح «بلوحة الموزاييك» التى رسمتها تلك الخريطة فبدأت فى التشقق والانهيار.



وفى المقابل فإن الدراسة التى أعدها وكيل مؤسسى حزب الوسط المهندس أبو العلا ماضى وطرحها المركز الدولى للدراسات فى كتيب صغير بعنوان «جماعات العنف المصرية المرتبطة بالإسلام.. الجذور التاريخية والأسس الفكرية والمستقبل» ركزت على «الأسباب الحقيقية لظاهرة العنف التى ازدادت فى السنوات الأخيرة، مهددة الوطن فى استقراره وتطوره ووحدته». وحرص ماضى أن يذكّر القارئ بأن جزءا مهما من المعلومات الواردة فى دراسته كان مصدرها هو نفسه لكونه أحد المشاركين فى نشاط الحركة الإسلامية منذ السبعينيات فى المرحلة الطلابية وسجن إبان أحداث عام ١٩٨٠، وظل على علاقات بكثير من الرموز المعاصرة لغالبية المحسوبين على الحركات الإسلامية بمختلف مسمياتها.

وعلى الرغم من عدم وجود خريطة محددة لانتشار «الجماعات الإسلامية الراديكالية» بحكم تحركها وامتدادها وتحالفاتها، فإن الصورة العامة لما يدور توحى بأمور مهمة للغاية، ليس فقط من زاوية معرفة المناطق التى تنتشر فيها «الجماعات الإسلامية»، لكن أيضا من زاوية معرفة أين تنتشر جماعات بذاتها، أو أفكار معينة، فخريطة انتشار الجماعات هى أحد المفاتيح الأساسية لفهم أسباب الظاهرة، وأساليب المواجهة.

فـ «الجماعة الإسلامية» يتركز وجودها الجغرافى داخل البلاد فى محافظات الصعيد. وقد استطاعت تلك الجماعة فى منتصف الثمانينيات أن تمد نفوذها إلى القاهرة، وأن تعيد تنظيم كوادرها بصورة خلقت لها تمركزًا فى العاصمة، وخاصة فى الأحياء الشعبية مثل عين شمس، وإمبابة، والعمرانية، وشبرا. أما جماعة «الجهاد» التى تعتمد عادة على مجموعات سرية صغيرة، فإنها تتركز أساسًا فى القاهرة الكبرى ولاسيما فى المناطق والأحياء العشوائية و الفقيرة المحيطة بمناطق متحضرة مثل كرداسة وناهيا وأبو زعبل، وقد تمكنت «الجهاد» من الوصول إلى بعض المحافظات فى الوجه البحرى أيضا.

وبالطبع، فبعيدًا عن مناطق التمركز السابقة توجد مراكز مهمة لجماعات أخرى أو امتدادات «للجهاد» و«الجماعة الإسلامية» فى بعض المحافظات مثل بنى سويف، والفيوم، والإسكندرية، والبحيرة، وهى كلها أمور تتطلب تحليلاً دقيقًا لمسألة التوزيع الجغرافى، ولمعدل الانتشار فى مدى معين أو قطاع معين، وغير ذلك وبالذات بالنسبة «للجماعة الإسلامية» إضافة إلى ضرورة تحليل امتدادات تلك المجموعات فى خارج البلاد [٢].

ولا يمكن رصد خريطة توزيع الحركات الإسلامية الراديكالية المصرية، وكذلك تحديد فروعها ومحطاتها الموجودة خارج البلاد دون التعرض إلى الظروف التى نشأت فى ظلها منذ منتصف الستينيات، إذ إن ظهور بعضها ارتبط بظروف سياسية ومكانية فى آن واحد. وإذا كان نشاط تنظيم «الجماعة الإسلامية» فى السبعينيات ارتبط بمناخ من الحرية منحه الرئيس الراحل أنور السادات للتيار الإسلامى، وخصوصا فى الجامعات فإن الجماعة نفسها استغلت ذلك المناخ وأسست قواعدها فى جامعة القاهرة. أما مركزها فظل دائما فى محافظات الصعيد بصفة عامة ومحافظتى المنيا، وأسيوط بصفة خاصة. غير أن التنظيم الرئيسى الآخر المعروف فى مصر وهو جماعة «الجهاد» الذى يقوده حاليًا الدكتور أيمن الظواهرى الذى يعيش حاليا فى أفغانستان فيمكن اعتباره بوتقة انصهرت داخلها جماعات وتنظيمات «جهادية» أخرى نشأ بعضها عشوائيا فى بعض مناطق القاهرة ومحافظات الوجه البحرى وكان بعضها الآخر امتدادا لتنظيمات أخرى ظلت تتعرض لضربات أمنية إجهاضية منذ تأسيسها فى الستينيات.

واللافت أن اسم «الجماعة الإسلامية» ظهر فى السبعينيات عنوانًا للتيار الإسلامى غير المنضم فى تنظيم، والمستقل عن كل التنظيمات وكان اسمها «الجماعة الدينية» كجماعة نشاط فى كليات الجامعات. ثم غير الشباب المتدين من أعضاء الجماعة فى ذلك الوقت الاسم إلى «الجماعة الإسلامية»، وكان من رموز هؤلاء الشباب بالجامعات المصرية كل من عبد المنعم أبو الفتوح وعصام العريان (جامعة القاهرة)، وإبراهيم الزعفرانى وخالد داود (جامعة الإسكندرية)، والسيد عبد الستار وأحمد الدغيدى (جامعة عين شمس)، وخيرت الشاطر (جامعة المنصورة)، وأسامة عبد العظيم وعبد الله سعد (جامعة الأزهر)، وأنور شحاتة (جامعة طنطا)، ومحيى الدين عيسى (جامعة المنيا)، وأسامة حافظ وصلاح هاشم (جامعة أسيوط). لكن تيارا بدأ ينمو فى جامعات الصعيد، وخصوصا فى المنيا وأسيوط يدعو إلى التغيير بالقوة، ولكنه كان محاصرًا بالغالبية التى ترفض ذلك إلى أن ارتبط عدد من رموز الجماعة فى عام ١٩٧٩ بالإخوان المسلمين فرد عليهم قادة الجماعة فى الصعيد بإنشاء تنظيم خاص بهم يدعو إلى التغيير بالقوة، وتزعم هذه الخطوة كرم زهدى ومعه ناجح إبراهيم وعاصم عبد الماجد وأسامة حافظ وعاصم دربالة وفؤاد الدواليبى وطلعت فؤاد قاسم وحمدى عبد الرحمن وآخرون [٣].



وليس سرًا أن أفكار ومبادئ سيد قطب التى تبلورت فى كتابه «معالم فى الطريق» الذى أنجزه عام ١٩٥٧ تعد أحد المرتكزات الأساسية للأسس التى قامت عليها كل الحركات الإسلامية الراديكالية فى وقت لاحق. ورغم إعدام قطب فى منتصف الستينيات، إلا أن كتابه ظل مرجعا للإسلاميين الراديكاليين الذين يرفعون راية الجهاد ويكفرون السلطة والحاكم.

وفى الوقت الذى كان فيه «شباب الإخوان» داخل السجون يلتفون حول مرشدهم حسن الهضيبى للتصدى «للمتطرفين الجدد» الذين يطالبون بحمل السلاح ومقاومة السلطة تسلل كتاب قطب إلى خارج السجن ليكون سببا فى تكوين أول فصيل «جهادى» فى القاهرة يتزعمه إسماعيل طنطاوى وضم أيضا كلا من نبيل البرعى ويحيى هاشم ومحمد عبد العزيز الشرقاوى وعلاء مصطفى وأيمن الظواهرى الذى كان مازال صغير السن(٤). وفى وقت لاحق خرج أحد أفراد الإخوان وكون لنفسه «تنظيما جهاديا» آخر ذا نزعة تكفيرية ذاع صيته فيما بعد. إذ أنشأ على إسماعيل وهو شقيق عبد الفتاح إسماعيل الذى أُعدم مع سيد قطب «جماعة المسلمين» ـ التى عرفت إعلاميا باسم «التكفير والهجرة» ـ وتمكن إسماعيل من ضم نحو ١٥ شخصًا من شباب الإخوان غالبيتهم من القاهرة والمنيا وأسيوط كان بينهم شكرى مصطفى الذى تزعم الجماعة فى فترة تالية. وقام منهج الجماعة على تكفير المجتمع كله حكاما ومحكومين، كما رأت أن إقامة «المجتمع الإسلامى» تتم على مرحلتين، الأولى: تقوم على الهجرة إلى مكان بعيد لإقامة «المجتمع الطاهر». والثانية: وهى مرحلة التمكين وتقوم على العودة ومحاربة حكام فى البلاد لإقامة الدولة الإسلامية. غير أن زعيم الجماعة ما لبث أن انقلب عليها عام ١٩٦٩، وأعلن عودته إلى الجماعة الأم «الإخوان المسلمين» وعلى الفور تولى شكرى مصطفى الزعامة. وكان قد دخل السجن بعد ضبطه أثناء قيامه بتوزيع منشورات مناهضة داخل الجامعة. وعندما خرج مصطفى عام ١٩٧١، اتبعه عشرات من الأشخاص قاطعوا العمل فى الحكومة أو الدراسة فى الجامعة. وبمرور الوقت ارتفع عدد أعضاء الجماعة. وردا على قيام الشرطة بالقبض على ١٤ من أعضاء الجماعة أقدم شكرى وبعض من أتباعه يوم ٣ يوليو عام ١٩٧٧على اختطاف الشيخ حسين الذهبى، وقدموا مطالب إلى الحكومة شملت الإفراج عن المعتقلين ودفع فدية مالية مقابل إطلاق الذهبى وجاء الرفض الحكومى متوقعا، فقامت الجماعة بقتل الشيخ الذهبى يوم ٧ يوليو ولم تمر سوى أسابيع قليلة، إلا وكان شكرى مصطفى وأربعة من زملائه معلقين على حبال المشانق كما حكم على باقى أفراد الجماعة بالسجن لمدد متفاوتة(٥).

ولم تتوقف «عناقيد» التنظيمات الدينية عند هذا الحد، ففى الوقت الذى كانت جماعة «التكفير والهجرة» تتبلور فى بداية السبعينيات ظهر المواطن الأردنى صالح سرية الذى فرّ من الأردن إلى العراق ومنها إلى مصر عقب أحداث أيلول الأسود (سبتمبر ١٩٧٠) وكون تنظيما «جهاديا» آخر كان من أبرز أعضائه حسن الهلاوى وكارم الأناضولى. وحاول التنظيم عام ١٩٧٣ احتلال مقر الكلية الفنية العسكرية بهدف الحصول على السلاح الموجود داخلها واستغلاله فى الهجوم على مقر اللجنة المركزية حيث كان السادات يعقد اجتماعا مع قادة الدولة، ثم التوجه إلى مقر الإذاعة والتليفزيون لإعلان قيام الدولة الإسلامية، وفقا لما كانت تقتضيه الخطة، لكن المحاولة فشلت وألقى القبض على أعضاء التنظيم وأعدم سرية عام ١٩٧٥ وحكم على باقى الأعضاء بالسجن.

ويصعب حصر المجموعات «الجهادية» التى تكونت لاحقا، فإلى جانب تنظيم يحيى هاشم وإسماعيل طنطاوى وأيمن الظواهرى ظهرت تنظيمات أخرى، لعل أهمها التنظيم الذى تزعمه المهندس محمد عبد السلام فرج صاحب كتاب «الفريضة الغائبة» الذى انتقد فيه بشدة معظم المجموعات الدينية الأخرى لكونها «تغيِّب فريضة الجهاد عن مبادئها». وفى مسجد الفتح بحى «إمبابة» التقى فرج وكل من عبود الزمر وطارق الزمر ونبيل المغربى الذين كانوا نواة لأشهر تنظيم حمل اسم «الجهاد»(٦). وطاف فرج بمحافظات الوجه البحرى ومناطق القاهرة والتقى مع قادة «الجماعات الجهادية» الصغيرة التى نشأت فيها وتمكن من توحيدها تحت لافتة «تنظيم الجهاد».

وعلى الجانب الآخر كان تنظيم «الجماعة الإسلامية» ينتشر فى هدوء بين أوساط الطلاب فى الجامعات المصرية، وخصوصا فى محافظات الصعيد. ويرجح أن التنظيم نشأ أساسا فى محافظة المنيا على أيدى أسامة حافظ، ثم انتشر فى المحافظات الأخرى. وفى الصعيد انضم إلى التنظيم كل من طلعت فؤاد قاسم وكرم زهدى وعاصم عبد الماجد وناجح إبراهيم وعصام دربالة، وانتهى لقاء جمع بين فرج وزهدى فى بداية عام ١٩٨١ إلى اتفاق تم بمقتضاه اندماج «تنظيم الجهاد» مع «الجماعة الإسلامية» فى تنظيم واحد(٧). واختير الدكتور عمر عبد الرحمن أميرا للتنظيم الجديد وانتقل «مجلس شورى التنظيم» إلى الفيوم ليبايع عبد الرحمن، ولم يمض سوى أشهر قليلة حتى وقعت أشهر حادثة اغتيال فى تاريخ مصر حين نفذ التنظيم عملية المنصة التى اغتيل فيها أنور السادات. وداخل السجن ثارت خلافات شديدة بين أقطاب «الجهاد» وأقطاب «الجماعة الإسلامية» حول عدة أمور، إذ رأى فريق أن عملية اغتيال السادات لم تحقق الهدف منها وأوقعت كل أعضاء التنظيمين «المتحالفين» فى قبضة الشرطة وتسببت فى ضرب كل الجماعات الموجودة على الساحة. كما اعترض فريق على الأحداث التى جرت فى أسيوط فى اليوم التالى لاغتيال السادات وهى الأحداث التى أسفرت عن مقتل أكثر من مائة ضابط وشرطى إضافة إلى قتلى «الجماعة الإسلامية» هناك، ولكن الخلاف الأشد كان حول مسألة «الإمارة» على الجماعة إذ رفض عبود الزمر وعصام القمرى وأيمن الظواهرى بشدة مسألة استمرار عبد الرحمن فى موقع القيادة لكونه «ضريرا»، فى حين عارض المنتمون أساسا إلى «الجماعة الإسلامية» تولى عبود الزمر إمارة الجماعة لكونه «أسيرا» بعد صدور أحكام ضده يبلغ مجموعها ٤٠ عاما بالسجن، وانتهى الأمر بانفصال التنظيمين وفض التحالف(٨).



وبعد إعدام محمد عبد السلام فرج وأربعة آخرين من أعضاء «الجهاد» خرج عدد من قادة التنظيمين بعد أن برأتهم المحكمة وبدأ كل فريق فى التخطيط للخطوات المستقبلية. وطرحت «الجماعة الإسلامية»، منهاج العمل الإسلامى الذى اعتبر دستور الجماعة ومنهاجها، وقام بإعداده داخل السجن ثلاثة من قادتها هم ناجح إبراهيم وعاصم عبد الماجد وعصام دربالة. أما «تنظيم الجهاد»، فطرح المنهج الحركى لجماعة الجهاد الذى أعده عبود الزمر وشارك فى إعداده الفلسطينى عصام مطير الذى تولى بعد خروجه من السجن مع مجدى سالم مهمة متابعة نشاط أعضاء التنظيم، وفى الوقت نفسه كان أيمن الظواهرى يحاول جمع شتات مجموعته بالتنسيق مع سالم ومطير، واتخذ أقطاب «الجهاد» من مسجد النور فى العباسية مركزا لنشاطهم، وبعد أشهر كان للتنظيم وجود ملموس فى كرداسة وبولاق الدكرور وبعض محافظات الوجه البحرى، وخصوصًا فى المنوفية والشرقية.

وعلى الطرف الآخر حاولت «الجماعة الإسلامية» مد نشاطها ليشمل الوجه البحرى والقاهرة، ودفعت بمحمد شوقى الإسلامبولى للإقامة فى حى عين شمس، حيث اتخذ من مسجد آدم مقرا لنشاطه، ونجح فى ضم عناصر جديدة لعضوية الجماعة وتجول ما بين أحياء ومناطق القاهرة وتمكن من خلق بؤر لـ «الجماعة الإسلامية» فى إمبابة والزاوية الحمراء وحلوان.

ثم تأثر نشاط جماعة «الجهاد» بشدة بسفر أيمن الظواهرى ومجدى سالم وعادل السيد عبد القدوس وأحمد سلامة مبروك إلى بيشاور فى باكستان وترحيل عصام مطير إلى الخارج. وفى بداية عام ١٩٩٠ حدث دمج كامل بين مجموعة أيمن الظواهرى ،ومجموعة عبود الزمر واتفق على أن يكون الأول أميرا للجماعة على أن يكون الثانى زعيمها الروحى، لكن الزمر عاد وانضم إلى «الجماعة الإسلامية» وتخلى عن دوره الروحى فى جماعة «الجهاد»(٩).

وحتى عام ١٩٩٠ لم يكن لأعضاء الأجنحة العسكرية للجماعات الدينية المحظورة نشاط مؤثر باستثناء بعض حوادث نفذها أعضاء فى تنظيم «الجهاد» وأحرقوا فيها بعض المسارح عام ١٩٨٦، إضافة لمحاولات اغتيال كل من وزيرى الداخلية السابقين نبوى إسماعيل وحسن أبو باشا والصحفى مكرم محمد أحمد رئيس تحرير المصور التى نفذت بواسطة عناصر تنتمى إلى تنظيم «الناجون من النار» الذى كانت أفكاره تشبه أفكار ومبادئ جماعة «التكفير والهجرة»، لكن نشاط تلك الجماعات شهد تحولا كبيرا نحو التصعيد الخطير قبل نهاية عام ١٩٩٠ على أثر مقتل المتحدث باسم تنظيم «الجماعة الإسلامية» الدكتور علاء محيى الدين حينما أطلق مجهولون عليه النار أثناء سيره فى أحد شوارع منطقة الطالبية فى حى الهرم، واتهمت الجماعة أجهزة الأمن بتنفيذ الحادث وقررت تنفيذ عملية انتقامية تستهدف وزير الداخلية آنذاك اللواء عبد الحليم موسى، وكمن عدد من عناصرها لموكبه فى حى جاردن سيتى أمام فندق سميراميس فى أكتوبر من العام نفسه، إلا أنهم أخطأوا الموكب وهاجموا بدلا منه موكب الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب وقتلوه.

وبعد الحادث بدت فى الأفق بوادر صدام متصاعد بين الشرطة و«الجماعات» ووقعت معارك متفرقة بين الطرفين فى محافظات عدة من بينها الصدام الشهير بين جماعة الشوقيين فى الفيوم وبنى سويف، وبين قوات الأمن هناك. وفى عام ١٩٩٢ بدأت دائرة العنف تتسع وتفجر الموقف فى مدن الصعيد بعد أن حدثت الشرارة الأولى فى قرية صنبو التابعة لمدينة ديروط فى محافظة أسيوط حينما قتل أعضاء فى «الجماعة الإسلامية» ١٣ مسيحيا وبعدها سرت نار العنف وانتشرت بين محافظات الصعيد، ونفذت سلسلة عمليات لاغتيال الضباط والجنود فى الشوارع، وردت الشرطة بشن حملات مكثفة على الأوكار التى أوى إليها أعضاء الجناح العسكرى لتنظيم «الجماعة الإسلامية» فى مدن الصعيد، وأصبح من النادر أن يمر يوم دون أن نسمع عن حادثة راح ضحيتها ضابط أو شرطى أو أكثر أو عدد من أعضاء الجماعات الدينية.

غير أن المواجهات دخلت منعطفا خطيرا حينما انتقل نشاط الجماعات الدينية إلى القاهرة ووقعت حوادث التفجيرات الشهيرة، وحادثة اغتيال الكاتب فرج فودة، واغتيالات لعدد من كبار ضباط الشرطة، وضرب السياحة، ومحاولة اغتيال السيد صفوت



«عقب انتهاء الحرب الأفغانية، وجد «الأفغان العرب» أنفسهم أمام خيارين كلاهما مر: أن يقسموا أنفسهم بين فصائل المجاهدين فيتصارعون، أو أن يرحلوا تاركين الأرض الخصبة التى ترعرعوا فيها.. واختاروا الحل الثانى ونزحوا إلى بيشاور»

الشريف وزير الإعلام ومن بعده الكاتب الكبير نجيب محفوظ. وكانت الملاحظة الرئيسية هي أن كل تلك العمليات نفذها أعضاء في «الجماعة الإسلامية» مما طرح تساؤلات حول أسباب اختفاء جماعة «الجهاد» حتى وقعت محاولتا اغتيال كل من وزير الداخلية اللواء حسن الألفي ورئيس الوزراء الدكتور عاطف صدقي في النصف الثاني من عام ١٩٩٣.

وقبل ذلك التاريخ وتحديدا في يناير من العام نفسه كانت أجهزة الأمن قد ألقت القبض على ٨٠٠ من أعضاء الجهاد في القاهرة والوجه البحري قسموا إلى مجموعتين: قدمت الأولى إلى القضاء العسكري في أربع قضايا حملت اسم «طلائع الفتح» وصدرت قرارات باعتقال الباقين. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها علانية، ولم تستمر التساؤلات كثيرا حول هوية المنتمين إلى التنظيم، وما إذا كانوا يتبعون «الجماعة الإسلامية»، أم أنهم جزء من «جماعة الجهاد» التي يقودها الظواهري. فقد بدأ وقتها الحديث عن خريطة توزيع قادة وعناصر الأصوليين في الخارج خصوصا بعدما أعلن الضابط السابق محمد مكاوي من مقر إقامته في بيشاور أن التنظيم يتبعه، لكن المتهمين في قضايا «طلائع الفتح» الأربع رددوا خلال جلسات المحاكمة هتافات باسم الظواهري وأنكروا أن يكونوا ضمن «الجماعة الإسلامية»، أو من أتباع مكاوي الذي عاد وأدلى بحوارات صحافية أكد فيها أن تنظيم «طلائع الفتح» لا علاقة له بالظواهري، ودلل على ذلك بأن نزيه نصحي وضياء عبد الحافظ اللذين نفذا محاولة اغتيال اللواء حسن الألفي وزير الداخلية وقتلا أثناء العملية هما من فصيل «جند الله» الذي يتبعه ولا علاقة لهما بالظواهري، إلا أن «المكتب الإعلامي لجماعة الجهاد» وزع شريط كاسيت يحوي وصية ضياء عبد الحافظ وذكر أنه سجلها قبل تنفيذ العملية وأعلن فيها أنه ضمن العاملين في جماعة «الجهاد».

هكذا طرحت قضية «الأفغان العرب» نفسها على الساحة وخلال فترة الجهاد الأفغاني ضد الاحتلال السوفيتي (١٩٧٩ - ١٩٨٩) استقطبت أفغانستان ومدينة بيشاور الباكستانية أعدادا كبيرة من الإسلاميين غالبيتهم من المصريين، وهناك تشكلت من جديد قواعد وأسس تنظيمي «الجماعة الإسلامية» وجماعة «الجهاد»، وفي فترة لاحقة ظهر تنظيم آخر هو «حركة الجهاد - طلائع الفتح الإسلامي».

ووفقا لأقوال الأصوليين أنفسهم، فإن الوجود المكثف لـ «الجماعة الإسلامية» في بيشاور ثم أفغانستان بدأ عام ١٩٨٧ مع وصول ثلاثة من قادة التنظيم، هم محمد شوقي الإسلامبولي وعلي عبد الفتاح ورفاعي طه. وفي العام التالي زارهم الزعيم الروحي للجماعة ومفتيها الأول الدكتور عمر عبد الرحمن[١٠]، وأصدر التنظيم نشرة «المرابطون» الشهرية التي صدر العدد الأول منها في (مايو) ١٩٩٠، وغلب على أعدادها الأولى الطابع الفكري التأصيلي بعيدا عن التحليلات والتقارير الصحافية التي حفلت بها صفحاتها في مراحل تالية، وتولى رئاسة تحرير النشرة طلعت فؤاد قاسم الذي عرف فيما بعد باسم «أبو طلال القاسمي» [في الوقت الحالي تبث المرابطون عبر الإنترنت بعد توقف توزيعها مطبوعة].

ومع وصول الشيخ عبد الرحمن ثانية في يونيو ١٩٩٠ إلى بيشاور أجرت «المرابطون» مقابلة معه تحدث فيها عن ظروف سجنه داخل مصر، وفي تلك الفترة اقتصر نشاط «الجماعة» على سياسة التجميع، وكان العمل الجبهوي أقرب إلى العمل الحزبي النخبوي ربما بسبب قيادتها «الصعيدية» باعتبار أن أبناء الصعيد يتميزون بالانفتاح والشعبية، فأنشأت دار ضيافة في بيشاور لاستقبال العناصر الوافدة من مصر. وبدأت أواخر ١٩٩٠ تدريب عناصرها في مخيمات خاصة داخل الأراضي الأفغانية، وأشرف عليها شاب مصري يدعى صهيب قتل بعد ذلك في معارك جرت في منطقة بغلان داخل الأراضي الأفغانية عام ١٩٩١ ضد القوات السوفيتية.

ونشطت «الجماعة» في المجال الإعلامي والدعائي بإصدار سلسلة من أشرطة الكاسيت والفيديو (فيلم الإسلامبولي والبوسنة والهرسك، وثورة الجزائر الثانية). وعقب فوز «الجبهة الإسلامية للإنقاذ» في الجزائر في الانتخابات البلدية عام ١٩٩٠ زار وفد من مسئولي «الجماعة» الجزائر لتهنئة الجبهة بفوزها في الانتخابات.

ومع بداية تفجر الصراع بين عناصر الجماعة في الصعيد والشرطة، حرص قادة التنظيم الموجودون في أفغانستان على تنشيط قنوات الاتصال مع عناصر الأجنحة العسكرية داخل مصر، وبدا التنسيق واضحا من خلال بيانات أصدرتها الجماعة من داخل الأراضي الأفغانية تتحدث عن نشاط عناصر الداخل.

أما «جماعة الجهاد» فإن نشاطها على الأراضي الأفغانية كان أكثر كثافة، وربما كان خروج الظواهري مبكرا من مصر عام ١٩٨٥ ووصوله إلى مدينة بيشاور التي اتخذها مركزا لنشاطه سببا في ذلك، كما أن العلاقة الوطيدة التي نشأت في وقت لاحق بين الظواهري وأسامة بن لادن ربطت مصير الاثنين، وفتحت مجالات أوسع أمام عناصر الجهاد للعمل على الأراضي الأفغانية. ووفقا لاعترافات المتهمين في قضايا العنف الديني ممن حوكموا أمام محاكم مدنية وعسكرية مصرية، فإن عدد المعسكرات التابعة لـ «جماعة الجهاد» في بيشاور وأفغانستان فاق بكثير تلك التي كانت تتبع «الجماعة الإسلامية»[١١].

وفي حين نجت «الجماعة الإسلامية» من خطر الصراعات الداخلية على الأراضي الأفغانية، فإن الظواهري دخل في صدامات مع عدد ممن عملوا لفترة تحت قيادته كان على رأسهم محمد مكاوي، وأحمد حسين عجيزة اللذان اعترضا علنا على الأسلوب الذي يدير به الظواهري التنظيم[١٢]. غير أن الأخير حرص على أن يبدو أمام أنصاره بأنه يترفع عن المناصب فتنازل عن «إمارة» الجماعة إلى الدكتور سيد إمام المعروف باسم «الدكتور فضل» وهو طبيب جراح من بني سويف، غير أنه عاد وأطاح بإمام في فترة لاحقة ونصب نفسه أميرا عاما لـ «جماعة الجهاد». وبايعه في اجتماع كبير عقد في مدينة بيشاور عشرات من المصريين. وتوارى مكاوي واختفى عن الأنظار. أما عجيزة فتمكن من ضم عدد من العناصر التي كانت وصلت حديثا إلى أفغانستان وأسس بنفسه تنظيما أطلق عليه اسم «حركة الجهاد - طلائع الفتح الإسلامي».

وتفجر الخلاف بين الظواهري وعجيزة مرة أخرى بعد وقوع محاولة اغتيال رئيس الوزراء السابق الدكتور عاطف صدقي ووزير الداخلية السابق السيد حسن الألفي عام ١٩٩٣، حيث تنازع الاثنان المسئولية عن العملية. وحسمت أجهزة الأمن والنيابة والمحكمة العسكرية الأمر بأن أعلنت أن المتهمين في القضية يدينون بالولاء إلى الظواهري.



«غالبية أعضاء «الجماعة» و«الجهاد» اضطروا لمغادرة السودان بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك في أديس أبابا.. لأنهم خشوا أن تتعرض الخرطوم لضغوط دولية أو أن تفكر في تسليمهم على غرار ما فعلته بالإرهابي الدولي كارلوس»



وانتهت الحرب الأفغانية وانقلب قادة المجاهدين على بعضهم البعض. ووجد «الأفغان العرب» أنفسهم بين خيارين كلاهما مر، الأول: أن يقسموا أنفسهم بين فصائل المجاهدين الأفغان فيتقاتلون ويتصارعون ويصوبون فوهات مدافعهم وبنادقهم إلى بعضهم البعض، أو أن يرحلوا تاركين تلك الأرض الخصبة التي زرعوا فيها وترعرعوا في صحرائها وبين دروب جبالها. فاختاروا الحل الثاني ورحلوا واتخذوا من مدينة بيشاور مأوى لهم[١٣]. غير أن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن، لأن الحكومة الباكستانية شعرت بقلق بالغ من وجود هؤلاء على أراضيها، وخصوصا بعدما ارتفعت أصوات المسئولين في عدة دول على رأسها مصر تحذر من تحول بيشاور إلى مركز لإدارة الإرهاب، وأصبح من المحتم أن يجري قادة «الجماعة الإسلامية» و«جماعة الجهاد» تغييرات كبيرة على خريطة توزيع عناصر التنظيمين خارج مصر.

وعندما بدأت عملية الخروج من أفغانستان، لعب القيادي الإرهابي أسامة بن لادن دورا مهما في تأمين رحيل مجموعات من الأفغان العرب إلى دول أخرى، مستغلا صلاته وعلاقاته وأمواله ونفوذه في تلك الدول. كما تم توظيف مجموعات من الإسلاميين في شركات يملكها هو في بعض الدول الآسيوية والأفريقية[١٤]. ولذلك لم يكن غريبا أن تحصل أجهزة الأمن المصرية على معلومات عن وجود أفغان مصريين في دول مثل أندونيسيا والفلبين وتايلاند. وتؤكد اعترافات الإسلاميين المصريين أن اليمن مثل ملاذا لكثيرين من «الأفغان المصريين» بعد خروجهم من أفغانستان وباكستان، وتشير أيضا إلى أن أعضاء في تنظيم «الجهاد الإسلامي اليمني» استقطبوا مجموعات من المصريين ووضعوهم تحت حماية القبائل في مناطق بعيدة عن المدن اليمنية الكبيرة كصنعاء وعدن، وأن زعماء القبائل قبلوا حمايتهم مقابل التعهد بعدم التورط في أي أعمال ضد الحكومة المصرية حتى لا يضطروا إلى الدخول في مواجهة مع الحكومة اليمنية. غير أن النشاط التنظيمي للإسلاميين المصريين في اليمن أو غيرها من الدول الأخرى لم يكن ليتم علانية، كما أن التدريب على استخدام السلاح والمتفجرات كان يتم في مناطق نائية بعيدة عن العمران. أما السعودية التي كانت المحطة الرئيسية التي اتجه إليها الأفغان المصريون قبل انتقالهم إلى أفغانستان في الثمانينيات، فإنها قامت بتسليم مصر عدد منهم وكذلك ممن عادوا إليها بعد خروجهم من هناك أو حتى العناصر التي خرجت من مصر في التسعينيات واتجهت إلى السعودية تفاديا لحملات الشرطة المصرية ضدهم، ولعل ذلك يكشف سبب الهجوم المستمر من جانب الجماعات الإسلامية المصرية ضد المملكة[١٥].

وخلال لقاء معه في صيف ١٩٩٣، سألت الناطق السابق بلسان «الجماعة الإسلامية» طلعت فؤاد قاسم عن المحطات والأماكن الموجود فيها عناصر التنظيم بعد خروجهم من بيشاور، وكان رده: «إن الحكومة المصرية ضيقت على الإخوة في المنيا وأسيوط تضييقا شديدا ودفعتهم إلى الارتحال إلى القاهرة والإسكندرية والمحافظات الأخرى، فقد كان نشاطنا في وقت من الأوقات محصورا في محافظتي المنيا وأسيوط، ولكنهم ضيقوا على الشباب الذي اتجه لينشر الدعوة في القاهرة والإسكندرية وانضم إليهم الكثيرون بعد ذلك، ثم ضيقوا عليهم في باقي المحافظات واضطروهم إلى أن يرحلوا إلى خارج البلاد.

فذهبوا إلى أفغانستان وباكستان وهناك وجدوا فتحًا من الله تعالى على كل المستويات، والآن يضيّقون عليهم، فبدأوا في الرحيل إلى بلاد أخرى، وأؤكد أن الحكومة المصرية ستعاني معاناة شديدة، وأرى أن الحكومة تتمنى عودتهم إلى المنيا وأسيوط وتتمنى لو كانت تركتهم داخل البلاد»(١٦).

وبعكس حديث قاسم اتساع الرقعة التي انتشر فيها الأصوليون المصريون بعدما اضطروا إلى مغادرة أفغانستان وبيشاور، ونجح عدد غير قليل منهم في تأمين أوضاعه في دول أوروبية متحصنين بحق اللجوء السياسي الذي حصلوا عليه هناك، في حين هام معظمهم على وجهه في دول أخرى، غير أنهم كانوا دائمًا يبحثون عن دول تعاني قلاقل واضطرابات داخلية حتى يتمكنوا من استغلال أوضاعها الداخلية، وثغرات الضوابط الأمنية في النفاذ إليها والإقامة فيها. وفي الوقت نفسه تمكن بعض منهم من الوصول إلى دول تتعاطف مع قضيتهم أو تقاتل من أجل الاستقلال والحرية، وبمرور الوقت تواجد أعداد من المصريين في البوسنة والشيشان والصومال، إضافة بالطبع إلى السودان واليمن. غير أن الجهود المصرية لإقناع تلك الدول بتخليها عن احتضان الأصوليين المصريين وتسليم المطلوبين منهم تمهيدًا لمحاكمتهم ظلت دائمًا تثير مخاوف لدى الإسلاميين أنفسهم، إلا أن المقيمين في دول أوروبية ظلوا على قناعة بأنه من المستحيل «أن تخضع الحكومات الأوروبية للطلبات والضغوط بتسليم المطلوبين من القيادات الإسلامية المقيمة في أوروبا، وأنه لا يتصور أن يقدم الأوروبيون على مثل هذه الخطوة مع حرصهم على الإبقاء على قدر من المصداقية، لما يرفعونه من شعارات الحرية وحقوق الإنسان، على حد ما كانت تردده نشرة الاعتصام الصادرة في لندن»(١٧).

واللافت أن قاسم نفسه اختفى في ٦ أغسطس ١٩٩٥ أثناء وجوده في كرواتيا والتي وصل إليها قادمًا من الدانمارك، حيث كان يعيش لاجئًا سياسيًا. وذكر زملاؤه أنه اعتقل بواسطة الشرطة الكرواتية، وهو في طريقه إلى البوسنة وأنه سلم إلى عناصر تابعة للمخابرات الأمريكية التي سلمته إلى مصر، لكن كرواتيا نفت بينما لم تعلق مصر أو الولايات المتحدة على الأمر.

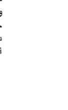
ولأن الهاجس الأمني لدى عناصر الإسلاميين الراديكاليين في الخارج عميق ويؤرقهم للغاية، فإن الحصول على معلومات عن خريطة توزيعهم يظل أمرًا بالغ الصعوبة، وهم حريصون على عدم تداول المعلومات حول أماكنهم إلا بالقدر الذي يخدم قضيتهم. ويكفي هنا أن نتذكر الحيلة التي لجأ إليها زعيم «جماعة الجهاد» الدكتور أيمن الظواهري عام ١٩٩٣ عندما زعم أنه موجود في سويسرا، وحصل على حق اللجوء السياسي هناك في الوقت الذي كان يستعد فيه للرحيل من بيشاور إلى السودان لكي نفهم إلى أي مدى وصل حرصهم، وخصوصا القيادات منهم على تكتم المعلومات عن أماكنهم. ويصل الأمر إلى حد اعتبار قيام أي منهم بإفشاء مثل تلك الأسرار «خيانة» تستوجب العقاب. ولذلك فإنه على الرغم من الخلافات التي قد تظهر بينهم من وقت لآخر، فإن مسألة قيام أحدهم بالكشف عن المكان الذي يوجد فيه الآخرون غير واردة.

وتشير المعلومات إلى أن غالبية أعضاء «الجماعة الإسلامية» و«جماعة الجهاد» ممن أقاموا لفترة في السودان غادروه بعد محاولة الاغتيال التي تعرض لها الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا في ١٩٩٦ بعد أن صدرت لهم أوامر من قادتهم بالرحيل خشية خضوع الحكومة السودانية للضغوط الدولية، أو أن تفكر في تكرار عملية الإرهابي الدولي كارلوس، سعيًا منها إلى الحصول على أي مكاسب. وتذكر التقارير أن من خرجوا من السودان إما حاولوا العودة إلى مصر عن طريق الدروب الصحراوية فتم القبض عليهم، أو اتجهوا إلى ليبيا واحتموا بعناصر من «الأفغان الليبيين» الذين نشأت بينهم وبين الإسلاميين المصريين علاقات وطيدة أثناء وجود الجميع في أفغانستان وباكستان. كما أن آخرين توزعوا على دول أفريقية تعاني قلاقل وأصبحوا عناصر غير فاعلة على المستوى التنظيمي بعد أن انشغلوا بتدبير أحوالهم وتأمين أنفسهم.

المهم في الأمر، أن إقامة هؤلاء في الدول الموجودين فيها غير شرعية، ولذلك فإنهم عادة ما ينتقلون من مكان إلى آخر ومن بلد إلى آخر. ويختلف الأمر في حالة الذين تمكنوا من الحصول على حق اللجوء السياسي أو إقامة دائمة في دول أوروبية. وهم الآن العناصر الفاعلة في الجماعات الإسلامية الراديكالية المصرية في الخارج، وخصوصا على صعيد النشاط الإعلامي العلني. وكل هؤلاء استغلوا قضية حقوق الإنسان في مصر لصالحهم وحصلوا عبر محامين إسلاميين داخل مصر على ملفات القضايا التي اتهموا فيها، وكذلك قرارات الاعتقال الصادرة في حقهم، وقدموا كل ذلك إلى سلطات الدول الأوروبية التي تمكنوا من دخولها، وأيضا إلى جمعيات ومنظمات حقوق الإنسان وساروا في طريق انتهى بحصولهم على اللجوء السياسي(١٨).

وعندما جرت عمليتا تفجير سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام اللتان وقعتا في وقت متزامن في أغسطس الماضي، وأصبح واضحا أن أفريقيا احتضنت عددًا من العناصر التي تنتمي للجماعات الإسلامية الراديكالية المصرية، كما أن بعضهم شارك في القتال إلى جانب قوات عيديد ضد القوات الأمريكية قبل خروجها من الصومال، بينما اتجه آخرون من «الجماعة الإسلامية»، «جماعة الجهاد» إلى كينيا وبوروندي والكونغو وتشاد وأوغندا ونيجيريا. وفي السياق نفسه كان «المرصد الإعلامي الإسلامي» قد أصدر في ١٩٩٦ بيانًا نعى فيه إلى جموع المسلمين قياديا بارزًا لقب بـ«قائد الأفغان العرب» وهو علي الرشيدي الذي عرف في أوساط الإسلاميين المصريين باسم «أبو عبيدة البنشيري»، ولم يذكر «المرصد» في بيانه المكان الذي مات فيه البنشيري، غير أنه أشار إلى أنه مات غرقًا. وكان البنشيري واحدا من أبرز الأفغان العرب، واضطلع بمهمة تدريب أعداد كبيرة منهم لدى وصولهم إلى أفغانستان، كما حرص على ألا يعمل ضمن تنظيم بعينه وكان على صلات بمختلف الجماعات المصرية، وكشفت صحيفة «الحياة» الدولية ـ في عددها يوم ١٠ يونيو ١٩٩٦ ـ عن الظروف التي مات فيها البنشيري، حيث كان يستقل إحدى السفن في دولة أفريقية وأن السفينة غرقت قرب إحدى المدن الكينية أثناء رحلة لها في إحدى البحيرات الأفريقية.

غير أن مجموعة من العوامل والظروف الدولية دفعت الأصوليين إلى إجراء تغييرات في «الخريطة» دون المساس بالشكل العام «للوحة الموزاييك»، فقد فقدوا إحدى قواعدهم بعد انقلاب الأمريكيين على الدكتور عمر عبد الرحمن والقبض عليه والزج به في السجن، كما أن ازدياد الضغوط الدولية ضد السودان بعد محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك أجبر بن لادن والظواهري وباقي الأصوليين المقيمين هناك على العودة إلى أفغانستان مرة أخرى ليرتموا في أحضان قادة حركة طالبان. أما «اتفاق دايتون» فتكفل بإخراج «المجاهدين العرب» من البوسنة والهرسك على حين أجبر حل مشكلة الشيشانية أعدادًا من المصريين والعرب على الرحيل من هناك. لكن كل من خرجوا لم يتجهوا إلى مصر، وإنما كانت هناك دائما بدائل سواء في أفريقيا أو آسيا أو أوروبا أو حتى أمريكا.







القبض على عمر عبد الرحمن والضغوط على السودان أجبرت بن لادن والظواهري على العودة إلى أفغانستان ليرتميا في أحضان طالبان، في حين تكفل اتفاق «دايتون» بإخراج المجاهدين العرب من البوسنة والهرسك وبدأ تغيير الخريطة



رغم الاحتجاجات المصرية.. فإن خريطة الحركات الإسلامية في الخارج ظلت بلا تغيير إلى أن جاء حادث السفارتين ليؤدي إلى تصدع قواعد الأصوليين وتسابق الدول في القبض عليهم وتسليمهم إلى مصر



ورغم الاحتجاجات والنداءات المصرية، فإن خريطة الحركات الإسلامية في الخارج لم تشهد تغييرات بفعل تسليم المطلوبين لمصر حتى وقعت حادثة الأقصر وأيقنت الدول التي تحتضن الأصوليين المصريين أن وجودهم على أراضيها يمثل خطورة على الأمن فيها. وجاءت حادثتا سفارتي الولايات المتحدة لتؤدي إلى تفكيك «لوحة الموزاييك» بشدة، مع تصدع قواعد الأصوليين في الخارج وتسابقت الدول في القبض عليهم وتسليمهم إلى مصر. ووفقا لاعترافات هؤلاء الذين سلموا إلى السلطات المصرية خلال الأشهر الماضية، فإن الحركات الإسلامية الراديكالية المصرية تمكنت من تأسيس قواعد لها في دول أفريقية وآسيوية وأوروبية. كما أن عناصر من الأصوليين برعوا خلال السنوات الماضية في تزوير جوازات السفر والأوراق الرسمية، الأمر الذي مكن أعدادًا كبيرة من زملائهم من اختراق الإجراءات الأمنية وتوسيع المساحة التي يتحركون فيها.

إلا أنه بصورة عامة ظلت الدول الأوروبية الغربية ملاذا آمنا ومرغوبا من جانب غالبية الأصوليين ويكفي الإشارة إلى أن سبعة من المتهمين في قضية «العائدون من ألبانيا» يحاكمون غيابيا ومقيمون في بريطانيا وهم: عادل عبد المجيد، وياسر توفيق السري، وإبراهيم العيدروس، وأسامة حسن أحمد، وهاني السباعي، وسيد عجمي، وسيد عبد المقصود، وهم محسوبون على جماعة «الجهاد». وهناك اثنان آخران محسوبان على «الجماعة الإسلامية» مقيمان في بريطانيا أيضا هما: محمد مصطفى المقرئي، وخالد فكري. فضلا عن الدور المعروف الذي قام به بريطاني من أصل مصري هو مصطفى كمال المعروف

باسم أبو حمزة المصرى الذى يدير هناك جماعة «أنصار الشريعة» فى عملية خطف السياح الغربيين فى اليمن. وفى ألمانيا هناك ثلاثة من أبرز قادة «الجماعة الإسلامية» هم أشرف النحاس، وإبراهيم علام، ومحمد عبد الرحمن بلاسى، بالإضافة إلى أسامة رشدى المسئول الإعلامى للجماعة الإسلامية الذى يقيم فى هولندا، وعادل السيد عبد القدوس الموجود فى النمسا والذى يعد واحدا من أبرز أعوان الدكتور أيمن الظواهرى. وجميعهم يحتمون من الجهود المصرية لتسلمهم، بالقوانين التى تحظر تسليم المطلوبين فى الدول الأوروبية إلى دول تطبق عقوبة الإعدام.

إلا أن إقدام ألبانيا فى يونيو الماضى على تسليم ثلاثة من أبرز قادة الأصوليين إلى السلطات المصرية دشن مرحلة جديدة اهتزت فيها بعنف خريطة توزيعهم فى الخارج وبدأت «لوحة الموزاييك» طريقها إلى التصدع والانهيار.

وليس سرًا أن وقوع أحد قادة التنظيمات الأصولية فى قبضة السلطات المصرية يجبر التنظيم الذى ينتمى إليه إلى إعادة ترتيب أوراقه وتحريك عناصره من مواقع إلى أخرى خشية القبض عليهم، وإجراء تغييرات فى أسماء وأوراق عناصر أخرى تقيم فى دول معينة لتأمينهم وحمايتهم من كشف أمرهم. ولاشك أن ذلك يؤدى إلى الوقوع فى أخطاء يكون من نتيجتها القبض على آخرين وتسليمهم إلى مصر. ولذلك فإن قطار تسليم المطلوبين اندفع بسرعة شديدة عقب تسلم مصر لهؤلاء الذين كانوا يقيمون فى ألبانيا، فوقع واحد فى بلغاريا ثم آخر فى الأكوادور، وثالث فى الأورجواى وأعداد أخرى فى الإمارات والكويت.

ورغم أن الأصوليين يتهمون الولايات المتحدة بالضلوع فى ملاحقة زملائهم وتسليمهم إلى مصر، إلا أن بعضا من الإسلاميين أنفسهم لم يخف شعوره بأن أكبر خطأ وقعوا فيه هو تحويل عدائهم للولايات المتحدة من مجرد كلمات وعبارات ترد فى بياناتهم ونشراتهم وخطبهم إلى رصاصات وقنابل ومتفجرات أطاحت بأشلاء المدنيين الأمريكيين والأفارقة فى نيروبى ودار السلام، ويسلمون كذلك بأن دخول الولايات المتحدة طرفا أساسيا فى المعركة ضدهم أفضى إلى النتيجة التى وصلوا إليها، فابن لادن والظواهرى وبعض من مساعديهما اضطروا للصمت والاختفاء، ومصير زعيم حزب العمل الكردستانى عبد الله أوجلان غير بعيد عنهم إلى جانب أن غالبية دول العالم صارت حريصة على أن تبعد عن نفسها شبهة احتضان الأصوليين وإيوائهم.

واللافت أن عمليات التسليم التى أطاحت بـ «لوحة الموزاييك» وتسببت فى تشققها وانهيارها، تزامنت مع تطور كبير فى التعامل مع قضية الأصوليين فى الداخل، حيث توقفت حملات الاعتقال العشوائية التى كانت تولد موجات من الرغبة فى الانتقام، وتحسنت أحوال المعتقلين فى السجون وخرجت أعداد منهم ليتمتعوا بالحرية قبل أن تمتلئ نفوسهم بشعور عدائى ضد المجتمع.

ورغم فارق السنوات العشر ما بين صدور كتاب دليب هيرو وإنهاء أبو العلا ماضى لدراسته، إلا أن الاثنين وصلا إلى نتيجة تكاد تكون متشابهة. فالأول توقع «تزايد حدة الخلافات بين الحكومة والأصوليين مع خلق مناخ يؤدى إلى تزايد الجماعات السرية الراديكالية. فى حين توقع الثانى «استمرار الظاهرة وتطور أشكالها بأجيال جديدة غير معروفة طالما استمرت أسباب العنف قائمة».



لا يمكن الفصل بين قيام السلطات البريطانية فى سبتمبر الماضى بالقبض على سبعة أصوليين بينهم ستة مصريين، وأطلق أحدهم بعد أيام فى حين مازال الخمسة الباقون محتجزين على ذمة قانون «الهجرة والجنسية» وبين عملية اعتقال الأصوليين المصريين مصطفى كمال (أبو حمزة المصرى) وياسر توفيق السرى (أبو عمار) فى مارس الماضى. ورغم أن الاثنين أطلقا بعد أربعة أيام فقط من اعتقالهما، إلا أن العمليتين عكستا منهجا بريطانيا جديدا فى التعامل مع نشاط الأصوليين العرب عموما والمصريين خصوصا على الأراضى البريطانية. فإذا كانت القوانين تكبل أيادى البريطانيين وتحول دون قيامهم بترحيل الأصوليين إلى بلادهم أو إبعادهم عن الأراضى البريطانية، إلا أن الواضح أن الحكومة البريطانية، ومن خلال بعض الثغرات القانونية بدأت فى مضايقتهم والتضييق عليهم والتلويح لهم بعصا قانون الإرهاب الجديد الذى يمنع استغلال الأراضى البريطانية فى التخطيط أو دعم عمليات الإرهاب التى تقع فى الخارج.

ويرجح أن يشهد نشاط الأصوليين فى بريطانيا خلال الفترة المقبلة انحسارا، وأن يهمش دور المقيمين هناك خشية القبض عليهم أو طردهم. ومن الطبيعى أن زيادة القيود المفروضة على هؤلاء ستحد كثيرا من نشاطهم وستدفعهم إلى العمل سرا فى أنشطة كانوا يقومون بها علنًا. ويمكن تطبيق الافتراض نفسه على باقى الأصوليين المقيمين فى دول أوروبية أخرى لم تمنحهم فى الماضى المساحة نفسها التى كان يستغلها زملاؤهم المقيمون فى بريطانيا. أما هؤلاء المطاردون فى دول غير معلومة ممن يعيشون بأسماء مزيفة، وكذلك المقيمون فى حماية أسامة بن لادن فى أفغانستان، فإن خطرهم يظل قائما لكن القراءة الدقيقة لخريطة توزيع هؤلاء وقدرتهم على العودة بالصراع إلى الدرجة نفسها التى كان عليها قبل حادثة الأقصر موضع شك. فـ «الجماعة الإسلامية» انشغلت منذ أطلق قادتها التاريخيون فى يوليو من عام ١٩٩٧ مبادرة وقف العنف، بمشاكل داخلية تفجرت بين قادتها ووصلت إلى الذروة بفعل مذبحة الأقصر، وانتهى الأمر بإصدار الجماعة بيانا فى عيد الأضحى المبارك الماضى أعلنت فيه وقف العمليات المسلحة داخل وخارج مصر. وأيا كانت التفاعلات التى أفرزت ذلك القرار، فإن الحقيقة المؤكدة أن سنوات الصراع والعنف شبه اليومى أسفرت عن سقوط أعداد كبيرة من عناصر التنظيم قتلى فى مواجهات مع الشرطة. كما قضت المحاكم المدنية والعسكرية بإعدام وسجن أعداد أخرى ممن تدربوا فى أفغانستان ويصعب تعويضهم أو إعداد عناصر مشابهة لهم بعد أن فقد التنظيم الأراضى الخصبة التى زرع فيها هؤلاء. لكن السؤال يبقى قائما: إذا كانت «الجماعة الإسلامية» اختارت التوقف عن العنف دون أن تتراجع عن أدبياتها وأفكارها ومبادئها، فكيف ستمارس نشاطها فى المستقبل؟ الإجابة المرجحة هى أن التنظيم سيدخل مرحلة كمون قد تمتد لعدة سنوات يتم خلالها العمل على إعداد كوادر جديدة وإعادة القنوات التى قطعت مع الجماهير من خلال مشاريع خدمية (مستوصفات وأسواق شعبية) والمؤكد أن السلطات تدرس حاليا الطريقة التى ستتعامل بها مستقبلا مع ذلك التنظيم لاستيعابه والحيلولة دون تراجعه عن قرار وقف العمليات، وفى الوقت نفسه وقف نمو التنظيم ومنعه من إعادة تشكيل هياكله وقدرته العسكرية مرة أخرى.

وعلى الجانب الآخر فإن الأوضاع بالغة السوء فى جماعة «الجهاد» التى رفضت فى بيان أصدرته بعد يومين من بيان «الجماعة الإسلامية» الانضمام إلى «المبادرة السلمية». فغالبية قادته وعلى رأسهم أيمن الظواهرى مطاردون من جانب الأمريكيين بعد أن وردت أسماؤهم فى قضية تفجير السفارتين الأمريكيتين فى نيروبى ودار السلام. كما أن قضية «العائدون من ألبانيا» مثلت ضربة كبيرة للجماعة بعد أن تسلمت مصر عددا من أنشط عناصرها التى لعبت دورا بالغ الأهمية فى دعم عمليات العنف من الخارج. وفضحت اعترافاتهم تفاصيل خطيرة عن أسرار الجماعة وخباياها.

ورغم اللهجة الحادة التى مازال التنظيم يتحدث بها فإن الحقيقة المؤكدة أن أمواله نضبت وعناصره تشتتت وصارت قدرته على تنفيذ أعمال عنف داخل البلاد ضعيفة[19]. لكن يبقى الاحتمال هو أن شعور بعض العناصر من أعضاء التنظيم من المقيمين فى الخارج باليأس قد يدفعهم إلى المجازفة ومحاولة تنفيذ عمل ضد هدف مصرى أو أمريكى فى الخارج. وفى كل الأحوال فإن الظاهرة التى امتدت لسنوات لا يمكن أن تنتهى بين يوم وليلة. ■

الهوامش

(١)، (٥) «الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث». تأليف: دليب هيرو، ترجمة: عبد الحميد فهمى الجمال. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.

(٢) تقرير «مكافحة الإرهاب» مجلس الشورى.

(٣)، (٤)، (٧) دراسة أبو العلا ماضى.

(٦) أوراق التحقيق فى قضية اغتيال الرئيس أنور السادات.

(٨) اعترافات المتهم أحمد النجار أمام النيابة فى قضية «العائدون من ألبانيا».

(٩) فى بداية التسعينيات ثار جدل كبير حول الوضع التنظيمى لعبود الزمر حسمه محاميه منتصر الزيات بالإعلان عن أن الزمر صار عضوا فى مجلس شورى الجماعة الإسلامية.

(١٠) اعترافات المتهمين فى قضية «العائدون من أفغانستان» التى نظرتها المحكمة العسكرية فى الإسكندرية فى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢.

(١١)، (١٢) أوراق التحقيقات فى قضية «طلائع الفتح» التى نُظرت أمام أربع دوائر قضائية عسكرية عام ١٩٩٣.

(١٣) نشرة «المجاهدون» التى تصدرها جماعة «الجهاد» خارج مصر.

(١٤) أوراق التحقيق فى قضية «العائدون من ألبانيا».

(١٥)، (١٨) تقرير الحالة الدينية «الجزء الثانى» مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى «الأهرام».

(١٦) حوار بين الكاتب وطلعت فؤاد قاسم نشر فى صحيفة «الحياة» يوم ١٩٩٣/٨/٢٩.

(١٧) نشرة «الاعتصام» الصادرة عن الرابطة الإسلامية للعاملين بالكتاب والسنة فى لندن العدد ١٣.

(١٩) اعتراف المتهم أحمد النجار فى قضية «العائدون من ألبانيا» بأن الظواهرى أبلغ عناصر التنظيم عام ١٩٩٥ بأن الحالة المالية للجماعة سيئة للغاية وأنه كان ينوى وقف العمليات لسنوات بعد عملية تفجير السفارة المصرية فى باكستان لإعادة ترتيب الأوراق.

«ما أحوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين وإسرائيليين، وغيرهم، إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الأغبياء، والرؤساء القساة الجهلاء، يجددون النظر فى الدين، فيعيدون النواقص المعطلة، ويهذبونه من الزوائد الباطلة، مما يطرأ عادة على كل دين بتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين».

الكواكبى

هكـــذا صعـــد .. وهكـــذا يسقـط ..

تـــيـــم يـــوداه

[١]

من بين كل قادة أوروبا فى الوقت الحالى يعتبر سلوبودان ميلوسوفيتش أكبر الألغاز. فمن غيره، فى جيلنا مضى إلى الحرب لـ «إنقاذ» شعبه وانتهى بكوارث جسيمة سواء فى كرواتيا، أو البوسنة أو كوسوفا؟ ومن غيره أشرف على التدمير الدرامى لاقتصاد بلده والإساءة إلى سمعة شعبه الذى كانت له سمعة طيبة فى يوم من الأيام؟ ومع ذلك ما زال ميلوسوفيتش يحكم بلده، دون أسف ظاهر، باعتباره الزعيم المنتخب للشعب. فكيف تمكن من أن يفعل ذلك وإلى متى يستطيع أن يستمر؟

ولد سلوبودان ميلوسوفيتش فى سنة ١٩٤١ فى مدينة صغيرة تدعى بوزليفاك بالقرب من بلجراد. وكان والداه قد هاجرا منذ وقت قريب من مقاطعة الجبل الأسود. وكان والده سفيتوزار ميلوسوفيتش، قد درس ليصبح قسا أرثوذكسيا ولكنه بدلا من ذلك أصبح معلما. ولا يُعرف الكثير عن حياة أسرة ميلوسوفيتش فيما عدا أنها لم تكن حياة سعيدة. فلم تكد الحرب تنتهى حتى عاد سفيتوزار إلى الجبل الأسود حيث انتحر فى سنة ١٩٦٢. وتولت تربية سلوبودان وشقيقه الأكبر أمهما، ستانسلافا، وهى مدرسة شيوعية يقال إنها كانت لها آراء تطهرية. وفى سنة ١٩٧٢ عمدت هى أيضا إلى الانتحار.



ووفقا لسيرة ميلوسوفيتش غير الرسمية وغير المترجمة، التى كتبها سلافوليوب دوكيتش كان سلوبودان الشاب يعتبر فى المدينة التى تربى فيها شخصا «غير عادى». فهو «لم يكن يهتم بالرياضة، ويتجنب الرحلات، واعتاد أن يذهب إلى المدرسة بملابس من الطراز القديم - قميص أبيض وكرافتة». وكان «يغظ» زملاءه فى المدرسة بأنهم لا يلبسون ملابس مناسبة. وكان ينظر إليه على أنه «تلميذ منطو ومهتم بدروسه». وينقل ديوكتش عن أحد أصدقاء ميلوسوفيتش القدامى قوله أنه «كان يستطيع أن يتصور أنه سيصبح ناظر محطة أو موظفا مجتهدا».

ولو لم يكن ميلوسوفيتش قد التقى بالمرأة المناسبة لكان فعلا قد أصبح ناظر محطة. ففى أثناء الدراسة وقع فى غرام ميرا ماركوفيتش التى انحدرت من أسرة محترمة من أسر الشيوعيين والأنصار. وقد قالت لصديقتها إن حبيبها سلوبودان سيصبح فى يوم من الأيام قائدا عظيما مثل الرفيق تيتو نفسه. واستخدمت ميرا اتصالاتها لدفعه إلى الأمام، وقد بدأ مسيرته الطويلة من خلال المؤسسات الشيوعية التى بنى فيها مستقبله. وفى جامعة بلجراد تولى رئاسة القسم الأيديولوجى لفرع الحزب الشيوعى بها. وهناك التقى بشاب شيوعى طموح آخر، هو ايفان ستامبوليتش، ابن شقيق واحد من كبار رجال السياسة الصرب. وبينما كان ايفان يشق طريقه صاعدا كان يجر وراءه صديقه سلوبودان، مع بقائه دائما متأخرا عنه بخطوة.

وفى سنة ١٩٦٨، حصل ميلوسوفيتش على وظيفة فى شركة «تهنو جاس» التى كان ايفان قد سبقه إلى العمل بها، وفى سنة ١٩٧٣ أصبح رئيسا لها. وفى أحد الأيام حول ذلك الوقت، حضر ميلوسوفيتش اجتماعا فى مكتب عمدة بلجراد فى وقت كانت فيه «بوركافوسيتش» وهى كانت موظفة فى بنك بيوبانكا - وهو من أكبر بنوك يوجوسلافيا - تقوم بزيارة مع زميلة لها. وقد قالت لزميلتها: «يجب أن نراقب هذا الرجل فسوف يكون له شأن».

ولم يلبث ميلوسوفيتش أن انتقل للعمل فى بيوبانكا، وبحلول سنة ١٩٧٨ أصبح رئيسا له. وقد سافر إلى نيويورك وباريس وغيرهما للقيام بأعمال البنك. ولكن كانت مهمته الحقيقية هى إنجاز صفقات سياسية ومالية، حيث كان هو الشخص الذى يستطيع ترتيب التمويل اللازم للمشاريع التى يرغب فيها زعماء الحزب.

وبحلول عام ١٩٨٤، أراد ميلوسوفيتش أن يستفيد إلى الحد الأقصى من موقعه فى البنك، فبدأ الاهتمام بالسياسة الوطنية. وفى سنة ١٩٨٦ أصبح رئيسا للحزب الشيوعى فى صربيا. وفى سنة ١٩٨٧ أرسله ستامبوليتش، الذى كان قد أصبح رئيسا لصربيا، إلى الجنوب ليستمع إلى شكاوى صرب كوسوفا. وقد ذكر زعماء الصرب، وكانوا على جانب من الحق، إنهم يواجهون تمييزا ضدهم فى تلك المنطقة التى كانت فى ذلك الوقت مقاطعة تتمتع بالحكم الذاتى فى صربيا وتديرها الأغلبية العرقية الألبانية، والتى كان عددها هناك يزيد على عدد الصرب بنسبة ٩ إلى ١.

وقد كُتب بعد ذلك الكثير عن الطريقة التى استخدم بها ميلوسوفيتش قضية كوسوفا لإنشاء القوات الوطنية التى قامت بتمزيق البلد وحولته إلى أجزاء متناثرة، وقد جعل من استعادة سيطرة الصرب على كوسوفا مسألة يثير حولها المشاعر الوطنية، وطرد الشيوعيين الذين ترددوا فى الاستجابة لتعليماته. وبحلول سنة ١٩٨٩ كان ميلوسوفيتش قد تخلص من ايفان ستامبوليتش وأصبح سيد صربيا بلا منازع ورئيس جمهوريتها. ولكنه لم يكتف بذلك، بل أراد أن يحكم كل يوجسلافيا. ولم يكن من المستغرب أن رفضه اليوغسلاف الآخرون، باستثناء الصرب وشقيقتها الجبل الأسود.



وكان ميلوسوفيتش قد ألقى كلمة منذ ما يقرب من عشر سنوات، فى نوفمبر ١٩٨٨، فى حشد من مئات الآلاف من مؤيديه المتحمسين المنتشين بالمشاعر الوطنية قال فيها: «إن هذا ليس وقتا للحزن، إنه وقت للنضال. لقد دخلنا كلا الحربين العالميتين دونما شىء غير اعتقادنا بأننا نقاتل من أجل الحرية، وقد كسبنا الحربين.. وسوف نكسب معركة كوسوفا بغض النظر عن العقبات التى تواجهنا فى داخل بلدنا وخارجه. سنكسب على الرغم من أعداء صربيا فى خارجها الذين يتآمرون علينا إلى جانب من يتآمرون فى الداخل. ونحن نقول لهم: إننا ندخل كل معركة وقد عقدنا العزم على كسبها».

[٢]

المثير للاهتمام بوجه خاص بشأن ميلوسوفيتش أن كل معركة دخلها خسرها فى النهاية. فقد فشل فى السيطرة على يوغسلافيا السابقة بكاملها، وفشل فى إنشاء صربيا الكبرى التى تضم صرب كرواتيا والبوسنة. وعندما انهارت يوغوسلافيا القديمة، بأن انفصلت عنها سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة ومقدونيا، أنشأ ميلوسوفيتش يوغسلافيا جديدة تتألف من صربيا (التى تضم كوسوفا، التى سيطر عليها ميلوسوفيتش بواسطة الشرطة) والجبل الأسود. ويبلغ تعداد سكان صربيا حوالى ١٠،٥ مليون نسمة، فى حين لا يتجاوز سكان الجبل الأسود ٦٥٠ ألفا. والآن تتأرجح هذه اليوغسلافيا «الجديدة»؛ ففى منتصف شهر يونيو كان أكثر من ٦٠ ألفا قد طردوا من مساكنهم بسبب الحرب فى كوسوفا، ولم يكن هناك ما يدل على أن ذوى الأعراق الألبانية هناك على استعداد للخضوع لحكم ميلوسوفيتش. أما الجبل الأسود فقد فعل ما لم يكن أحد يتخيل أنه سيفعله. ففى الانتخابات الأخيرة، طالب أهله بالحقوق المتساوية المقررة له بحكم الدستور اليوغسلافى. وفى يوم ٣١ مايو أدلت أغلبية سكان الجبل الأسود بصوتها ضد حزب مؤيد لميلوسوفيتش ولصالح حلف يدعمه رئيس الجبل الأسود ميلودوكانوفيتش الذى يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاما وكان من مؤيدى ميلوسوفيتش فى الماضى ثم تحول

من الحقائق المحورية أن مديرى بعض أكبر الشركات اليوغوسلافية الحكومية، سواء كانت تعمل فى مجال الأدوية أو إنتاج الأثاث، هم أيضا وزراء فى الحكومة. هذا الوضع يعطيهم فرصة «الحصول على المعلومات»، وهى أهم شىء، فهى تساعدهم على المحافظة على وضعهم الاحتكارى

ضده، كما أصبح يقول إن الفرصة الوحيدة أمام يوغسلافيا للبقاء تتمثل فى الخلاص من ميلوسوفيتش.

وعندما أعلن جوكانوفيتش خروجه لأول مرة على ميلوسوفيتش فى ديسمبر ١٩٩٦، كان رئيسا لوزراء الجبل الأسود وكان ميلوسوفيتش لايزال رئيسا لصربيا. (أصبح رئيسا ليوغسلافيا فى يوليو الماضى). وفى ذلك الوقت كانت هناك مظاهرات حاشدة تسير فى شوارع بلجراد وغيرها من المدن معادية لميلوسوفيتش. وكان حزبه - حزب صربيا - الاشتراكى قد غير نتائج انتخابات البلديات التى أجريت فى نوفمبر ١٩٩٦، ولجأ إلى سرقة الأصوات من أجل كسب المقاعد. واستغلت أحزاب المعارضة هذه القضية للحصول على التأييد، كما كان هناك عدد من حلفاء ميلوسوفيتش السابقين مثل جوكانوفيتش على استعداد لإعلان معارضتهم له.

وعلى امتداد ثمانية وثمانين يوما ظل مئات الألوف من الصرب يعقدون المسيرات فى أنحاء المدن الكبيرة والصغيرة عبر صربيا بكاملها. وكان ذلك نوعا من التطهير الذاتى، وكان معظم المتظاهرين - بما فى ذلك طلاب الجامعات وأساتذتهم وآباؤهم - يأتون مما أطلقوا عليه اسم صربيا «الأخرى» وخاصة من الطبقات المتوسطة المغلوبة على أمرها. وكانوا يريدون أن يشهدوا العالم على أنهم ليسوا من القتلة المهاويس، وإنما هم مواطنون عاديون قد برموا بالحرب والتسلط، ويتطلعون إلى ذلك النوع من المجتمع التعددى الذى أخذ يظهر فى البلدان الأخرى التى تخلت عن الشيوعية. ولكن كان من الأمور ذات الدلالة والمنذرة بالخطر، أن العمال الصناعيين لزموا دورهم. ومع ذلك فقد حظى أصحاب المسيرات بالتعاطف فى كل أنحاء العالم.بل ورأى البعض أنهم يعملون على تصحيح سمعة صربيا السيئة. وفى النهاية تراجع ميلوسوفيتش، وسمح لمرشحى المعارضة باحتلال مقاعدهم الشرعية فى مجالس البلديات، بما فى ذلك بلدية بلجراد.

ثم حدثت الخيانة العظمى التى لم تشف منها صربيا حتى الآن، فبدلا من أن يكون استخدام السلطة وسيلة لجعل الحياة أفضل للأهالى ولبناء منظمات سياسية قادرة على كسب الانتخابات العامة، لم تلبث المعارضة أن تفرقت صفوفها، واختلف زعيماها الرئيسيان، فوك دراسكوفيتش وزوران جنوتش، الذى أصبح الآن عمدة بلجراد، واتهم كل منهما الآخر بالتواطؤ مع ميلوسوفيتش والتعاون مع الشرطة السرية. ثم عمل دراسكوفيتش، صاحب التاريخ الطويل فى الديماجوجية الوطنية والانحرافات السياسية، على التخلص من حليفه السابق، وصوّت من أجل طرده من منصبه عن طريق التحالف مع حزب ميلوسوفيتش الاشتراكى والحزب الراديكالى الصربى، وهو حزب وطنى متطرف.

ثم حدث ما هو أسوأ، ففى كثير من المدن التى شغل فيها قادة المعارضة مناصبهم نتيجة للمظاهرات التى جرت فى الشتاء وقام بها المواطنون العاديون، لم يلبث أن تبين أنهم لا يقلون فسادا عن البيروقراطيين التابعين للحزب الاشتراكى الصربى الذين حلوا محلهم. وكانوا يطلبون رشوة للقيام بأصغر الخدمات البلدية.

بعد ذلك دخل فوك دراكوفيتش مفاوضات مع ميلوسوفيتش للاشتراك فى الحكومة. وقد ترك ميلوسوفيتش الباب مفتوحا أمام إمكانية تحقيق ذلك، ولكنه اختار نائبا لرئيس وزراء صربيا شخصا آخر - هو فويسلاف سسلى الذى كان رئيسا لمجلس النواب ورئيسا للحزب الراديكالى الصربى. وسسلى حاصل على درجة الدكتوراة فى النظريات السياسية وهو رجل ماهر للغاية وحزبه يدعو صراحة إلى التسلطية السياسية، إن لم نقل إلى الفاشية، ويطالب باستعادة «صربيا الكبرى» تحت قيادة زعيم قوى، هو بالتحديد فويسلاف سسلى.

وقد أدى انهيار المعارضة إلى دفع مئات الآلاف، بل الملايين ممن كانوا يريدون إقامة صربيا حديثة وديمقراطية إلى الشعور بيأس كامل، وهم يرون الآن أن ميلوسوفيتش رجل لا يقهر، ولم يعد لزعماء المعارضة السابقين تأييد يذكر، وأصبح الأهالى يائسين ومرهقين، وبات المرء يسمع نفس التعبير مرارا وتكرارا: «لقد ظل هذا يجرى على امتداد عشر سنوات.. وقد تعبنا.. تعبنا للغاية».

وكانت النتيجة أن أصبح ميلوسوفيتش، حتى وقت قريب جدا، فى وضع أقوى مما كان عليه قبل سنة واحدة. ومن الصعب للغاية أن نعثر على شخص يؤيده هنا، ولكن من الأصعب أن نجد شخصا يستطيع أن يخبرنا عمن يحل محله - باستثناء سسلى .وفوق ذلك، ففى أواخر شهر مايو زادت استفادة الحكومة من الضعف السياسى للصرب الذين يعارضون ميلوسوفيتش، فبينما كان الاهتمام الدولى منصبا على كوسوفا والجبل الأسود شنت السلطات حملة تدمير واستيلاء على الجامعات، وهى معاقل النشاط المعادى لميلوسوفيتش، وتم تمرير قانون جديد فى البرلمان يعطى وزير التربية والتعليم - وليس عمداء الكليات - السيطرة الفعلية على كل التعيينات فى الجامعة. وسيصبح الأساتذة الآن أكثر إحجاما عن كتابة المقالات التى تنتقد ميلوسوفيتش أو الانضمام إلى مسيرة احتجاج ضده.

حكت لى دانا بوبوفيتش، أستاذة الاقتصاد بجامعة بلجراد، والتى شاركت فى مظاهرات شتاء ٩٦/١٩٩٧ - ما حدث فى فصلها بعد صدور القانون الجديد.

«سألنى بعض الطلاب عما إذا كنت سأنضم إليهم إذا ما حدث إضراب؟ فقلت لهم: إن هذا سيكون من جانبى المشاركة الخامسة خلال سبع سنوات، وأعتقد بصراحة أنه مجرد تضييع وقت. فما الجدوى؟ وقلت إنهم إذا أضربوا بالفعل فسأنضم إليهم. ولكنهم فى النهاية وافقوا على رأيى».

فبالنسبة لكثير من الطلاب الأذكياء، وخاصة طلاب الكليات الفنية، ينحصر المستقبل فى الحصول على وظيفة فى الخارج. فهم قد تخلوا نهائيا عن كل أمل فى التغيير فى صربيا.

[٢]

بطبيعة الحال، إن صربيا قد تتحول فى يوم من الأيام، ولكن المعلقين فى بلجراد يتنافسون فى وصف صعوبة التنبؤ بالوقت الذى سيحدث فيه ذلك. ويقول المعلق السياسى كونجين بريبيفيتش:

«لقد حصلت على منحة للدراسة فى أكسفورد، ولكنى بعد أن قضيت هناك ثلاثة أشهر، وجدت أنى أفضل العودة إلى بلدى. كان الوضع مملا للغاية هناك!أما هنا فالأمر مثير حقا..إذا كنت من المشتغلين بالعلوم السياسية، إن الوضع أشبه بأن يكون المرء على متن ناقلة بترول جبارة خرجت عن السيطرة. وأنت تعرف أنها لا بد أن تصطدم بشىء لكن كيف سيحدث ذلك، ومتى، ليس هناك من يعرف».

وفى رأى المؤرخ الكساجيلاس، إن البلد أشبه بمناطيد زبلن فى سنوات الثلاثينيات.

«فإذا أصاب أحدها خرق فإنه لا يسقط على الفور بل ربما يستمر طافيا لمدة أسبوع قبل أن يسقط. وفى نظامنا الآن عدة خروق ولكن كم من الوقت سيحتاج حتى يسقط..

» وعند هذه النقطة فهو مثل الكثيرين غيرد، يجد من الصعب أن يكون كلامه أكثر تحديدا.

هذا النوع من عدم اليقين والشعور بالإرهاق، هو الذى أدى بالكثيرين إلى أن ينأوا بأنفسهم أن يصبحوا جزءا مما درجوا على وصفه بـ«الهجرة الداخلية» فى الدول الشيوعية، حتى إذا كانت مساكن كوسوفا تحرق بالقرب من الحدود الألبانية. وكوسوفا لا تبعد عن بلجراد أكثر من أربع ساعات بالسيارة، ولكن أحد المشتغلين بالعلوم السياسية قال إنها بالنسبة إليه يمكن أن تكون بوروندى.



والواقع أن كثيرين لايكادون يعرفون ماذا يجرى. ومازال معظمهم يحصلون على أخبارهم من تلفزيون صربيا الذى تديره الدولة والذى يخلق للعالم صورة خيالية من صنعه. ففى اليوم الذى أعقب الانتخابات التى سقط فيها مرشحو ميلوسوفيتش فى الجبل الأسود، وفى الوقت الذى أصبح فيه الوضع فى كوسوفا أكثر اتساما بالعنف من أى وقت مضى، لم تذكر نشرة الأخبار المسائية شيئا عن أى منهما خلال الدقائق العشرين الأولى. وكان أهم أخبار اليوم بالنسبة لرؤساء تحرير النشرة هو زيارة يقوم بها لصربيا المسئولون من إحدى شركات الخرسانة الفرنسية.

وصحيح أن أى شخص يريد أن يعرف ما يجرى يستطيع أن يستمع إلى الإذاعات المستقلة أو الإذاعات الأجنبية، أو أن يقرأ الصحف المستقلة. ولكن بعد مرور عشر سنوات من الاستماع إلى أنباء سيئة، وبناء آمال على التحسن ثم فقدها، فإن الكثيرين يفضلون عدم الاستماع إلى الأخبار أصلا، خاصة وهم يشعرون بالعجز عن تغيير أى شىء على كل حال.

[٤]

كثيرا ما يوجه الاتهام إلى ميلوسوفيتش بأنه يدمر اقتصاد يوجوسلافيا، بينما يحقق لنفسه من وراء ذلك مكاسب سياسية. ويقال أحيانا إن ذلك قد يفضى فى النهاية إلى سقوطه، ومن الصعب الحصول على الحقائق الخام لأن الكثير من التفاصيل المهمة هى من أسرار الدولة، وقد جاء فى بيان أصدرته مجموعة من الاقتصاديين المعارضين للحكومة، معروفة باسم «مجموعة الـ١٧) إنه من الأسهل عليهم أن يعرفوا احتياطيات النقد الأجنبى فى تايوان أو فى بوركينا فاسو عن حصولهم على بيان احتياطيات بلدهم نفسه.كما أنهم يعتقدون أن الإحصاءات التى تنشرها الدولة لا يعول عليها، ومع ذلك، يمكن استخلاص بعض النتائج العامة.

يبلغ الناتج المحلى الإجمالى ليوجسلافيا نحو ١٥ مليار دولار، ويرجّح أنه يقرب من نصف ما كان عليه فى سنة ١٩٨٩. والمعتقد أن مايقرب من ٤٤فى المائة من قوة العمل تعانى من البطالة. وأن الدين الخارجى بلغ ١٢ مليار دولار، وأن الاقتصاد «الأسود» الذى يشمل مجموعة متنوعة من السلع التى تصنع وتتبادل خارج نطاق القانون، تمثل نسبة تبلغ ثلث الناتج المحلى الإجمالى. وبالرغم من أن العقوبات الاقتصادية الأساسية ضد يوغوسلافيا قد ألغيت بعد اتفاقات السلام بشأن البوسنة التى وقعت فى دايتون فى نوفمبر ١٩٩٥، ما زال البلد ممنوعا من الحصول على قروض من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، وبالتالى فهو منقطع إلى حد كبير عن الاقتصاد العالمى.

غير أن هذه المعلومات السيئة تخفى وراءها جانبا من الواقع الذى يسيئ البعض

ميراماركوفيتش، زوجة ميلوسوفيتش، لها حزب صغير يسمى «اليسار اليوغسلافى المتحد»، وهو أبعد ما يكون عن اليسار، لأنه فى الواقع حزب لرجال الأعمال، وعندما اختلف معها مؤخرا اثنان من كبار أعضاء الحزب وجدا نفسيهما فجأة مقدمين للمحاكمة بتهمة الفساد

فهمه. فكثير من الأشخاص الذين يقال إنهم عاطلون لديهم أعمال فى الواقع، وكثير من الأشخاص الذين لديهم أعمال ليسوا فى حالة سيئة بقدر ما نتصور. وبناء على وعد بعدم ذكر اسمه قدم لى أحد عمال المعادن فى مصنع الجرارات والمحركات فى ضاحية راكوفيتشا - وهى ضاحية صناعية بالقرب من بلجراد - معلومات يفهم منها السبب الذى دفع العمال إلى عدم الانضمام إلى معارضى ميلوسوفيتش.

قال لى:

إننى يجب أن أفهم أولا أن الأوضاع أصبحت الآن أفضل كثيرا مما كانت عليه. فى الأيام السيئة للحرب والتضخم المفرط. فهو قبل نشوب الحرب فى البوسنة وكرواتيا كان يكسب ما يوازى ٥٠٠ دولار فى الشهر. وفى آخر ١٩٩٣، عندما كان اقتصاد يوجسلافيا يعانى من العقوبات الدولية والنزيف الناتج عن النفقات الحربية. انخفض دخله إلى ٤ دولارات فقط. ولكنه الآن ارتفع إلى ١٠٠ دولار. وإن كان راتبه قد عاد إلى التآكل عند مقارنته بالسنة الماضية.

وقد وجدت أن ماذكره عامل المعادن هو الوضع المألوف بالنسبة لكثير من الصناعات الصربية الرئيسية المملوكة للدولة. وكان مما قاله إنه من بين قوة العمل فى شركته، والتى يبلغ عددها ثلاثة آلاف عامل. لايشتغل غير الثلث. وهناك ثلث آخر فى «إجازة مرضية» وثلث غيرد فى «إجازة مدفوعة الأجر». وهؤلاء الألفان من العمال لا يحصلون إلا على ثلثى رواتبهم. ولكنهم يفضلون ذلك لأنهم جميعا يمارسون أعمال التجارة الصغيرة من نوع أو آخر. وكثيرون منهم يزرعون فى مساكنهم بعض أنواع الخضر ويبيعون جزءا منها. أما من يعملون بالفعل. فلدى كل واحد منهم تقريبا وظيفة ثانية. ماكانوا يستطيعون العيش بدونها. وقال لى عامل التعدين: وبطبيعة الحال. فإن مديرى الشركة ورؤساءها يعيشون حياة رغدة. وعندما لا يكونون قد أنشأوا شركات خاصة بهم لتوريد قطع الغيار للشركة المملوكة للدولة. يكون أصدقاؤهم قد فعلوا ذلك فى مقابل الحصول على عمولات كبيرة. والمديرون يعيشون فى شقق مملوكة للشركة، ويستخدمون فى تنقلاتهم سيارات الشركة.

والجرارات التى تنجح الشركة فى إنتاجها فعلا. تشتريها الدولة لتقايض بها. مثلا البترول المستورد من الصين. ولكن حتى إذا كانت لدى الشركة طلبات أكثر فإنها لا تستطيع أن تتوسع فى إنتاجها لتلبية تلك الطلبات لأن الدولة تستغرق وقتا طويلا فى دفع المستحقات عليها. وبالتالى فإن الشركة تعانى دائما من نقص الأموال السائلة ولاتستطيع أن تتوسع فى الإنتاج. وقد كف النظام المصرفى منذ أمد طويل عن العمل باعتباره جزءا طبيعيا من الحياة المالية. فالقروض يصعب للغاية الحصول عليها مالم يكن لمسئولى الشركة نفوذ سياسى داخلى، ومالم يكونوا على استعداد للدفع فى سبيل ذلك.

ووفقا لما قاله عامل المعادن: «إن أحدا لا يعترف بتأييده لميلوسوفيتش الآن. ولكن مادام هناك من يصوتون لصالحه فلا شك فى أن هناك من يؤيدونه».

وينبغى أن يكون واضحا أن اقتصاد صربيا لا يمكن أن يستمر إلى الأبد بوضعه الحالى - ولكن - كما أوضح ذلك العامل - عندما يحدث الإصلاح الاقتصادى الحقيقى، فذلك سوف يعنى أن معظم العمال الذين يتلقون أجورا لعدم عمل شىء، سوف يفقدون «وظائفهم» أو بالأحرى أجرهم الهزيل. ولما كانت إعانة البطالة منخفضة للغاية فمن الواضح أن الشيطان الذى تعرفه أفضل من الشيطان الذى سيقوم بفصلك من العمل.

ومن الحقائق المحورية فى النظام الاقتصادى أن مديرى بعض أكبر الشركات اليوغوسلافية الحكومية. سواء كانت تعمل فى مجال الأدوية أو إنتاج الأثاث. هم أيضا وزراء فى الحكومة. ووفقا لما تقول به الكسندرا بوزارتش، وهى باحثة اقتصادية ونائبة لرئيس حزب «التحالف المدنى» المعارض الصغير. إن هذا الوضع يعطيهم فرصة «الحصول على المعلومات. وهى أهم شىء. فهى تساعدهم على المحافظة على وضعهم الاحتكارى. لأنهم يستطيعون أن يقضوا على أى منافسة ويستطيعون أن يحصلوا على القروض والإعانات والعملة الصعبة بالسعر الرسمى. ويكون لذلك قيمته الكبرى عندما يختلف السعر الرسمى عن سعر السوق السوداء اختلافا ملحوظا. كما أن الموظفين الحكوميين المكلفين بمتابعة قطاع الأعمال. هم فى أفضل الأوضاع فى يوغسلافيا. فهم وأصدقاؤهم يجمعون الثروات ما داموا فى مناصبهم. والمعتقد أن جانبا كبيرا من الأموال التى يجب أن تذهب إلى الدولة يتم إخفاؤها فى شبكة من الحسابات الخارجية. والأرجح أنها تتخفى فى زى ممتلكات للقطاع الخاص أو لشركات وهمية.

وكل من يحاول أن يقاوم هذا النظام الفاسد سيقع فى متاعب لاحصر لها. لأن كل من يشتغل فى هذا المجال له «ملف» لدى البوليس السرى يمكن أن يستخدم ضده.

وميراماركوفيتش، زوجة ميلوسوفيتش، لها حزب صغير يسمى «اليسار اليوغسلافى المتحد»، وهو أبعد ما يكون عن اليسار، لأنه فى الواقع حزب لرجال الأعمال، وعندما اختلف معها مؤخرا اثنان من كبار أعضاء الحزب وجدا نفسيهما فجأة مقدمين للمحاكمة بتهمة الفساد.

وليس لهذا الحزب تأييد يذكر، ومع ذلك فإن الكثيرين من أعضائه من رجال الأعمال يشغلون مناصب هامة فى الحكومة كما أن الحزب عضو فى التحالف الذى يضم حزب زوج السيدة ماركوفيتش، وهو حزب صربيا الاشتراكى، والحزب الراديكالى التابع لسسلى. وليس هناك من يشك فى أن حزب الزوجة هو أيضا ترتيب مفيد للاستيلاء على الأموال العامة.

إلى متى يمكن لفساد على هذا النطاق أن يدوم؟ لقد توجهت إلى قرية بورتانوفيتش التى تقع على ضفتى الدانوب بالقرب من بلجراد. وهى تقع فى فوى فودينا، أكثر مقاطعات صربيا قربا من الشمال، وهى المصدر الرئيسى للقمح، حيث يرى المرء حقولا شاسعة تفيض بالقمح والذرة، ولكن الأمور لا تسير سيرا حسنا هنا أيضا. يقول المزارعون إن المحصول سيقل هذا العام بنسبة الربع عن السنة الماضية، لأنهم لا يستطيعون أن يحصلوا على السماد بالقدر الذى يحتاجون إليه.

وقد قال لى أحد المزارعين إن ذلك يرجع إلى أن «بعض الأوغاد فى الحكومة أو بعض أصدقائهم فى يدهم احتكار استيراد الفوسفات الذى تحتاجه شركاتنا لصنع الأسمدة»، وبسبب ذلك ارتفع ثمن الأسمدة أكثر مما ينبغى.

وإذا كان هناك من يستطيع أن يكشف عن كيفية تعامل ميلوسوفيتش مع الاقتصاد، فهى السيدة التى كانت لمدة طويلة موضع سره المالى، بوركافوستش، وهى بطبيعة الحال لن تتكلم. يقول كثيرون إن مسز فوستش قامت أثناء الحرب بتنظيم شبكة من الشركات وحسابات البنوك فى قبرص. الغرض منها تجنب عقوبات الأمم المتحدة. وإن المبالغ المدفوعة من الدول الخارجية وإليها تتحرك فى سرية داخله وخارجه. منها هذه الجزيرة التى لاتفرض قيودا شديدة. ومن الواضح أن مسز فوستش لها مواهب متعددة. فهى الآن فى منتصف السبعينيات. وقد قاتلت فى صفوف الأنصار أثناء الحرب العالمية الثانية. ويقال إنها قاسية بلا رحمة، وإنها تكرس كل جهودها لعملها ولميلوسوفيتش.

وعندما انتهت الحرب فى سنة ١٩٩٥، عادت مسز فوستش من قبرص إلى بلجراد لتصبح مديرا لبنك بيوجرادسكا، وهو الشركة القابضة التى تملك موقع ميلوسوفيتش الحصين السابق، أى بنك بيوبانكا، ومن موقعها ذاك تستمر فى إمداده بالمساعدة المالية بكافة أنواعها. وليس هناك شىء يمكن إثباته ولكن هناك اعتقاد بأنه بسبب الضغط من جانب أوروبا الغربية، فإن الأموال الحكومية والخاصة التى كان ميلوسوفيتش يسيطر عليها والتى كان يخفيها فى قبرص قد انتقلت إلى الصين وروسيا(*) ولأن صربيا لا تدفع الآن المستحقات عليها بشأن الغاز والبترول لكل من هذين البلدين، فربما كانت الأموال فى طريقها للانتقال إلى مكان مختلف مرة أخرى.



ويخمن كثير من اليوغسلافيين أن المبالغ الموضوعة فيما يسمونه «حساباتنا الموجودة فى الخارج»، قد بلغت أبعادا خرافية، والأرجح أن ميلوسوفيتش وحلفاءه المقربين، يملكون ثروات خاصة هربت إلى الخارج، ولكن هناك شواهد كثيرة على أن مصادر الأموال التى يعتمدون عليها فى الإبقاء على حركة الاقتصاد الوطنى يرجح أن تكون قد استنفدت. ففى العام الماضى قام ميلوسوفيتش ببيع حصة ٤٩ فى المائة فى شبكة تليفونات صربيا لشركتين إحداهما يونانية والأخرى إيطالية، وقد تلقى مبلغا ثمينا بلغ ١٫٠٥ مليار دولار نقدا، استخدمت فى دفع المعاشات والمرتبات المتأخرة قبيل إجراء انتخابات نوفمبر الماضى.

وطوال عدة شهور كانت هناك تخمينات بشأن أى من ممتلكات الدولة سيأتى عليها الدور ليبيعها ميلوسوفيتش للمستثمرين الأجانب حتى يتمكن من تغطية بقية شهور هذا العام. لكن فى يوم ٨ يونيو أصيبت تلك الخطط بضربة قاضية، فقد فرض الاتحاد الأوروبى وتبعته الولايات المتحدة، حظرا على الاستثمارات الأجنبية بسبب تصرفات ميلوسوفيتش فى كوسوفا.

ولم ينضم الروس إلى حظر الاستثمار، ولكن ليس من المتوقع أن تحصل حكومة صربيا المفتقرة إلى المال على مساعدة مالية كبيرة من «أشقائها» السلافيين، كما يقال كثيرا عن الروس، ومؤسسة جاسبروم الروسية العملاقة ترغب فى أن تشترى شبكة خطوط

(*) نظرا لأن قبرص مرشحة الآن لعضوية الاتحاد الأوروبى فهى بحاجة لأن تنظف صفحتها.

أنابيب الغاز الاستراتيجية الصربية، وهى شبكة قيمة وآخذة فى التوسع. ولكن نظرا لأن حكومة صربيا مدينة لمؤسسة جاسبروم وغيرها من الدائنين الروس بمبالغ تصل إلى ٧٠٠ مليون دولار، فإنها ستظل مدينة للروس حتى إذا باعت لهم خط الأنابيب.

[٥]

ويمكن مشاهدة ميلوسوفتش فى كل ليلة تقريبا على شاشة التليفزيون يرحب بضيف أو بآخر، ويتبادل معه عبارات المجاملة، ولكنه لم يعد يتحدث إلى شعبه فيما عدا ذلك. ويعتقد البعض أن هذا الانسحاب من جانبه كان فى البداية تكتيكا يهدف إلى إعطائه هالة الغموض والابتعاد، ولكنهم يعتقدون الآن أنه قد فقد اتصاله بحقائق الأمور.

ونظرا لأن ميلوسوفتش نادرا ما يتكلم، فمن الملاحظ أن الأشخاص الذين يفترض أن يتكلموا باسمه أصبحوا يفعلون ذلك بدرجة أقل فأقل. فأثناء الحرب كان المسئولون فى الحكومة والحزب يبذلون جهودا واضحة لتوصيل رسالتهم الدعائية، وخاصة للأجانب. وكانوا يقولون إن هناك سوء عرض لقضية صربيا. أما الآن فقد صمتوا كلهم تقريبا. وفى اعتقادى إن ذلك لأنه، فى حالة عدم تلقيهم توجيهات أعلى فإنهم لا يعرفون ماذا يقولون. وهناك بطبيعة الحال سبب آخر لصمتهم: إنه إذا جاءت «النهاية» يجب أن يكون فى وسعهم أن يقفزوا من السفينة لإنقاذ أنفسهم، وعلى ذلك كلما كان حديثهم قليلا الآن فى تأييد ميلوسوفتش كان ذلك أفضل.

وأصحاب المعاشات يمثلون ثلث الناخبين فى صربيا. ونظرا لأن كثيرين يتقاعدون فى وقت مبكر، فإن ٤٤ فى المائة منهم تقل سنهم عن الخمسة والخمسين، وقد أعلنت الحكومة الصربية مؤخرا أن معاشاتهم ستنقص بنسبة ٢٠ فى المائة. وبسبب التضخم سيكون معنى ذلك نقصا بنسبة ٤٠ فى المائة بالأسعار الحقيقية. ولما كان أصحاب المعاشات من المجموعات الرئيسية المؤيدة لميلوسوفتش، فإن فشل الحكومة فى العثور على أموال من مكان ما ربما يؤدى إلى تعريض حزب صربيا الاشتراكى التابع لميلوسوفتش لضربة شديدة.

وبينما يستمر وطن ميلوسوفتش فى الانهيار حوله، فإنه قد يواصل الحكم فى عزلة تامة، بينما تستمر صربيا تائهة، وبينما تشتعل الحرب فى الجنوب، وتهدد القوات العسكرية الأجنبية باحتلال جزء من الوطن. ولكن الشىء المؤكد هو ـ على حد تعبير سونيا بيسركا ـ المرأة الشجاعة التى تدير «لجنة هلسنكى لحقوق الإنسان» ـ إن هذا البلد سوف يواجه، إن عاجلا أو آجلا «انهياره التاريخى». ■

يعاد نشره بإذن من :
The New York Review of Books

ترجمة : أسعد حليم

كوسوفا

بين هيمنة الأطلنطى.. ووحشية الصرب

محمد يوسف عدس

■■ لعبت كوسوفا دورا مهما فى تاريخ البلقان بصفة عامة. وفى تاريخ الدولة العثمانية بصفة خاصة. ولكنها مع ذلك ظلت مجهولة من سكان أوروبا الغربية حقبة طويلة كانت خلالها لغزا خفيا. فقد تركزت معرفة الغربيين بمنطقة وسط البلقان على الدروب المطروقة للأغراض التجارية والعسكرية. وكانت كوسوفا بعيدة عن هذه الدروب.

وقد تآزرت على عزلة كوسوفا عوامل تاريخية وأخرى جغرافية. فمن الناحية الجغرافية تمثل كوسوفا بأرضها وتضاريسها وحدة متميزة تحيط بها جبال الألب الشاهقة كما يحيط السوار بالمعصم. وتمتد فى وسطها هضبة مرتفعة يشقها من وسطها تلال تمتد من الشمال إلى الجنوب لتقسم أراضى كوسوفا إلى شقين متساويين فى المساحة يعرف الشق الغربى منها باسم كوسوفا. والشرقى يطلق عليه الصرب اسم «ميتوهيا». مما يكرد الكوسوفيون ترديده، بل يطلقون على جميع الأراضى اسم كوسوفا وقديما نطقها العثمانيون «قصود». تشق سلاسل الجبال مجموعة من الأنهار لتروى أراضى الهضبة، ثم تخرج منها متجهة إلى مصباتها الثلاثة: بحر إيجه، والبحر الأسود، والبحر الأدرياتيكى.

وتضيف الجيولوجيا أهمية اقتصادية خاصة لكوسوفا، حيث يضم قسمها الشرقى أعظم مصدر للثروة المعدنية فى جنوب شرق أوروبا. ففى مناجم «تربيتا» وحدها يوجد أكبر مصادر الرصاص والزنك فى أوروبا، هذه الثروة المعدنية جعلت كوسوفا هدفا لغزو الجيوش منذ أيام الرومان إلى العصر الحديث. ففى الحرب العالمية الثانية حرص هتلر على أن يبسط سيطرته على كوسوفا وكانت القطارات تنقل يوميا خمسمائة طن من معدنى الرصاص والزنك من «تربيتا» إلى المصانع الحربية فى ألمانيا.

أما من الناحية التاريخية فقد اكتسبت كوسوفا أهمية عسكرية أخرى، حيث أدرك صُنَّاع الإمبراطوريات من وقت مبكر أن من يتحكم فى هضبة كوسوفا الحصينة يسهل عليه السيطرة على البوسنة وما وراءها من الأراضى الممتدة حتى شمال ألمانيا. هكذا نظرت إليها الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية. ومن هنا ترجع أهمية معركة كوسوفا الأولى سنة ١٣٨٩ م والثانية سنة ١٤٤٨، اللتين حسمتا الصراع فى البلقان لصالح العثمانيين عدة قرون.

العثمانيون :

ظلت كوسوفا جزءا من الدولة العثمانية قرابة خمسة قرون ازدهرت الحياة فيها خلال القرنين الأوّلين ازدهارا لم تشهده البلاد من قبل ولا من بعد، فقد ساد فيها أسلوب الحياة العثمانية والنموذج الإسلامى الذى قدّمه العثمانيون إلى هذه المنطقة من أوروبا. وكانت الدولة العثمانية حينذاك هى العالم الأول ومركز الحضارة والتقدم فى العالم. بينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمات. العصور الوسطى رازحة تحت وطأة الإقطاع وطغيان الكنيسة.

كان الزى السائد هو الزى العثمانى وكذلك أسلوب السلوك العام. وكان هذا المشهد مصدر خلط وسوء فهم من جانب الرحالة الأوروبيين. فقد اعتقدوا أن هذا المظهر دليل على أن الشخص الذى يلتزم به لابد أن يكون تركيا. وبالضرورة مسلما فى حين أنه قد لا يكون تركيا ولا حتى مسلما. ومن ثم شاعت هذه الأخطاء فى كتابات الرحالة الأوروبيين ولم يسلم من التعصب ضد هذا المظهر العثمانى حتى «بايرون» الشاعر الإنجليزى الشهير.

وهنا معضلة يصعب على المثقفين حلها وأحسب أنها ستبقى كذلك لفترة من الوقت: لأن حلها يحتاج إلى جهد ذهنى وإلى صبر على مشاق البحث والتنقيب وهو أمر لم نتهيأ له بعد، لأن مشكلات البلقان لم تزل بعد بعيدة عن بؤرة الاهتمام العام.

لكن سبقنا فى محاولة فهمها المؤرخون والباحثون الأوروبيون والأمريكيون الذين يعكفون الآن على دراسة الوثائق العثمانية التى أخرجتها الحكومة التركية حديثا من ظلمات المخازن إلى أرفف المكتبات. كان الباحثون الغربيون هم أول من انكب على هذه الوثائق يريدون أن يكتشفوا سر ذلك التماسك المذهل الذى تميز به نسيج الدولة العثمانية قرونا، وهذا الامتزاج الفريد بين رعايا دولة يمثلون حشدا من المجموعات البشرية المتباينة فى أصولها العرقية واللغوية والدينية وفى ثقافاتها وأعرافها وأمزجتها. وينتشرون على مساحات شاسعة من الأرض، بينما لم تستطع الإمبراطورية السوفيتية أن تصمد إلا بضعة عقود رغم تفوقها العسكرى والتكنولوچى، وأنظمتها الإدارية والأمنية التى كانت تحصى على الناس أنفاسهم فى عقر دورهم.

> **بقيت كوسوفا ضمن أملاك الدولة العثمانية ما يقرب من خمسة قرون، وكانت أغلبية سكانها ـ عندما دخلها العثمانيون ـ من الألبان الكاثوليك، ولم يكن فيها سوى أقلية قليلة من الصرب الأرثوذكس، وقد اعتنقت غالبية السكان الإسلام عن رغبة واقتناع لا قهرا وإجبارا كما يزعم بعض المؤرخين.**

شهد القرن التاسع عشر مولد القوميات بين شعوب البلقان، ولم يكن ألبان كوسوفا استثناء من هذه النزعة، ومن ثم تفجرت الانتفاضات الوطنية والثورات العارمة، وقد تركزت مطالب الألبان فى أول الأمر حول الإصلاحات الإدارية والضريبية والحكم الذاتى الذى يجمع كل الألبان فى كوسوفا وألبانيا ومقدونيا واليونان فى دولة وطنية واحدة ضمن الإطار العام للدولة العثمانية.

ولكن عندما انقضت حكومة الاتحاد والترقى على الباب العالى وخلعت السلطان عبد الحميد الثانى من السلطة صُدم الألبان صدمة مروعة لم يبرءوا منها بعد ذلك أبدا. فقد كانت شخصية السلطان العثمانى عند الألبان هى الخيط السحرى الذى يربط بينهم وبين دولتهم الكبرى، فلما أصيب الرمز انهارت العلاقة المقدسة وانفرط عقدها، وأدرك الألبان أنهم أصبحوا وحدهم أمام غزوة صليبية تدق عليهم الأبواب.

دراسات نويل مالكوم :

يعلق المؤرخ والصحفى البريطانى نويل مالكوم على هذه النقطة فيشير إلى أن فريقا من الباحثين الغربيين بدأ اليوم يعيد النظر فى كل ما كتب وشاع عن الدولة العثمانية بعد أن تبين لهم مدى ما ألصق بتاريخها من افتراءات ظالمة، حيث يرون أنه ليس من الإنصاف ولا من مقتضيات المنهج العلمى تعميم أحكامنا بشأن الأوضاع المتردية فى الدولة العثمانية خلال عصر أفولها على جميع الأوضاع والمؤسسات العثمانية فى كل العصور.

ولاشك أن نويل مالكوم نفسه هو أحد أبرز هؤلاء الباحثين المنصفين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التحرى عن الحقيقة، يلتمسها فى مصادرها الصحيحة ويجمع حول النقطة الواحدة كل ما أتيح له من وثائق ويمضى فى دأب ومثابرة يقارن بينها ويتحرى عن أصحابها ولا يطلق حكمه عليها إلا عندما يستقصى كل الملابسات التى أحاطت بها، يدعمه فى ذلك إجادته لعدد من اللغات الأوروبية إلى جانب اللغة التركية والصربوكرواتية، علاوة على تمتعه بذلك

Kosovo : A Short History
(كوسوفا : تاريخ مختصر)
Noel Malcom
London : Macmillan, 1998, pp 492, £ 30

خرج ميلوسوفيتش من اتفاقية دايتون أشد قوة، حيث مكنته هذه الاتفاقية من الهيمنة المطلقة على صربيا وأطلقت قبضته الحديدية على كوسوفا، وداعبه الدبلوماسيون الغربيون وشكروه على تعاونه في جهود السلام

الحس الصحفي النادر الذي اكتسبه خلال رحلاته في يوغوسلافيا السابقة واختلاطه الحميم مع أفراد شعوبها المختلفة سواء في المدن أو القرى.

أول ما عرفته كان من خلال مقالاته وتحليلاته السياسية في الصحف البريطانية أثناء الحروب اليوغوسلافية حيث لفت نظري بمنطقه القوي وحججه التي ساقها وهو يتهم حكومته والحكومات الغربية بالتقصير في نجدة شعب البوسنة ثم في التراخي غير المبرر في وقف عمليات التطهير العرقي التي تشنها صربيا ضد الشعب الألباني في كوسوفا.

صدر له في هذا السياق كتاب سنة ١٩٩٤م عن قضية البوسنة بعنوان (البوسنة: تاريخ مختصر)، ثم أعقبه بكتاب أكبر منه عن كوسوفا بعنوان (كوسوفو: تاريخ مختصر) ويعتبر الكتابان من أهم ما صدر في هذين الموضوعين في بريطانيا. وقُدّر لي أن تطول إقامتي في لندن منذ فبراير ١٩٩٢م حتى اليوم، حرصت خلال هذه الفترة على متابعة نويل مالكوم في كل كتاباته ومحاضراته وندواته التي أصبحت بحق مصدرا من مصادر المعرفة ومركزا للمناقشات العلمية الرصينة حول هذا الموضوع المتفجر.

الحقيقة أن اهتمامي بكوسوفا ليس جديدا، وإنما هو اهتمام قديم يرجع إلى سنة ١٩٩٢ عندما بدأت أجمع مادة تساعدني على فهم ما يجري من أحداث مذهلة في يوغوسلافيا وعلى استيعاب حقيقة الأعمال الوحشية التي مزق بها الصرب شعبا ودمروا دولة وليدة هي البوسنة والهرسك. وتبين لي حينذاك أن بذور هذه الحرب ومقدماتها وقعت في أرض كوسوفا قبل أن تمتد إلى سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة، وبدأت أفهم مقولة بعض الكتاب أن الحرب اليوغسلافية بدأت في كوسوفا وسوف تعود إليها أو تنتهي فيها.

خلال الثمانينيات كانت هناك حملات إعلامية صربية تفجرت بعد موت الرئيس جوزيف بروزتيتو، موجهة إلى تيتو نفسه، متهمة إياه بأنه دعم الشعوب والقوميات الأخرى على حساب الشعب الصربي والقومية الصربية، وأنه سمح بقيام جمهوريات وكيانات سياسية ذات حكم ذاتي لتفتيت الشعب الصربي بين هذه الكيانات، وفي ذلك إشارة إلى جمهورية البوسنة والهرسك، وإقليمي الحكم الذاتي في كوسوفا وفويفدينا.

وكان من أهم التهم التي وجهها الصرب إلى تيتو هي صداقته للدول العربية والمسلمة في إطار توجهه نحو حركة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، وفي هذا يقول ميرولوب إيفيتش (أستاذ مساعد في كلية العلوم السياسية بجامعة بلجراد) في لقاء صحفي نشر بمجلة دوجا اليوغسلافية في ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩، يقول:

إن تيتو كان مخطئا في هذه الخطوة خطأ فاحشا لأنه كان يتوهم أنه ينشئ علاقات مع دول متحضرة مثلنا، ولكن تبين أنها بلاد متخلفة موبوءة بالأصولية الإسلامية التي انتقلت إلينا، وأن العرب والمسلمين لديهم استراتيجية للسيطرة على العالم تبدأ من إحياء الإسلام أولا في يوغوسلافيا ثم تمتد منها إلى بقية الدول الأوروبية.

انتقلت الحملة الإعلامية بعد ذلك لتنصب على المسلمين والإسلام في يوغوسلافيا وعلى الأخص في كوسوفا والبوسنة، وشاع الكلام عن مؤامرة إسلامية ضد الصرب متمثلة في الزيادة الجنونية في عدد المواليد بين الأسر الألبانية، وأن الألبان قد استغلوا الحكم الذاتي لاضطهاد الصرب وطردهم من كوسوفا، والحقيقة أن خروج الشبان الصرب والألبان في كوسوفا إلى الجمهوريات اليوغسلافية إنما كان باعثه هو البحث عن فرص أفضل للعمل والعيش: لأن كوسوفا كانت أفقر المناطق اليوغوسلافية وأكثرها تخلفا، بينما كانت سلوفينيا وكرواتيا وصربيا تشهد ازدهارا اقتصاديا وتدفقا سياحيا وتحفل بمباهج الحياة التي تجتذب الشباب.



انبعاث القومية الصربية:

ولكن اعتبر القوميون الصرب هذا النزوح مؤامرة إسلامية سرها المواليد الألبانية، وكان من المستحيل في ذلك الوقت إقناعهم بالمنطق خلاف ذلك، فقد انبعثت القومية الصربية في ظلمات اللاشعور حدثا تلقائيا ولا كان سببه عدوانا حقيقيا من أحد، وإنما كان عملا منظما خططت له القيادات الصربية وبثته على أوسع نطاق على الجماهير الصربية خلال أجهزة إعلامية أصبحت في قبضة مجموعة من القادة رأوا مصلحتهم ومستقبلهم في ركوب هذه الموجة القومية لتحقيق مشروعهم في إقامة صربيا الكبرى على أشلاء الشعوب اليوغوسلافية الأخرى، لذلك انسحبت سلوفينيا من الاتحاد السوفيتي وتبعتها كرواتيا، وخشيت البوسنة أن تبقى وحدها في الاتحاد اليوغوسلافي الجديد فيفترسها ميلوسوفيتش، ومن ثم أعلنت الاستقلال. ويعرف العالم بقية السيناريو المأساوي الذي نزل بشعب البوسنة وجمهوريتها. ثم انسحبت بعد ذلك مقدونيا، وبذلك انهار الاتحاد اليوغوسلافي السابق، فلم يبق مع صربيا بالمؤامرة سوى جمهورية الجبل الأسود وهي دولة صغيرة لا يصل عدد سكانها إلى نصف مليون، وكوسوفا - ببطش الآلة العسكرية - وفويفورينا بنفس الأسلوب التآمري والغوغائية التي اتسم بها عهد ميلوسوفيتش. وقبل أن تنهار يوغوسلافيا عمليا كانت قد انهارت فكريا وأيديولوجيا بظهور القومية الصربية المتطرفة التي استبدلت الخطاب الماركسي الرصين في وسائلها الإعلامية بخطاب غوغائي يلهث بالأكاذيب والافتراءات ويعبئ الجماهير لقتال جيرانهم بافتراض مؤامرات وهمية يدبرونها لهم.

وكان أول مسمار في نعش يوغوسلافيا تيتو هو تلاعب ميلوسوفيتش بدستور ١٩٧٤، وإلغاء الحكم الذاتي لكوسوفا وإغلاق برلمانها، ونزول الدبابات في شوارع العاصمة بريشتينا.

ذهبت يوغوسلافيا ولم يبق على الساحة سوى صربيا الكبرى بوجهها القومي القبيح.

كانت كوسوفا هي الساحة التي جرب فيها ميلوسوفيتش قدراته لأول مرة على مواجهة الجماهير والتلاعب بمشاعرهم، وكانت منصة انطلاقه الصاروخي نحو قمة السلطة في بلجراد. وفي كوسوفا جرب ميلوسوفيتش قواته العسكرية والبوليسية وعصاباته الصربية المسلحة في قمع الجماهير الألبانية وبث الرعب بينهم، فلما نجح انطلق ينفذ مخططاته العدوانية في جمهوريات يوغوسلافيا الأخرى.



أصل الصرب والألبان:

يحاول الصرب تصوير قضية كوسوفا على أنها قضية إقليم صربي، الصرب فيه هم السكان الأصليون، ولكن به أقلية وافدة من دولة مجاورة هي ألبانيا، جلبتها قوة أجنبية هي الدولة العثمانية إبّان احتلالها للمنطقة، وقد نجح الصرب في تسويق هذه الأكذوبة إلى العالم وإلينا فأصبحنا نردد في إعلامنا عبارات: الأقلية الألبانية، وسكان كوسوفا المنحدرون من أصل ألباني، والانفصاليون وصفا لحركة المقاومة الكوسوفية الوطنية أو ما يسمى بجيش تحرير كوسوفا. ولم يبق سوى أن نصفهم بالإرهابيين لنكون قد تبنينا الأكذوبة الصربية بحذافيرها.

في حين أن العكس هو الصحيح، فالألبان هم السكان الأصليون أحفاد القبائل الألبانية التي عاشت وسيطرت على المنطقة الممتدة من الساحل الأدرياتيكي إلى قلب البلقان شاملة ما يعرف حديثا باسم ألبانيا وكوسوفا وأجزاء من مقدونيا والجبل الأسود واليونان. هذه القبائل تنتمي إلى عناصر اليريانية قديمة في أوروبا وتنتمي لغتهم إلى أحد الفروع اللاتينية. وأطلق عليهم الألبان نسبة إلى جبال الألب وليس لأنهم نازحين من الكيان السياسي الحديث المسمى بألبانيا، ومن هنا جاء الالتباس.

المهم أن هذه القبائل الألبانية كانت مستقرة لقرون طويلة في كوسوفا وما حولها قبل أن تطأ أقدام الصرب أرض البلقان. فالصرب وهم قبائل تنتمي إلى كتلة السلافيين كانوا يسكنون في شرق أوروبا شمال نهر الدانوب ولم يعبروا هذا النهر إلى منطقة البلقان إلا في القرن السابع الميلادي عندما استدعاهم الإمبراطور البيزنطي «قسطنطين بروفير جينيتوس» لمساعدته في طرد الغزاة الآفار.

استقر الصرب بعد ذلك في منطقة راشكا ولم يتوسعوا نحو كوسوفا إلا في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي عندما تعاظمت قوتهم العسكرية في عهد المملكة النيمانية فانتهزوا فرصة ضعف الإمبراطورية البيزنطية وما نشب فيها من حرب أهلية ليزحفوا على أراضي كوسوفا ويقتطعوها من الإمبراطورية، واحتل الصرب كوسوفا لمدة قرنين من الزمان، حتى جاء العثمانيون ليحطموا كل القوى العسكرية في البلقان ويخضعوا المنطقة كلها لسلطانهم بما في ذلك كوسوفا وصربيا والقسطنطينية نفسها.

بقيت كوسوفا ضمن أملاك الدولة العثمانية ما يقرب من خمسة قرون، وكانت أغلبية سكانها - عندما دخلها العثمانيون - من الألبان الكاثوليك، ولم يكن فيها سوى أقلية قليلة من الصرب الأرثوذكس، وقد اعتنقت غالبية السكان الإسلام عن رغبة واقتناع لا قهرا وإجبارا كما يزعم بعض المؤرخين المتحيزين، وأصبح الألبان من أقوى جنود الدولة العثمانية وأكثرهم إخلاصا، وكانت ثقة السلاطين العثمانيين في جدارتهم كبيرة، فجعلوا منهم القادة العسكريين والوزراء العظام الذين شاركوا في حكم الدولة العثمانية والدفاع عنها، وكان منهم الولاة الذين لم يحكموا كوسوفا فقط، بل حكموا ولايات أخرى مثل محمد علي باشا والي مصر.



إسلام كوسوفا:

وفي موضوع دخول الأوروبيين من أبناء البلقان إلى الإسلام، يخصص نويل مالكوم فصلين في كتابيه عن البوسنة وكوسوفا، يفنّد فيهما مزاعم الصرب وغيرهم، وينفي عن الدولة العثمانية أي رغبة أو محاولة لإجبار المسيحيين على الدخول في الإسلام، ولا هي كانت معنية بهذا الأمر أصلا، ولم يشكل جزءا من سياستها، وإنما عاملت رعاياها مسلمين ومسيحيين ويهود وغجر على أساس من المساواة، ويؤكد أن سماحة الإسلام كانت من عوامل جذب الناس إلى هذا الدين، وأن من أهم الأسباب في ترك الناس للمسيحية - في نظره - كان راجعا إلى فساد الكنيسة وضعفها وعدم وجود دعاة مسيحيين راشدين يتمتعون بالعلم والأخلاق.

وإذن فلم يكن العثمانيون في حاجة إلى أن يطردوا الصرب الأرثوذكس من كوسوفا ولا أن يجلبوا إليها مسلمين من ألبانيا ليملأوا الفراغ المزعوم، لأن الألبان الكوسوفيين كانوا ملء الساحة عندما كانوا كاثوليكا، وظلوا ملء الساحة وهم مسلمون، تماما كما أسلم السلاف في البوسنة والهرسك وكرواتيا وصربيا نفسها.



تزييف التاريخ:

ولدى الصرب عادة قديمة فهم إذا لم يجدوا من الحقائق التاريخية ما يساند مزاعمهم

جاء على لسان «فلادان ديورديڤتش» وكان رئيس وزراء صربيًا سابقًا أنه «لا يوجد ألبان حقيقيون إلا في المناطق النائية وأنه حتى وقت قريب كان الألبان مثل الغجر والفينيقيين [يقصد اليهود] لهم ذيول مثل القرود»

يلجأون إلى الافتراءات والأساطير، ينسجونها من خيالهم ويطلقونها أشعارا وملاحم، وتصبح الأسطورة بعد ذلك مرجعا للكتابة التاريخية تحرم مناقشتها. ومن أبرز هذه الأساطير اثنتان: أسطورة معركة كوسوڤا، وأسطورة الخروج الكبير. يحاولون بالأخيرة إثبات أن الصرب كانوا يمثلون الأغلبية في كوسوڤا وأن العثمانيين هم الذين عكسوا هذه المعادلة السكانية بطرد الصرب منها، ويحاولون بالأسطورة الأولى أن يثبتوا أن كوسوڤا هي مهد الصرب ومستودع أسرارهم المقدسة، كما يتردد على ألسنة بعض المعلقين الذين يجلسون في مكاتبهم مسترخين بالخارج يستقبلون مطبوعات وزارة الإعلام الصربية ثم يرددون ما فيها من أكاذيب كالببغاوات لتنشر في صحفنا ووسائل إعلامنا دون تمحيص.



أسطورة الخروج الكبير:

خلاصة أسطورة الخروج الكبير أو (فيليكا سيوبا) كما يسميها الصرب، أن العثمانيين في سنة ١٦٨٩ أرادوا معاقبة الصرب على انحيازهم للغزو النمساوي لكوسوڤا فلما استعادوها طردوا البطريرك الصربي «أرسينيا الثالث» ومعه أربعمائة ألف صربي من كوسوڤا وأحلوا محلهم مسلمين من ألبانيا. وقد توجه البطريرك في حشد مهيب إلى المجر بدعوة من الإمبراطور النمساوي. ولتدعيم هذه الأسطورة أضفى عليها الكتاب بعد ذلك بُعدًا أيديولوجيا شبهوا خروج الصرب من كوسوڤا بمرحلة موت المسيح عليه السلام ودفنه، على اعتبار أن المرحلة السابقة التي تمثل صلب المسيح هي معركة كوسوڤا التي قتل فيها الأمير «لازار» سنة ١٣٨٩م، أما المرحلة الثالثة التي تتوازى مع قيام المسيح فهي غزو الصرب لكوسوڤا واحتلالها سنة ١٩١٢.

يفند هذه الأسطورة المؤرخون المحدثون ومنهم نويل مالكوم بعد أن بحثوا الوثائق المتصلة بها في الوثائق النمساوية والألمانية والإيطالية، ونوجز تفنيدهم في ثلاث نقاط:

أولا: لم يستدع الإمبراطور النمساوي «ليوبولد الثاني» البطريرك الصربي هو ورعيته للإقامة في المجر، كما تزعم الأسطورة ولكن على العكس من ذلك تماما، فقد كانت رسالة الإمبراطور تحث البطريرك على البقاء في كوسوڤا ومواصلة حفز الأرثوذكس على الثورة ضد العثمانيين حتى تأتيهم النجدة النمساوية.

ثانيا: عثر الباحثون على رسالة للبطريرك الصربي كان قد بعث بها إلى إمبراطور النمسا يصف له أوضاع اللاجئين الصرب في المجر مستعجلا مساعدات الإمبراطور يقول فيها: «لقد حضر هنا رجال مع زوجاتهم وأطفالهم في حالة تعيسة وأصبح عدد المهاجرين ثلاثين ألف نفس»، ومعنى هذا على حد قول البطريرك نفسه أن اللاجئين الصرب كانوا ثلاثين ألفا لا أربعمائة ألف.

وقد كشفت الوثائق إلى جانب هذا أن الصرب النازحين من كوسوڤا بالذات لم تزد نسبتهم على ربع عدد اللاجئين والباقي جاء من بلجراد وغيرها من المدن الصربية، وأن هؤلاء الفارين كانوا ممن حمل السلاح وحاربوا العثمانيين مع القوات النمساوية الغازية. يعني أن الصرب الذين خرجوا من كوسوڤا كان عددهم أقل من ثمانية آلاف شخص لا أربعمائة ألف، وأنهم لم يخرجوا مع البطريرك في حشد مهيب، وإنما تقاطروا على المجر في فترة ممتدة تزيد على السنة، وهكذا تتهاوى أركان الأسطورة ويبطل مفعولها الطلسمي.



أسطورة كوسوڤا:

أما أسطورة كوسوڤا فتتعلق - كما ذكرنا - بالمعركة التاريخية الشهيرة التي جرت سنة ١٣٨٩ م في موقع يسمى «كوسوڤابوليا» بين القوات العثمانية وبين جيش صربي كان قائده «لازار» ملك الصرب. وعندما نقول «أسطورة كوسوڤا» لا نقصد أن المعركة لم تقع أو أن كل ما قيل عنها كلام خرافي، ولكن نقصد أن القليل جدا من الحقائق الأساسية هو المعروف على وجه اليقين، وأما باقي الوقائع والأحداث فقد كتب عنها أنهار من الشعر والنثر الصربي كله محض خيال جامح وأكاذيب، جرى تغييرها وتجميلها على مر العصور، بما يتناسب مع الظروف التاريخية المتغيرة، واكتسبت قداسة دينية تفوق قداسة أي نص ديني آخر في الكنيسة الصربية، وخصوصا بعد أن جعلت الكنيسة من لازار قديسا شهيرا وأضفت على مقتله أبعادا درامية وأحاطت شخصيته بشعائر تعبدية أصبحت تقليدا راسخا في الكنيسة الأرثوذكسية الصربية إلى اليوم.

ومع ظهور القومية الصربية في القرن التاسع عشر صيغت الأسطورة صياغة أيديولوجية جديدة لحث الصرب على الثورة ضد العثمانيين، وهكذا أصبحت الأسطورة طلسما سحريا غائرا في نسيج الهوية القومية للصرب.

وقد رأينا أن أسطورة كوسوڤا قد استخدمت كمصدر أيديولوجي لتدعيم عمليات الإبادة ضد المسلمين في البوسنة، واستغلها «سلوبودان ميلوسوڤيتش»، فقد رتب القوميون الصرب احتفالا في ٢٨ يونية ١٩٨٩ بمناسبة مرور ستمائة عام على معركة كوسوڤا، وبدأ ميلوسوڤيتش وأعوانه مبكرا الاستعداد لهذا الاحتفال فأخرجوا عظام القديس لازار ووضعوها في صندوق أداروه أسابيع على جميع الكنائس في أنحاء صربيا ودُعي الأرثوذكس لزيارة القديس الشهيد والبكاء عليه، وكانت تباع في الكنائس صورة تجمع بين ثلاثة أقانيم «المسيح والقديس لازار وميلوسوڤيتش» وحُشد يوم الاحتفال مليون صربي من أنحاء يوغوسلاڤيا في المكان الذي وقعت فيه معركة كوسوڤا التاريخية، وكانت جميع القنوات التلفازية، والمحطات الإذاعية تذيع الاحتفال على الهواء، وأمام كاميرات المصورين ظهر ميلوسوڤيتش وحوله كوكبة من القسس بثيابهم السوداء ذات الأشرطة اللامعة، وانتشرت حوله مجموعة من أفراد البوليس السري اليوغوسلافي بنظاراتهم الشمسية المشهورة.

في هذا الحشد الجماهيري الذي أجاد القوميون الصرب تنظيمه انطلقت كلمات ميلوسوڤيتش وهو ينتفض حماسا حيث قال: «إن المعركة من أجل تحقيق آمال شهداء كوسوڤا سوف تستمر بكل الوسائل ولن يهزم الصرب بعد اليوم».



استعمار عنصري:

للصرب في كوسوڤا مزاعم لا تنقضي ربما من أهمها وأخطرها زعمهم بأنها جزء من صربيا تماما كما كانت فرنسا تزعم أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، ولذلك يفند نويل مالكوم هذا الزعم متطرقا إلى الجوانب القانونية والتاريخية والسياسية، معززا رأيه بالممارسات العملية التي التزمتها صربيا تجاه شعب كوسوڤا المسلم، فلم تعتبر ألبان كوسوڤا - في أي وقت - مواطنين لهم نفس حقوق المواطنين الصرب الآخرين، وإنما عاملتهم كما يعامل المستعمرون الشعوب المستعمرة، وكان للصرب ولا يزال أهداف استراتيجية لتجريد ألبان كوسوڤا من أرضهم وطمس لغتهم وثقافتهم الخاصة وإنكار هويتهم القومية المتميزة وإفقار مجتمعاتهم واضطهادهم حتى تجعل من حياتهم جحيما.

وفي الوقت الذي يزعم فيه الصرب أن الألبان أصلهم صربي ولكنهم انحرفوا باعتناقهم الإسلام وإصرارهم على اللغة الألبانية، نرى دعوى أخرى تقول إن الألبان ليسوا بشرا مثل بقية الناس، فقد جاء على لسان «فلادان ديورديڤتش» وكان رئيس وزراء صربيًا سابقًا أنه «لا يوجد ألبان حقيقيون إلا في المناطق النائية بملاسي [هؤلاء هم الألبان الكاثوليك]، وإنه حتى وقت قريب كان الألبان مثل الغجر والفينيقيين [يقصد اليهود] لهم ذيول مثل القرود».

وتلك نظرة استعمارية استعلائية وليست نظرة إلى مواطنين متساوين في الأهلية والحقوق، وهي تعبير أمين عن العلاقة الحقيقية بين دولة صربيا وشعب كوسوڤا. وهناك برنامج كامل لاحتلال استيطاني صربي بدأت حكومة يوغوسلاڤيا الملكية تنفذه في كوسوڤا بعد احتلال الصرب لها سنة ١٩١٢ ولم يتوقف إلا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما طردهم الألمان من كوسوڤا، وظل متوقفا في عهد يوغوسلاڤيا تيتو، ولكنه عاد إلى الظهور مرة أخرى في عهد ميلوسوڤيتش.

برنامج ميلوسوڤيتش في الاحتلال الاستيطاني:

سنة ١٩٩٠م أصدرت صربيا سلسلة من القوانين وأمرت بإجراءات استهدفت تدمير البنية الأساسية للشعب الألباني وتعزيز سيطرة الأقلية الصربية عليه، من هذه الإجراءات:

١- إنشاء مجالس محلية مقتصرة على الصرب في المناطق ذات الأكثرية الصربية.

٢- تركيز جميع الاستثمارات في المناطق ذات الأغلبية الصربية.

٣- بناء منازل جديدة للصرب لتشجيع من هاجر منهم على العودة إلى كوسوڤا وجذب صرب آخرين للإقامة فيها.

٤- إقامة مراكز لتحديد النسل في مناطق المسلمين فقط.

٥- إلغاء شرعية امتلاك الألبان لأي عقارات أو أراض سبق لهم شراؤها من الصرب. وفي الوقت نفسه مساعدة الصرب في شراء الأراضي والعقارات من الألبان بثمن بخس أو عن طريق المصادرة.

٦- اشتمل قانون الأراضي على حق أي صربي يرغب في استيطان كوسوڤا أن يمتلك خمسة هكتارات من الأراضي بالمجان.

فلما قامت المظاهرات في كوسوڤا احتجاجا على هذه الإجراءات نزلت الدبابات الصربية إلى الشوارع لإرهاب الناس وأصدرت السلطات سلسلة أخرى من القرارات الاستعمارية في ٢٦ يونية عام ١٩٩١م أطلقت عليها الحكومة الصربية (إجراءات مؤقتة) ولكنها استمرت إلى اليوم:

أولا: منع صدور أي صحف منشورة باللغة الألبانية.

ثانيا: إلغاء المدارس الألبانية وإغلاق جامعة بريشتينا وتسريح طلابها.

ثالثا: إغلاق أكاديمية العلوم والآداب في كوسوڤا.

رابعا: إغلاق محطة الراديو والتلفاز الألبانية.

خامسا: طرد جميع المدرسين العاملين في المدارس الألبانية.

سادسا: طرد الموظفين الألبان العاملين في القطاع العام.

سابعا: طرد ثمانين ألف عامل ألباني من وظائفهم في المصانع.

ثامنا: طرد جميع الأطباء الألبان والعاملين في المجال الصحي.

تاسعا: إلغاء التحصين الدوري لأطفال الألبان (مما تسبب في رفع نسبة الوفيات بينهم من أمراض بسيطة مثل الحصبة).

وهكذا بفرمان صربي واحد أحالت الحكومة شعبا بأكمله إلى الاستيداع ليلحق بجيش العاطلين والمتسولين، ولكي تكمل الدائرة الجهنمية أغلقت مؤسسة الأم تريزا الخيرية التي كانت تطعم ٢٥ ألف جائع ألباني. وفي تنفيذ هذه الإجراءات ارتكبت السلطات الصربية أبشع الجرائم ضد الأفراد لمجرد

الاشتباه في المقاومة. وتحفل سجلات منظمة العفو الدولية بتقارير مفصلة عن أنواع الجرائم التي شملت قتل أطفال المدارس وضرب مدير أكاديمية العلوم والآداب الكوسوفية حتى تحطمت عظام فكه وأنفه وألقى في الطريق العام مغشيا عليه وهو ينزف دما.



إبراهيم رجوفا والمقاومة السلمية:

في ٢ يولية ١٩٩٠م تحرك أعضاء برلمان كوسوفا الذي كان لايزال قائما آنذاك لمناقشة الإجراءات التعسفية التي اتخذها ميلوسوفيتش بإلغاء الدستور الفيدرالي لسنة ١٩٧٤م، وهو الإلغاء الذي ترتب عليه سلب حقوق كوسوفا في الحكم الذاتي، وفوجئ رئيس البرلمان وهو صربي من أعوان ميلوسوفيتش فأعلن تأجيل المناقشة إلى الخامس من يولية. فلما جاء النواب في الموعد المحدد وجدوا أبواب البرلمان مغلقة فأصروا على عقد جلستهم خارج مبنى البرلمان بحضور ١١٤ عضوا من مجموع النواب البالغ عددهم ١٢٣ ووافقوا بالإجماع على إلغاء ما جاء بالدستور الصربي الخاص بكوسوفا.وقامت السلطات الصربية على الفور بحل البرلمان وحل الحكومة الألبانية.

وفي سبتمبر من نفس العام اجتمع نفس الأعضاء في بلدة كتشانيك بسرية تامة وأعلنوا قيام جمهورية كوسوفا. وفي سبتمبر من العام التالي نجح الألبان في تنظيم استفتاء عام لجعل كوسوفا جمهورية ذات سيادة، اشترك في هذا الاستفتاء ٩٩٪ من مجموع الناخبين وافقوا بأغلبية ٨٧٪ على الجمهورية المستقلة.

وفي ٢٤ مايو ١٩٩٢ أجريت انتخابات على نطاق واسع استخدمت فيها منازل المواطنين كلجان انتخابية. وتم انتخاب أعضاء مجلس البرلمان الجديد وأعضاء الحكومة. واختير إبراهيم رجوفا رئيسا للجمهورية.

كان لنشاط جمعية الفلاسفة وعلماء الاجتماع وجمعية كُتّاب كوسوفا أكبر فضل في تنظيم وقيادة هذه الانتخابات الناجحة. وأصبحت جمعية كُتّاب كوسوفا مركز المعارضة القوية ضد السلطات الصربية وسياساتها القمعية في كوسوفا، ومن بين نجاحاتها عقد مؤتمر أصدر احتجاجا قام أربعمائة ألف من أبناء شعب كوسوفا بالتوقيع عليه.

وأصبح الدكتور إبراهيم رجوفا ـ وهو أستاذ جامعي ورئيس الجمعية ومؤلف مشهور ـ قائدا لهذه الحركة الجماهيرية التي تأسست رسميا في ديسمبر ١٩٨٩ وسميت باسم «الرابطة الديمقراطية لكوسوفا»، وهي أشبه ما تكون بحركة تضامن البولندية مزيجا من حزب سياسي وحركة جماهيرية تضم عضويتها سبعمائة ألف ألباني، وتتلخص السياسة الأساسية لإبراهيم وحزبه في ثلاث نقاط:

١ـ تجنب أي ثورة عنيفة.

٢ـ تدويل قضية كوسوفا. بمعنى السعي لإقناع المجتمع الدولي للتدخل بشتى الوسائل السياسية والدبلوماسية والتفاوض، بما في ذلك إقامة مظلة من الأمم المتحدة لحماية شعب كوسوفا من الاضطهاد الصربي.

٣ـ إنكار ومعارضة أي شرعية لحكم الصرب في كوسوفا، وذلك عن طريق مقاطعة أي انتخابات أو عمليات إحصاء سكاني تقوم بها السلطات الصربية، واستكمال الهياكل التنظيمية لجمهورية كوسوفا.

وقد نجحت الرابطة في تحقيق الهدف الأول والثالث إلى درجة لم يكن يتصورها أحد، وخاصة أولئك الذين يعرفون التقاليد العسكرية والروح القتالية والانتفاضات المسلحة لشعب كوسوفا عبر تاريخه الطويل.

أما بالنسبة للهدف الثاني فقد أجهد إبراهيم رجوفا نفسه في زيارات متعددة لعواصم الدول الغربية لإقناع ساستها بأهداف كوسوفا في الاستقلال، ولكنه لم يحقق نجاحا ملموسا سوى بعض القرارات الهزيلة التي صدرت من الأمم المتحدة ومن البرلمان الأوروبي.

قام الألبان بتنظيم أمورهم في حدود إمكاناتهم القليلة فأنشأوا نظما بديلة في التعليم والعلاج واستخدموا منازلهم كمدارس ومراكز صحية، وتولت الرابطة دفع مرتبات متواضعة للمدرسين والأطباء من حصيلة ما تجمعه من ضرائب من أبناء كوسوفا العاملين بالخارج وهي نسبة ٣٪ من دخولهم، واستطاعت الرابطة بجهد خارق أن توفر التعليم لأربعمائة ألف طفل.

ولكن السلطات الصربية لم تترك هذا المجهود الأهلي لكي ينمو أو يستمر، حيث كانت قوات الأمن وراء المدرسين والمنظمين بالاعتقال والاضطهاد والضرب حتى أصبح الإرهاب والسجن العشوائي جزء' من حياة الألبان اليومية.

أمضى إبراهيم رجوفا أربع سنوات يطمئن شعبه بأن المجتمع الدولي عندما يصل إلى تسوية نهائية في يوغوسلافيا سيتفرغ للنظر في مصالح وتطلعات الألبان في كوسوفا. وكان يظن أن اتفاقية دايتون ستأتي بخبر سار لكوسوفا. ولكنها جاءت بإحباط كامل للألبان، فلم يأت بها سوى إشارات إلى ضرورة تغيير الدساتير اليوغوسلافية لضمان حقوق الإنسان، وصرّح مجلس الأمن الدولي بأن بقايا الحصار لن ترفع عن صربيا حتى تقوم بتحسين سجلها في موضوع حقوق الإنسان بكوسوفا.

ولم يعبأ ميلوسوفيتش بهذه الإشارات فقد خرج ميلوسوفيتش من اتفاقية دايتون أشد قوة، حيث مكّنته هذه الاتفاقية من الهيمنة المطلقة على صربيا وأطلقت قبضته الحديدية على كوسوفا. وداعبه الدبلوماسيون الغربيون وشكروه على تعاونه في جهود السلام. وأكدوا له أنه قد أصبح قوة إيجابية في منطقة البلقان لا يمكن الاستغناء عنها لاستمرار الاستقرار في المنطقة.



جيش تحرير كوسوفا:

جلبت الأوضاع الجديدة مزيدا من النقد لسياسة إبراهيم رجوفا وتصاعدت حدة الهجمات والانتقادات ضد سياسة المقاومة السلمية داخل حزبه وخارجه، وفي الوقت نفسه زادت وطأة الاحتلال الصربي وتصاعدت عملياته البوليسية ضد الألبان، وفي تلك الأثناء ظهرت تطورات جديدة في المقاومة الألبانية بعيدا عن سيطرة حزب الرابطة الديمقراطية.

فقد بدأت تتكرر حوادث إطلاق أعيرة نارية في قوات البوليس الصربي ولم تعلن أي جهة مسئوليتها عن هذه الحوادث، ولكن بحلول صيف ١٩٩٧ برز شيء اسمه «جيش تحرير كوسوفا»، كان أحد مسئوليه يقوم بلقاءات صحفية في سويسرا زاعما مسئولية هذا الجيش عن إطلاق النار على القوات الصربية في كوسوفا، وأعلن أن حركته المسلحة يؤيدها شعب كوسوفا، ومهما يكن حجم التأييد الذي كان يتمتع به هذا الجيش حينذاك، فإن هذه الحركة الجديدة تعبير مباشر عن الإحباط الناتج من شلل سياسة إبراهيم رجوفا وعدم قدرته على كسب أي اعتراف دولي بمصالح وحقوق كوسوفا.



اندلاع الحرب والمفاوضات:

أخذ التصعيد العسكري الصربي بعدا خطيرا ابتداء من أبريل ١٩٩٨ فيما بدا أنه سيناريو إبادة جماعية على غرار «التطهير العرقي» في البوسنة، حيث قصفت المدفعية الصربية عدة قرى ألبانية ودمرت منازلها وقتلت من السكان الآمنين ما قتلت وخرج الباقون فارين من الموت.. كل ذلك بحجة البحث عن معاقل جيش تحرير كوسوفا ومصادرة أسلحتهم، وكان من نتيجة هذه الهجمة الصربية المروعة خروج ما يقرب من ربع مليون لاجئ إلى العراء محاولين اللجوء إلى البلاد المجاورة وهي ألبانيا والجبل الأسود ومقدونيا والبوسنة. وهنا بدأت الدول الغربية تنتبه إلى الخطر الزاحف من صربيا على البلقان وأن من واجبها أن تفعل شيئا لوقفه.

من هنا جاءت جولات «ريتشارد هولبروك» المكوكية بين الصرب والألبان حيث وافق ميلوسوفيتش على بعض مقترحات هولبروك ملخصه في الآتي:

١ـ لابأس من وجود فريق دولي لمراقبة عودة اللاجئين في كوسوفا ولكن بدون أسلحة وألا يزيد عدده عن ألفي مراقب.

٢ـ انسحاب القوات الصربية في مراكز تجمع تحددها صربيا داخل كوسوفا (يعني إعادة انتشار).

٣ـ مفاوضات مع رجوفا ولكن بدون شروط ولا تدخل دولي.

٤ـ لا بأس من التعاون في تقديم المسئولين عن انتهاكات حقوق الإنسان.

٥ـ وقف إطلاق النار ولكن بعد أن يتم القضاء على إرهاب جيش تحرير كوسوفا.

وعلى عادة ميلوسوفيتش اتخذ من المفاوضات ستارا لتدبير هجمة جديدة على الألبان، حيث انقضت قواته المسلحة في عيد الميلاد المجيد لتقصف القرى والمدن الألبانية وتسقط المزيد من القتلى وتخرج المزيد من اللاجئين.

ومع الحشود العسكرية لقوات حلف الأطلسي والتهديدات اليومية لقادة الحلف بضرب وشيك للقوات الصربية عاد الصرب إلى مائدة المفاوضات في رامبويه الفرنسية، التي انتهت إلى عدد من النقاط أهمها:

منح كوسوفا حكما ذاتيا موسعا، ولكن رفضت صربيا أن تقوم بتنفيذ الاتفاق قوات مسلحة لحلف الأطلسي أو غيره، ورفضت بندا ينص على إجراء استفتاء عام بعد ثلاث سنوات من تنفيذ الاتفاقية يقرر فيه شعب كوسوفا مصيره: هل يبقى مع صربيا أم يقرر الاستقلال. ورفض ممثلو جيش تحرير كوسوفا الاتفاق في أول الأمر نظرا لخلوه من مبدأ التفاوض على الاستقلال، ولكنهم اقتنعوا أخيرا ـ تحت الضغوط الغربية ـ بضرورة التوقيع على الاتفاق لإبطال كل حجج ميلوسوفيتش، وحذرهم الدبلوماسيون الغربيون أنهم إذا لم يوقعوا على الاتفاق فلن يتدخل حلف الأطلسي عسكريا إذا رفض ميلوسوفيتش التوقيع عليه. فوقع الألبان جميعا على الاتفاق، ورفض ميلوسوفيتش بل استهان بإنذارات حلف الأطلسي الذي لم يجد مناصا من البدء في القصف مستهدفا أولا الدفاعات الجوية، ثم خطوط الاتصالات والإمدادات، وأخذ القصف يتصاعد تدريجيا ليشمل مخازن الذخيرة والبترول، وآخر مراحل التصعيد شملت تجمعات الدبابات والقوات الصربية في كوسوفا.



الموقف الراهن وتفسيراته:

ورغم مواصلة القصف استمرت القوات الصربية الأرضية في عمليات القتل والهدم وطرد السكان من المدن والقرى وإخلاء مناطق بأكملها من الألبان حتى بلغ عدد اللاجئين الفارين من الجحيم مليونا وثلاثمائة ألف لاجئ، ويقدر المراقبون أنه مع استمرار معدل اللجوء بهذا المستوى فسوف تفرغ كوسوفا تماما من سكانها المسلمين خلال بضعة أيام قادمة.

بهذا السيناريو المأساوي المروّع ترتفع علامات استفهام كبيرة فقد كان هدف القصف الأطلسي المعلن هو إيقاف العمليات العسكرية وإجبار الصرب على التوقيع على الاتفاق وقبول قوات دولية للإشراف على تنفيذه، وسحب القوات الصربية من كوسوفا. ولكن القصف لم يوقف العمليات العسكرية في كوسوفا بل جعل خطاها تتسارع بشكل جنوني لايصدق، ولم يبد حتى الآن أن ميلوسوفتش قد تراجع عن موقفه، وبدأت تعلو صيحات تؤكد أن القصف الأطلسي غير مجد مالم تعززه قوات برية. وفي نفس الوقت تأتي الإشارات والتصريحات الأمريكية واضحة بأن القوات الأمريكية لن تتدخل إلا في حالة اتفاق الأطراف على وقف أعمال العنف وقبول مقترحات السلام، عندئذ تتدخل القوات الأمريكية لتشارك مع الآخرين في تنفيذ اتفاقية السلام، وكأن الولايات المتحدة تضع العربة أمام الحصان وتلقي بالقضية في حلقة مفرغة.

لقد أتيح لي وأنا أتابع أحداث كوسوفا بانتظام أن أقرأ وأسمع حشدا هائلا من التحليلات والتعليقات على هذا السيناريو المحير الذي يشهده العالم الآن، وأبادر بالتأكيد أن كل هذه التعليقات لم تؤد عندي إلى رؤية واضحة ولا تفسير منطقي معقول، ويبدو أن الجميع لديهم أفكار جاهزة يتطوعون بها على الفور في حماس ظاهر لمجرد إثبات الحضور أو تفريغ شحنة انفعالية مؤرقة أمام تسارع الأحداث المأساوية، وقد بدا لي أن هذه التعليقات في مجملها يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع:

فهناك ـ أولا ـ أنصار نظرية المؤامرة، وهي هنا بين الغرب والصرب، أُتفق فيها على أن يقوم الغرب بالقصف الاستعراضي على مواقع صربية لا تؤدي إلى عجز أو شلل للآلة العسكرية الصربية وبذلك يخلّص الغرب ذمته أمام الرأي العام العالمي، ويمنح الصرب في نفس الوقت غطاء للقيام بعمليات الإبادة الجماعية للمسلمين لتفريغ كوسوفا من سكانها في أسرع وقت ممكن.

وهناك ـ ثانيا ـ من ركز اهتمامه على إشكالية الشرعية الدولية فهو يثير اعتراضات قانونية على حق حلف الأطلسي في التدخل العسكري متجاوزا الأمم المتحدة ومجلس الأمن، ويرى فريق من أصحاب هذا الاتجاه أن الحل العسكري غير ممكن ولابد من العودة إلى المفاوضات وإلى الشرعية الدولية. ويبدو لي أن أصحاب هذا الاتجاه يتحدثون وعيونهم لا تنظر إلى كوسوفا وإنما إلى القصف الأمريكي للعراق والسودان وليبيا وغيرها.

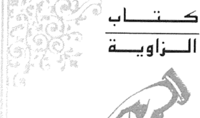
وهناك ـ ثالثا ـ من يرى أنه لاضير من قصف الآلة العسكرية الصربية المفترسة لكبح ميلوسوفيتش وإضعاف قوته العسكرية لعلها تردعه عن مواصلة حربه ضد الشعب المسلم في كوسوفا، وحتى لا تمتد مغامراته العسكرية إلى دول أخرى مجاورة لا تملك قوة عسكرية قادرة على الصمود أمام مغامرات وأطماع ميلوسوفيتش التي لاتتوقف عند حد.

وأعتقد أن هؤلاء جميعا قد أصابوا جانبا من الحقيقة كما فاتتهم جوانب أخرى، ذلك لأنهم فيما يبدو ركزوا أنظارهم على بعض عناصر الموقف وأغفلوا عناصره الأخرى التي قد تكون أكثر أهمية وأحق بالأولوية، وأزعم أن أكبر خطأ وقع فيه الجميع أنهم بدءوا من منطلقات فهم ناقص لقضية كوسوفا أو من أفكار مسبقة عن هذه القضية أو عن الأطراف الفاعلة والمشتركة في حلها.

ولي في هذا السياق ملاحظات للمناقشة:

أولا: لا أحب أن أصدم أنصار نظرية المؤامرة ولكني ألفت نظرهم فقط إلى أن هناك تكتيكا بديلا يتلخص في إطلاق فعل محسوب من طرف قوي وردود أفعال متوقعة لطرف ضعيف بدون اتفاق سابق، يُستخدم هذا التكتيك لدفع الأحداث في مسارمعين تتحقق فيه أهداف تبدو

كتاب الزاوية



الساق على الساق

فى إطلاق بحر

فأما أنت ياسيدى الغنى فالأولى لك أن تسافر من مدينتك العامرة حتى ترى بعينيك ما لم تره فى بلدك. وتسمع بأذنيك مالم تسمعه. وتختبر أحوال غير قومك وعاداتهم وأطوارهم وتدرى أخلاقهم ومذاهبهم وسياستهم. ثم تقابل بعد ذلك بين الحسن عندهم وغير الحسن عندنا. ومتى دخلت بلادهم وكنت جاهلا بلغتهم فلاتحرص بحقك على تعلم كلام الخَنَى منهم أولا. أو تستحلى الأسماء من أجل المسميات. فإن كل لغة فى الكون فيها الطيب والخبيث. إذ اللغة إنما هى عبارة عن حركات الإنسان وأفعاله وأفكاره. ومعلوم أن فى هذه ما يُحمد وما يذم، فأجلّك عن أن تكون كبعض المسافرين الذين لايتعلمون من لغات غيرهم إلا أسماء بعض الأعضاء وعبارات أخرى سخيفة. لا بل ينبغى لك حين تدخل بلادهم سالما أن تقصد قبل كل شىء المدارس والمطابع وخزائن الكتب والمستشفيات والمخاطب، أى الأماكن التى يخطب فيها العلماء فى كل الفنون والعلوم فمنها ما هومعد للخطابة فقط ومنها ما يشتمل على جميع الآلات والأدوات اللازمة لذلك العلم. وإذا رجعت بحمده تعالى إلى بلدك فاجتهد فى أن تؤلف رحلة تشهرها بين أهل بلادك لينتفعوا بها ولكن من دون قصد التكسّب ببيعها. وياليتك تشارك بعض أصحابك من الأغنياء فى إنشاء مطبعة تطبع فيها غير ذلك من الكتب المفيدة للرجال والنساء والأولاد ولكل صنف من الناس على حدته. حتى يعرفوا مالهم وماعليهم من الحقوق. سواء كانت تلك الكتب عربية أو معرّبة. ولكن احذر من أن تخلط فى نقلك عن العجم الطيب بالخبيث والصحيح بالمعتل. فإن المدن الغنّاء تكثر فيها الرذائل كما تكثر الفضائل. نعم إن من هؤلاء الناس لمن يأبى أن يرى أحدا وهو على الطعام. وإذا اضطر إلى رؤيته وهو فى تلك الحالة فلايدعوه للَوْس شىء مما بين يديه. لكن منهم من يدعوك إلى صرحه فى الريف فتقيم فيه الأسبوع والأسبوعين وأنت الآمر الناهى.

وإن منهم لمن يبخل عليك برد التحية، وإذا دخلت دار صديق منهم وكان فى المجلس جماعة من أصدقائه لم يعرفوك من قبل فما أحد يتحلحل لك فى القيام. ولايعبأ بك ولا يلتفت إليك. لكن منهم من إذا عرفك اهتم بأمرك فى حضورك وغيابك على حد سوى. وإذا ائتمنته على سرّ كتمه لك طول حياته.

يحاول الصرب تصوير قضية كوسوفا على أنها قضية إقليم صربى، الصرب فيه هم السكان الأصليون، ولكن به أقلية وافدة من دولة مجاورة هى ألبانيا، جلبتها قوة أجنبية هى الدولة العثمانية إبّان احتلالها للمنطقة، وقد نجح الصرب فى تسويق هذه الأكذوبة إلى العالم والينا

مشتركة لأول وهلة، ولكن يفوز الطرف الأقوى فى نهاية السباق بهدفه المرسوم، (غزو الكويت ومعقباته مثال على هذا التكتيك). وهو يرتكز على أنظمة معلومات متقدمة فائقة القوة تتمتع بها الولايات المتحدة وتوظفها بكفاءة.

ثانيا: من الأفكار المسبقة عن قضية كوسوفا وهى عوائق تمنع الفهم الصحيح لأبعاد القضية أن يوغسلافيا اليوم هى ميراث تيتو الصديق الحميم لعبد الناصر وأحد أبطال الحياد الإيجابى، فى حين أن الموجود على الساحة ليس إلا صربيا الكبرى بنزعتها القومية الدموية وبعنصريتها المريضة التى دمرت يوغسلافيا تيتو وأبادت شعب البوسنة.

ثالثا: من الأخطاء الفكرية الشائعة أن كوسوفا جزء من صربيا ومن ثم اختصرت مأساتها إلى مسألة حقوق إنسان تجاوزتها الحكومة الصربية، وأن المقاومة الوطنية لكوسوفا هى تمرد مسلح على السلطة الشرعية، فى حين أن الوصف الصحيح للعلاقة بين صربيا وكوسوفا هو أنها علاقة دولة مستعمرة تمارس نظاما عنصريا قائما على الاحتلال الاستيطانى وطرد السكان على غرار الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية.

رابعا: كثير من الأحكام والمصطلحات التى يعالج بها الإعلام العربى قضية كوسوفا جاءت نتيجة الوقوع فى فخاخ الدعاية الصربية الذكية المؤسسة على طوفان من الأكاذيب اعتمادا على جهل العالم الخارجى بتاريخ المنطقة وما يحيط بها من غموض، وأقرب مثال إلينا ذلك السفير المبجل الذى جلس أمام شاشة التلفاز المصرى ليدعى بأن خروج الألبان من كوسوفا بعشرات الألوف ليس نتيجة العمل العسكرى الصربى المنظم وإنماخوفا من ضربات حلف الأطلسى!

خامسا: أنه مادامت أمريكا هى التى تقوم بالقصف متجاوزة الشرعية الدولية وقياسا على سوابق أخرى فى منطقتنا العربية فلابد أن يكون هذا عملا خاطئا لايجب السكوت عنه حتى لا تصل إلينا هذه البلطجة الدولية فى عقر دارنا عاجلا أو آجلا. هذه النظرة الضيقة تتجاهل خصوصية الوضع الكارثى فى كوسوفا والمأساة الإنسانية التى ينسحق فيها شعب بأكمله تحت عجلة آلة عسكرية شرسة تذكرنا بأيام الغزو التترى.

سادسا: مجلس الأمن منقسم على نفسه فلروسيا والصين موقف معلن وواضح ضد التدخل العسكرى من أى نوع فى كوسوفا، ولم تستطع روسيا وهى الصديقة الكبرى للصرب إقناع ميلوسوفيتش بالحل السلمى الذى اشتركت هى بنفسها فى وضعه مع مجموعة الاتصال الدولية فى رامبويه الفرنسية، ولن يقبل ميلوسوفيتش إلا بمقترحات ينفذها على هواه أو يتظاهر بتنفيذها بينما هو ماض فى خطته الجهنمية لإخلاء كوسوفا من سكانها المسلمين.

معنى هذا أن دعوة العودة إلى الشرعية الدولية وإلى مائدة المفاوضات رغم بريقها المنطقى هى دعوة إلى طريق الندامة الذى لايعود منه سالك، فإذا كان القصف الأطلسى خطأ وتجاوزا وإذا كانت الشرعية الدولية مشلولة ولاحلول عندها وإذا كانت المفاوضات مجرد لعبة يستفيد بها الصرب على طول الخط ولايعتزمون الالتزام بأى اتفاق ولن يتوقفوا عن تنفيذ مخططاتهم فى كوسوفا طال الوقت أم قصر، فماذا بقى إذن من حلول؟

لم أجد إجابة واضحة محددة عند أحد من المحللين أو المعلقين، ولكنى ألمح أفكارا تتصاعد وسط الزحام عن ضرورة تسليح جيش تحرير كوسوفا، وهنا أجد نقطة جديرة بالتأمل ولابد من الرجوع خطوة إلى الوراء لننظر فى سيناريو حرب البوسنة وما تقدمه من دروس فى هذا المجال.

فقد ظلت الولايات المتحدة طوال ثلاثة أعوام تهدد بقصف المواقع الصربية دون أن تفعل شيئا، وكانت هناك ضرورات ملحة ولحظات بالغة الحرج، كان القصف الجوى لازما لتحييد الدبابات والمدافع الثقيلة، حيث كان البشناق يملكون جيشا مدربا على درجة معقولة من التسليح ولو أن أمريكا نفذت ضرباتها الجوية لتمكن هذا الجيش من تحرير البوسنة، ولكنها لم تتدخل إلا عندما شعرت أن البشناق تحولوا إلى الهجوم التكتيكى المؤثر وأن مواصلة الحرب لم تعد فى مصلحة الطرف الصربى.

أما فى حالة كوسوفا، فقد حرصت أمريكا على ألا تتسرب إلى جيش تحرير كوسوفا أسلحة مؤثرة ولاخبراء عسكريون لتدريب أفراده، ولكنها سارعت إلى القصف الجوى وظلت تصعدّه طوال الأسابيع الثلاثة الماضية، ومع الحشود العسكرية الصربية التى تكتسح القرى والمدن بدا جيش تحرير كوسوفا مشلولا عاجزا عن أى مواجهة ولو كان قد حصل على السلاح والتدريب لكان له شأن آخر فى كبح الصرب وإعاقة التطهير العرقى الذى بلغ أقصى مداه.

فهل هذه تجربة جديدة تجربها الولايات المتحدة وحلف الأطلسى: قصف جوى بدون قوات أرضية تدعمه من جانب الكوسوفيين؟ أم نقول إنه قصف مبرر لردع المعتدين ثم ننتظر النتائج العملية التى ستترتب عليه لنبدأ فى تحليل الحصاد؟ أم نميل إلى فكرة المؤامرة؟ أم نقول إنه إرباك مقصود لزلزلة العقول وإلقائها فى دوامة من الحيرة؟ أم ننطوى على أنفسنا ونغلق أعيننا ونطمئن أنفسنا بأن الطوفان بعيد عنا حتى الآن، وياهناء من يعيش؟

أقول إذا كنا لانملك شيئا نساعد به شعب كوسوفا الذى يغوص فى أعماق كارثة إنسانية تدمى القلوب، فعلى الأقل نملك الرفض أن تمتهن عقول مثقفينا باستسلامها لآلة الدعاية الصربية، ونملك القدرة على فهم القضية وإعادة النظر فى المسلمات المريحة التى تشل قدرتنا على الإدراك الصحيح والحكم الصحيح، ويقينى أن ميلوسوفيتش زائل، أما شعب كوسوفا المسلم فله ربٌ يدبر أمره، وسيعود هذا الشعب إلى أرضه لمواصلة النضال كما فعل دائما عبر تاريخه الطويل. ■

«سوروس» يحذر

[١]

على نحو لم يسبق له مثيل شهدت حقبتا الثمانينيات والتسعينيات اتساع دائرة التعامل في الأصول المالية (من أسهم وسندات)، ومشتقاتها من عقود آجلة وعقود خيارات، ودخلت مجموعة جديدة من المدخرين: صغاراً من أبناء الطبقة الوسطى وكباراً مثل صناديق التأمينات والمعاشات أسواق المال والبورصات العالمية المفتوحة على مصراعيها في ظل العولمة في البلدان المتقدمة وفي الأسواق الناشئة. وارتفعت كتلة الأموال والمدخرات «بلا حدود» التي يتم المخاطرة بها والمضاربة بها في أسواق المال، وراء «التكاثر المالي» المنفصم تماماً عن عمليات التراكم الإنتاجي، والذي أصبح سمة مميزة للتطور الرأسمالي الحديث في ظل صعود «رأس المال المالي» واتساع شبكة شركات السمسرة والوساطة المالية، وصناديق الاستثمار و«صناديق التحوط» (Hedge funds).

وربما كان الذي أعطى دفعة قوية لعمليات العولمة المالية خلال الثمانينيات والتسعينيات هو أن ٣٨٪ من مدخرات وثروات القطاع العائلي في الولايات المتحدة الأمريكية و ٥٦٪ من أموال صناديق التأمينات والمعاشات مستثمرة في أسهم وأوراق مالية.

وخلال التسعينيات، اتسع حجم الإتجار في «المشتقات المالية» التي تعتبر أداة مهمة من أدوات المضاربة المستقبلية، من خلال «عقود المقايضة»، و «العقود المستقبلية على العملات»، و «عقود الخيار»، وخاصة بالأسهم والعملات، وغيرها من التباديل والتوافيق التي تم استحداثها خلال السنوات الأخيرة. ولقد تصاعد حجم هذه المعاملات بشكل خطير في أوائل التسعينيات، ليرتفع من ٢٩٢ مليار دولار أمريكي عام ١٩٩٠ لتصل إلى نحو ٨٥٠ مليار دولار أمريكي خلال النصف الأول من عام ١٩٩٤ وحده، كما سجل متوسط النمو السنوي لهذه المعاملات ٤٧٪ بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤.

ولقد ساعد على حدوث تلك التحولات الهائلة في مجال حركة الأموال في ظل العولمة ذلك التوسع الكبير في شبكة الاتصالات الإلكترونية التي سهلت عملية إعادة تدوير الأموال «خاصة رؤوس الأموال قصيرة الأجل» بين جميع أرجاء العالم على مدار الأربع والعشرين ساعة. إذ إن تلك الأموال تتحرك بسرعة تقترب من «سرعة الضوء» ما بين نيويورك، زيورخ، لندن، طوكيو، وغيرها من المراكز المالية المتقدمة، حيث لم يعد للمال أية هوية وطنية محدودة!



ولعل هذا التطور يكرس تلك «الانفصامية» المتزايدة، التي تسود منذ السبعينيات، بين حركة التجارة الدولية في السلع الحقيقية والخدمات، من ناحية، وحركة الأموال والعملات المتحركة بسرعات مذهلة، من ناحية أخرى. ففي عام ١٩٩٥، على سبيل المثال، بلغ حجم «الإتجار في العملات» نحو ١,٢ تريليون دولار في اليوم الواحد .. وهو رقم يشكل نحو خمسين ضعفاً من قيمة التجارة الدولية في السلع والخدمات الحقيقية، بينما كان هذا الرقم لا يتجاوز ستة أضعاف فقط في أوائل السبعينيات، وهذا يؤدي بدوره إلى اشتعال نيران المضاربات المالية التي يديرها مضاربون محترفون لا يهمهم سوى الربح الأقصى دون مراعاة للأضرار والهزات التي تلحق بالاقتصادات النامية.

وفي ظل هذه «السكرة المالية»، اندفعت أعداد وفئات عديدة من المدخرين ومن المضاربين المحترفين إلى دخول لعبة «الحظ والمصادفة» في أسواق المال العالمية، وعندما انهارت الأسواق المالية في آسيا خلال صيف عام ١٩٩٧، جاءت التحليلات من البلدان الرأسمالية المتقدمة لتلقي بالمسئولية على قلة الخبرة للمؤسسات المالية في تلك البلدان، وضعف القطاع المالي، وانعدام رقابة البنوك المركزية، والفساد، وغير ذلك من المسببات. وصدق البعض هذه التحليلات لفترة، وكأن الأزمة ليست «أزمة النظام المالي الجديد» في مجمله، الذي عجز عن التأمين ضد مخاطر السوق المالية المتزايدة وغير المحسوبة، وعدم كفاية رأس المال للشركات المالية و «صناديق التحوط» لتغطية مخاطر السوق غير المتوقعة.

واستمرت عربة المضاربات المالية، تسير بسرعات جنونية، والنشاط يجري بشكل محموم..حتى وقعت الواقعة وانهارت أكبر الشركات المالية لإدارة المخاطر في الأصول المالية في الولايات المتحدة المسماة شركة (LTCM) إدارة رأس المال طويلة الأجل» وكانت تلك الشركة تتعامل في محافظ مالية في حدود ٢٠٠ مليار دولار أمريكي. وتلك الشركة التي أصبحت على حافة الإفلاس، هي «الشركة - النجم» على الصعيد العالمي، وفي قلب العالم المتقدم الذي ابتدع هذه الفنون ويعرف أسرارها بل وأدهى من ذلك، أن هذه الشركة المالية الكبيرة التي كادت تفلس في وضح النهار يشارك في ملكيتها وإدارتها اثنان من أكبر علماء الاقتصاد في مجال «الاستثمار في المشتقات المالية» هما الأستاذان ميرتون وشولز الحاصلان على جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية عام ١٩٩٧، لقيامهما بتطوير أدوات تحليلية ونماذج رياضية(Value at risk) للتحوط ضد المخاطر المالية لهذا النوع من الأصول والصكوك المالية.



وهكذا اقترب «الاقتصاد المالي الحديث» من الممارسات التي أسماها اللورد كينز في الثلاثينيات «اقتصاد الكازينو». والطريف في الأمر، أن هناك ورشة عمل تم تخصيصها في «منتدى دافوس» في شهر يناير ١٩٩٩، لمناقشة ظاهرة «رأسمالية الكازينو». وقد تحولت تلك الورشة إلى جلسة استجواب لرجل الأعمال والمضارب المالي الشهير «جورج سوروس». وتعبير «اقتصاد الكازينو» هذا صاغه في البداية اللورد كينز في كتابه «النظرية العامة» الصادر عام ١٩٣٦، حيث تحدث عن اقتصاد البورصات والمضاربات التي تطفو «كالفقاعات»، على سطح الاقتصاد العيني الحقيقي. وبينما كان حجم تلك المعاملات محدوداً ومتواضعا أيام كينز، فلقد توسع نشاط «اقتصاد الكازينو» بشكل هائل في عالمنا المعاصر، وبلغ الحجم اليومي لتلك المعاملات المالية أضعاف أضعاف حجم التجارة في السلع والخدمات الحقيقية، ومن هنا كانت الأزمة!

[٢]

أصبح جورج سوروس، الأمريكي الجنسية والمجري المولد والمنشأ، رجلاً له سمعة دولية كبيرة، باعتباره أكبر المضاربين الماليين في العالم. فهو الرجل الذي بدأ اسمه يدخل «دائرة الشهرة» بعد عمليات المضاربة الواسعة التي قام بها على الجنيه الإسترليني عام ١٩٩٢، وحقق من خلالها أرباحا هائلة وصلت إلى مليار دولار أمريكي، ثم عاد اسمه يدخل «دائرة الضوء» من جديد، بعدما اتسعت دائرة مضارباته المحمومة على «العملات الآسيوية» (التايلاندية، الماليزية، الإندونيسية) خلال النصف الأول من عام ١٩٩٧، مما أدى إلى تعميق «الأزمة المالية» في بلدان جنوب شرق آسيا .. وأدى إلى انهيارات متسارعة في عملاتها.

و «جورج سوروس» يود أن يقدم نفسه، من وقت لآخر، كمفكر يتأمل في شئون المال والاقتصاد العالمي. وهو، بالإضافة إلى كونه مضارباً مالياً محترفاً، درس في مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية، ويعتبر نفسه تلميذاً للفيلسوف الليبرالي «كارل بوبر»، صاحب مدرسة «المجتمع المفتوح» The Open Society، كما أن له كتابات متفرقة سابقة، أهمها كتاب صغير عنوانه «كيمياء سحر المال» *(The Alchemy of Finance)*، ومعناه باللغة المصرية الدارجة «كيمياء تحويل التراب إلى ذهب» الصادر عام ١٩٩٤، والذي يحمل عنوانا فرعيا له دلالة «قراءة في عقل السوق».

وآخر تجليات «جورج سوروس» هو كتابه الأخير الهام عن «أزمة الرأسمالية العالمية» *The Crisis of Global Capitalism*. الذي نشرت صحيفة التايمز البريطانية فصولا منه، ثم صدر بشكله الكامل يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٩٨ وهذا الكتاب الهام يجئ في وقته تماماً في ظل الأزمة الراهنة للنظام المالي الدولي، إذ يشهد «شاهد من أهلها» ويقدم رؤيته العملية والنقدية في آن واحد لعمليات وممارسات العولمة المالية وأدواتها وآلياتها وحدودها التاريخية.

ويقع كتاب سوروس في جزءين، أطلق على أولهما عنوان «الإطار المفاهيمي»، وهو يتضمن محاولة تقديم طرح نقدي للفكر الاقتصادي السائد حول أساليب التحليل الاقتصادي، وخاصة مفهوم «التوازن» الذي يحتل مكانة مركزية في التحليل الاقتصادي المعاصر، وكذا لآلية عمل أسواق المال.

وعلى الصعيد النظري، يرى «سوروس» أن مفهوم «التوازن» في التحليل الاقتصادي هو مفهوم مستعار من العلوم الطبيعية، ويصلح لحركة الأجسام والجزيئات، ولا يصلح لفهم ومقاربة حركة الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يرى «سوروس» أنها تخضع لما يسميه «التأثيرية» (Reflexivity)، حيث هناك عملية «تغذية عكسية» (Feed-back) مستمرة بين الواقع الاقتصادي وردود فعل اللاعبين الاقتصاديين (منتجين - مستهلكين - مستثمرين - مضاربين - حكومات - مؤسسات مالية). وهذا المفهوم الذي أفاض «سوروس» في وصفه وإيضاحه، يقترب كثيراً من مفهوم نظرية المباريات (Game Theory) في مجال السلوك الاقتصادي في صياغاته الراقية على أيدي عالمي الرياضيات فون نيومان ومورجنشترن عام ١٩٤٤.

ويرى سوروس أن أحد أهم أسباب فشل النظريات الاقتصادية السائدة هو أنها تتعامل مع القوى التي تحكم الظواهر الاقتصادية على أنها تماثل القوى أو القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية (مثل قانون الجاذبية

عندما يوحي سوروس
في كتابه بالتعجيل بإصلاح النظام
المالي الدولي وعدم ترك الأوضاع الراهنة
دون ضبط وضرورة التدخل في أسواق المال لحمايتها
من المضاربين.. فكأنه يقول لراسمي السياسات:
امنعوني من أن أكون أنا نفسي، كما أنه يؤكد بالحرف
الواحد أن هدفه حماية الرأسمالية المعولمة
من أن تحطم نفسها بنفسها



The Crisis of Global Capitalism

(أزمة الرأسمالية العالمية)

George Soros

New York:Public Affairs, 1998.

العـــــالم مـــن نفســـه!

محمود عبد الفضيل

الكـــــارثة المقبـــــلة لرأســـمالية «الســـــداح مــــداح»!



الأرضية) والتى لا تخضع لسيطرة الإنسان. وهنا - فى تقديره - مكمن فشل أيديولوجية «الأسواق الحرة».

ويحتوى هذا الجزء «المفاهيمى» على إسنادات عديدة إلى منهجية كارل بوبر فيلسوف العلم الشهير - الذى يرى سوروس نفسه أحد حوارييه - وخاصة فيما يتعلق بأساليب اختبار الفروض ودحضها فى العلوم الاجتماعية. فهو يرى أنه لا حاجة لنا على سبيل المثال على الإصرار «أن الشمس سوف تشرق دوماً من الشرق مادام أنها فعلت ذلك كل يوم فى الماضى حتى الآن»، وإنما يكفينا الإقرار - المشروط والمؤقت - بصحة هذه الفرضية حتى يستجد ما يُقوّض صحة هذه المقولة. وذاك هو المنطق الذى نرى سوروس يطبقه فيما بعد على نظرية «نظام الاقتصاد الحر».

ومن هذا المنظور، فإن المشاركين فى «اقتصاد السوق» لا يتحركون فى الأسواق وفقاً لقواعد وقوانين صارمة مثل حركة الجزيئات فى «ميكانيكا الكم» (Quantum mechanics). بل هم يتأثرون فى حركتهم بما فى أذهانهم من تصورات ومعتقدات (وأضيف من عندى: ما يسمعونه من شائعات)، وبالتالى فهم يخضعون لتلك «التأثيرية المتبادلة»، أى تبادلية التأثير بين الواقع والفكر أو المعتقد. ولهذا فإن التحليل الاقتصادى المعاصر القائم على مفهوم «التوازن» المستقر وأن الانحراف عن «نقطة التوازن» هو عملية مؤقتة سوف تصحح نفسها بنفسها مثلما يحدث لحركة البندول، هو محاولة فاشلة لمحاكاة العلوم الفيزيائية والطبيعية وميكانيكا نيوتن. كذلك فإن الهروب إلى الصياغات الرياضية المنمقة التى توحى باتساق البنية المنطقية «للنموذج الرياضى» المفترض أنه يحكم سلوك الظواهر الاقتصادية، هو فى نهاية الأمر بناء هش يستند على مجموعة من الفرضيات «غير القابلة للبرهنة». (Axioms) فالبحث عن «نقطة التوازن» فى الواقع الاقتصادى المتحرك هو أشبه بالجرى وراء هدف متحرك يتغير مسار حركته فى كل لحظة، نتيجة تفاعل عوامل عدة ومتداخلة.

ويعترف سوروس أنه لم يهتم يوماً بالكتابات الأكاديمية ذائعة الصيت حول «نظريات الأسواق ذات الكفاءة» (Theories of Efficient Markets) ونظريات التوقعات الرشيدة (Theories of rational expectations) لخلو هذه النظريات من أية فائدة عملية أو دليل عمل يرشده فى نشاطه. وهو يرى أن الفهم الحقيقى لأسواق المال يحتاج إلى نموذج تفسيرى جديد، يأخذ بعين الاعتبار «التأثيرية المتبادلة»، وكذا البعد التاريخى للأحداث باعتبار أن هذه الصفقات الاقتصادية والمالية تتم فى إطار زمنى معين، وليست بمعزل عن حركة التاريخ وسيكولوجية اللاعبين. كما يجب أن يأخذ بعين الاعتبار «نظام القيم» و«التفضيلات» لدى الأفراد والجماعات التى تشارك فى اقتصاد السوق. والدليل على فشل النموذج الراهن القائم على «المنطق الرياضى» هو عدم فهم الأزمة الاقتصادية والمالية فى اليابان، دون فهم التاريخ والثقافة الخاصة بهذا البلد.

ولكنه رغم ذلك الحشد الفكرى والفلسفى الكبير الذى يحفل به الجزء الأول من الكتاب، فهو ينطوى على قدر لا بأس به من «استعراض العضلات الفكرية» والدخول فى استطرادات فلسفية مستفيضة لا تخلو من شىء من الادعاء، لأن معظمها لا يعد مدخلاً لا غنى عنه لفهم الجزء الثانى من الكتاب، الذى يعكف على تحليل الأزمة الراهنة لنظام الرأسمالية فى طور العولمة. فلقد أنفق سوروس زهاء المائة صفحة كمقدمة فلسفية للتحليل المتضمن فى الجزء الثانى من الكتاب، وهو الجزء الذى يتمتع سوروس فيه بميزة نسبية عالية. ولقد كان من السهل ضغط هذه الصفحات المائة فى فصل واحد يقدم الخلفية الفكرية والفلسفية اللازمة، بدلاً من الفصول الخمسة التى اشتمل عليها الجزء الأول. ناهيك عن أن جانباً كبيراً مما أورده سوروس فى نقد نظريات ومفاهيم التوازن فى التحليل الاقتصادى المعاصر ليس بالجديد، حيث سبق طرح هذه الأمور بشكل أعمق وأكثر نفاذاً فى المعالجات النقدية لأساتذة «مدرسة كمبريدج» (إنجلترا) فى الستينيات والسبعينيات من هذا القرن، وعلى رأسهم أساتذتنا جون روبنسون ونيكولاس كالدور وبييرو سرافا وآخرون.

ويبشر سوروس فى نهاية الجزء النظرى من كتابه بمقولة «المجتمع المفتوح»، التى دشنها أستاذه كارل بوبر، باعتبار هذا المجتمع يمثل «نموذجاً مثالياً» لما يرنو إليه البشر ليكون بمثابة المجتمع الفاضل الذى يجب أن يتأسس على أنقاض كل من «الشيوعية» من ناحية، و«نظام الاقتصاد الحر» من ناحية أخرى. وهو مجتمع يقوم على ديمقراطية المشاركة وعلى اقتصاد سوق تحكمه آلية تضبط أسواقه خاصة المالية منها. كما يستدعى الأمر وجود ترتيبات مؤسسية لم يدخل فى تفصيلاتها، وإن اكتفى بذكر أنها غير مفروضة من أعلى - تعمل على حفظ السلام والنظام العام والقانون على الصعيد العالمى ككل. وبهذا يضيف «سوروس» «يوتوبيا جديدة» إلى ما سبقها من «يوتوبيات» فى الفكر السياسى والمذهبى العالمى.

[٣]

وعلى عكس الجزء الأول، يتألق «سوروس» فى الجزء الثانى من كتابه الذى عنوانه: «اللحظة الراهنة فى التاريخ»، إذ يشكل هذا الجزء المساهمة الرئيسية للكتاب. وهنا يحشد «سوروس» كل ما يملك من خبرة وذكاء وأرقام ومعلومات، فهو يروى لنا وقائع جديدة ويزيح الستار عن بعض الأسرار فى عالم المال.. وحول خلفيات الأزمة المالية فى آسيا وروسيا والبرازيل.. فتكتمل الصورة أمام أعيننا، ونغوص معه فى عالم المال والمغامرات والمقامرات والمراهنات، وكأننا نشاهد فيلماً سينمائياً مثيراً.

ورغم الصلة الواهية التى يسعى سوروس لإقامتها بين الجزءين الأول والثانى من كتابه، فإنه ينتقل فى الجزء الثانى فوراً إلى أعماق وتلابيب النظام الرأسمالى فى طوره المعَوْلم. ويعترف سوروس بداءة بأن هنالك بالفعل اقتصاداً معولماً، وأنه أشبه ما يكون بنظام الإمبراطوريات الكبرى، ولكنه يغطى رقعة جغرافية من العالم أكثر من أية إمبراطورية مضت، ويقدم نفسه «كحضارة جديدة» متكاملة الأركان، وكل من يقع خارجها يعتبر فى حكم المتخلفين أو «البرابرة الجدد»! ورغم أن «امبراطورية العولمة» هذه لا تمتلك هياكل سيادية رسمية، وليس لها «سلطان سياسى» على أراض محددة، إلا أنها تتحكم فى العقول والنفوس والسلوكيات، بل إن جانباً كبيراً من رعاياها لا يدركون مدى خضوعهم لقوانينها وأحكامها!

ويرى سوروس أن تلك المشابهة مع النظام الإمبراطورى ملائمة تماماً، نظراً لأن «نظام



فى ظل «السكرة المالية» التى سادت العالم فى منتصف التسعينيات بلغ حجم «الاتجار فى العملات» نحو ١٫٢ تريليون دولار فى اليوم. واندفعت فئات من المدخرين والمضاربين المحترفين إلى دخول لعبة «الحظ والمصادفة» فى أسواق المال

العولمة» له مركز فى البلدان المتقدمة (مجموعة الدول الصناعية السبع)، وله أطراف (Periphery) تسمى عرفاً «بالأسواق الناشئة»، وحيث يلعب المركز دور المصدر والمورد لرأس المال والتكنولوجيا بينما بلدان الأطراف هى المتلقية والمستقبلة للأموال وللتكنولوجيا الحديثة. وتحدد بلدان المركز «قواعد اللعبة» التى تسير عليها الأطراف الأخرى، كما تعين «الحكم» و«حامل الراية». وتدريجياً تتغلغل «قيم العولمة» القادمة من المركز فى حياة المجتمعات والنظام السياسى فى بلدان الأطراف، وأصبحت تتجاوز مجال الاقتصاد لتصل إلى الثقافة والسياسة والعادات والتقاليد! وعندما نستمع إلى ذلك التوصيف من «سوروس»، فكأننا نستمع إلى أصداء صوت عالم ماركسى مثل جوندر فرانك أو إيمانويل والرستين، أو اقتصادى من مدرسة أمريكا اللاتينية (ECLA) مثل سلسلو فوتادو أو دوس سانتيوس.

ويحاول سوروس جاهداً تحديد لحظة تبلور ظاهرة العولمة فى مسيرة التطور الرأسمالى المعاصر. إذ إنه - فى تقديره - أن حرية التجارة التى سادت لقرون طويلة فى مجال السلع والخدمات لا تكفى وحدها لخلق نظام اقتصادى معَوْلم. فإذا كانت الأرض والموارد الطبيعية غير قابلة للانتقال فضلاً عن أن هناك صعوبات جمة تواجه «التنقلية» الكاملة للبشر فيما بين البلدان المختلفة، لذا تصبح حركة وحرية انتقال رأس المال، وتدفق المعلومات، وحركة المنظمين ورجال الأعمال هى التى تُكسب الرأسمالية سمة «العوْلمة» فى صورتها الراهنة.

ويعترف سوروس صراحة بالدور المركزى والمهيمن لرأس المال المالى (Financial Capital)، وأنه يحتل اليوم مقعد القيادة للنظام الرأسمالى المعولم. إذ أن النظام الرأسمالى فى طوره الراهن، يخضع بدرجة كبيرة لمتطلبات حركة وحرية انتقال «رأس المال المالى» بصوره وأشكاله المتعددة. فلم تعد الشركات المتعدية الجنسية، رغم قوتها ونفوذها، تتمتع بنفس قوة شبكة اللاعبين الماليين الكبار الذين يديرون المحافظ المالية عبر أسواق العالم وبصفة خاصة: بنوك الاستثمار، بيوت السمسرة الدولية، صناديق التحوط، وصناديق استثمار أموال التأمينات والمعاشات. ثم يأتى على رأس تلك المنظومة ما يسمى مؤسسات التقييم المالى الدولية مثل: «مودى» ، و«ستاندرد آند بورز» Moody, Standard and Poors, EBECA، التى تنصب نفسها حكماً دولياً ترفع من تشاء وتهبط بمن تشاء.

ويرى سوروس أن هذا الطور الجديد لصعود «رأس المال المالى» يعود إلى بداية نشوء أسواق «اليورو - دولار» (Euro-dollar markets) عند نهاية السبعينيات، والتى دعمها بعد ذلك قدوم «التاتشرية» فى بريطانيا و«الريجانية» فى الولايات المتحدة فى بداية الثمانينيات. حيث تم إسقاط العديد من القواعد المنظمة لتدخل الدولة فى الأسواق (Deregulation).

وفيما يتعلق بدور النقود فى المرحلة الراهنة من التطور الرأسمالى، يلاحظ «سوروس» بذكاء أن وظائف النقود الثلاث التقليدية: كوحدة للحساب، وأداة لتسوية المعاملات، ومخزن للقيم رغم أهميتها، يجب ألا تخفى عن أعيننا «الوظيفة الأهم» للنقود فى عالمنا المعاصر «كمصدر للقوة»، وكغاية فى حد ذاتها. وبالتالى أصبح محور سلوك اللاعبين الاقتصاديين هو «صناعة مزيد من المال» وأصبح «التكاثر المالى» هو الهدف الرئيسى والشغل الشاغل لمديرى الشركات، ومديرى صناديق الاستثمار ومديرى المحافظ المالية. وهكذا فى ظل «عولمة المال»، انحسرت القيم المعنوية وتراجعت الأهداف الاجتماعية «غير المالية»، على حد تقييم «سوروس».

ويشير سوروس إلى أن «الإقراض والائتمان» يشكلان مصدرا مهما لانعدام الاستقرار المالى فى ظل الاقتصاد الحر. ذلك أنه يعمق من حدة التقلبات الدورية فى النشاط الاقتصادى والمالى. ووفقاً للنموذج المعروف للدورات الاقتصادية، حيث تتعاقب فترات الازدهار (Boom) وفترات الانكماش والتراجع (Bust)، يلعب الاقتراض والائتمان دور المغذى للتوسع بل الإفراط فى التوسع فى فترات الازدهار، (كما يشهد بذلك الانتعاش فى سوق العقارات)، بينما فى ظروف الأزمة تكون هناك مغالاة فى تقييد الائتمان وقطع خطوطه (Credit Crunch)، مما يعمق من حدة الأزمة الاقتصادية، ويعوِّق العودة إلى الانتعاش الاقتصادى كما شهدنا مؤخراً فى بلدان الأزمة الآسيوية قبل وبعد حدوث الأزمة فى صيف ١٩٩٧.

كما يلعب الاقتراض وخطوط الائتمان الدولى دوراً خطيراً فى هذا المجال، لأنها لا تخضع لنفس قواعد الرقابة (أو الإشراف) الذى يخضع له الائتمان المحلى الذى تشرف عليه البنوك المركزية والسلطات النقدية عموماً. ويرى «سوروس» أن الضوابط الحالية غير كافية لتنظيم حركة وتدفقات الإقراض الدولى غير المنضبط. فرغم وجود ما يسمى بمقررات بازل التى وضعت عام ١٩٨٨ بواسطة بنك التسويات الدولية فى زيورخ، فإن القواعد الدولية المنظمة لحركة رؤوس الأموال قصيرة الأجل لم تعد كافية (أو ناجحة) فى التعامل مع التدفقات المالية الهائلة فى أسواق المال المعَوْلمة.

وهنا يمتلك «سوروس» الشجاعة الأدبية ليقول أن الأزمة المالية العالمية الراهنة تعود مسبباتها إلى أمراض وفيروسات كامنة فى صميم بنية النظام المالى المعَوْلم (ص ١٣٨). وذلك على عكس ما يقول به غلاة الليبراليين المدافعين عن النظام الراهن، حيث يروجون لمقولة أن الأزمة الراهنة لا تعدو عن كونها أزمة «سوء إدارة» و «عدم كفاءة» للقطاع المالى والمصرفى فى أسواق المال الآسيوية الناشئة.

ويعرج «سوروس» فى الفصل السابع من كتابه على مسببات الأزمة المالية فى آسيا، لينقل لنا صورة نابضة بالتاريخ الحى لتطور تلك الأزمة التى مازال غبارها يملأ الأفق حتى الآن. وبهذا الصدد، يقول «سوروس» أنه فى بداية عام ١٩٩٧ كان واضحاً لديه ولدى مديرى صناديقه الاستثمارية أن أسلوب تمويل فجوة «الميزان التجارى» فى تايلاند من خلال «حساب رأس المال» أصبح غير قابل للصمود والاستمرار. وبالتالى أبرمت «صناديق سوروس» عقود بيع مستقبلية للعملة التايلاندية والماليزية فى أوائل عام ١٩٩٧ تحل آجالها بعد ستة أشهر أو بحد أقصى عام من تاريخ إبرام العقد.

والسر الذى يذاع لأول مرة، هو أن «صناديق سوروس» لم تكن تمتلك آنذاك العملات التايلاندية والماليزية التى تعاقدت على بيعها عند آجال مستقبلية بخصم، بل شرعت فى شرائها لاحقاً عندما بدأت تلك العملات فى الانهيار لتحقيق أرباح مستفيدة من الفرق بين «السعر الأعلى» المتعاقد عليه فى الآجل المستقبلى وبين «سعر الشراء» المنخفض الذى نتج عن الانهيار الكبير لتلك العملات الآسيوية. وهكذا تبدو «العقود المستقبلية» للعملات إحدى أدوات المضاربة المالية الهامة فى الأسواق المفتوحة على النحو الذى أفصح عنه سوروس.

وما حدث فى تايلاند، وما تبعه من انهيارات فى بلدان آسيا الأخرى كماليزيا وإندونيسيا وكوريا الجنوبية، نتيجة تداخل وتشابك تلك الاقتصادات، إنما يمثل تحذيراً واضحاً للبلدان النامية التى تعانى من خلل واضح فى «الميزان التجارى» يقابله تآكل فى مصادر تمويل «الحساب الجارى» و «حساب رأس المال»، مما يؤثر على استقرار سعر صرف العملة الوطنية، ودرجة مناعتها إزاء هجمات المضاربين المحترفين. فالمضاربون يقرءون الكف ذات الخطوط الواضحة، ولا يقرءون الفنجان!

ورغم الطابع العالمى للأزمة المالية فى سياقها الآسيوى أو الروسى أو البرازيلى، فإن «سوروس» يشير إلى نقطة هامة تتعلق بهشاشة الهيكل المالى للشركات الخاصة فى بعض البلدان الآسيوية الناهضة، ولا سيما كوريا الجنوبية، نتيجة الطبيعة العائلية المغلقة لبعض الشركات القابضة الكبرى التى تسمى (Chaebol). فقد تم الاعتماد المفرط على الاقتراض من القطاع المصرفى في الداخل وأسواق المال فى الخارج بدلاً من إصدار الأسهم للاكتتاب العام، كمصدر للتمويل والتوسع حتى لا تفقد تلك العائلات السيطرة على الملكية والإدارة. وقد أدى هذا بدوره إلى ارتفاع نسبة الاقتراض إلى حقوق الملكية التى وصلت فى المتوسط إلى نحو ٤٠٠٪ عام ١٩٩٦ فى كوريا الجنوبية. وظاهرة مثل هذه الشركات نجد مقابلاً لها فى الواقع الاقتصادى المصرى المعاصر.



والآلية الأخرى التى أدت إلى سرعة انتشار عدوى الأزمة المالية فيما بين البلدان الآسيوية، هو وجود نظام هرمى «غير معلن» للاقتراض فيما بين هذه البلدان، حسب درجة الجدارة الائتمانية فى أسواق المال العالمية. فعلى سبيل المثال، كان من الصعب على شركات ومصارف فى إندونيسيا أن تقترض قروضا قصيرة الأجل من أسواق المال العالمية بأسعار فائدة معقولة، فكانت الشركات الإندونيسية تلجأ إلى البنوك أو الشركات الكورية لكى تقترض لها، ونيابة عنها، مستفيدة من متانة المركز المالى الكورى مقابل «علاوة» تقوم الشركات والبنوك الكورية بتعليتها على سعر الفائدة على القروض المقدمة لإندونيسيا. وفى المقابل، تقوم الوحدات المصرفية والشركات المالية الكورية بدورها بالاقتراض من البنوك وأسواق المال اليابانية لتغطية مراكزها وتدبير السيولة اللازمة. ولهذا فعندما انهارت الأوضاع فى إندونيسيا وتعثرت الشركات الإندونيسية فى سداد مديونيتها، تأثرت بذلك أوضاع السيولة فى البنوك والشركات الكورية، التى أضرت بدورها بالأوضاع المصرفية فى اليابان.

وفى نفس الوقت، نجد أنه قد ساد العالم فى السنوات الأخيرة ميل غير مسبوق نحو المخاطرة فيما بين أسواق المال الناشئة. فعلى سبيل المثال، توسعت بعض البنوك الكورية فى الاقتراض من الخارج ثم أعادت استثمارها فى أدوات وأصول مالية «عالية المخاطرة» ولكنها مرتفعة العائد فى أسواق ناشئة «غير مأمونة» مثل إندونيسيا، روسيا، أوكرانيا، والبرازيل. وهكذا فعندما تضرب الأزمة أحد هذه البلدان تنفرط حبات العقد بسرعة مذهلة، ويحدث ما يسمى «الذوبان المالى» السريع (Financial meltdown).

وجدير بالذكر هنا، أن الذى حمى كلاً من الصين وتايوان من آثار ذلك الإعصار المالى الجارف، هو عدم قابلية العملة الصينية الوطنية للتحويل مثل سائر العملات الآسيوية فى بلدان الأزمة. كما أن تايوان لم تفتح بورصة الأوراق المالية لديها لاستثمارات الحافظة بواسطة الأجانب. وفى اعتقادى، أنها قضية جديرة بالتأمل من جانب «دعاة الهرولة» فى اتجاه «الشعبطة» فى قطار العوْلمة!

وعندما ينتقل «سوروس» لمناقشة الأزمة فى روسيا، وهو البلد الذى خسر فيه للمرة

«فى روسيا التى عرف فيها سوروس معنى الخسارة للمرة الأولى، يقر الرجل الذى يتمتع بشهرة عالية باعتباره أكبر المضاربين فى العالم، بأنه «استدرج» رغم علمه مقدما بممارسات السلب والنهب للرأسمالية الروسية الجديدة، ورغم تحفظه وتردده. ولهذا كانت استثماراته المالية هناك هى الأسوأ طوال حياته المهنية

الأولى فى حياته المهنية، نجد أن الكتاب يتضمن تسجيلاً مثيراً ليوميات الأزمة المالية فى روسيا سجلها «سوروس» يوماً بعد يوم خلال شهر أغسطس ١٩٩٨، حيث دوّن بدقة ما حدث لتطور «العائد» على الودائع بالروبل وعقود الروبل المستقبلية، وأذون الخزانة الروسية المُقوّمة بالروبل، وسندات الحكومة الروسية المُقوّمة بالدولار، وكيف قفز العائد على العقود المستقبلية للروبل من مستوى ٤٥٪ يوم ٩أغسطس ١٩٩٨ حتى بلغ ٤٥٨٪ فى ٢٦ من نفس الشهر. وبالنسبة لأذون الخزانة الروسية المُقوّمة بالروبل، فقد قفز العائد من ٩٤،٥٪ فى ٩ أغسطس إلى ١٧٢٪ فى ١٦ أغسطس. كما ارتفع العائد على سندات الحكومة المُقوّمة بالدولار من نحو ٢٢٪ فى ٩ أغسطس إلى نحو ٤٣٪ يوم ٢٦أغسطس.

كان هذا التطور الفلكى والمذهل للعائد على الأصول المالية الروسية هو فى حد ذاته عنواناً للانهيار والذوبان المالى السريع الذى شهدته البلاد خلال فترة لا تتجاوز الخمسة عشر يوماً.

ويزيح «سوروس» فى كتابه الستار عن أسرار تلك الاتصالات الهامة والمحمومة التى دارت وراء الكواليس، وشارك فيها هو كوسيط بين القيادات الليبرالية الإصلاحية فى روسيا وعلى رأسها «جايدار» و«تشوبياس»، من ناحية، وبين كبار المسئولين فى الخزانة الأمريكية، من ناحية أخرى، فى محاولة يائسة لإنقاذ الموقف من خلال تدبير سيولة عالية من مصادر حكومية وخاصة فى الخارج، لتعويم الاقتصاد الروسى قبل أن تتفاقم الأزمة! ولكنها باءت جميعاً بالفشل. ويقر «سوروس» فى نهاية تحليله لتجربته مع روسيا، بأنه رغم علمه مقدماً بممارسات «السلب والنهب» للرأسمالية الروسية الجديدة التى أسماها (Robber Capitalism)، فقد تم استدراجه إلى مسرح العمليات الروسى رغم تحفظه وتردده. ولذا كانت استثماراته المالية فى روسيا تشكل أسوأ استثمارات قام بها طوال حياته المهنية (ص ١٦٧). وسوف يظل «سوروس» يتحدث عنها بقدر كبير من المرارة والأسى.

ويرى «سوروس»، فى التحليل الأخير، أن حكومات الدول الصناعية السبع (G7) والمؤسسات المالية وعلى رأسها صندوق النقد الدولى، قد فشلت فى حل الأزمة الروسية مما أدى إلى فقدان السيطرة على الموقف وهدد بكارثة للنظام المالى العالمى.

[٤]

ركز «سوروس» الهجوم فى كتابه على قضيتين أساسيتين هما:

أ ـ «أصولية السوق» (Market Fundmentalism).

ب ـ «أيديولوجية السوق» (Market ideology).

ويرى «سوروس» أن أنصار «أصولية السوق» يشنون هجوماً ضارياً على أية قوة سياسية (أو مجموعة) تتصدى «لأيديولوجية السوق»، ويصفونها بنعوت مثل «العاطفية»، «السذاجة» و «اللامنطقية»، ولذا يرى «سوروس» أن الخطر الداهم الذى يواجه العالم اليوم، لم يعد «الشيوعية» كما كان الحال من قبل، بل أصبح «أصولية السوق» التى سوف تدفع النظام الرأسمالى المُعَوْلم إلى التحلل والوصول إلى «حافة الكارثة». فهو يرى أن استمرار الممارسات الراهنة، سوف يدفع بلدانا كثيرة فى العالم النامى للخروج من دائرة النظام الرأسمالى «المعولم»، وحماية نفسها من سلبيات تدفقات رؤوس الأموال الساخنة، كما فعلت ماليزيا مؤخراً. تلك التجربة التى قد تصبح تجربة تحتذى بها البلدان المجاورة فى آسيا وبلدان العالم النامى.

ويحذر «سوروس» من أن انهيار نظام العوْلمة الراهن لن تقتصر آثاره على مجال تقليص التدفقات المالية «العابرة للحدود»، بل سوف يؤدى ـ وهنا مكمن الخطورة ـ إلى انهيار مجمل نظام التجارة الحرة فى السلع والخدمات. وذلك فى حد ذاته استدلال فى منتهى الخطورة!

ولذا ينادى «سوروس» بضرورة التعجيل بإصلاح النظام المالى الدولى، والمنظمات المالية الدولية (مثل صندوق النقد الدولى)، لإنقاذ «النظام الرأسمالى المعوْلم» من المخاطر التى تهدده. ويؤكد أن بقاء الأوضاع والآليات الراهنة على ما هى عليه، دون إصلاح، أمر يصعب استمراره، إذ أن سمة «عدم الاستقرار المالى» و «نقائص نظام السوق» كفيلان بتقويض مقومات النظام الرأسمالى فى طورد المعوْلم، إذ أن النظام الرأسمالى الذى ساد خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ـ والذى شهد بدايات «عمليات العوْلمة»، كان فى جوانب كثيرة أكثر «استقراراً» من النظام الراهن.

ويوصى «سوروس» فى نهاية المطاف بضرورة التدخل فى أسواق المال لحمايتها من المضاربين، بدلاً من تركها عرضة للتقلبات والهزات العنيفة، على نحو ما شهدنا خلال السنوات الأخيرة. وكأنه يقول لراسمى السياسات ـ على حد تعبير أحد الكتاب ـ «أرجوكم امنعونى من أن أكون أنا نفسى»! إذ إن نظاماً مالياً عالمياً أكثر استقراراً سيكون أفضل لعدم انتكاس مسيرة العولمة، رغم ما يحمله ذلك المقترح فى طياته من تضييق للفرص أمام «المضاربين الماليين»، من أمثاله، من تحقيق مكاسب مالية سريعة. ففى شهادة نادرة، يقول «سوروس» بالحرف الواحد فى كتابه الجديد:

> «إننى أود بهذه التوصيات حماية «نظام الرأسمالية المعوْلمة» من أن يحطم نفسه بنفسه»

وتلك بلا شك شهادة هامة لشاهد من أهلها، يحذر القائمين على أمور «النظام الرأسمالى العالمى» من مخاطر الانفتاح والتحرير المالى «السداح المداح»، الذى يطلق «الحبل على غاربه» لآليات السوق، على غرار ما حدث فى ظل «التاتشرية» و«الريجانية».

ويرى «سوروس» أن الاقتصاد العالمى يسير فى طريق الركود، وليس الانهيار. ولكن الإبطاء فى إعادة الانضباط إلى الاقتصاد المالى الدولى يؤدى إلى مزيد من التدهور والأزمة. ولعل اقتراب أكبر «شركة للمضاربات المالية» فى العالم (LTCM) من حافة الإفلاس فى الولايات المتحدة، وهى الشركة التى يديرها كبار أساتذة الاقتصاد المالى فى العالم المزودين بأحدث الأدوات الإحصائية والرياضية، كان إشارة واضحة بأن الاختلالات فى أسواق المال والعملات «لا تصحح نفسها بنفسها»، ولابد من سياسات تدخلية رشيدة.

فلقد كان حدث انهيار صندوق التحوُط الأمريكى العملاق المسمى «التوظيف طويل الأجل لرأس المال» (LTCM) فى أواخر سبتمبر ١٩٩٨، بمثابة تحطم الأسطورة عند الظهيرة. فلقد كان الاعتقاد سائداً لدى المستثمرين والمضاربين ودوائر المال الدولية، أن هذا الصندوق الذى يديره نجوم عالم المال والمضاربات هو بمأمن عن دائرة الانهيارات المالية، نتيجة تنويع المخاطر والأصول لديه عبر العملات والبلدان المختلفة.



ولكن عندما جاءت «ساعة الحقيقة»، تبين أن «الإمبراطور ليس لديه ملابس كافية تستره»، على حد التعبير الإنجليزى المشهور. فقد كانت قاعدة رأس مال الشركة لا تتجاوز ٥ بلايين دولار، فى الوقت الذى تتعامل فى أصول وتعاقدات يصل حجمها مائة بليون دولار، بالإضافة إلى التزامات عرضية تصل إلى نحو تريليون دولار، واضطر مجلس الاحتياط الفيدرالى الأمريكى إلى مطالبة أربعة عشر مصرفاً وبيت سمسرة، للتدخل لإنقاذ الصندوق الشهير من خلال ضخ سيولة إضافية تصل إلى ٣،٦ بليون دولار أمريكى، للحيلولة دون كارثة مالية محققة تلحق بأسواق المال العالمية فى العالم الأول، وعلى رأسها «وول ستريت» فى نيويورك. وهكذا كان تدخل مجلس الاحتياط الفيدرالى الأمريكى (الذى يلعب دور البنك المركزى هناك)، يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٩٨، هو السبيل الوحيد للخروج من الأزمة. مرة أخرى كانت السياسة التدخلية هى الحل، عندما تفشل الأسواق فى تصحيح نفسها بنفسها .. كما يحاول أن يوهمنا «غلاة الليبراليين».

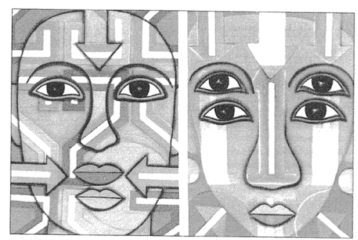
وختاماً، يؤكد «سوروس» أنه لا يهدف إلى إلغاء الرأسمالية»، كنظام اقتصادى، رغم كل مثالبها.. وإنما كل همه هو إنقاذ نظام الرأسمالية المعوْلم» من تحطيم نفسه. وكأنه هنا يتقمص من جديد «دور كينز» فى أوائل الثلاثينيات فى أعقاب الكساد الكبير .. عندما نادى بضرورة تدخل الدولة لتحقيق «التوظف الكامل» لقوة العمل وحماية النظام الرأسمالى من الانهيار.. وإبعاد شبح الاشتراكية. ولكن «كينز» لم يكن فى يوم من الأيام «مستر جيكل» و «مستر هايد» فى آن واحد على غرار ما فعل «سوروس»! ■





مايكل بودرو

تعتبر مجموعة من فلاسفة هذا العقد أن كتاب كيندال والتون «المحاكاة والتظاهر» الصادر في ١٩٩٠، كان كتابا محوريا بالغ الأهمية. واستجاب له بشكل ملموس كل المشاركين بمقالات في كتاب «العاطفة والفن» (تحرير ميت هيجورت وسيولافر، وساهم والتون نفسه بإعادة عرض نظريته. وكانت افتراضاته الأصلية أنه مع الرواية أو الفيلم السينمائي أو اللوحة التشكيلية، ينهمك القارئ أو المشاهد في لعبة مثل العصا التي يتظاهر الطفل بركوبها، أو اللعبة التي تتظاهر فيها مجموعة أطفال بأن الأشجار مقطوعة الجذوع تمثل دببة لابد من الهروب منها. وتقوم الأشياء الحقيقية مثل الأشجار مقام ديكور العرض المسرحي في اللعبة، وتشارك في دفع الحدث. ويؤكد والتون أن هذا أحد أساليب الاهتمام بالأشخاص الذين تحتويهم الرواية أو اللوحة. ويبدو هذا الأمر غاية في المباشرة والصراحة، إلا أنه يظهر لنا التوازن العقلاني يتطلب منا الفصل بين أحداث العالم وبياناته وبين الأحداث التي تحتويها أحلامنا وترسمها مخاوفنا وخيالاتنا، وإلا فسوف نجد أنفسنا نبني استدلالاتنا للواقع على أساس ما نحلم به فقط أو ما نخشاه. وتبرز المشكلة على نحو خاص عندما تؤثر رواية ما على عواطفنا وتستغرقنا: لأن «العاطفة» طبقا لوالتون علاقة بين رغباتنا ومعتقداتنا تجاه العالم، ونزوعنا للاستجابة بسلوك ملائم. وبدون أن تدفعنا معتقداتنا عن العالم الواقعي إلى الفعل فلن يمكن القول بأننا قادرون على أن نجرّب هذه العواطف.



اللوحة للفنان عصمت داوستاشي

وأدى هذا إلى أن يقول والتون إن شعور القارئ بأية عاطفة نحو شخصية أنا كارنينا مثلا، ماهو إلا حقيقة خيالية، فالمشاعر بالنسبة لها كانت جزءًا من رواية وليست جزءًا من واقع غير خيالي، لكن هذا الأمر يمثل مشكلة يصعب حلها: لأن القارئ الذي شعر بتعاطف مع «أنا» واشترى الكتاب وقرأه يشارك في أحداث الرواية على المستويين الواقعي والروائي الخيالي. وهل نزعم مثلا أنه لا توجد أية علاقة بين القراءة والتخيل، أو أن مشاعر القارئ نحو «أنا كارنينا» ليست جزءا من حياته العاطفية الواقعية؟ وهل نستطيع فصل الخيال الذي يكوّن الرواية عن حياة القارئ الواقعية الذاتية؟

ويجيب ديريك ماترافيرس على هذه الأسئلة ليحل المشكلة التي تركها والتون، في مجموعة أوكسفورد the Oxford Collection وبشكل أكثر تفصيلا في كتابه الذي يسبر الأعماق Art and Emotion «الفن والعاطفة» بوجهتي نظر: الأولى تتبنى فكرة والتون حول إدراك شيء ما وفهمه من خلال الخيال. ويقول ماترافيرس إنه في حالة الرواية فإننا نقرأ كما لو كنا نقرأ تقريرا بالأحداث، أكثر من كوننا معرّضين لتلك الأحداث من خلال الفهم والإدراك. ويوفر هذا لنا أسلوبا طبيعيا أكثر للتفكير في الأعمال الخيالية. وبما أن القراءة أو مشاهدة التقارير الإخبارية عن الأحداث جزء عادي من حياتنا، فإن الروايات الخيالية لاتنتج عنها أي مشكلة فلسفية.

وقد يجيب أحد مؤيدي أفكار والتون بأن كل هذا يفشل في حل التناقض الخيالي، لأن الرأي القائل بأن القارئ يشعر بأحاسيس عاطفية موجهة لأشخاص غير موجودين يظل قائما. ويجيب ماترافيرس بأن هناك معتقدات تثير فينا هذه المشاعر، وهي بدورها نتيجة للتقارير التي نقرؤها أو نشاهدها على شاشة التليفزيون، بينما لايؤدي الخيال والأعمال الروائية إلى أية مشاكل خاصة، لأننا لا يمكن أن نكون قادرين على مساعدة الناس الذين نقرأ عنهم في التاريخ، أو الذين يعيشون في الطرف الآخر من العالم خارج نطاق تأثيرات أفعالنا. ورغم ذلك قد نشعر ببعض العواطف نحوهم. ولا يمنعنا عدم القدرة على الفعل من أن نشعر بأحاسيس عاطفية، وبالتالي ليس هناك ما يمنع من أن تكون لدينا هذه المشاعر والأحاسيس في حالة الرواية.

لكن نظرية التقارير التي تتضمن أخبار العالم الفعلية والاستجابات الجمالية لها، تحمل عددًا من الصعوبات. وبالنسبة لماترافيرس فإن التعامل مع التصوير والتمثيل بنفس أسلوب التعامل مع التقارير، ينفي فكرة أن الأعمال الخيالية تخاطب الجمهور أو القراء. وإذا كان هذا يبدو للوهلة الأولى أمرا مقبولا بالنسبة للرواية، فإنه لا يصلح على الإطلاق بالنسبة لسونات الحب مثلا، وقدر كبير من صنوف الأدب الأخرى، وهو أمر يفصل الرواية عن الغنائيات، وكم ستكون تلك التضحية كبيرة إذا كان ما نسعى إليه مفهوما عاما للأدب، ولن نقول للفن بشكل عام. وقد نزعم أن الكتابة ربما تخاطب قارئا مفترضا، لكن ضمن نطاق تقارير الواقع. وإذا صح هذا القول فإنه ينبغي التسليم بأن القارئ الفعلي ربما يتخيل نفسه يحتل دور المُخاطَب. وعند هذه النقطة تبدو فرضيات التقارير أقل طبيعية ووضوحا.



ويستشهد ماترافيرس بكلام جورج كوري:

«أعتقد أن بعض أفراد الجمهور يلعبون دورا مزدوجا، فهم مشاهدون وممثلون في الوقت نفسه، وأحيانا يكونون جزءًا من الديكور في عملية الإنتاج».

ويلاحظ ماترافيرس بعد ذلك أن «تلك الازدواجية غير مريحة وتؤدي إلى إرباك مشاعر المشاهدين». ولكن هل يمكن ألا يكون في الشعور قدر من الإثارة والمباشرة يتجاوز ابتعادنا عن الماضي والحدود الفاصلة بين المتخيل والواقع؟ وقد نتخيل باعتبارنا الجمهور أننا نحن رواد المسرح في القرن العشرين، رومانيون يخاطبهم قتلة قيصر لدى مشاهدة مسرحية «يوليوس قيصر»، لكن ذلك التخيل يتضمن أيضا أننا نشاهد عرضا مسرحيا في مكان وزمان محددين، وأن المكان والزمان التاريخيين، اللذين يتشعبان من روما القديمة إلى ورثتها الشرعيين السياسيين والثقافيين يطوقاننا، فالعرض الذي نشاهده كنا قد توقعناه من أفكار المسرحية. إن إعادة التدوير التي يقوم بها الجمهور لمواقفهم الحقيقية هي مثال لشيء أكثر عمومية: يدور حول حقيقة وسيلة الاتصال - سواء كانت لغة، مسرحا أو سطحا مرسوما، وحتى المزاعم التاريخية التي يعتمد عليها المؤلفون - التي يُعاد استخدامها ومراجعتها في إطار هيكل العمل. ومؤكد أن فرضيات التقارير المباشرة تحتاج لأن تكون أكثر تساهلا حول طرق جذب القارئ أو المشاهد، أكثر بكثير مما يقترح ماترافيرس.

أما الجزء الثاني من نظرية ماترافيرس أو وجهة النظر الثانية، فهي فكرته عن الإثارة، وفي فصل معقد على نحو خاص يرفض المحاولات الحالية التي تسعى للتعامل مع التعبير الموسيقي، باعتباره علاقة بين الموسيقى كشكل فني والمحتوى التعبيري. وطبعا لا يمنع الاستماع إلى الموسيقى التعرف على الأصوات من خلال عواطفنا ومشاعرنا، ورغم أننا نسمع الموسيقى من أول جملة باعتبارها قالبا تعبيريا. إلا أن الأصوات المتتابعة قد تعطينا تلك التعبيرية في الشكل والبناء. وهذا هو المقصود بالاستماع إلى الموسيقى، ويمكن أن نضيف أنه لايوجد لدينا قاموس لغوي غير موسيقي لتلك الأشكال التعبيرية برناتها، لذلك ينبغي أن نصل إلى المجازات والاستعارات الخيالية من العلاقات المكانية ومنطق النقاش والصراع والحوار، فتلك هي المجازات والاستعارات في تأثير التعبير الموسيقي، ولكنها، كما يكرر ماترافيرس، ليست مجازات واستعارات في حد ذاتها. ثم يفسر استخدامنا لمصطلحات مثل

١- **Emotion and the Arts**
(المشاعر والفنون)
Mette Hjort, Sue Laver Ceditors
Oxford University Press, 302 pp.
£ 42.50

٢- **Arts and Emotion**
(الفن والمشاعر)
Derek Matravers
Oxford: Clarendon Press, 236 pp.,
£ 32.50

٣- **Aesthetics and Ethics**
(الجماليات والأخلاق)
Jerrold Levinson (editor)
Cambridge University Press, 328 pp.,
£ 37.50

«حزينة» للحكم على مقطوعة موسيقية، بقوله إن الموسيقى تترك في النفس أحاسيس مرتبطة بالعواطف. ويبدو هذا صحيحا تماما. ويمكن أيضا أن نثير سؤالا: كيف نفكر في أحاسيسنا وعواطفنا على ضوء حقيقة أنه يمكن أن تثيرها الموسيقى أو في سياق علاقات بالآخرين؟ لكن ماترافيرس يعتبر هذا السؤال سيكولوجيا يخرج عن نطاق تحليلاته الفلسفية للمصطلحات التعبيرية.



ويركّز جزء كبير من كتاب *Emotion and the Arts* «العاطفة والفنون» وكتاب *Aes-thetics and Ethics* «علم الجمال وعلم الأخلاق» على الرواية والسينما في الأساس، رغم أن هناك اهتماما بالموسيقى، ونجد في «مجموعة أكسفورد» *Oxford Collection* ورقة رائعة حول الرقص كتبها فرانسيس سبارشوت، وهو أستاذ قديم في هذا المجال، ويناقش الكتاب فكرة أن الأمر ينتهي بنا لتطوير حساسيتنا الأخلاقية والعاطفية من خلال الأعمال الخيالية. ويتناول كتابا جريجورى كورى ونويل كارول كيف نفعل هذا، حيث يشير كورى إلى العلاقة بين العمل الخيالى وقدرتنا على التخطيط لمشاريع مستقبلية، وتخيل كيف يمكن أن تكون تصرفاتنا مع الآخرين من خلال تبادل الأدوار. ويشبه هذا التخيل بإدارة حقائق خيالية من خلال برنامج ذهنى لرغباتنا ومعتقداتنا. ويتكرر هذا التشبيه حيث يكتب كيث أوتلى وميترا جولامين:

«إن اندماجنا مع عرض مسرحى أو رواية يستميلنا لسلسلة أحداث روائية زائفة، مع تتابعها وتأثيراتها العاطفية».

ويشير كورى إلى هذه الغرابة قائلا: إن الحاجة المتكررة لمناقشة هذا الأمر هي بالتأكيد لصرف اهتمامات القارئ الذاتية إلى التركيز على ما يقرؤه.

ومنذ بداية مناقشة الرواية، تثور أسئلة حول كيف يمكن أن نعزز إحساسنا بالأحكام الجمالية، التي لا تنهار في ذرائعية التعليم الأخلاقي، التي ترى أن الأفكار وسائل للعمل وأن فائدتها هي التي تقرر قيمتها، وكيف تنطبق مثل هذه الأحكام على الموسيقى المجردة والفنون البصرية. وتتميز كتابات ريتشارد ميللر وبيتر ريلتون في مناقشة هذه القضايا، في مجموعة كامبردج لجيرولد ليفنسون. ويمكن أن نقول أن ميللر ينتمى إلى مدرسة كانط، حيث ينحاز إلى الموضوعية بمختلف معانيها التي تنطبق على العلم والأخلاق والفن، ليظهر كم هي مرتبطة ببعضها من الداخل خلال ملاحظة الفروق بينها. والملمح المركزى هو مفهوم المتعة من خلال نشاط تعليمي، يربط بين ملاحظة أرسطو حول أصل الشعر في بداية كتابه *Poetic* «فن الشعر» وتشبيه كانط للأحكام الجمالية والمتعة التي يجدها المرء في الاكتشافات العلمية. إن اكتشاف وحدة جديدة بين مواد متصارعة يشبع جانبا من احتياجاتنا الجمالية، وتشمل العملية التعليمية من خلال تشكيل علاقات جديدة، توسيع مداركنا العاطفية والأخلاقية.

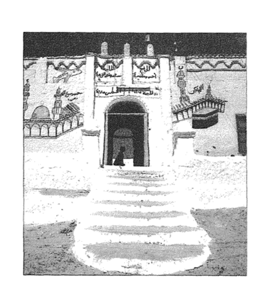
وقد يكون فيما كتبه ريلتون مجاملة لميللر. وقد يكون توسعا مهذبا لفكرة هيوم في مقاله The Standard of Taste «مستوى الذوق». وتدّعى الأنشطة التي تشبه الأنشطة التعليمية وجود توافق بين عقولنا والعالم، ولكن كيف نفسر في الوقت نفسه تنوع الأحكام الجمالية واختلافها؟ لو زعمنا مع هيوم أن هناك صفات معينة في الأشياء «ركّبتها الطبيعة» لينتج عنها شعور بالجمال وشعور بالبشاعة، بمعنى أن التوافق لايكون نفسه مع كل الأشخاص، أو لأى شخص في جميع مراحل حياته، إلا أن الأحكام خلال القرن الثامن عشر تبدو متوافقة بشكل عام من خلال التاريخ. ويفسر هيوم، على ضوء الإجماع الواسع الاختلاف على أنه مستمد من اختلاف الميول الشخصية والرعاية النقدية. إنه توفيق متسامح بين الفروق في إطار تدريبات الذوق، وهي نشاط إنساني يشارك فيه الجميع حسب رأى هيوم، وطبقا لريلتون في الموقف الحديث «أن أى تناغم أو توافق مع قدرات إنسانية عامة ليس وقفا على تراث محدد». ويذهب أبعد من ذلك قائلا: إن مثل هذا التسامح في كيفية التوافق بين عقولنا والأشياء لايؤدى إلى أى نزوة أو ميل إلى التقلب في الرأى، لأن القيمة الجمالية أمر لايقبله عالمنا إلا استنادا إلى أحكام مدروسة تُعنى بما هو خارج ذواتنا وما هوموجود كأساس لبنية حياتنا التحتية المعقدة.

إن التناقض بين وجهة نظر والتون - ماترافيرس وميللر وريلتون وزملائهما، يقع في نظرة كل منهم الشخصية فيما يضع مسألة فلسفية في نطاق الفن، فهو بالنسبة لوالتون كيف نربط بين حقيقة تقرير فردى عن عمل فنى وبين ما يعبر عن معرفتنا بالعالم، أما بالنسبة لماترافيرس فهوكيف يمكن فهم مثل ذلك التقرير الفردى وجعله مشابها لقصة عرضية عامة فيها معان ومشاعر، لكن ميللر وريلتون يعتقدان في بناء وجهة نظر تقوم حول كيف يمكن أن تتوافق ملاحقة المعرفة وتحسين الأخلاقيات مع القيمة التي نقدرها في الفن. ولايمكن أن نجد هذه الأمور بشكل منظم على مستوى الجمل الفردية أو في إطار وجهة نظر مؤسسة سابقا في مجال الفلسفة.

إن كلا من المجموعتين مفيد، خاصة «علم الجمال والأخلاق»، إذ تحتوى إضافة إلى الكتابات التي أشرنا إليها سابقا على مجموعة من الأحداث التاريخية التي تستكشف حدود الأخلاق والفن، مثل ما كتبته مارى ديفيرو في كتاب رايفنستال«انتصار الإرادة» *Triumph of the Will* وماكتبه لاين تريل حول حديث الكراهية وورقة لآرثر دانتو يحاول فيها بعد محاولة فكرية ابتكار حوار أفلاطوني جديد باسم «المُجَمِّل» Beautician يتحول فيها من المزاج الفلسفي، إلى قضية أخلاقية، بخصوص شعور المرأة وتصورها للطريقة التي تقدم بها في حالة التصوير مثلا. وما تؤكده كل هذه الكتابات هو أن أهداف علم الجمال بالمعنى المألوف مقيدة أخلاقيا، رغم أن ذلك ليس على أساس خاضع لأغراض أخلاقية.

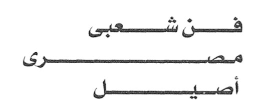
نشر هذا المقال في مجلة TLS (vol. 5002)
ترجمة: عبد العظيم الورداني

فى العقود القليلة الماضية ارتبطت الطائرة لدى الحجاج المصريين بالحج. وكثير من بيوت الحجاج لا تحمل سوى صور الكعبة والطائرة. والفنان التلقائى لم يبذل جهدًا فى تمعن صورة الطائرة فى الكتب والمجلات، بل أطلق لخياله العنان كى يرسم الطائرة بالصورة التى يراها هو.



والصور المرسومة على بيوت الحجاج من إنتاج فنانين تلقائيين علموا أنفسهم بأنفسهم.







الاحتمال الأكبر هو أن تلك النقوش والزخارف الموجودة على المنازل تعود إلى مصر القديمة، عبر خيط طويل من الرسومات التى على المبانى وتمتد إلى أقدم عصور التاريخ.



عندما رأت المصورة «آن باركر» جداريات الحج لأول مرة من نافذة القطار المتجه إلى الصعيد، كان أول ما لفت نظرها ذلك الفن البسيط التلقائى الذى يشع قدرا كبيرا من الحيوية. وعندما أدركت ما تعنيه تلك الرسومات لم يسعها مقاومة تقديم ما باتت تعتقد أنه تراث شعبى غير عادى وذو أبعاد تاريخية. وهكذا بدأت «آن باركر» تسجل رسومات الحج بعدستها. وكانت فى كل مرة تعود فيها إلى مصر تراقب هؤلاء الفنانين التلقائيين وهم يرسمون لوحاتهم بأسلوب فردى فى مواسم الحج. وكم كان ندمها عظيمًا عندما رأت بقايا لوحات رُسمت منذ فترات طويلة وتمنت لو أنها بدأت تسجيل هذا الفن قبل ذلك بوقت طويل.

حرصت المصورة عند اختيارها لصور هذا الكتاب على أن تكون معبرة عن اللحظات الاستثنائية التى يخرج فيها الفنانون عن قدراتهم العادية كى يصلوا إلى آفاق جديدة من الإبداع. وكان لا بد لها أن تحرص فى اختياراتها للصور وترتيبها على أن يكون بناء الكتاب صحيحًا. وهو ما يعنى العثور على الصور التى تصف تسلسل الأحداث، بداية بمغادرة الحاج لبيته وبدء الرحلة إلى الأراضى الحجازية، مرورًا بمحطات الحج المختلفة وانتهاء برحلة الحج وما يصاحبها من احتفالات بعودة الحاج سالمًا. ثم ما يلى ذلك فى الحياة اليومية بعد الحج.

وتقول «آن باركر» إن آلة التصوير تجعل دخولها حياة أنواع مختلفة من الناس أمرًا مشروعًا. وهى فى المقابل ترغب فى أن تكون صورها نوعًا من الشكر على إعطائها ميزة الاطلاع على عوالم هؤلاء الناس. ولذلك فهى ترى أنه إذا كان كتابها يحمل شيئًا من الدهشة وقدرًا من التعليم وبعض البهجة، أو إذا كان يجعل فن جداريات الحج معروفًا بصورة أفضل، فإن جهدها يكون قد كلل بالنجاح.

والمعروف أن السجلات المرسومة، التى تشكل أقوى صلة لنا بالماضى البعيد، هى التى تمدنا بالمعلومات الخاصة بأسلافنا وبالطريقة التى كانوا يعيشون بها. وترى «آن باركر» وزوجها «آفون نيل» الذى شاركها إعداد الكتاب، أن الكثير مما يعتبره العالم الحديث «فنًا عظيمًا» كان نتيجة للمعتقد الدينى، بدءًا من التأويلات شديدة البدائية وحتى أعمق التأويلات الخاصة بالإيمان والعقيدة. وما تلك الجداريات التى تزين بيوت الحجاج فى مصر إلا نتيجة لحدث دينى مهم فى حياة المسلمين، وهو الحج.



Hajj Paintings: Folk Art of the Great Pilgrimage

(صور الحج فى الفن الشعبى)

Ann Parker and Avon Neal

Washington: Smithsonian Institution Press, 1995, pp 164.

وهؤلاء يشكلون ظاهرة الفن الشعبى الموجودة فى أية أمة. وتؤكد المصورة على أن هؤلاء الفنانين جاءوا من ريف مصر. ورغم وجود أمثلة متفرقة فى بلدان إسلامية أخرى، فهى قليلة جدًا مقارنة بما هو موجود فى مصر.

وكل فنان من هؤلاء الفنانين التلقائيين له خطوطه التى تميزه عمن سواه. ولو بدت الرسومات متشابهة فى المضمون والتنفيذ، أو كانت بذات الأسلوب والتصميم والألوان والتكنيك، فالاحتمال الأكبر أن فنانًا واحدًا هو الذى صورها. ومعظم القرى بها شخص واحد على الأقل يمكنه استعمال الفرشاة والألوان بطريقة تلبى حاجات ساكنى تلك البيوت. غير أنه كما هو الحال فى أية حركة فنية، فإن كثيرا من الرسامين ينقصهم التكنيك والخيال، على حين نجد أن آخرين يتمتعون بقدر هائل من الموهبة. ويشير الكتاب إلى أن جميع الفنانين من الرجال، إذ ليس من المقبول أن تقوم المرأة بمثل هذه الأمور.

وتعد الجداريات المرتبطة برموز الحج على واجهات المنازل ممارسة حديثة نسبيًا. ولا يعرف أحد على وجه الدقة، كما يقول الكتاب، متى بدأت هذه العادة. غير أنه من المؤكد أن الفكرة حازت القبول وتطورت خلال فترة قصيرة نسبيًا لتصبح قالبًا مزدهرًا من قوالب الفن الشعبى. وهناك من يقول بأن هذه الممارسة ربما جاء بها الأتراك أثناء وجودهم فى مصر. غير أن الكتاب يشير إلى أننا إذا نظرنا إلى الأمر من الناحية التاريخية، فإن الاحتمال الأكبر هو أن تلك النقوش والزخارف الموجودة على المنازل تعود إلى مصر القديمة، عبر خيط طويل من الرسومات التى على المبانى وتمتد إلى أقدم عصور التاريخ. وأقدم هذه الرسومات هى تلك التى عثر عليها فى كهوف ما قبل التاريخ. وهناك أدلة أثرية على وجود زخارف على منازل بعينها فى العصور المصرية القديمة. وكان النوبيون يزينون بيوتهم دومًا، ويكون ذلك فى أغلب الأحيان بموتيفات من الزهور والزخارف الهندسية. وتوحى مذكرات الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر ورسوماتهم وصورهم الفوتوغرافية بأن جداريات الحج كانت موجودة فى تلك الفترة المتأخرة من القرن التاسع عشر، وإن لم تكن بالقدر الذى هى عليه الآن من الانتشار.

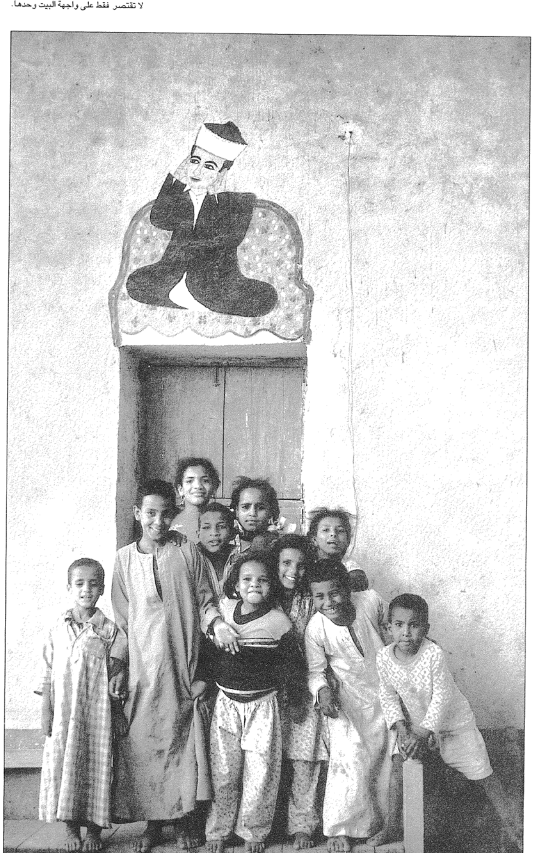


وكانت البداية عبارة عن كتابات بسيطة لا تتعدى اسم الحاج وتاريخ تأديته للفريضة. وفى بعض الأحيان كانت تكتب بعض آيات القرآن المرتبطة بهذه الفريضة بخط كبير على واجهات المنازل الخالية من أية زخارف. وكان ذلك كافيًا لإعلام الناس بخبر أداء صاحب هذا البيت أو أحد أهل بيته لفريضة الحج. وربما كانت الصور التى أضيفت بعد ذلك بمثابة بيان بنفس المعلومات لمن لا يعرفون القراءة والكتابة. ومن هنا بدأ فن جداريات الحج. وانتشرت هذه الممارسة. وفى نهاية الأمر اتخذ الخيال الرمزى شكلا ثابتا ليصبح ذا دور دائم فى احتفالات عودة الحجاج. وكان أن أضحت هذه الرسومات التى تسجل مناسبة الحج أكثر


الله أكبر ولله الحمد

جمع الفنان في هذه اللوحة بين الحنطور الذي ينقل الحاج من بيته إلى محطة القطار الذي ينقله إلى السويس أو القاهرة ليكمل الرحلة إلى الأراضي المقدسة. ويلاحظ أنه وضع الجنود في الصف حسب رتبهم. ولكي يخفف من حدة منظر الجنود والسلاح أنهى اللوحة بهذه الزهور.

صورة من داخل منزل أحد الحجاج رسمها فنان اسمه على عيد ياسين لأحد القرشين. والمعروف أن رسومات الحج لا تقتصر فقط على واجهة البيت وحدها.

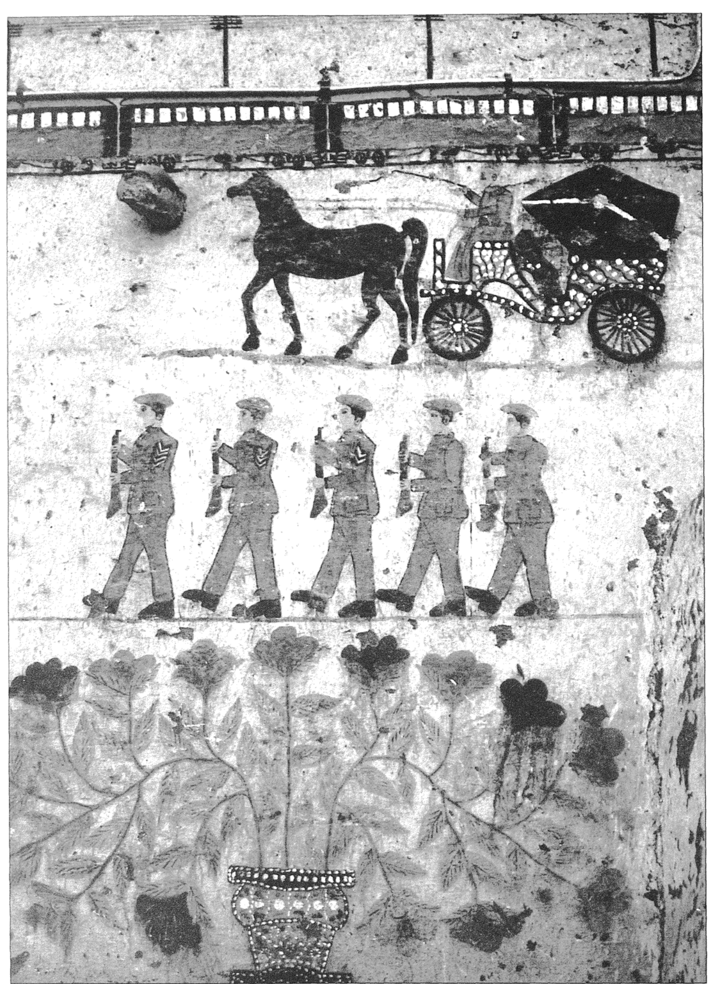


خيالاً وأدق تفصيلاً. وقد ازدهرت تبعًا لمهارات فنانين فرديين ومواهبهم. كما أنها نمت بالطريقة التي تنمو بها الحركات الفنية التلقائية، حيث تتغذى على الأعمال الأكثر تطورًا التي سبقتها، وتتحسن في الوقت الذي يسعى فيه الفنانون لتحقيق أفكارهم الخاصة.

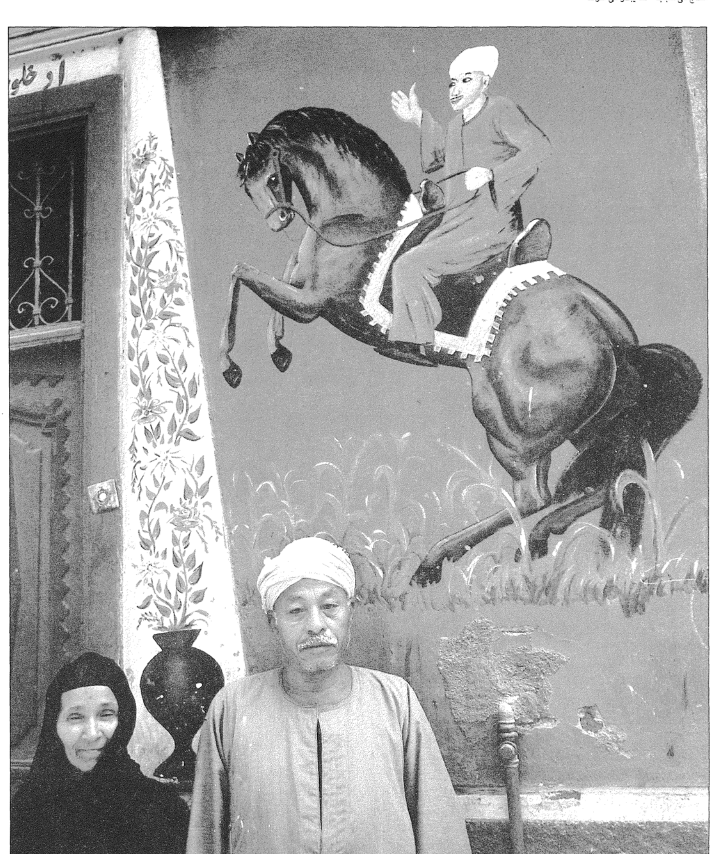
وتتسم جداريات الحج بأنها سريعة الزوال، وذلك لأنها مصممة بحيث لا تبقى طويلاً. وهي غير محمية من عناصر الطبيعة. وتعد سرعة تعرضها للعطب، إلى جانب وجودها في أماكن يندر أن يزورها الأغراب، سببًا في ضآلة فرصة تعقب وجودها في مستهل ظهورها. إلا أن بمقدورنا تأمل تطور هذا الفن من خلال الرسومات البسيطة للكعبة، التي تشكل الرمز الرئيسي في كل هذه الجداريات، وتلك الرسومات المنفذة بطريقة جذابة، وغالبًا ما يكون ذلك بالألوان الصريحة، لنصل في النهاية إلى الجداريات المتقنة التي تزين بيوت الحجاج في الوقت الراهن.

والذين يرسمون هذه الجداريات هم في حالات قليلة جدًا ممن احترفوا الرسم والتصوير. والكثير منهم ممن يقومون بأعمال أخرى ولا يمارسون هذا العمل إلا في موسم الحج، كعمل مؤقت يحقق لهم مزيدًا من الدخل ويستمر لمدة ثلاثة أسابيع في المتوسط. وجرت العادة على أن يكون هؤلاء من المدرسين، كما يشير الكتاب، وتتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والخمسين. وجرى العرف على أن يبدأ العمل بعد ذهاب الحجاج إلى الأراضي الحجازية، على أن ينتهي بالكامل قبل عودتهم إلى ديارهم. ويشير الكتاب إلى أن غالبية هؤلاء الفنانين يشعرون بأن رسومات الحج واجب ديني. وهم يخلصون في خلق صور أكبر حجمًا وأفضل رسمًا. وكأي جهد إبداعي، فإن من بين هؤلاء الفنانين من يتميزون بمواهبهم غير العادية، وتعد جدارياتهم مميزة من حيث الشكل والمضمون. فأعمال هؤلاء هي التي تحدد معيار تقييم أعمال الآخرين والحكم عليها.

ويتم إعداد الجدار للرسم بوضع طبقة رقيقة من الجبس عليه، ثم تترك حتى تجف وبعدها يبدأ الرسم. وهناك من يرسم على الجدار مباشرة، ومنهم من يرسم اسكتشًا على الورق يحدد فيه الخطوط العريضة لما يعتزم رسمه على الجدار. وفي بعض الأحيان يقترح أهل الحاج ما ينبغي رسمه على جدار بيتهم. وفي كثير من الأحيان يكون للسطح نفسه دور في اختيار الرسم. يضاف إلى ذلك أن الفنانين لديهم موضوعاتهم المفضلة، وهي تلك الأشياء التي يجيدون رسمها. كما أن البعض منهم يجد متعة في تنويع موتيفاته تبعًا للحجم والمساحة. ويميل بعض الفنانين إلى الخيال، في حين يحاول آخرون اتباع الطرق الواقعية، الأمر الذي يخلق جوًا خاصًا من الفن الشعبي. ويلاحظ أن خيالهم غير الموجه وعدم تمكنهم من المنظور، في ظل وجود مساحات كبيرة توضع عليها ألوان صريحة، يؤدي إلى ظهور

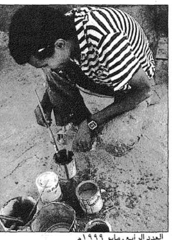


رجل وزوجته من إسنا يقفان أمام بيتهما الذى تحمل واجهته رسمًا لرجل يمتطى حصانًا راقصًا يقف على قائمتيه الخلفيَتين. اللوحة من تصوير فنان اسمه محمود العربى. يبدو أن هذا الفنان أراد تصوير الحاج فى شبابه، كما يبدو فى اللوحة.

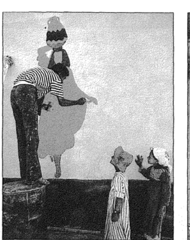


فى هذه اللوحة يصور الفنان الحاج وهو يستعد للرحيل، حيث يتأكد من سلامة حقائبه، التى نلاحظ أنها حقائب حديثة. ومع أنه لم يعد هناك من يقوم بالحج على الجمال، فإن هذا المشهد مازال يعيش فى مخيلة الفنان ونقله على جدار بيت أحد الحجاج. ويتضح فى هذه اللوحة اهتمام الفنان على عيد ياسين. من سلوة بحرى. بالتفاصيل.

الفنان أحمد الطويب يعد ألوانه.



.... وينفذ إحدى الجداريات.



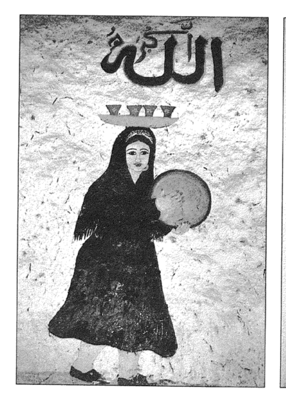
أثناء زيارة قامت بها «آن باركر» لقرية القرنة بالأقصر التقت بالفنان التلقائى أحمد الطويب الجالس على يسارها، وقد حرصت على اطلاع الفنانين الذين التقت بهم على صور لفنانين آخرين ومناقشتهم فى إبداعاتهم.



إحدى الحاجات التى لا تزال فى ملابس الحج البيضاء تعانق قريبتها التى تستقبلها عقب خروجها من المطار. واللوحة من رسم على عيد ياسين واجهة بيت على أطراف كوم امبو. وقد جىء به إلى هذا المكان بسبب شهرته فى رسم جداريات الحج، بعد أن أصر ابن الحاجة، صاحب المكانة بين أهله، على أن يرسم الواجهة أفضل فنان. وهذه شهادة على إبداع هذا الفنان.



وإحدى سيدات المنزل تقدم الشربات للمهنئين بعودة الحجيج، لاحظ صبغة الحناء على الأيدى والأصابع.



هذه الحاجة الشابة الواقفة أمام بيتها هى التى صورها الفنان التلقائى على الجدار فى هيئة امرأة عصرية، وإن حرص على أن تكون حليها هى نفس الحلى التقليدية التى تظهر فى الصورة الفوتوغرافية. كما أنها تمسك بجهاز تسجيل، ربما اشترته هدية لأهلها من الأراضى الحجازية.

أشكال أشبه بالكاريكاتير وشخصيات ذات بعد واحد، بخلاف غياب التوازن أو التنظيم. وهى أمور غير مذمومة فى مثل هذا الفن الشعبى.

وكل فنان له خامته المفضلة، غير أنهم فى أغلب الأحيان يستخدمون ألوانا ذات قاعدة مائية. ويفضل البعض الألوان ذات القاعدة الزيتية، لأنها تعيش أطول، وإن كانت أغلى ثمنًا. وعادة ما تستعمل الألوان الزيتية فى إطارات النوافذ والأبواب الخشبية.

والكعبة هى العنصر الذى يحرص الفنان منهم على وجوده فى رسوماته. فهى وحدها ما ينقل فكرة الحج. وتصور الكعبة فى بعض الأحيان على هيئة مكعب أسود وحسب، ومرات أخرى تتخذ صورة محددة التفاصيل وسط بحر من البشر المحيطين بقاعدتها، وهم الحجاج فى ملابس الإحرام. وعادة ما تكون الكعبة محاطة بالعناصر الأخرى المرتبطة بالحج، وهى فى العادة صور منسوخة من المجلات والصحف والكتب واللوحات الفنية، وفى بعض الأحيان تكون من نسج الخيال أو شاهدها الفنان على شاشة التلفزيون. ونجد أن البعض يركز على تصوير وسائل النقل المختلفة التى يستقلها الحجاج فى رحلة الذهاب إلى الأراضى المقدسة والعودة منها.

وكانت رسومات الحج القديمة تقل كثيرًا من حيث جودتها عن تلك التى تتم فى الوقت الراهن. فقد كان الكثير منها يرسمه أهل البيت بأنفسهم. وكانت عبارة عن رسومات بسيطة للزهور أو الطيور أو الحيوانات ومعها بعض الآيات القرآنية المكتوبة بخط غير جيد.

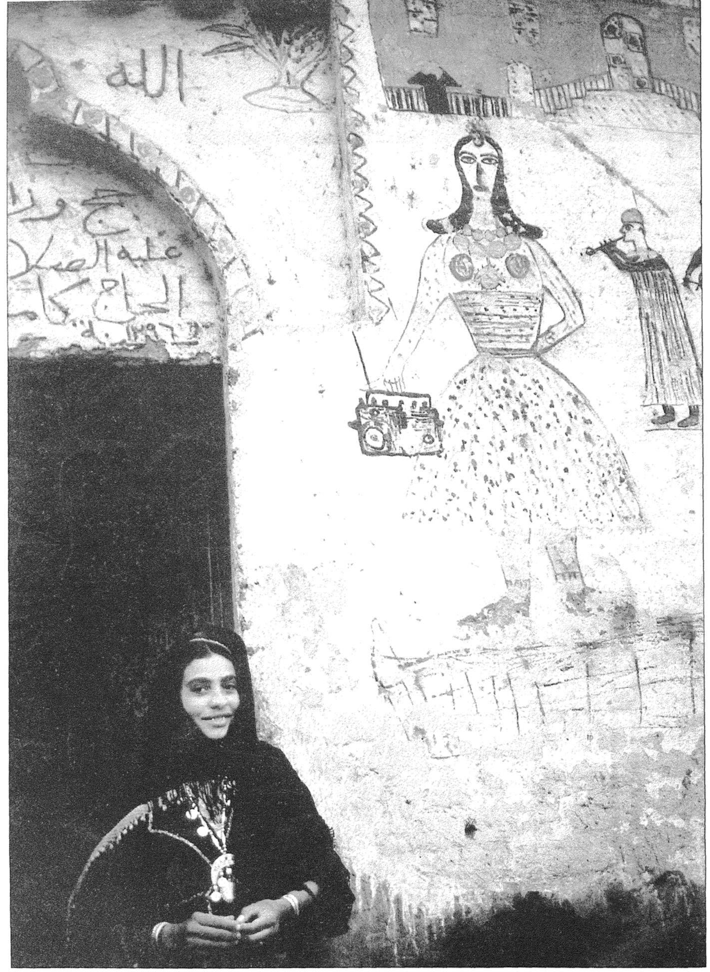
وكما قلنا من قبل، فإن جداريات الحج ليست دائمة. وعادة ما تترك هذه الرسومات نهبًا للعوامل الجوية والإهمال. وتتولى أشعة الشمس الحارقة، والعواصف الترابية، والرياح، والأمطار التى تسقط أحيانًا، وضع بصماتها المدمرة عليها. وحتى أفضل اللوحات سرعان ما تبهت ألوانها وتتلاشى رسوماتها. ونادر هو الذى يبقى من هذه اللوحات لسنوات. وعندما تتلاشى بفعل العوامل الطبيعية أو عبث البشر، فإنها تترك انطباعًا حيًا فى الذاكرة الجمعية. ويبدى «آن باركر» و«آفون نيل» أسفهما على ضياع الكثير من الجداريات الجميلة دون أن يبقى لها أى أثر.

وبالطبع ليست هناك طريقة عملية لتجميع مثل هذه الأعمال فى المتاحف. ولذلك يرى المؤلفان أن أبسط طريقة لحفظ هذه الصور المؤقتة هى تسجيلها فوتوغرافيًا. وهى عندما تجمع مع بعضها ككيان مرئى تشكل أرشيفًا رائعًا لفن شعبى دينى على قدر كبير من الخصوصية ولحركة أصيلة توشك أن تحصل على الاعتراف بها باعتبارها وجهًا مهمًا من وجوه التراث الفنى للأمة المصرية.



من أشكال كرم الضيافة عند المصريين فى المناسبات السعيدة تقديم الشاى و«الدخان» بمختلف أنواعه

ترجمة وإعداد: أحمد محمود


الله



الزعيم فى المنفى

فى ٩ مارس الماضى مرت ـ دون أن يتذكر أحد ـ ثمانون عاما على ثورة ١٩١٩، وهى واحد من أهم أحداث القرن العشرين، ليس فى تاريخ مصر وحدها، بل فى تاريخ العالم كله، إذ كانت أول ثورة شعبية تنشب فى أعقاب الحرب الأولى، وفى مستعمرة من مستعمرات الدول المنتصرة، لتسير على دربها ثورات أخرى فى الوطن العربى، وأوروبا وآسيا.

بدأت أحداث الثورة فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨، عند طلب ثلاثة من الزعماء المصريين، هم «سعد زغلول» و «عبد العزيز فهمى» و «على شعراوى»، السماح لهم بالسفر للتباحث مع الحكومة البريطانية حول مطالب مصر الوطنية، فلما رفضت طلبهم، بدأوا نشاطا سياسيا واسعا للحصول على تأييد المصريين، وصل إلى ذروته حين استقالت حكومة «حسين رشدى باشا» احتجاجا على منعهم من السفر، وأصدروا بيانا يطلبون فيه من السلطات رفض الاستقالة وعدم تكليف أحد بتشكيل الحكومة، فاعتقلت السلطة العسكرية البريطانية فى ٨ مارس ١٩١٩ «سعد» وثلاثة من أعضاء الوفد، هم «محمد محمود» و«إسماعيل صدقى» و«حمدالباسل».

وقبل أن تتحرك بهم السفينة إلى المنفى، اندلعت مظاهرات الطلاب صباح ٩ مارس ١٩١٩ احتجاجا على ذلك، فتصدت لها قوات الاحتلال، لتتحول إلى ثورة استمرت فى مرحلتها الأولى لمدة شهر كامل وشملت كل أنحاء مصر: أضرب الطلبة والعمال والمحامون وسائقو الترام والقطارات وتظاهرت السيدات وقطع الفلاحون خطوط السكك الحديدية وقضبانها وأعمدة التلغراف والتليفون وأضرب موظفو الحكومة عن العمل.. ولم تتوقف هذه المرحلة من الثورة إلا عندما أعلنت بريطانيا فى ٧ أبريل ١٩١٩ الإفراج عن «سعد» وصحبه وإباحة السفر للمصريين!

ولم تصل أنباء الثورة إلى «سعد زغلول» ورفاقه، إلا بعد حوالى عشرة أيام من نشوبها، حين استقروا فى منفاهم وسمح لهم بقراءة عدد محدود من الصحف التى تنطق بلسان الاحتلال..

وهذا النص يتضمن مقتطفات من «مذكرات سعد زغلول» عن الفترة بين ٩ مارس و١٢ أبريل ١٩١٩، راعينا فى اختيارها أن تعكس صورة لحياة زعيم الثورة وصحبه فى المنفى، ورد فعل أحداثها عليهم، وقد تطلب ذلك حذف بعض التفاصيل المكررة أو التى لا صلة لها بالسياسق، كما تطلب إضافة بعض التوضيحات للنص ليصل إلى قارئه مستكفيا بذاته.

«المحـــرر»

٢٦ مارس ١٩١٩ ـ قلعة بولفاريستا بمالطة:

من يوم ٦ مارس ١٩١٩، لم أكتب شيئا عن المذكرات. وفيه دعانا الجنرال«واطسن» ـ قائد القوات البريطانية ـ إلى مقر قيادته بفندق سافواى، أنا وأصحابى أعضاء الوفد. وعندما اجتمعنا خرج علينا وحوله بعض العساكر. قال عابسا: إنه نظرا لأنه علم أنكم تناقشون الحماية، وتعرقلون سير الحكومة، بتعطيل تشكيل الوزارة فأنذركم بأنكم إذا أتيتم ما يعطل سير الحكومة، تقعون تحت طائلة العقاب. فهممت بالجواب. فانصرف قائلا: لامناقشة. قلت لأصحابى: إن الأمر ليس مجرد تهديد، بل هو جدى.

ثم كتبنا إلى مستر «لويد جورج» ـ رئيس الوزارة البريطانية ـ تلغرافا بالاحتجاج على هذا التصرف، قلنا فيه: إن تعطيل تشكيل الوزارة ليس من عملنا، بل هو ناتج من منع الوفد من السفر، ولكن السلطة العسكرية البريطانية فى مصر أرادت أن تلقى علينا مسئولية هذا التعطيل.

وفى يوم الجمعة ٧مارس١٩١٩، تحدث البعض بأن عشرين محلا أعدت فى سجن ليمان طرة. وفى صبيحة يوم السبت ٨مارس١٩١٩، أخبرنى بعض الأصدقاء بأنه تقرر شىء، ولو لم يصدر منا شىء مما نهينا عنه، فلم أعبأ. ولكن فى نحو الساعة ٥ بعد الظهر، حضر أحد الضباط الإنجليز وقال لى: إنك مدعو لفندق سافواى، فخرجت معه، حيث وجدت«محمد باشا محمود» واقفا أمام المنزل المجاور لمنزلى بجانب أوتومبيله، وبعض العساكر، فاركبنا معا فى أوتومبيل، إلى ثكنات الجيش الإنجليزى فى قصر النيل، وكان من خلفنا فى أتومبيل آخر «إسماعيل باشا صدقى».

وصعدنا إلى الطبقة العليا، ووضع كل منا فى أودة، وفتشونا جيدا، ولم يجدوا معى شيئا إلا بعض أوراق ردوها بعد أن قرأوها وعرفوا عدم أهميتها.. وكانت غرفتى أوفر متاعا وأوسع من بقية الغرف. وبعد قليل أحضر «حمد الباشا الباسل» وجلس كل منا منعزلا عن الآخر إلى أن سمح لنا ـ بناء على طلبى بالاجتماع معا..

وطلبت من المنزل أكلا، فلم يأتوا به إلا بعد الحادية عشرة ليلا.. وكنت قد رقدت فوق السرير.. ماذاقت عيناى النوم طول الليل، لأن الحراس كانوا يروحون ويغدون أمام الغرفة، فيحدثون حركة مقلقة، ولأن أفكارا كثيرة كانت تتوارد علىّ. وكان يزعجنى منها ماتوحيه خالة زوجتى التى لم تكن فى البيت وقت القبض علىّ. ولم يخطر النفى ببالى، وقدرت أنه قد يكون السجن إلى زمن ما. وخطر ببالنا ـ فيما خطر ـ إجراء تحقيق معنا.. ثم قيل لنا: أحضروا ملابس تكفى لشهر من الزمان. فما فهمنا أن ذلك للإبعاد، وتوهمنا أنه سوء فهم ممن أبلغونا.



وفى صباح يوم الأحد ٩ مارس١٩١٩، قيل لنا: استعدوا للسفر من غير أن يحددوا الجهة. وطلبوا أن يحدد كل منا اسم خادم يصحبه، فطلبت خادمى «محمد أحمد». وعلمنا ـ بعد ذلك ـ أنهم طافوا على منازلنا لإحضار لوازم السفر. وفى الساعة العاشرة والنصف أنزلونا إلى الطبقة السفلى، حيث كانت أوتومبيلات معدة لنقلنا. ووجدنا أتباعنا مع أمتعتنا فى عربة نقل. وسارت بنا الأوتومبيلات مقفلة إلى محطة قطارات القاهرة، فدخلت إلى رصيف الصعيد، وانتهت إلى محاذاة العربة التى أنزلنا فيها، وكنا محاطين بالجند. ولم أر أمام العربة من المصريين، إلا «محمود باشا صدقى» ـ عديلى ـ وشقيقه«محمد باشا، رأيتهما من بُعد والدموع تتناثر من عيونهما.. ودفع إلى كل واحد منهما بما كان معه من النقود، ولايبلغ مجموعها أكثر من عشرين جنيها تقريبا.

وكنا نضحك أحيانا، عندما يكون هناك سبب يقتضيه. ولطريقة «حمد باشا الباسل» فى حسن التوكل وجميل التحمل، يرجع الفضل فى تلطيف الأمر علينا.. ولما وصل القطار إلى محطة بورسعيد، وجدنا مستر «إلجود» ـ قائد الحامية البريطانية بالمدينة ـ فى انتظارنا، فقابلنا بهشاشة وبشاشة، وسار بنا إلى أوتومبيلات الصليب الأحمر، معتذرًا بأن غيرها كان مشغولا، فقادتنا إلى باخرة ضخمة من بواخر النقل، تدعى «كاليدونيا» وكانت مشحونة بالجنود الإنجليز وقدمنا «إلجود» إلى قبطانها. وتناولنا الشاى معه، وطلبنا منه أن يتوسط فى إحضار نقود لنا بموجب تحويلات على فروع البنوك التى لنا معاملة معها، فردها إلينا، لأن هذه الفروع أبت أن تدفع قبل مراجعة فروعها الرئيسية بمصر.

ولم تقلع بنا الباخرة من ميناء بورسعيد، إلا ظهر يوم الاثنين ١٠ مارس ١٩١٩، وأبى كل من شاهدناه أن يبوح باسم الجهة التى نتوجه إليها، حتى اليوم التالى، حيث قيل لنا إننا نتوجه إلى مالطة.. وقد كنا أثناء ذلك غير فزعين، ولا مضطربين، ولا قلقين، إلا على أهلنا الذين يتوهمون أننا متعبون فيألمون، ولو كنا متأكدين من اطمئنانهم علينا، لكنا فى راحة بال وسكون حال..

وكان كل الركاب ـ على اختلافهم ـ يتمرنون على حمل أطواق النجاة يحملونها كل يوم فى الساعة ٩، ويقفون صفوفا، فيمر بهم الضباط ويعلمون من يجهل منهم كيف يحملها. وقد أحدث التمرين عليها أول الأمر فى نفوسنا تأثيرا سيئا، لتوهم الخطر، ولكن لم يلبث حتى زال..

وكانت محلاتنا فوق ظهر الباخرة من المحلات المعدة للضباط، لكل واحد قمرة فيها مايلزم من غطاء وفراش ولوازم التواليت. وكان الأكل موحدا ومناسبا وأغلبه أرز مع الكارى، ولم يكن يسمح لأحد أن يأكل خارج القائمة الموحدة، إلا لى وحدى، لكونى مريضا. وكانت الخدمة راضية والنظافة عالية. وكان البحر فى اليوم الأول هادئا والرياح ساكنة، ولكنه تحرك فى اليوم الثالث، وهبت الرياح ونزلت بعض الأمطار، ثم هدأت بعد ذلك. ولكن لم يأخذنى دوار، ولم يشتد بى التعب اشتداده المعتاد.

وكنا نمضى بعض أوقاتنا فى تناشد الأشعار، وبعضها فى لعب الورق، وبعضها فى الحديث والسمر. ونستعين على طرد الهموم بمبادئ الدين والفلسفة، وأفادنا ذلك فى تحمل مشاق الغربة والسفر والبعد عن الأهل والأوطان..

ولم تكن السفينة قاصدة «مالطة»، ولكنها عرجت عليها لإنزالنا بها.. فوصلناها فى صبيحة يوم الخميس ١٣مارس ١٩١٩، ووقفت بعيدة عن المرسى، ونقلنا إليه ـ اثنين اثنين ـ فى زورق بخارى صغير أخذ يتقلب بنا ذات اليمين وذات اليسار واعترانى من هزاته أكثر مما ألم بى من تعب السفر.

وصعدوا بنا إلى قلعة تسمى «بولفاريستا» وأدخلنا إلى قسم منها، مؤلف من ثلاث طبقات على هيئة قشلاق، تخصص لنا فيه مسكنان، يتألف كل منهما من ثلاث غرف مبلطة، ولاسجاد ولا حصير ولا أمتعة سوى بعض كراسى وترابيزات، فطلبنا أن تفرش. فوعدنا بذلك.

وكان البرد قارسًا والهواء عاصفا، وقد رأينا ـ عند دخولنا ـ أحد الأسرى المصريين، وعلى رأسه تعميمة، فاستقبلنا بالهشاشة والبشاشة. وتواردت علينا الرسائل من الكامبات الأخرى التى فيها أسرى من المصريين، وكلها تبدى الأسف من نفينا، والترحاب بنا والاستعداد للقيام بخدمتنا فى كل مايلزم لنا.



وفى اليوم الثالث السبت ١٥مارس١٩١٩ زار الحاكم العام لمالطة الأسرى، وحضر إلينا وتكلم مع «محمد باشا محمود» ـ وهو الوحيد بيننا الذى يتقن الإنجليزية ـ ووجدناه عارفا بأن «محمد باشا» من متخرجى «جامعة أكسفورد»، وقال لنا: إنه لابد أن نبقى هنا بعض الزمن..

مذكرات سعد زغلول (الجزء التاسع)
تحقيق: د. عبدالعظيم رمضان
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨



والثورة فى الوطن

ويتم علينا فى اليوم مرتين: فى الساعة ٩ صباحا.. وفى الساعة ٥ مساء بواسطة نفر من العساكر، ويمر كل يوم بنا ضابط مالطى ليتلقى طلباتنا وينفذ مايمكن تنفيذه منها.

ولقد استوحشنا المكان أول نزولنا به. وكانت العبرات تخنقنى كلما فكرت فى حالة زوجتى، ولكنى كنت أستعين على قطعها بأنها - مع ذلك - أحسن حالا منى لأنها حرّة. ولاشىء فى العالم يعادل الحرية فى شىء، ولا يشعر بقيمتها إلا من حرم منها كلها أو بعضها.. لايمكن لأحد من الخارج أن يكلمنا أو نكلمه. لانكتب ما نشاء، ولايصل إلينا من الكتابة إلا مايشاء غيرنا. ولانقرأ من الجرائد إلا بعضها دون البعض الآخر، فلانقرأ الفرنساوية منها، ولا الإنجليزية إلا «التيمس»، ولا الإيتاليه إلا مالطة، ولا المصرية إلا «المقطم».. ولكن أحضروا لى معها «الأهرام».. أباحوا لنا الفسحة كلما طلبنا ساعتين فى اليوم، بشرط أن يصحبنا فيها أحد الضباط.. وعند الخروج لكل نزهة، لانخالط أحدا ولانشترى شيئا.. أخذت فى تعلم الإنجليزية وواصلت تعلم الألمانية..

مكثنا عدة أيام لانعلم من حوادث مصر شيئا، ولكن أتت أخبارها شيئا فشيئا من التلغرافات التى تنشر هنا، ومن جريدة «التيمس».. وأخيرا من جريدة «المقطم». واندهشت جدا من هذه الحوادث لأننا لم نكن نتصور حدوثها، خصوصا بالكيفية التى حدثت بها..



٢ أبريل ١٩١٩:

أخبار ما حصل من المظاهرات عقب قيامنا من مصر، ومن أجل إبعادنا، ملأت قلوبنا سرورا وابتهاجا، حتى كادت تحبب السجن إلينا، وأفعمنا شكرا لأمتنا، وهانت علينا نفوسنا نفدى بها هذه البلاد. نعم مازج هذا السرور كثير من الأسف، على النفوس التى أزهقت والدماء التى أهرقت، ولكن أى مجد قام بغير الضحايا، وأى أمة بلغت مناها بغير أن يخاطر أبناؤها بأعز ماليديهم..

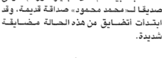
ولقد ساءنا أن تداخل بعض الأشرار فى الحركة، وارتكبوا جرائم فظيعة، ولكن المسئول عن هذا هم الذين أساءوا السياسة من قبل. وزعم بعض أعضاء مجلس العموم البريطانى، أننا نفينا لأننا هددنا السلطان «أحمد فؤاد»، ولأننا عطلنا تشكيل الوزارة، ولكن سياستهم الخرقاء هى التى ترتب عليها هذا التعطيل، لأنهم منعونا من السفر إلى باريس لعرض مطالب قومنا على مؤتمر الصلح، واستقالت وزارة «حسين رشدى باشا»، احتجاجا على هذا المنع، فلم يجرؤ مصرى على قبول الوزارة، لاخوفا منا، بل خشية أن تحتقره أمته، التى صودرت إرادتها.

وليس فى الكتاب الذى أرسلناه للسلطان، فى ٢ مارس ١٩١٩، نطلب فيه ألا يقبل استقالة رشدى، وألا يكلف أحدا غيره بتشكيل الوزارة، شىء من التهديد، بل هو مملوء بالأدب فى مخاطبته، والاحترام لشخصه، والحرص على مقامه، وإيقافه على ما فى نفوس أمته، مما لم يجرؤ أحد غيرنا على عرضه عليه.. فإن كان رفع رغبات الأمة إلى سلطانها، يعد تهديدا له، فنعم هذا التهديد ومن الفخر أن نتحمل مسئوليته أمام أية سلطة شرعية..

لقد توهم حزب الاستعمار أنه سيبتلع مصر، بمجرد أن يبعد بعض أبنائها من بلادهم، ولكن ساء ماتوهم، فإن البلاد من أقصاها إلى أقصاها تطلب الاستقلال، ولاتحمل للطامعين فيها إلا كل حقد وضغينة.. ومهما كان من طبيعة الحوادث التى حصلت فى مصر بعد سفرنا، فإنها جاءت قارعة شديدة فوق ماكان يقدر المقدرون، وعكست القصد على حزب الاستعمار، ولفتت نظر العالم كله. إلى أن هناك أمة مظلومة، تطلب الإنصاف.

قرأنا اليوم - ٢ أبريل ١٩١٩ - مقالة فى جريدة «التيمس» يلوم فيها كاتبها الحكومة الإنجليزية على منعها الوفد من السفر لإبداء مطالبه، ويقول إنه لو حصل ذلك لما حدثت فى مصر حوادث محزنة. ومما يدهش، مانشرته تلك الجريدة، من أنه نودى فى «زفتى» بأنها جمهورية!.. فهل تبدلت الأمة المصرية فى هذه البرهة الوجيزة التى مضت من وقت سفرنا من البلاد، أم أن غلاة المستعمرين الذين تنطق بلسانهم «التيمس» يكبرون فى الحوادث ويبالغون فى شأنها بغية الوصول إلى غرض يرمون إليه!

يؤسفنى جدا مايقع - من وقت لآخر - بين «محمد محمود» و«إسماعيل صدقى» من سوء تفاهم.. ولقد حاولت كثيرا منعه، فلم تساعدنى حالة «محمد محمود» على الوصول إلى غاية مرضية، لأنه كثير الانفعال، ويتأثر لأقل شىء، ويكفى أن يخالفه «صدقى» فى أمر من الأمور حتى يرمى الغضب من لسانه بعض الكلمات الجارحة، وهو سيىء الظن كلما توهم أنى أميل إلى «صدقى» الذى أظهر سعة صدر، فلم يكن لى أن أتخلى عن نصرة حقه، رغم كون الصحبة بيننا لم تكن كبيرة، ورغم كونى صديقا لـ«محمد محمود» صداقة قديمة، وقد ابتدأت أتضايق من هذه الحالة مضايقة شديدة.



٤ أبريل ١٩١٩ [قلعة بولفاريستا/مالطة]

أصبحنا والشمس زاهية، والسماء صافية، والجو هادئ. وقد نمت الليلة أحسن من كل ليلة سابقة، والأفكار المحزنة أخذت تزول وتتبدل بالأفكار المسلية. وسبب ذلك، أن المظاهرات الجريئة التى حدثت غضبا لإبعادنا، وطلبا لإرجاعنا، قد وجدنا فيه شيئا كبيرا من المكافأة والترضية. وماكنا نوده من سفرنا وهو تبليغ مطالب قومنا، سواء كان لأحرار الأمة الإنجليزية أو لأعضاء المؤتمر، قد حصل بأكبر بيان، وأفصح عبارة، وأقطع برهان. وأصبحت قضيتنا فى نقطة أعلى وأسمى من النقطة التى كنا نتعشم وضعها فيها قبل سفرنا..

والحق يقال إننا وقت قيامنا بهذه الحركة، بل وبعده لغاية إبعادنا، لم نكن نتصور أن مسألة مصر تبلغ من الأهمية مابلغته الآن، والفضل فى ذلك لايرجع إلى مهارتنا، ولكنه يرجع إلى سوء السياسة الإنجليزية فى مصر، إذ لو أنها تركتنا نسافر إلى مؤتمر الصلح، لما حصل شىء مما حصل. ولكن الله أضلهم، فاحبط أعمالهم وعكس القضية عليهم.. فالآن، نعتبر مأموريتنا قد انتهت، ونستقبل كل قضاء على أنفسنا بغاية الرضا، وسواء أتيحت لنا العودة إلى وطننا العزيز أو لم تتح، فقد أعززناه وأعزنا.. وخدمناه فجزانا أحسن الجزاء، ولم يعد الظالمون يستسهلون اهتضامه، ولا الطامعون يستبيحون التهامه..

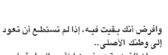


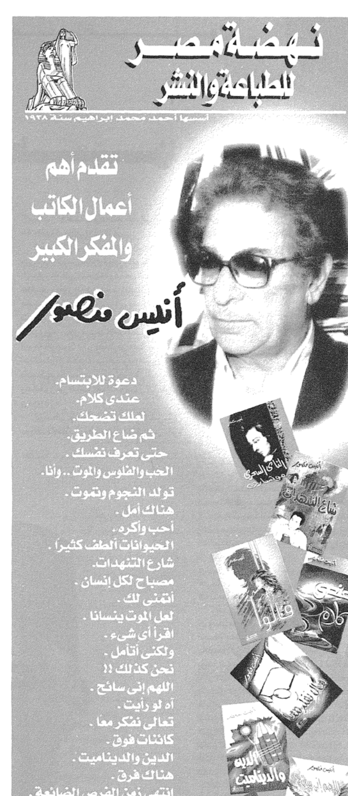
٨ أبريل ١٩١٩:

تم اليوم الشهر من تاريخ القبض علينا. وقد حضر بناء على إلحاحنا أمس مزين يصحبه أحد العساكر ليمنع الكلام بيننا. فقص لى شعرى الذى كان طويلا ويؤلمنى طوله.

من البلية أنى أشتهى تعلم اللغة الإنجليزية، ولاأحد فيمن يدرّس لى الكفاءة اللازمة، ولكن لغة مخلوطة خير من عدمها.

أرض الله واسعة فلا تحصر سعادتك فى بقعة منها، وفى أى محل حللت اجعله وطنا لك،





وافرض أنك بقيت فيه، إذا لم تستطع أن تعود إلى وطنك الأصلى..

إن الذين يتعرضون للأمور العامة، ليس لهم أن يتفكروا فى أمورهم الخاصة، ولو أصابتهم مصيبة فى أموالهم أو أنفسهم، فليس لهم أن يفزعوا منها، بل عليهم أن يقبلوا القضاء بها بالرضا، وإلا كانوا مخادعين لأنفسهم ولبلادهم..

يلوح لى أن الحوادث التى حدثت فى مصر، وإن كان من شأنها أن تلفت أنظار مؤتمر الصلح إلى قضيتها، لكنها لاتدعو إلى حمله على إعلان استقلالها كما نود نحن، لأن إنجلترا لن تسلم بأن تخسر - بعد انتصارها فى الحرب - ماكسبته قبلها، وهى تعتبر مصر لها من غيرمعارض منذ توقيعها الاتفاق الودى مع فرنسا عام ١٩٠٤. ولكن حالة مصر لابد أن تتغير إلى ماهو أحسن من الآن. خصوصا بسعى الأحرار من الإنجليز أنفسهم..

ويحملنى على هذا الظن، أن للدول الأعضاء فى مؤتمر الصلح، مستعمرات تسعى للحفاظ عليها، وإلى زيادتها، فلايمكن أن تحمل غيرها على أن تترك ما أصبح فى ملك يمينها من المستعمرات. وقد ضعف صوت الرئيس الأمريكى «ولسن» الذى كنا نعتمد على وعده بإعطاء كل الشعوب حق تقرير المصير، ونعده نبى زمانه، بل اتهمه قومه بأنه يمالئ الإنجليز ويحابيهم. والله أعلم بمصير الأحوال.

١١ أبريل ١٩١٩ [الساعة ٦,٤٥ صباحا]

أمس بعد العشاء، فى نحو الساعة ٨، ونحن حول مائدة اللعب، إذا بخادمى «محمد إبراهيم» دخل علينا، وفى يده تلغراف من «رويتر» يقول: أن الجنرال «اللنبى» الذى عين فى ٢٥ مارس ١٩١٩ مندوبا ساميا فى مصر- أعلن بأن السفر إلى خارج القطر صار مباحا لكل المصريين. فكدنا نطير من الفرح لهذا النبأ السار الشارح للصدور المنعش للآمال. قلت: إن هذا أول انتصار للحق على القوة، وأول ثمرة من ثمرات اتحاد الأمة على إباء الضيم والأنفة من ذل الاستعمار، وأثر من آثار الحركة المباركة التى قامت بها مصر فى هذه الأيام.. فحيّا الله الأمم إذا عرفت واجبها، وحيّاها الله إذا اتحدت على المطالبة بحقوقها، وحيا أبناءها إذا هم خاطروا بأنفسهم فى سبيل استقلالها.

وبعد ذلك عدنا إلى اللعب، حتى جاءت الساعة ١٠ ـ موعد نومنا ـ فذهبت إلى قضاء حاجة، وسمعت صوت «محمد محمود» يصرخ عاليا، وحضر الإخوان الثلاثة يعدون. وقال «محمد محمود» بصوت يختلط فيه البكاء بالفرح: إننا لم نقرأ بقية التلغراف، إنه يشتمل على خبر أهم ـ وهو الإذن لنا بالسفر أيضا، وقبّل بعضنا بعضا أمام بيت الأدب. وأعادوا قراءة التلغراف مرة أخرى. وصفقنا، تصفيقا دوى فى المكان.

وجلسنا نتحدث فيما يكون من أمرنا.. فخطر لنا أنه عما قريب يأتينا خبر بالفرج والإذن لنا بالسفر، وفى الغالب أن العودة إلى مصر لا تتيسر الآن خشية مظاهرة الشعب لنا، على أننا نحن نفضل أن نسافر توا إلى أوروبا لنقضى واجب الوطن العزيز قبل كل شىء.

وقلت لإخوانى:

هذه ضربة أصابت الذين لايزالون يتمسكون بلزوم الشدة، وكأنهم لايعلمون أن حركة مصر لم تتولد إلا من الشدة، ووضع البلاد تحت الأحكام العرفية زمانا طويلا، وعدم المبالاة بحياة المصريين، واستعمال السيف والنار فيهم لأوهن الأسباب. ألا قاتل الله هؤلاءالأئمة، قساة القلوب غلاظ الأكباد الذين أولى بهم النار وبئس القرار..

ومالبعث فى قلبى من الفرح، لم يلبث أن مازجه الشعور بالواجب نحو الأمة، وتحمل عنائه، بعد أن حط الاعتقال عن كواهلنا حمله، وصرت أفكر فيما يجب فعله.. وقلت لإخوانى: لا يأخذكم ما أنتم فيه من الفرح عن واجب التحفظ، والظهور بمظهر الرزانة والسكون. ونرجو الله جميعا أن يرزقنا الصبر على استقبال نعمته.. فإن النعمة أحوج من النقمة للصبر عليها..

ومازلنا هائصين إلى انطفاء النور، فدخل كل منا مسكنه. ولم أنم إلا بعد الساعة ٢. وكان النوم غيرعميق، ثم تيقظت فى الساعة الرابعة والنصف.. ولم أنم لغاية الآن. وقد حضر الساعة عندى «حمد باشا الباسل» وفهمت منه أنه لم ينم لاهو ولا «صدقى». وأخذ يشرح مايخامرفؤاده من السرور، ويقول:

اليوم اندرجت حياتنا فى حياة المجموع، واندمجت شخصياتنا فى الأمة، فلانفكر فى أنفسنا، ولكن فى بلادنا، وقد كان الطريق غيرواضح من قبل أمامنا وقد أصبح الأمرجليا. فما علينا إلا أن نستمر فى سلوكه إلى النهاية التى نرومها، ولاينقصنا الإقدام، فإنى ما رأيت رجلا مثلك فى الإقدام، عندما يعقد العزم على الشىء يأتيه.. نعم، إنك قبل الإقدام تدقق فى الشىء تدقيقا شديدا، ولكن شيئا بعد ذلك لايصدك عنه مهما كان خطيرا..

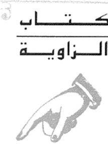
وتقبل الأسرى المصريون خبر الإذن لنا بالسفر بالبشر والترحاب وأخذ بعضهم يهنئون بعضا.. وتغيرت حالة «محمد محمود» تغيرا محمودا، فالحمد لله الذى أصلح شيئا منه..



١٢ أبريل ١٩١٩:

لم أنم أمس، كالسابق، لأن الأفكار تحركت بعد أن كانت ساكنة.. وفى نحو الساعة ١١ حضر الضابط الذى يتفقد حالنا يوميا، وأبلغنا بأنه ورد تلغراف من مصر بالإذن لنا بالسفر إلى «لوندره» مع ١٨ مصريا، منهم أعضاء الوفد الذين كانوا فى مصر، وأن الباخرة التى تحملهم قامت من بورسعيد أمس، وسوف تصل إلى هنا صباح بعد غد الاثنين ١٤ أبريل، وبعد قليل حضر حاكم مالطة الإنجليزى ليودعنا، وأخذنا نتاهب للسفر..

كتاب الزاوية



الساق على الساق

فى دائرة هذا الكون ومركز هذا الكتاب

كان هذا الرجل طبيبا مشهورا بمصر . ولكن شهرته فى دائه أكثر منها فى دوائه . وذلك أنه كان قد تزوج جارية تارّة على كبر سنه فأولدها بنتا وصبيا . ثم عجز عن أداء حقها فجعل دأبه الملاطفة لها والتملق . وتلك عادة الرجل مع المرأة من أنه كلما قصّر فى إعتابها وإرضائها فى الحقوق الزوجية زاد حرصه عليها وكلفه بها وتردّبه لها . توهم أن هذا يسد عند المرأة مسدّ ذلك ، وكذا حالته معها إذا كان يخونها ويرأم أخرى ، كما أن دأب المرأة أن تزيد هشهشتها وعروبيّتها لزوجها بزيادة إشباعه إياها وإطفاف الكيل لها . أو تملقها له إذا كانت تخونه .

وبناء على ذلك ، قال الطبيب لزوجته يوما من الأيام : ياهذى إننى أرى أن قد صدئ مفتاحى عن قفلك . وان سنّك وترارتك تقتضيان أن تتخذى لك آلة رصاعية لتتلهّى بها حتى يحين حينى فتتزوجى بآخر . وإلا فإنى أخاف أن تتركينى وتطيرى من عندى كما يطير الحمام . وقد يهون علىّ أن أخسر منك شيئا واحدا ولا أخسرك بجملتك . فإنك أم ولدى ومحل سرى من كبدى ، فلا أطيق فراقك . فاختارى لنفسك من شئت آتك به بقرنيه . فضحكت المرأة عند ذلك . ثم قال : ومن حيث إنى معروف فى هذا البلد بأنى طبيب فإذا رأى الجيران رجلا قادما إلىّ بل رجالا فلايكون عليك شبهة ، فضحكت المرأة أيضا لقوله رجالا . قال : فإن الناس يقرعون باب الطبيب ولو فى نصف الليل وهنا ضحكت أيضا . ثم تمادى فى الكلام معها إلى أن قال : ولا تظنى أنى وحدى تفردت بهذه العادة . فإن أمثالى من أهل بلادى يفعلون كذلك وهنا قهقهت . فلما فرغ من بقية خطبته على هذا النسق ظنت زوجته أولا أنه قصد بذلك أن يستطلع سرّها ويتصيّدها بزلة . فبكت من شدة الغيظ وقالت له : أزعمتنى بغيّا حتى تقابلنى بمثل هذا الكلام وتسىء بى الظن . قال : حاشا الله من ذلك . وإنما تكلمت معك بمقتضى الطبع فتدبرى قولى بعد حين وردّى علىّ الجواب . فانصرفت المرأة من حضرته وهى واجمة مرتابة .

وجهة نظر:

فلسطين .. أى دولة .. وعلى أى أرض؟!

إحسان بكر

لا مجازفة عندما نقرر أن الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات لن يعلن دولته المستقلة وعاصمتها القدس فى يوم الرابع من مايو(آيار) رغم كل الضجيج الإعلامى والتصريحات التى غطت أرجاء المعمورة، وكان أقواها اعتبار ذلك التاريخ «مقدسًا»!

ومع تسليمنا الكامل وتأييدنا المطلق لحق الشعب الفلسطينى فى أن يكون له وطنه ودولته المستقلة، فإن إعلان قرار بهذا الحجم لن يصدر، فالمسألة مرتبطة بموازين القوى الإقليمية والدولية وهى كلها تصب فى صالح الدولة العبرية، بل وفى صالح اليمين الإسرائيلى بالذات. والدولة الفلسطينية سبق إعلانها فى نوفمبر ١٩٨٨ فى العاصمة الجزائرية، وكنت شاهدا على إعلانها فى قصر الصنوبر بمدينة الجزائر خلال اجتماعات المجلس الوطنى الفلسطينى، فما هو الفرق بين إعلانها منذ أكثر من عشر سنوات وإعلانها الآن؟ عرفات نفسه يقول: إن إعلان الجزائر صدر من خارج الوطن، لكن إعلان ٩٩ يصدر ونحن فوق الأرض الفلسطينية المحررة، ثم يدلل على كلامه بأن منظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح مستعدتان «لخوض حرب كرامة جديدة واستئناف الانتفاضة فى حال انتقاص حق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم».



ما الفرق بين إعلان الدولة الفلسطينية فى الجزائر قبل عشر سنوات، وإعلانها الآن؟ عرفات يقول: إن إعلان الجزائر صادر من خارج الوطن، ولكن إعلان مايو ١٩٩٩ يصدر ونحن فوق الأرض الفلسطينية المحررة.



ومثل هذا «الكلام الكبير» سمعناه وسمعته شخصيا فى أكثر من مناسبة، لكن واقع الحال يؤكد استحالة العودة إلى الانتفاضة إلا على أشلاء كل هذه الاتفاقات التى عقدتها السلطة الفلسطينية مع حكومات إسرائيل وسهلت مهمة الإسرائيليين وجعلت وضع الفلسطينيين أكثر سوءًا وتعقيدًا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

ومشكلة أو عقدة العمل الفلسطينى هى أن القيادة الفلسطينية وتحديدا كل أولئك الأشخاص الذين اندفعوا فى التفاوض مع إسرائيل يوقعون اتفاقات منفردة ودون أى تشاور مسبق مع شركائهم العرب تحت دعوى القرار الفلسطينى المستقل.

لكن نفس هذه القيادة تعود إلى العرب مرة أخرى وتطالبهم بدعمها وتحمّل «مسئولياتهم القومية» إذا تورطت فى التعامل مع إسرائيل ضمن اتفاقات مختلة وناقصة وغامضة فى كثير من بنودها.

أبوعمار فى وضع صعب وبالغ الحرج، والاتفاقات التى وقعها مع إسرائيل لم تنفذ، والوضع الاقتصادى الفلسطينى بائس ومتدهور. والاستيطان اليهودى خاصة فى القدس يتزايد والاعتقالات التى تقوم بها السلطة الفلسطينية بحق الناشطين ضد إسرائيل توتر الوضع الأمنى الفلسطينى. وموعد الرابع من مايو لإنجاز مفاوضات الوضع النهائى يقترب من لحظة الصفر دون أن تكون هذه المفاوضات قد بدأت.



يدرك الرئيس عرفات كل هذه الصعوبات.. ولا أحد من المحيطين حوله يستطيع أن يزايد عليه، وليس أمامه إلا أن يعوض كل الخسائر التى تمخضت عنها الاتفاقات المنفردة مع إسرائيل بتحقيق إنجاز ما. هذا الإنجاز يتمثل فى إعلان قيام الدولة الفلسطينية على كامل الأرض الفلسطينية التى احتلت فى الخامس من يونيو ١٩٦٧.

لكن للولايات المتحدة الأمريكية رأيا آخر، فأمريكا أعلنت قبل زيارة عرفات إلى واشنطن أنها تعتبر الإعلان الفلسطينى بقيام الدولة هو إجراء من جانب واحد، وهى ترفض ذلك بل وتدينه، ثم هى تريد لأى قرار أن يكون حصيلة مفاوضات فلسطينية - إسرائيلية.

وقد أعلن مارتن انديك مساعد وزير الخارجية فى واشنطن يوم ٢٢ فبراير الماضى أن الولايات المتحدة تعارض تمامًا إعلان الدولة الفلسطينية من جانب واحد.. وأضاف محذرا:«نأمل ألا يصدر عن عرفات مثل هذا الإعلان».

وقبيل أن يتوجه ياسر عرفات إلى واشنطن تلقى رسالة من الإدارة الأمريكية تقترح عليه أن «يؤجل» أو «يلغى» زيارته لأمريكا إذا كان موضوعها الرئيسى سيتركز على إعلان الدولة الفلسطينية فى الرابع من مايو.وربما نتيجة لهذه النصيحة أو التهديد الأمريكى تغيرت لهجة الزعيم الفلسطينى، فهو قد أعلن قبل وعند وصوله إلى واشنطن أنه يريد من الإدارة الأمريكية «ضمان تنفيذ الاتفاقات الموقعة مع إسرائيل».وعند اجتماعه مع مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية قال عرفات:«إننى أريد من الإدارة الأمريكية أن تساعدنى على التنفيذ الدقيق والأمين لكل الاتفاقات التى وقعت فى البيت الأبيض»، ولم يذكرموضوع الدولة.

وبعد لقاء الرئيس بيل كلينتون وياسر عرفات تم الإعلان عن موقف واشنطن:

- الالتزام بالعملية السلمية.

- الولايات المتحدة لن تغير سياستها فى الشرق الأوسط ومن أبرز ملامحها عدم تأييد قيام دولة فلسطينية من جانب واحد.

- إن أمريكا لن تعلن موقفا من حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى لأنها لا تتعامل مع مثل هذه اللغة.

- إنها تعرف طموحات الشعب الفلسطينى وترى أن هذه الطموحات ينبغى أن توضع على طاولة المفاوضات، أى أن حق تقرير المصير الفلسطينى، وحق إعلان دولة فلسطين، هو موضوع يتم التفاوض عليه مع إسرائيل.

والأكثر من ذلك أن الإدارة الأمريكية رفضت أن تحدد تاريخا بديلا للرابع من مايو الذى لا توافق عليه، ورفضت تقديم «أى ضمانات» مسبقة للفلسطينيين، أو وعد بالاعتراف بدولتهم إذا أعلنوها فى أى وقت لاحق. وطلبت أن يكون الموضوع برمته محل تفاوض مع إسرائيل، ثم إنها رفضت أن تحدد «سقفا» لهذه المفاوضات حين تبدأ، فهى مفاوضات مفتوحة بلا أى حد زمنى أدنى أو أقصى.



ومعنى ذلك كله، أن الولايات المتحدة قد التزمت ومن جديد بالموقف الإسرائيلى،وهى تفعل ذلك رغم خلافها مع رئيس الوزراء بنيامين نتانياهو، وبذلك تسقط المقولة التى يرددها دعاة أوسلو بأن الفلسطينيين قد نجحوا للمرة الأولى فى كسب ود الولايات المتحدة على حساب إسرائيل!

والسلطة الفلسطينية الآن أمام خيارين لا ثالث لهما:

أولا: إما أن تخضع للضغط الأمريكى، وبذلك تكون قد قبلت نهائيًا الانضواء تحت جناح إسرائيل حيث ينشأ كيان فلسطينى ضئيل وهزيل تحت السيطرة والهيمنة الإسرائيلية.

ثانيا: أو أن تتجه إلى إعلان الدولة كمبادرة نضالية فلسطينية وبهذا تشكل مدخلا عمليا للوحدة الوطنية الفلسطينية والعودة إلى إطار العمل العربى المشترك.



ونسأل عن الطريق الثالث.. هل سدت الطرق تماما أمام الفلسطينيين للخروج من المأزق؟ الإجابة جاءتنى على لسان فاروق قدومى «أبو اللطف» وزير خارجية فلسطين والمعارض تماما لنهج أوسلو وكل ما جرى من اتفاقات بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل.

وأعترف أننى منذ توقيع اتفاق أوسلو آثرت - مُكرهًا - أن أبتعد عن القيادة الفلسطينية بعد أن ظللت على مقربة منها لمدة تتجاوز ثلاثين عاما، ابتعدت عمدًا رغم أننى كنت من أوائل الذين كتبوا عن الثورة الفلسطينية فى مصر. وأزعم أننى عاصرتهم بل وكنت معهم موجودا فى كل الأزمات التى مروا بها وما أكثرها وكلها كانت مع الحكومات العربية.

وعندما ذهبت أبحث عن إجابة لهذا السؤال حول احتمالات إعلان الدولة الفلسطينية طافت بمخيلتى عشرات المشاهد، منذ صدمة زيارة الرئيس السادات للقدس وما تلاها من أحداث بدءًا من معركة الكرامة ومرورا بأحداث أيلول(سبتمبر) الأزمة الشهيرة بين الملك حسين عاهل الأردن الراحل وقوات المقاومة ثم حصار الفلسطينيين فى أحراش جرش وعجلون ثم الخروج الفلسطينى الكبير من الأردن إلى بيروت ثم معارك الفلسطينيين مع الحكومة اللبنانية وأخيرا هجوم إسرائيل على بيروت وحصار الفلسطينيين وخروجهم إلى تونس..

ولهذا فعندما اتصل بى الأخ فاروق قدومى يدعونى للعشاء فى أحد فنادق القاهرة فكرت فى الاعتذار ثم أخيرا قررت الذهاب للاستفهام.. ما جرى وماذا يجرى وكيف الخروج من المأزق؟ وأنا مسبقا أعلم أن أبواللطف فى موقع المعارضة للاتفاقات ورفض أن يمارس مسئولياته كرئيس للدائرة السياسية أو كوزير لخارجية فلسطين من داخل مناطق الحكم الذاتى. بل آثر أن يمارس عمله من تونس مقر القيادة الفلسطينية القديم، كان يحيرنى سؤال كبير: عضو قيادى بارز بل هو أحد أعضاء القيادة التاريخية للثورة الفلسطينية ولفتح فى موقع المعارضة، أى تناقض هذا.. على أى الحالات الرجل آثر ألا يحدث أى انشقاق فى الحركة الفلسطينية.

■ فى البداية سألته هل هناك طريق ثالث للخروج من مأزق الرابع من مايو؟

قال لى فاروق قدومى: إن الحل الثالث كما تسميه هو إعلان حكومة فلسطينية مؤقتة فى المنفى يوم الرابع من مايو تتولى مهام مفاوضات الوضع النهائى على المسار الفلسطينى، وتترك للسلطة الوطنية الفلسطينية مهمة تنفيذ استحقاقات المرحلة الانتقالية، وأضاف أن حكومة المنفى سوف تسد الفراغ السياسى الناجم عن إرجاء إعلان الدولة فى موعدها المقرر وفق اتفاقات أوسلو.

■ وأين يكون مقر هذه الحكومة المؤقتة؟

أجاب قدومى: القاهرة .. مصر باعتبارها الدولة الأم للدول العربية والمقر الرسمى

لجامعة الدول العربية.. وإذا لم تكن القاهرة فلتكن تونس هى المقر أو العاصمة الأردنية عمان.

■ ومن يرأس الحكومة المؤقتة وما هو وضع ياسر عرفات؟

قال: المجلس الوطنى الفلسطينى عند إعلانه فى الجزائر الاستقلال فى عام ٨٨ انتخب ياسر عرفات رئيسا لهذه الدولة، واختارنى وزيرا لخارجيتها.

■ معنى ذلك الاقتراح أنكم تسحبون كل اختصاصات مجلس وزراء السلطة الفلسطينية؟

قال فاروق قدومى: فى يوم الرابع من مايو تنتهى المفاوضات السياسية. وحتى لاتدخل القضية الفلسطينية فى تيه من الفراغ السياسى، وحتى لاتحدث مصادمات مع قوات الاحتلال الإسرائيلى فى حال إعلان الدولة فى موعدها فى الضفة الغربية وقطاع غزة، فإن الحل الحقيقى للخروج من المأزق هو المبادرة بإعلان تشكيل حكومة فلسطينية مؤقتة فى المنفى، والحكومة الجديدة تضم كل فصائل المقاومة الفلسطينية الأعضاء فى المجلس الوطنى وحركة حماس - إذا وافقت - ونحن ملتزمون حسب الميثاق الوطنى، التعامل مع المنظمات التى شكلت منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الجبهة الوطنية الفلسطينية.

■ ألا يعنى إعلان هذه الحكومة ازدواجية فى العمل الفلسطينى؟

قال قدومى: على الإطلاق، إن مهمة حكومة المنفى المحددة هى تولى مسئولية مفاوضات الوضع النهائى والتعامل مع القضايا الرئيسية المؤجلة، مثل اللاجئين والمستوطنات والقدس والحدود والمياه، أى أن مهمتها هى التفاوض فى شأن المرحلة النهائية بعد أن تكون فرضت سيادتها على الأرض، أما السلطة الفلسطينية فمهمتها التعامل مع القضايا والمواضيع التى لم تنفذ.



....

وما أكثر القضايا والمواضيع والاتفاقات التى لم تلتزم حكومات إسرائيل بتنفيذها.

وهناك أمثلة عديدة على ما جاء فى الاتفاقات ما لها وما عليها؟

١- إن اتفاق أوسلو حقق مطالب إسرائيل الأمنية والسياسية والاقتصادية وجرد الشعب الفلسطينى من حقوقه الوطنية المشروعة.

٢- إن إسرائيل أجهضت المقاومة داخل فلسطين، ولا تزال تطالب السلطة الفلسطينية بقمع المقاومة تحت شعار مكافحة الإرهاب.

٣- إن إسرائيل قفزت فوق صيغة مدريد وأوسلو وفرضت على الفلسطينيين تطبيق مبدأ «الأمن مقابل السلام» ..وليس «الأرض مقابل السلام».

■ وماذا حقق الفلسطينيون بعد كل سنوات التفاوض الطويلة؟

- نعم لقد اعترفت إسرائيل للمرة الأولى بوجود الشعب الفلسطينى، وبمنظمة التحرير ممثلا له، وبحق هذا الشعب فى إقامة سلطة - حكم ذاتى - فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وفى أن يعيشوا فى أمن وكرامة.

ولكن إسرائيل حصلت فى المقابل على اعتراف فلسطينى صريح بوجودها، وعلى تعهد المنظمة باعتماد الوسائل السلمية لحل منازعاتها مع إسرائيل، حتى ولو كان التنازع على قضايا رئيسية مثل الحدود والقدس واللاجئين والمياه والأمن.

لا أحد يستطيع أن يشغل موقع عرفات من الأسماء التى تتردد، لا أبو مازن ولا غيره. بعض المسئولين عن أجهزة الأمن والمخابرات أو الأمن الوقائى.. ممن ترضى عنه أمريكا وتوافق عليه إسرائيل سيكون الرئيس القادم.



ثم إن المنظمة التزمت بإلغاء ٨ مواد من الميثاق الوطنى تتعلق بجغرافية فلسطين وتاريخها وحق شعبها فى مقاومة الاحتلال، وإذا تراجعت المنظمة عن التزاماتها هذه فإن إسرائيل تتخلى فى المقابل عن اعترافها بحق الشعب الفلسطينى فى الحكم الذاتى.

وبتعبير آخر، لقد حصلت إسرائيل على اعتراف فلسطينى كامل بها، بينما حصل الفلسطينيون على اعتراف منقوص بحقوقهم الوطنية وفى مقدمتها حق تقرير المصير الذى أقره القانون الدولى وكل القرارات الدولية المعنية.

ونسأل: على أى أرض ستقام الدولة الفلسطينية الجديدة يوم ٤ مايو؟

- حسب نصوص الاتفاقات التى وقعتها السلطة الفلسطينية مع إسرائيل فإن أراضى الضفة الغربية تقسم إلى ٣ مناطق:

● منطقة أ: مساحتها ٣٪ فقط من مساحة الضفة الغربية، وتشمل ٦ مدن فلسطينية هى: نابلس وجنين، وطولكرم، وقلقيلية، ورام الله، وبيت لحم، والجزء الأكبر من مدينة الخليل. والأمن فى هذه المنطقة من مسئولية السلطة الفلسطينية.

● منطقة ب: تبلغ مساحتها ٢٧٪ من مساحة الضفة الغربية وتضم ٤٥٠ قرية وبلدة، ويقطنها ٦٨٪ من سكان الضفة الغربية.

وتتولى السلطة الفلسطينية مسئولية النظام العام على أن تحتفظ إسرائيل بالمسئولية الأمنية العليا.

● منطقة ج: تشمل ٧٠٪ من مساحة الضفة الغربية وتضم مستوطنات وقواعد عسكرية إسرائيلية.

هذه المنطقة كلها تخضع للسيطرة الإسرائيلية الكاملة على الأرض وكأنها خارج سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى.

ومنذ أيام التقيت فى القاهرة أحد القيادات الفلسطينية البارزة، وحضر هذا اللقاء عدد قليل من المهتمين بالشأن الفلسطينى، امتد حوارنا معه لأكثر من ساعتين، سألناه عما يجرى واحتمالات المستقبل.

كان جوابه: رغم أن القرار الرسمى لم يصدر حتى الآن إلا أنه بات فى حكم المؤكد ألا يعلن أبوعمار قيام الدولة الفلسطينية يوم الرابع من مايو نتيجة لضغوط هائلة يتعرض لها من جانب الولايات المتحدة، وتهديدات من جانب رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتانياهو ونصائح من جانب الاتحاد الأوروبى ودراسات تنصح بالتأجيل من جانب بعض العواصم العربية. غير أن هذه العواصم لم تنس أن تؤكد أنها مع الحق الفلسطينى فى إعلان الدولة وهو قرار فلسطينى أولا وأخيرا.

القيادى الفلسطينى قال لنا: إن مسئولا فلسطينيا كبيرا زار بكين أخيرا واجتمع بالقيادة الصينية، وعندما طلب منه اعتراف الصين بقيام الدولة الجديدة رد عليه قائلا: أى دولة تريدوننا الاعتراف بها. لقد سبق واعترفنا بالدولة الفلسطينية فى نوفمبر ١٩٨٨. الآن أنتم تريدون إعلان الدولة، فأين هذه الدولة التى تريدون منا الاعتراف بها؟ مامساحتها، وأين حدودها، وما المخاطر التى تحيط بكم؟

المسئول الفلسطينى قال: وقتها لم أجد ردا شافيا على تساؤلات القيادة الصينية.

مثال آخر، والحديث لايزال للقيادى الفلسطينى البارز - أحد قادة أوسلو طرح فكرة الكونفدرالية مع الأردن للخروج من المأزق: أضاف أن الملك عبد الله بن الحسين استقبل أخيرا مبعوثا فلسطينيا كبيرا، تطرق الحديث معه عن الكونفدرالية المقترحة، وقتها قال له الملك عبد الله: أنت تعلم أن الكونفدرالية تتم بين دولتين، فأين هى الدولة الفلسطينية، أنتم الآن لاتشغلون إلا ١٣٪ فقط من الأرض، يا أخى نحن ندعم القرار الفلسطينى، ونحن والعرب مع قيام الدولة، أما الموعد فهو قراركم المستقل. لكن موضوع الكونفدرالية فأرجو أن تنسوه الآن، فلدينا من المشاكل ما يكفى وننصح بألا تصدروا مشاكلكم إلى الأردن.

وسألناه عن صحة أبو عمار، أجاب أنها طيبة، ونحن ندعو له بطول البقاء، فوجود الرجل الآن على رأس السلطة الفلسطينية ضمانة كبيرة لأن المستقبل محفوف بالمخاطر تماما.

سألناه تحديدا: ماذا بعد الرئيس ياسر عرفات؟ أجاب على الفور: الانهيار.

عندما كررنا السؤال: فكرر الإجابة نفسها: الانهيار.. الأوضاع الفلسطينية صعبة للغاية ومتردية.

سألناه: ألا تبالغ فى قتامة الصورة؟

أجاب: بالعكس، الوضع صعب ودقيق ومحفوف بالمخاطر، لا أحد - الآن - يستطيع أن يشغل موقع عرفات. لا أحد من الأسماء التى تتردد. لا أبو مازن ولا غيره من بعض المسئولين عن أجهزة الأمن والمخابرات أو الأمن الوقائى، الأمر كله الآن بيد المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A ومن بعدها الموساد، من ترضى عنه أمريكا وتوافق عليه إسرائيل سيكون الرئيس القادم. لهذا فنحن جميعا مؤيدون لأوسلو ومعارضون لها، ندعو لأبو عمار بطول البقاء، كى ينتشلنا من الأوضاع المتردية، فما تم وما وقعوا عليه مع إسرائيل انتقص تماما من الحقوق الوطنية الفلسطينية. الآن المخابرات المركزية الأمريكية بيدها الكلمة العليا، ولامبالغة.. لهذا ندعو لعرفات بطول البقاء حتى نخرج من المستنقع الراهن.

....

عرفات فى وضع حرج، لقد طاف العالم بطائرته باحثا عن تأييد دولى لإعلان دولة فلسطينية، لقد لقى فى الكثير من عواصم العالم تأييدا متفاوت الدرجات، لكن الكل كان يمنحه التأييد، وكان الكل - ويالالمفارقة - يطلب منه فى الوقت نفسه أن يؤجل إعلان قراره.

لقد أعطوه مواقف مساندة، لكنهم رفضوا أن يمنحوه تأييدا لمطلبه الأساسى، قالوا له إن إعلان الدولة يجب أن يؤجل إلى ما بعد الانتخابات الإسرائيلية القادمة، وأن يتم بالتفاوض مع المسئول الإسرائيلى الجديد، والذين يأملون ألا يكون بنيامين نتانياهو. الدولة الفلسطينية قادمة، هذا حق لا أحد يجادل فيه، ولكن أى دولة وضمن أى إطار؟

إذا كانت دولة فى ظل الاتفاقات المنقوصة الموقعة فلا خير فيها. أما إذا كانت دولة تلبى حاجة الشعب، دولة مؤسسات ترسى الديموقراطية وتدعم الرأى والرأى الآخر وتحمى حقوق الإنسان.. دولة فى كل الضفة الغربية وغزة والقدس عاصمتها فهى الحق وهى الأمل الذى يستحق النضال والمعارك .. أى دولة..؟ لا

دولة محددة المعالم تجمع الفلسطينيين ولا تفرقهم، لاخلاف. دولة ضمن إطار العمل العربى المشترك والمطلوب أكثر كثيرا من مجرد إعلان دولة، ومعرفتى الشخصية وثقتى بياسر عرفات لاتزال تمنحنى الأمل فى أن يتجاوز الرجل المأزق، ويكفى فقط أن نتذكر كل تجاربه السابقة منذ أن شاءت الأقدار أن يفجر حركة المقاومة الفلسطينية فى الأول من يناير ١٩٦٥ ويحولها من حركة مقاومة مسلحة إلى ثورة شعبية كاملة هزت العالم.■

ياســـــر عرفـــــات

العودة إلى اللا مكان..
وحلم الدولة الفلسطينية



تشـــــارلز جـــــلاس

Arafat: From Defender To Dictator

(عرفات: من مدافع إلى ديكتاتور)

Said Aburish

Bloomsbury: 1998, 352pp, £ 20

نشأ والد عرفات، عبد الرءوف القدوة الحسيني، أبناءه على وهم أنه سوف يكسب قضية أملاك أسلافهم في مصر التي استولى عليها. وسعيا وراء الإرث الوهمي، نقل عبدالرءوف، وهو الرجل الهادئ الذي يلبس طربوشا ونظارات كبيرة الحجم وبدلة داكنة اللون، أسرته من موطنها في غزة إلى القاهرة سنة ١٩٢٧. وكانت عائلة أم عبد الرءوف وهي عائلة رضوان، تمتلك أرضا على أطراف القاهرة، وهي التي دخلت في زمنه في زمام المدينة وأصبحت حي العباسية المزدحم بالسكان. وكانت مساحة الأراضي تساوي ملايين الجنيهات ولكي يجري عبد الرءوف وراء الإرث من خلال متاهة نظام المحاكم في القاهرة، باع مزارع العائلة في غزة، وأهمل تجارته وبدد معظم أمواله.

وأدى هذا السعي الذي سيطر عليه إلى شعور أبنائه بالغربة وشعور زوجته زهوة أبوالسعود بالبؤس. وقد توفيت زهوة سنة ١٩٣٣ بعيدا عن موطنها في القدس. وكان محمد عبدالرءوف القدوة الحسيني في الرابعة فقط من عمره. (وكان ذلك قبل خمس وعشرين سنة من اتخاذه اسم ياسر عرفات ليصبح زعيم فتح. وكان اسمه الحركي أبو عمار) وكان محمد وإخوته الستة تحت رحمة خيالات والدهم وسلسلة من زوجات الأب. وعندما تدهورت العلاقات الأسرية، أرسل عبد الرءوف محمدا وابنا آخر هو فتحي إلى إخوة المرحومة زوجته في القدس. وكانت طفولة غير مستقرة يغلب عليها التنقل، تلك التي أمضاها الأطفال بين الأقارب في القدس والقاهرة وغزة. وبالنسبة لمحمد الصغير، كانت تلك الطفولة نذيرا لحياته وهو رجل بالغ، حيث سيكون من النادر أن ينام ليلتين متتاليتين في منزل واحد. وفي آخر المطاف كسب عبدالرءوف قضية الإرث في المحكمة الشرعية التي كانت تنظر المنازعات الخاصة بالميراث. وكان ذلك انتصارا كلفه الكثير. وتدخلت الحكومة المصرية واحتفظت بالأملاك. ونفت والد عرفات إلى غزة، وفي غزة مات مفلسا لايملك أرضا.

وكما فعل أبوه، كرس عرفات حياته لمسعى لا طائل من ورائه لاستعادة اللقب الضائع، فهو يصف نفسه بأنه موسى الفلسطيني، الذي خرج من مصر ليقود قومه إلى أرض الميعاد. وكما كان حال موسى فهو مصري بالثقافة. ومثلما حدث لموسى أصبح الزعيم الوحيد لشعب طرد بالقوة من وطنه. وكشأن موسى، كان جداله مع قومه أكثر مما كان مع أعدائه. إلا أن المقارنة مخيفة في جوانب أخرى. فموسى الذي أخرج قومه من التيه لم يدخل أرض الميعاد قط. أما عرفات فقد دخل فلسطين دخولا قويا، تاركا معظم الفلسطينيين في المنفى الدائم.



كتب الشاعر الفلسطيني محمود درويش قبل عشر سنوات من توصل عرفات إلى اتفاق أوسلو مع إسرائيل يقول: «نحن نسافر مثل بقية البشر، غير أننا نعود إلى لا مكان». وقال كذلك: «نحن نسير من مذبحة إلى مذبحة». وكزعيم لفتح ولقوات العاصفة، كان عرفات الزمار ذا الملابس الملونة الذي يقود ذلك الموكب الماساوي، ومعظم المذابح التي حدثت منذ إعلان عرفات أن «منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد» للشعب الفلسطيني، ارتكبها عرب آخرون. وأسفر تدخله في الشئون الداخلية في كل من الأردن ولبنان عن حروب أهلية كان اللاجئون الفلسطينيون أول ضحاياها. فقد ذبح الملك حسين الفلسطينيين كي يطرد مقاتلي عرفات من الأردن في عامي ١٩٧٠ و١٩٧١. وذبح المسيحيون اللبنانيون أعدادا أكبر فيما بين ١٩٧٥ و ١٩٨٢. وقتلت سوريا الفلسطينيين في شمال لبنان سنة ١٩٨٣، وشنت ميليشيا أمل الشيعية هجوما عليهم في بيروت سنة ١٩٨٦.

وأسفرت أسوأ مذبحة إسرائيلية في الحرب العربية الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ في دير ياسين عن مقتل ٣٥٠ مدنيا فلسطينيا - «ذبحوا بلا رحمة» - كما جاء في وصف مندوب الصليب الأحمر في مسرح الأحداث. وقال زعيم الأرجون مناحيم بيجن في مذكراته بعنوان «الثورة» إنه لولا أعمال القتل التي نظمها في دير ياسين لما وجدت إسرائيل. ودير ياسين مسألة حاسمة في الذاكرة الفلسطينية، وهي عار كان لابد من الثأر له ومازال أثره - وهو هروب مئات الآلاف من المواطنين المذعورين عبر الحدود بحثا عن الأمان - قائما (بعد إحدى وخمسين سنة، تطالب مجموعة من الإسرائيليين والعرب بإرسال الهبات التي تحيي ذكرى الضحايا إلى (Deir Yassin Remembered: 5 Galena Road, London W6 OLT) وكانت عودة هؤلاء المنفيين باسم تقرير المصير هي مهمة عرفات المعلنة. فعندما يكونون آمنين في ديارهم، يحميهم جنودهم داخل حدودهم، ساعتها فقط لن يكونوا معرضين لمذابح أخرى - وهو هدف يشارك فيه بالطبع الصهاينة باسم يهود أوروبا.

وقتل من الفلسطينيين على أيدي الجيش الأردني والميليشيات المسيحية اللبنانية ما يفوق عدد من قتلهم الإسرائيليون في دير ياسين. ففي أغسطس ١٩٧٦، وفي مخيم تل الزعتر للاجئين ببيروت، أزهقت الميليشيات المسيحية أرواح ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف فلسطيني، وقد نفذت مذابحها بعد أن كان عرفات قد أمر فدائييه بإخلاء المخيم. وبلغت مذابح الفلسطينيين في لبنان أوجها بعد ذلك بست سنوات في أعمال القتل التي وقعت في صبرا وشاتيلا، عندما نقلت إسرائيل الميليشيات المسيحية إلى داخل بيوت النساء والأطفال الفلسطينيين العزل الذين لم يكن هناك من يدافع عنهم. ومرة أخرى وقعت المذابح عقب انسحاب عرفات ومقاتليه. وكانوا قد قاتلوا ببسالة في بيروت، حيث تصدوا للإسرائيليين طوال شهور الصيف، ولكن عندما وقعت الهزيمة دعاها عرفات انتصارا.

«انتصار آخر كانتصار بيروت وسوف نعقد الاجتماع المقبل للمجلس الوطني الفلسطيني في فيجي». كان هذا هو ما وصف به الدكتور عصام سرطاوي تظاهر رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بالشجاعة. وسرطاوي، ذلك الفلسطيني الذي أوتي شجاعة عقد لقاءات علنية مع الإسرائيليين بينما كان الرسل الذين بعث بهم عرفات يقومون بذلك سرا، كان طبيبا تلقى تعليمه في أمريكا (وهو صديق لي: فأنا أتذكره وهو يلعب مع أطفالنا في منزلنا بلندن)، وقد اغتيل سنة ١٩٨٣، وكان الجاني الإرهابي الفلسطيني أبو نضال المناوئ لعرفات، وقيل وقتها إن عرفات سحب «الحماية» التي كان يوفرها السرطاوي بعد انتقاده له.

لقد غير «انتصار» بيروت سنة ١٩٨٢ كل شيء: إذ بات حجم الشجاعة الفلسطينية ضئيلا في الحسابات الاستراتيجية، وإن كانت أكثر تأثيرا من شجاعة الجيوش العربية. وأجبر الفدائيون على الخروج إلى شمال أفريقيا، حيث أصبح مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس بعيدا عن الوطن وفي متناول الهجوم الجوي وفرق الاغتيال الإسرائيلية. وكان التساؤل الذي أثاره الانسحاب من بيروت هو: هل سيكون أداء الفلسطينيين أفضل بدون قوة حرب العصابات التي أزعجت إسرائيل، دون أن تمثل تحديا لها قط، أم لا؟ ومن ناحية أخرى، ما هي الخيارات المتاحة لأي زعيم فلسطيني يسعى لرفع ما وقع من ظلم في عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧؟

كان الأمر بالنسبة لفتح أبعد ما يكون عن الوضوح، وكانت المنظمة التي أنشأها عرفات وزميلاه اللاجئان صلاح خلف (أبو اياد) وخليل الوزير (أبوجهاد) في غزة والكويت في الخمسينيات، قد نشرت كتيبا يعيد إلى الأذهان السنوات من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٤ عندما كان لابد للفلسطينيين من الدق على أبواب المجتمع الدولي. وكانت الأمم المتحدة قد أصدرت قرارا سنويا، حظي بتأييد الولايات المتحدة نفسها يدعو إلى عودة ٧٠٠ ألف فلسطيني طردوا سنة ١٩٤٨. وكانت إسرائيل تتجاهل ذلك القرار عاما بعد آخر. وأشار الكتيب إلى أن «التجربة علمتنا أن المغتصبين لا يفهمون لغة المناشدة، والتوسلات، والبيانات. وكان علينا أن نبحث عن لغة يفهمونها - وهي تلك اللغة التي سبق أن استخدموها لتقرير مصير أرضنا. وهكذا، وفي عدم وجود خيارات كثيرة، وجدنا أنفسنا نحمل السلاح من جديد».



وكان عرفات، الذي كان يعد «المتهور» بين الساسة الفلسطينيين، هو من حث على استخدام السلاح، وأدى ذلك إلى رفع الروح المعنوية لدى شعب مهزوم وجعلهم يعتقدون أنهم ليسوا بحاجة إلى مساعدة أحد لتحرير فلسطين. وقد أيد عرفات الكفاح المسلح في مواجهة من أصبح فيما بعد أكثر تشددا منه، وهو جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وأثبت ذلك فاعليته لبعض الوقت. وكان الفلسطينيون يتفاخرون بما أنجزه شبابهم، على تواضعه، ضد الجيش الإسرائيلي الذي يتمتع بتفوق كبير جدا بما لديه من أسلحة القوى الكبرى.

وكان عرفات قد حظي بدعم دولتين عربيتين معاديتين للغرب، هما مصر ناصر وسوريا البعث. إلا أنه كان محقا في حذره من الاثنتين، فقد اعتقله المصريون سنة ١٩٥٤ ضمن حملة لإلقاء القبض على المتعاطفين مع الإخوان المسلمين بعد محاولة الإخوان اغتيال عبد الناصر في الإسكندرية، وقد احتاج الأمر من أصدقائه إلى شهرين للإفراج عنه، وبعد اثنتي عشرة سنة، أي في ١٩٦٦ انتقل إلى سوريا التي حبسته سلطاتها لتخطيه الخطوط المعلومة جيدا بتفجيره خط أنابيب التابلاين الذي كان ينقل النفط السعودي إلى لبنان. وأمضى ٥١ يوما في سجن المزة الشهير بدمشق. وفي النهاية استخدم أصدقاؤه من ذوي النفوذ واسطتهم في التدخل من أجل

الإفراج عنه. وأدت مواجهته القصيرة مع الأمن السورى إلى تعكير صفو العلاقات مع سوريا التى لايزال قادتها يمقتونه. وكان لذلك أثر آخر غير متوقع، ويقول سعيد أبو الريش: «كان

> عرفات الذى يتعلم بسرعة قد أصبح منافسا للمكتب الثانى، وهى الشرطة السرية التى تحافظ على بقاء أهل البلاد فى إطار الخط العام.. فرغم تمتع عرفات بذاكرة غير عادية، إلا أنه كان يحتفظ بملفات شخصية لكل الأشخاص المهمين فى منظمة فتح، وهى ما بات يعرف بالملفات السوداء».

وبعد فترة الحبس التى أمضاها عرفات فى سوريا، اتخذ الأردن قاعدة له. وهناك حققت ثورته إنجازها الأكبر فى مارس ١٩٦٨. ففى قرية الكرامة الأردنية حقق عرفات وفدائيوه الفلسطينيون انتصارا معنويا أشبه بذلك الذى حققه الفيت كونج خلال هجومهم الذى شنوه فى العام نفسه. ويكتب سعيد أبو الريش عن أحلى ساعة فى حياة عرفات قائلا:

> فى ليلة الحادى والعشرين من مارس شن الإسرائيليون هجوما بكل قوتهم، فقد استخدمت فيه القوات شبه العسكرية،والدبابات، وحاملات الجنود المصفحة، ومدافع طائرات الهليكوبتر، والطائرات المقاتلة والقاذفة فى أكبر عمل عسكرى منذ حرب ١٩٦٧. وتوقع الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى أن تنتهى العملية بكاملها خلال ساعات. غير أن المفاجأة كانت فى انتظار الإسرائيليين، فقد تمسك الفلسطينيون المدربون تدريبا ضعيفا بأرضهم تمسكا بطوليا واستغلوا الأراضى الصخرية بفاعلية ضد القوة الإسرائيلية التى يقدر عددها بخمسة عشر ألفا من الإسرائيليين الأقوياء. وظل الفلسطينيون يقاتلون بمفردهم لبضع ساعات، حيث عوضوا نقص الأسلحة الثقيلة بالارتجال الرائع والتضحيات الفردية الضخمة.. وأشارت النتائج الإحصائية للهجوم على الكرامة إلى حدوث انتصار إسرائيلى. فقد قتل منهم ٢٨ فردا وجرح ٧٠، بينما فقدت فتح ما يزيد على المائة رجل، وفقد الأردنيون ٢٠، وجرح كثيرون غيرهم من العرب. إلا أن عرفات ومقاتليه حققوا هدفهم، وتركوا علامة لا تمحى فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث.



هنرى كيسنجر، الذى فعل ما لم يفعله أى سياسى أمريكى آخر لمنع حدوث اتفاق بين إسرائيل والفلسطينيين، كتب فى سيرته الذاتية Years of Upheaval(1982) قائلا: «يصعب الآن تذكر الدور الهامشى نسبيا الذى قامت به منظمة التحرير الفلسطينية حتى ما بعد حرب أكتوبر». وحققت الغارات الفدائية التى شنها عرفات من الأردن ولبنان، التى ساندها البترول العربى بعد أكتوبر ١٩٧٣، أدت إلى انتصاره العظيم الآخر: وهى الكلمة التى ألقاها فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٧٤. فقد أمسك ببندقية المقاتل من أجل الحرية فى يد وبغصن الزيتون فى اليد الأخرى،ودعا الإسرائيليين ألا يدعوا غصن الزيتون يسقط. ولم تكن إسرائيل تصغى لما يقول، حيث كان مندوبها قد خرج بالفعل من قاعة الجمعية العامة، وأذكر تلك الليلة، حيث كان الفلسطينيون فى بيروت يحتفلون بإطلاق نيران أسلحتهم فى الهواء. فلأول مرة خلال منفاهم الطويل اعتقدوا أن العالم سوف يفعل شيئا ما من أجلهم. غير أنهم أخطأوا الظن.

وفى تلك الأثناء تركز الاهتمام أكثر وأكثر على عرفات نفسه. فقد أدلى بأحاديث صحفية، وظهر على شاشات التليفزيون،وحسن من لغته الإنجليزية. وفى سنة ١٩٧٤ سعى للحصول على الاحترام الدولى باستنكاره اختطاف الطائرات وأجرى محادثات سرية مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA للمساعدة فى تعقب أعداء الولايات المتحدة. وفى الوقت نفسه لم تؤثر الخلفية الأسطورية التى اصطنعها عرفات لنفسه فى كيسنجر ولا واضعى السياسة الأمريكيين من بعده ـ وهو ما يعقد عمل كاتب السيرة. ومن بين الأمور الخيالية الأخرى التى أدلى بها عرفات لطابور طويل من الصحفيين على مر السنين أنه ولد فى فلسطين، وكان طالبا ممتازا، وحارب مع الجيش المصرى أثناء غزو السويس سنة ١٩٥٦، وخدم مع رئيس الأركان المصرى، وأصبح مهندسا مليونيرا فى الكويت. وقاد «الانتصارات» الفلسطينية فى الأردن ولبنان، وتفاوض بشأن سلام بين الأكفاء مع إسرائيل.

وبعد أن ذكر فى المئات من الأحاديث الصحفية أنه ولد فى القدس فى ٤ أغسطس سنة ١٩٢٩، أجبرته مجموعتان من كتاب السيرة على التسليم بغير ذلك. فقد ذكر أندرو جاورز فى كتابه «ماوراء الأسطورة: ياسر عرفات والثورة الفلسطينية» (١٩٩٠) أنه وجد أن سجلات جامعة القاهرة تشير إلى محل ميلاد عرفات على أنه القاهرة. وقدم جانيت وجون والاش اللذان كتبا «عرفات : بعينى المشاهد» (١٩٩٠) شهادة ميلاده المصرية. ولم يعر عرفات إذاعة ذلك أى اهتمام. ويتعاطف سعيد أبو الريش الفلسطينى الذى تعد السيرة التى كتبها الأفضل باللغة الإنجليزية، مع ماقاله عرفات:

> كان من الممكن أن يؤدى الإقرار بمولده فى مصر، وبأن والده كان نصف مصرى، إلى التأثير على فرص نجاحه، وخاصة فى تلك الفترات التى كان الفلسطينيون يميلون فيها إلى الفصل بين أنفسهم وبين سائر العرب الذين أحبطتهم جهودهم الخاصة بالتحدث باسمهم. وفى الخمسينيات والستينيات، قبل أن يبزغ نجم عرفات ويصبح هدفا للفحص والتمحيص، كان يؤيد بإصرار قصة مولده فى القدس وأنه تربطه صلة قرابة بعائلة الحسينى التى لها وضعها فى المدينة، وهى العائلة السياسية الرائدة فى فلسطين التى يعود نسبها إلى الرسول محمد ﷺ.

وعائلة القدوة الحسينى موطنها الأصلى غزة، وباعتبار أهل غزة جزءا من الدولة العثمانية، كانت لهم صلات نسب كثيرة مع مصر كما مع سائر ما أصبح فيما بعد منطقة الانتداب البريطانى فى فلسطين. وكان أفراد العائلة من تجار الموالح بغزة، وهناك صلة قرابة بعيدة تربط عرفات بعائلة الحسينى بالقدس، التى قاد ابنها الحاج أمين الحسينى عرب فلسطين ضد البريطانيين والصهاينة فى الثلاثينيات والأربعينيات. وجاءت هذه الصلة من خلال عائلة أمه، وهى عائلة أبو السعود، التى عاشت أجيالا تحت حائط المبكى فى القدس القديمة إلى أن دمرت إسرائيل منازلها سنة ١٩٦٧.

وارتباط عرفات بالطبقة الأرستقراطية فى فلسطين يفسر الكثير بشأن ما حققه من نجاح. فقد وعدهم بأنه لن يسعى إلى قيام ثورة اجتماعية فلسطينية ـ وهو نفس الوعد الذى قطعه على نفسه للعائلة المالكة فى السعودية عندما طلب منهم المال. وكانت نتيجة ذلك أن الأموال السعودية والأرستقراطية ذهبت إليه وليس للماركسيين، مثل حبش ونايف وحواتمة. وكان عرفات يتباهى بأن شركاء والده فى أعماله التجارية كانوا من أكثر العائلات الإقطاعية فى فلسطين شهرة، وحتى وقتنا هذا نجده مواظبا على التودد إلى أعيان القرى الكبرى والمدن.

وكان عرفات فى التاسعة عشرة عندما اندلعت حرب ١٩٤٨، حيث كان يعمل ضابط اتصال للحاج أمين الحسينى، وبعد الهزيمة ذهب إلى القاهرة ودرس الهندسة، وتولى تنظيم الطلبة الفلسطينيين، كما كان قريبا من الإخوان المسلمين. إلا أنه لم ينضم إليهم. ولأنه كان متدينا دوما، وكان يدرك أكثر من معاصريه أهمية الدين للسياسة، فقد أيد الإخوان المسلمين فى قتالهم ضد القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس، وكان التزامه الأكبر تجاه الفلسطينيين، مسلمين ومسيحيين، وقد أسس الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين، وكان التنظيم الفلسطينى الوحيد المعترف به فى مصر، وحث جامعة الدول العربية على تدعيم المصروفات الجامعية للطلبة الفلسطينيين. وكانت الأموال كلها تمر من خلاله. ولم يكن هناك من يدقق دفاتره ـ لقد تولد لديه اهتمام شديد بجمع الأموال وتوزيعها، ما زال مستمرا معه حتى يومنا هذا. وكان يعمل بلا كلل لمساعدة الشباب الفلسطينى للتغلب على مشاكل جوازات السفر والتأشيرات التى يبتلى بها من لادولة لهم. وأثارت حيويته العصبية إعجاب أصدقائه، حتى وإن أزعجتهم. وقد اكتشف زميله عمر الخطيب طابعه المتقلب مبكرا: «كان عرفات يقدم نفسه لنا على أنه مستقل، وكان هناك بعض الشيوعيين فى الاتحاد؛ فكان يقدم نفسه لهم على أنه شيوعى. بينما كان يقدم نفسه للإخوان المسلمين على أنه إخوانى».



وظل عرفات ساحرا، حتى وهو لايقول الحقيقة، ويروى أندرو جاورز وتونى ووكر حكاية لطيفة تعود إلى أيام كان زعيما طلابيا فى القاهرة فى الخمسينيات. فقد قدمت إليه امرأة فلسطينية التماسا نيابة عن ابنتها، التى كانت قد ذهبت للخارج فى بعثة طلابية ولم يسمح لها بالعودة إلى مصر. وأكد لها عرفات أن السلطات أرسلت لها الإذن لتوها. وبعد أن أخذ يفتش فى جيوبه قال لها إنه لابد أنه قد نسى خطابهما فى البيت. وبعد ذلك، اعتذر لزملائه الذين أصابتهم الدهشة قائلا: «ماكان لنا أن نتركها تمشى وهى محبطة، أليس كذلك؟ وقد قام بمناورة مشابهة مع اتفاقات أوسلو، حيث أكد للشعب الفلسطينى أنه قد نص على ضمان حقوقه فى موضع ما. إذ كان لا يريد إحباطهم.

لقد وضعه المصريون والسوريون فى السجن، وحارب الأردنيين واللبنانيين، ومع ذلك كان يعود مرات ومرات، وكانت نقاط قوته القليلة تبدد بعضها البعض، وطردته إسرائيل وسوريا من لبنان، ليصبح بلا قاعدة عسكرية. وتخلى عنه العرب الذين يقدمون له الدعم عندما أبدى تعاطفا مع صدام حسين سنة ١٩٩٠. وقتلت فرق الموت الإسرائيلية زملاءه ممن يتمتعون بسلطة مناقضة لسلطته وشاركوه فى تأسيس فتح. ودفعته العزلة السياسية والضائقة المالية إلى تحاشى العرب والأمريكان ومفاوضيه فى واشنطن عن طريق اتفاق سلام منفصل مع إسرائيل. وأنقذ عرفات نفسه ومنظمة التحرير الفلسطينية، وإن لم يكن قد أنقذ الفلسطينيين.

وتكشف سيرة سعيد أبو الريش النقاب عن القليل من الحقائق الجديدة، غير أنها تتميز على ما سبق من سير فى أمرين. أول هذين الأمرين وأوضحهما هو أنها تجدد القصة، حيث تنتقل مع عرفات من مقره فى تونس إلى مايسمى السلطة الوطنية الفلسطينية فى غزة. أما ثانيهما وأهمهما فهو أن أبو الريش، بصفته منفيا يعيش فى الغرب، يقدم تفسيرا لعرفات أعده للقارئ الغربى. وهو فى الوقت ذاته يعترف بالكثير من نقاط ضعف عرفات، لأنه يشاركه هذه النقاط. فقد نبت الرجلان من نفس الأرض وفى الثقافة ذاتها، وكل منهما يدرك حاجة من لادولة لهم للتحايل على النزعة الرسمية فى أنحاء العالم.وشب كلاهما فى ظل ثقافة تحترم التقاليد، حتى وإن كان الزعماء التقليديون يتسمون بالبطش والجهل، وهما يعرفان أن العيش فى ظل الاحتلال الأجنبى كما هو حال الفلسطينيين الذين لم يهربوا فى ١٩٤٨ و١٩٦٧، يقتضى تقديم الحلول الوسط والتواطؤ والمهانة أكثر مما يقتضى من بطولة. وقد وصف أبو الريش من قبل فى مذكراته العائلية «أطفال بيسان» (١٩٨٨) و «ابك يافلسطين» (١٩٩١) كيف أن جيلا من الفلسطينيين الأصغر منه فقد احترامه له ولمعاصريه هو. وكانت الانتفاضة مبادرة من الشباب الأصغر سنا، وكان تأثيرها على الاحتلال العسكرى الإسرائيلى أبعد مدى من تأثيرات غارات عرفات الفدائية. وكان عرفات وغيره من كبار السن يفقدون حب وتأييد أطفال فلسطين ـ وهى الحقيقة التى اضطرته إلى اتخاذ إجراء فورى، شأنها شأن أية حقيقة أخرى.

كان الفلسطينيون الصغار على وشك منافسة جيل أبو الريش وعرفات، ممن استندوا على زعمائهم الإقطاعيين والدكتاتوريات العربية الفاسدة بعد ١٩٤٨، وبحلول ١٩٩٣، حيث العراق مشلول، ومصر تسيطر عليها واشنطن، ومنظمة التحرير الفلسطينية مفلسة ماديا ومعنويا، كان الصغار يبحثون عن قادتهم. وقبل عرفات بوجود إسرائيل لأن شعبه كان على وشك اعتباره شخصا يمكن التضحية به، غير أنه إذا كان أبو الريش يفهم مأزق رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، فهو لا يلتمس له العذر فى محاولته إخفاء فشله وراء علامة النصر التى يرفع بها إصبعيه.



وبعد خمس وثلاثين سنة من وعد عرفات لشعبه بالتحرير إن هم حملوا السلاح تحت قيادته، مازال عرفات بلا دولة: ويفقد الفلسطينيون فى المناطق التى تحتلها إسرائيل الأرض والماء فى كل يوم لمصلحة المستوطنين الإسرائيليين: والفلسطينيون فى لبنان، الذين استغلهم عرفات طوال عشرين سنة، لاحول لهم ولا قوة وبدون حق المواطنة أو الحقوق القانونية، وعاجزون عن الحصول على فرص عمل فى الاقتصاد اللبنانى الذى يرفض توظيفهم، ومحرومون فى الغالب من التمويل الذى كانت منظمتهم والأمم المتحدة تقدمه لتعليمهم ورعايتهم صحيا: وقوات الشرطة التى يديرها فى غزة وقطع متناثرة من الضفة الغربية تحمى المستوطنين الإسرائيليين ؛ ولاتعترف إسرائيل بالدولة الفلسطينية ولابحق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم: بينما اعترف عرفات رسميا بالدولة الإسرائيلية و«حق» إسرائيل فى «الوجود»، وهو مفهوم لامعنى له فى القانون الدولى، غير أنه مفهوم يستلزم قبول الفلسطينيين لعدالة حلول الإسرائيليين محلهم. لقد فاز عرفات، وأصبح يحتل مكانًا بارزًا مثل غيره من الزعماء العرب الذين تجمعوا لتشييع الملك حسين. ■

نشر هذا المقال في مجلة :

London Review of Books, Vol. 21 No.6

ترجمة : أحمد محمود

الصراع على كعكة

أفرزت الفترة التى تلت نهاية الحرب الباردة تحولات عالمية كبيرة على الصعيدين السياسى والاقتصادى، منها على سبيل المثال وليس الحصر تفكك الاتحاد السوفيتى، وانفصال جمهوريات عديدة مهمة استطاعت أن تحقق استقلالها عن موسكو. أدى هذا التغيير فيما أدى إليه، إلى قيام العديد من الدول، من ضمنها جمهوريات أذربيجان وكازاخستان وتركمنستان المطلة على بحر قزوين، التى فتحت المجال أمام الشركات العالمية للاستثمار فى أراضيها. وقد لجأت هذه الدول الحديثة إلى تبنى هذه السياسة إما لإفلاسها، أو لعدم توافر الإمكانات المادية والعلمية لديها، أو لأن اعتمادها على مساندة الولايات المتحدة وأوروبا فى تكريس سيادتها اليانعة استوجبت عليها اتباع سياسة الباب المفتوح.

وكما هى العادة فى هذا المجال هذه الأيام، تسابقت مراكز الأبحاث ودور النشر فى إصدار العديد من الكتب والدراسات حول هذا الحدث التاريخى المهم الذى لانزال نعيش بداية مراحله، والذى ستكون له حتما انعكاسات مهمة فى المستقبل على المنطقة وجيرانها ومن ضمنها الدول العربية.

يشكل التنافس على نفط بحر قزوين صراعا كلاسيكيا ذا أبعاد إقليمية ودولية طويلة الأمد، فهناك محاولة أمريكية للالتفاف على كل من روسيا وايران فى الوقت نفسه. وهناك محاولة روسية لإعادة بسط نفوذها فى جمهورياتها السابقة. وهناك تركيا وايران اللتان تريدان الاستفادة من الوضع المتغير الحالى لتوسيع تأثيرهما فى الدول المجاورة لهما التى ترتبط معهما بعلاقات تاريخية وحضارية قديمة



ومن الأدبيات المهمة التى صدرت عن هذا الحدث، السلسلة المكونة من عشرة أجزاء الصادرة فى الولايات المتحدة عن جامعة ماريلاند فى كولدج بارك وكلية الدراسات الدولية العليا التابعة لجامعة جونز هوبكنز بعنوان: السياسات الدولية لأوروبا الآسيوية.

هذه الأجزاء العشرة هى عبارة عن مشروع ضخم امتد عدة سنوات قدمت فيه أولا دراسات لندوات متخصصة ومصغرة. ومن ثم تمت مراجعة الأوراق لمحاولة توحيد مناهجها ومستوياتها كلما كان ذلك ممكنا. وأخيرا تم ترتيبها فى الأجزاء المختلفة حسب عناوين عديدة ذات علاقة مثل السياسة والأمن والاقتصاد والدين والثقافة.. إلخ. وأشرف على المشروع الأستاذان الجامعيان كارين دويشه وبروس باروت. وأصدرت الموسوعة دار نشر شارب فى نيويورك. ومن نافلة القول أن هذا المرجع أساسى لأى باحث يود التمحص والتدقيق فى هذه البقعة المضطربة من العالم. هذا رغم اختلاف مستويات المقالات من كاتب إلى آخر، وهذا شىء طبيعى فى مشروع واسع من هذا النوع.

لقد انفصلت العديد من الجمهوريات عن الاتحاد السوفيتى فى نهاية العقد الماضى. منها مناطق فى غرب البلاد وأخرى فى جنوبها، إلا أن الاهتمام الدولى، السياسى منه والاقتصادى قد انصب على جمهوريات القوقاز المحاذية لبحر قزوين، ويعود السبب فى ذلك إلى توافر احتياطيات ضخمة ومهمة من النفط والغاز فى البحر نفسه وفى مناطق اليابسة المحيطة به، إلى جانب طغيان المشاكل العرقية والاثنية التى وصمت تاريخ المنطقة والتى لا يبدو أن هناك نهاية لها، بالإضافة إلى تأجج الصراعات الإقليمية والدولية حول تحقيق مناطق نفوذ جديدة فى هذه البقعة الإستراتيجية من العالم.

رافق هذه الصراعات تسابق شركات النفط الدولية لمحاولة الحصول على موطئ قدم وحقوق امتياز للاستكشاف والتنقيب عن النفط فى منطقة بحر قزوين. إن تنافس الشركات هذا ليس بالشىء الجديد أو الغريب، فهو من ناحية من صلب عملها للعثور على احتياطيات نفطية جديدة والحصول على الحقوق لاستكشاف النفط وإنتاجه ونقله، ومن ناحية أخرى تميز عقد التسعينيات بانفتاح مناطق جديدة عديدة فى العالم كانت مغلقة سابقا أمام شركات النفط الدولية مثل الصين وفيتنام وروسيا. وما منطقة بحر قزوين إلا إحدى هذه المناطق الحديثة التى فتحت أبوابها أمام الشركات الدولية لكى تستثمر أموالها فيها. إلا أن ما يجعل التنافس على نفط بحر قزوين مختلفا عن بقية المناطق، هو تواجد النفط فى دول مختلفة ذات مشاكل سياسية صعبة وذات علاقات إقليمية عويصة تحت ظلال صراع دولى من نوع جديد. لهذه الأسباب جميعها أصبح الكلام عن تطوير نفط بحر قزوين ذا أبعاد جيواستراتيجية تختلف عن الاستكشافات فى مناطق أخرى من العالم.

النفط والغاز فى منطقة بحر قزوين

تبلغ الاحتياطيات الحالية المعروفة لدول القوقاز المطلة على بحر قزوين (أذربيجان وكازاخستان وتركمنستان) حوالى ١٦ مليار برميل من النفط الخام، أى حوالى ١,٦٪ فقط من مجموع الاحتياطيات العالمية، بينما تزيد احتياطيات منطقة الخليج العربى عن ٦٦٠ مليار برميل، أى حوالى ٦٥٪ من إجمالى الاحتياطيات العالمية. هذا التباين فى الاحتياطيات يعكس نفسه أيضا على كميات النفط المصدرة حاليا من المنطقتين، إذ تصدر دول بحر قزوين حوالى ٣٠٠,٠٠٠ برميل يوميا، أى حوالى ١,١٪ فقط من إمدادات العالم من النفط، بينما تصدر منطقة الخليج العربى أكثر من ١٧ مليون برميل يوميا، أى حوالى ربع الإنتاج العالمى.

رغم هذا الفرق الهائل فى الاحتياطيات وكمية الصادرات الحالية، إلا أن العمل قائم على قدم وساق لاستكشاف وتطوير وإنتاج كميات أكبر بكثير من بحر قزوين ومناطق اليابسة المحيطة به. وقد ذكرت دراسة لوزارة الخارجية الأمريكية صدرت فى عام ١٩٩٧ أن الاحتياطيات المؤكدة والمحتملة من النفط الخام فى جمهوريات كازاخستان وأذربيجان وتركمنستان تقدر بحوالى ١٧٨ مليار برميل. وتشير الدراسات المتوفرة إلى أن إنتاج المنطقة سيرتفع من حوالى ٨٣٥,٠٠٠ برميل يوميا فى عام ١٩٩٧ ليصل تدريجيا إلى حوالى ٣,٦ مليون برميل يوميا فى عام ٢٠١٠، وسيتم تطوير جميع هذا الإنتاج الجديد من قبل شركات ومجموعات أجنبية.

ينصب جل اهتمام الشركات الأجنبية الآن على تطوير نفط جمهورية أذربيجان، إذ توجد هناك حاليا خمس مجموعات نفطية عاملة تنتمى إلى مختلف الجنسيات وهى:

الأولى والأهم: مجموعة أذربيجان الدولية للتشغيل التى تشارك فيها اثنتا عشرة شركة تنتمى إلى ثمانى جنسيات، معظمها أمريكية، ومعها شركة لوك أويل الروسية الضخمة وكذلك الشركتان السعوديتان الخاصتان دلتا ونمر (حصتهما ١,٧٪). وكانت مع هذه المجموعة شركة إيرانية إلا أنها اضطرت إلى الانسحاب نتيجة للضغوط الأمريكية. وتبلغ استثمارات هذه المجموعة حوالى ٨ مليارات دولار فى ثلاثة حقول بحرية (ازيرى وشيراك وغونيشلى) تبلغ احتياطياتها حوالى ٣ ـ ٥ مليارات برميل. هذا ومن المقرر تصدير الشحنة الأولى من نفط هذه المجموعة فى النصف الأول من عام ١٩٩٩ من ميناء نوفوروسيسك الروسى المطل على البحر الأسود. ويبلغ مقدار الإنتاج الأولى بحدود ٣٠,٠٠٠ برميل يوميا سيتصاعد تدريجيا ليصل إلى حوالى ضعف هذه الكمية فى نهاية هذا العام.

الثانية: شركة بترول قزوين الدولية، تنتمى إليها خمس شركات أهمها أجيب الإيطالية ولوك أويل الروسية، بالإضافة إلى شركة بنزويل الأمريكية.

الثالثة: مجموعة شمال ابشرون، وتملك الشركتان الأمريكيتان اموكو ويونيكال حصة الأسد فى هذه المجموعة، ومعهما شركة يابانية وكذلك شركة دلتا السعودية (٤,٥٪).

الرابعة: مجموعة شاه دينيز، وهى فى معظمها تحالف لشركات أوروبية (بريتش بتروليوم وستاتويل النرويجية وألف اكيتان الفرنسية)، بالإضافة إلى لوك أويل الروسية وشركة تركية، كما ساهمت فى هذا الكونسورتيوم شركة إيرانية مما اضطر الشركات الأمريكية إلى الامتناع عن الانضمام إلى هذه المجموعة.

الخامسة: المجموعة الأوروبية ـ الإيرانية، وهو تحالف ما بين الشركتين الفرنسيتين ألف اكيتان وتوتال (يملكان ٥٠٪ من الحصص)، بالإضافة إلى الشركة الألمانية ديمتكس والبلچيكية بتروفينا وشركة إيرانية.

هذا، وتشارك شركة سوكار الأذربيجانية الرسمية بحصص تتراوح ما بين ٧,٥٪ إلى ٢٠٪ فى كل من هذه المجموعات التى تعمل جميعهاحسب اتفاقيات تقاسم الإنتاج، أى أن الشركات الأجنبية تتحمل جميع تكاليف الاستكشاف، وفى حال العثور على النفط تتقاسم الأرباح مع حكومة أذربيجان.

أما فى كازاخستان، فإن أهم اتفاقية تم التوقيع عليها كانت مع شركة شيفرون الأمريكية فى عام ١٩٩٢ لتطوير حقل تنغيز، والذى تبلغ تكاليف تطوير واستخراج ونقل نفطه حوالى ٢٠ مليار دولار. وقد شاركت حكومة سلطنة عمان فى هذا المشروع. وفى أيلول ـ سبتمبر الماضى وقعت حكومة كازاخستان اتفاقية مع شركة البترول الوطنية الصينية لتطوير حقل كارماى ثانى أكبر حقل نفط فى البلاد، بكلفة تقدر بحوالى ٤,٤ مليار دولار، تتضمن بناء خط أنابيب طويل المدى يبلغ طوله ٣,٠٠٠ كيلو متر وبطاقة ٥٠٠,٠٠٠ برميل يوميا ويمتد من وسط آسيا إلى الأسواق الصينية فى المحافظات الشمالية الغربية من البلاد، بالإضافة إلى بناء خط أنابيب آخر إلى إيران.

كما وقع رئيس كازاخستان نور سلطان نازاربايف اتفاقيتين جديدتين فى تشرين الثانى ـ نوفمبر ١٩٩٧ أثناء زيارته لواشنطن. تبلغ قيمة الاتفاقية الأولى ٧ مليارات دولار وهى مع كونسورتيوم مكون من شركة بريتش غاز وأجيب الإيطالية وتكساكو الأمريكية ولوكويل الروسية وهدفها تطوير حقل كاراجاكاناك الذى تبلغ احتياطياته الأولية حوالى ٥٠٠ مليار متر مكعب من الغاز و ٣٠٠ مليون طن من المكثفات، والذى تقدر كمية الإنتاج منه بعد تطويره فى عام ٢٠٠١ بحدود ٥ مليارات متر مكعب سنويا من الغاز، ١٧٥,٠٠٠ برميل يوميا من المكثفات. أما الاتفاق الثانى فهو مع كونسورتيوم غربى مكون من

The International Politics of Eurasia

(السياسات الدولية لأوروبا الآسيوية)

Karen Darwisha and Bruce Parrott (editors)

New York: M.E. Sharpe, 1996, 10 Volumes.

النفط.. فى بحر قزوين

وليد خدورى

شركات اجيب وتوتال وبريتش غاز وموبيل وشل وبريتش بتروليوم وستاتويل. هدف هذا الاتفاق هو تطوير منطقة نفطية واعدة شمال بحر قزوين تبلغ مساحتها حوالى ٦،٠٠٠ كيلو متر مربع، وتقدر الاحتياطيات النفطية فيها بحدود ١٥ إلى ٤٠ مليار برميل. هذا وقد صرفت الشركات هناك حتى الآن ما لا يقل عن ٣٠٠ مليون دولار من أجل العثور على النفط هناك.

أما فى تركمنستان التى تحتوى على احتياطيات كبيرة من الغاز الطبيعى، فقد تم توقيع اتفاقية لتصدير الغاز إلى تركيا عبر إيران.



هناك ثلاث مشاكل أساسية تواجه إنتاج وتصدير ونقل نفط وغاز منطقة بحر قزوين.

* المشكلة الأولى: هى عدم التوصل إلى تسوية نهائية للنزاع السياسى والقانونى المتعلق بحقوق السيادة على ما تحت مياه بحر قزوين. فإيران تصر أن قزوين بحر مغلق، مما يمنح الدول المحاذية له حقوقا حصرية فى استغلال موارده الطبيعية. كما تدعى طهران أنه لا يجب الاكتفاء بتقسيم النفط بين الدول المطلة عليه، بل يتوجب إقامة نظام يتم من خلاله استكشاف النفط والموارد المعدنية بشكل مشترك وبواسطة اتحاد يضم الدول المطلة عليه. وقد دعمت روسيا الموقف الإيرانى حتى فترة قريبة، ولكن نجحت مؤخرا المحاولات لتغيير موقف موسكو وتعديل موقفها، ومن ثم عزل طهران فى هذا المجال وحصر حقوقها فى حوالى ١٠٪ من ساحل بحر قزوين وفى مسافة لا تتعدى ١١٠٠ كيلومتر. وبالفعل نجد فى الأشهر الأخيرة تغييرا فى موقف موسكو القانونى لتطوير الموارد الطبيعية لبحر قزوين. وقد تم بالفعل فى النصف الأول من شهر تموز/يوليو ١٩٩٨ الاتفاق ما بين روسيا وكازاخستان على تقسيم القاطع الشمالى لبحر قزوين، حيث اعتبرت كل دولة أن الموارد التى تقع تحت سطح البحر فى منطقتها ملك لها. إلا أن الاتفاق ينص أيضا على أن المياه فى المنطقة برمتها وعبر القاطعين هى مياه مشتركة. هذا بينما أرجئ إلى إشعار آخر موضوع التعامل مع الأنابيب المارة فى القاطعين الروسى والكازاخستانى.



* المشكلة الثانية: هى افتقار المنطقة إلى منافذ تصدير دولية. هذا يعنى أن الدول المنتجة ستتحمل تكاليف إضافية نتيجة رسوم النقل والعبور والترانزيت الواجب دفعها إلى دول الجوار والتى تقدر بحوالى ٤ـ٦ دولارات للبرميل الواحد. لقد بدأت مشاكل الترانزيت هذه منذ فترة مبكرة وحتى قبل أن يبدأ التصدير، إذ نجد أن تركمنستان وروسيا قد اختلفتا فى بداية عام ١٩٩٨ على رسوم الترانزيت لنقل الغاز الطبيعى التركمنستانى عبر الأراضى الروسية لتصديره إلى الأسواق الأوروبية. فقد اقترحت شركة غازبروم الروسية العملاقة شراء الألف متر مكعب من الغاز التركمانى على الحدود الروسية بحوالى ٣٢ دولارا لغرض بيعه بعد ذلك إلى دول رابطة الكومنولث المستقلة، فيما تطالب تركمنستان بحوالى ٤٢ دولارا. ولم يتم التوصل حتى الآن إلى تفاهم مشترك حول هذا الأمر ما بين هاتين الدولتين. وبناء على تجارب دول منتجة أخرى ذات مشاكل إقليمية مع جيرانها، يجب عدم الاستهانة بالمشاكل المحتملة التى من الممكن أن تبرز بين ليلة وضحاها ولسبب أو لآخر والتى يمكن أن تؤدى إلى توقف تدفق النفط أو الغاز مستقبلا.

لكن ما هو أعقد من ذلك هو الصراع القوى للاستحواذ والهيمنة على أكبر عدد ممكن من مسارات الأنابيب لنقل النفط والغاز من منطقة القوقاز المغلقة إلى البحار العالمية المفتوحة. وهناك أربعة مسارات متوافرة لهذه الخطوط وهى عبر إيران وجورجيا وروسيا وتركيا. ومن نافلة القول أن الولايات المتحدة تلعب دورا علنيا وبارزا فى تحديد وجهة هذه الأنابيب والدول التى يجب أن تمر بها. ناهيك عن محاولة إعطاء الأولوية للشركات الأمريكية للاستحواذ على هندسة وإنشاء وتعمير هذه المشاريع الضخمة.

يتميز موقف واشنطن الرسمى حتى الآن برفضها مرور أى خط أنابيب جديد فى كل من روسيا أو إيران. لكن يتضح أنه بدأ يتحلحل الموقف الأمريكى من خلال السماح أو غض النظر عن إنشاء بعض الأنابيب عبر إيران، وهذا مما أغضب روسيا. لقد تجلى هذا الموقف الجديد من خلال السياسة الأمريكية الغامضة التى تراوحت ما بين الموافقة غير الرسمية وغض النظر عن اتفاقية خط غاز تركمنستان عبر إيران، ومن ثم مقايضة الغاز الإيرانى مع التركمنستانى وإيصال الغاز الإيرانى إلى تركيا. وهذا الخط حيوى جدا لتركمنستان التى تبحث عن طرق بديلة لتصدير الغاز غربا، إذ إن المنفذ الآخر الوحيد للتصدير إلى الغرب هو عن طريق روسيا. وهذا ما رفضته أمريكا حتى الآن. لقد تم بالفعل تشييد وتدشين هذا الخط ما بين تركمنستان وإيران فى نهاية عام ١٩٩٧ الذى تبلغ طاقته الأولية ٢ مليار متر مكعب سنويا تزداد تدريجيا إلى ٨،٥ مليار متر مكعب فى فترات لاحقة. أما الجزء المتعلق بإيران وتركيا فلم يتم تشييده حتى الآن وهناك تأخير واضح فى بناء الجانب التركى من المشروع.

كما أن موقف واشنطن لايزال غامضا بالنسبة لاتفاق شركة شل مع تركمنستان لدراسة إمكانية إقامة خط غاز ضخم وكبير يمتد عبر إيران إلى تركيا أولا، ومن ثم يتجه لاحقا إلى أوروبا. لقد بدأت شركة شل بالدراسات، ولكن واشنطن لم تقل كلمتها النهائية والفاصلة حتى الآن فيما إذا كانت ستوافق على مسيرة هذا الخط الذى تبلغ طاقته التصميمية ٣٠ مليار متر مكعب سنويا. من المفروض أن تنتهى شركة شل من دراستها فى النصف الأول من عام ١٩٩٩ تعلن بعدها فى الغالب أنه من الأجدى عبور الخط المقترح عبر الأراضى الإيرانية، بعدها يتوجب أن تقرر الولايات المتحدة فيما إذا كانت ستسمح للشركات الإنشائية والبنوك الأمريكية بالمساهمة فى هذا المشروع العملاق. لربما تلطيف الجو التدريجى ما بين واشنطن وحكومة الرئيس خاتمى سيسمح فى نهاية

الأمر بموافقة واشنطن على مرور الخط عبر إيران، وإلا سيكون البديل عبر روسيا وهذا ما لا تريده الولايات المتحدة ولا تركمنستان. أما الخيار الآخر المتوافر الذى تؤيده واشنطن ولكن تعارضه كل من طهران وموسكو لأسباب استراتيجية وبيئية، فهو بناء خط مباشر تحت مياه بحر قزوين من تركمنستان إلى أذربيجان. ويتضح أن واشنطن أخذت تدعم هذا المسار بكل ثقلها وتمول الشركات الأمريكية لتحضير الدراسات المتعلقة بهذا الخط، وهذا ما تم فعلا فى الأشهر الأخيرة.

أما تركيا، فإن موقفها واضح وهو أن مضيقى البوسفور والدردنيل لا يستوعبان العدد الجديد والضخم من الناقلات المحملة بالنفط والمزمع أن تعبر من البحر الأسود إلى البحر الأبيض والمياه الدولية، ومن ثم يتوجب بناء خط أنابيب عبر أراضيها إلى ميناء جيهان المطل على البحر الأبيض والذى يستعمل الآن لتصدير النفط العراقى. إلا أن مشكلة تركيا هى أن أى خط أنابيب مباشر بينها وبين أذربيجان يجب أن يمر فى ناجورنى كاراباخ المتنازع عليها بين أرمينيا وأذربيجان. كما أن أى خط مباشر من كازاخستان إلى أذربيجان يجب أن يمر عبر بحر قزوين نفسه، وهذا ما يضر بالبيئة ويزعج إيران وروسيا.

وفيما يتعلق بالخطوط عبر روسيا أو جورجيا، فتمر جميعها فى مناطق موبوءة بالمشاكل الاثنية والعرقية (الشيشان فى حالة روسيا وأبخازيا فى حالة جورجيا) مما يشكل خطرا حقيقيا على سلامة الإمدادات وأمن الأنابيب نفسها. هذا وكان من المفروض أن تقرر مجموعة أذربيجان الدولية للتشغيل فى تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٨ مسار الخط الرئيسى الذى سينقل النفط من خلاله. إن البدائل الثلاثة المطروحة أمام الشركة هى ميناء سوبسا الجورجى وميناء نوفوروسيسك الروسى وميناء جيهان التركى، وكل من هذه المنافذ له مشكلته كما أوضحنا ذلك سابقا، إلا أنه تم تأجيل هذا القرار حتى إشعار آخر نظرا لأسباب عديدة، منها عدم قناعة الشركات بوجود كميات كافية من النفط الخام التى تقتضى بناء خط ضخم مكلف.

هذا، وقد فشلت آخر محاولة تركية لاستقطاب التأييد الإقليمى اللازم لبناء خط أنابيب مباشر من باكو، عاصمة أذربيجان إلى ميناء جيهان. ففى اجتماع عقد فى استانبول فى ١ - ٢ آذار/ مارس ١٩٩٨ لوزراء خارجية تركيا وأذربيجان وجورجيا وكازاخستان وتركمنستان، لم تتمكن أنقرة من الحصول على بيان مشترك مؤيدا لهذا الخط المقترح، وذلك رغم الدراسة التى قامت بها شركة ألمانية مولها البنك الدولى لهذا الغرض. لقد أوضحت الدراسات أن كلفة الخط المقترح تقدر بحوالى ٢,٥٠ مليار دولار وتبلغ طاقته ١ - ١,٥٠ مليون برميل يوميا ويمتد طوله حوالى ١,٧٠٠ كيلومتر. لقد أيدت كل من أذربيجان وجورجيا هذا الخط، بينما تحفظت عليه كازاخستان. لأن الشركات العاملة لديها فى صدد بناء خط موازى عبر روسيا، واعتذرت تركمنستان لأنها تعمل لبناء خط غاز عبر إيران. ومن الجدير بالذكر أنه لم توجه دعوة لروسيا لحضور هذا المؤتمر، رغم دورها الرئيسى فى المشاريع الإقليمية المختلفة لتصدير النفط والغاز من بلاد القوقاز إلى العالم الغربى.

إلا أنه رغم المصالح الاستراتيجية والاقتصادية المتضاربة لكل من روسيا وتركيا فى بلاد القوقاز، نجد أن هناك تعاونا مهما قائما بينهما، وبالذات فى مشاريع الغاز. فتركيا تستورد حاليا حوالى ٦ مليارات متر مكعب سنويا من الغاز من روسيا عبر خط أنابيب يمتد عبر أوكرانيا ومولدوفا ورومانيا وبلغاريا. وستزداد الإمدادات الغازية لتركيا عبر هذا الخط إلى ١٤ مليار متر مكعب سنويا فى خلال

إن إسرائيل تحاول من خلال شركاتها المحلية، أو بواسطة جهات دولية متعددة، بناء خط فرعى من تركيا عبر البحر الأبيض المتوسط ليصل إلى أراضيها الشمالية، وهى تتفاوض مع كل من روسيا وتركمنستان لإيصال الإمدادات الغازية من إحدى هاتين الدولتين إلى أسواقها

يبقى هناك العامل المشترك ما بين النفط العربى ونفط بحر قزوين، فدول المنطقتين ومع الأسف تعتمد على النفط باعتباره المصدر المالى الأساسى للبلاد، هذا على عكس دول منتجة أخرى مثل النرويج أو إندونيسيا التى استطاعت أن تنوع من اقتصادها وتقلل من دور النفط فى الاقتصاد الوطنى

فى جورجيا التى تأمل أن تستفيد من موقعها الجغرافى لتحصل على عائد مهم من رسوم الترانزيت، كاد الرئيس إدوار شفاردنادزة أن يفقد حياته أكثر من مرة نتيجة مؤامرات مافيات النفط الروسية

عشر سنوات. كما تم التوقيع على مذكرة تفاهم فى شهر كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٧ ما بين البلدين لبناء خط أنابيب جديد عبر البحر الأسود لكى تزود روسيا تركيا بكميات إضافية من الغاز الطبيعى ابتداء من عام ٢٠٠٠ وستكون طاقة هذا الخط الأولية حوالى ٣ مليارات متر مكعب ترتفع تدريجيا لتصل عام ٢٠١٠ إلى ١٦ مليار متر مكعب. وبهذا سيبلغ مجموع الإمدادات الغازية الروسية فى نهاية العقد القادم فى حال تنفيذ المشاريع المقترحة والمتفاهم عليها حوالى ٣٠ مليار متر مكعب أو حوالى نصف احتياجات تركيا من الغاز فى تلك الفترة.

ومن الجدير بالذكر أن إسرائيل تحاول من خلال شركاتها المحلية، أو بواسطة جهات دولية متعددة، بناء خط فرعى من تركيا عبر البحر الأبيض المتوسط ليصل إلى أراضيها الشمالية، وهى تتفاوض مع كل من روسيا وتركمنستان لإيصال الإمدادات الغازية من إحدى هاتين الدولتين إلى أسواقها. ورغم التكلفة الباهظة لهذا الغاز، نظرا لبعد الجغرافى عن إسرائيل ولامتداده عبر عدة دول وبحار، إلا أن هدف إسرائيل كما أعلن عن ذلك وزير البنية التحتية آريل شارون هو عدم الاعتماد على مصادر للغاز من دول عربية فقط، وهذه هى الحال فيما إذا استلمت الغاز من مصر. ورغم أنه قد تم تجميد هذا المشروع لفترة طويلة نتيجة للخلافات السياسية مع إسرائيل منذ استلام حزب الليكود السلطة فى منتصف عام ١٩٩٦، ونتيجة أيضا لارتباك الجهات الإسرائيلية المسئولة عن صناعة الغاز هناك وعدم معرفتها أو إلمامها فى كيفية التعامل مع هذا القطاع الطاقوى الجديد، ناهيك عن الخلافات حول السعر وكمية الإمدادات المطلوبة، إلا أن الشركات النفطية الأجنبية العاملة فى دول الشرق الأوسط لاتزال تحاول أو تأمل فى تنفيذ هذا المشروع فى المستقبل المنظور، هذا فى حال حصول تغير أساسى فى عملية سلام الشرق الأوسط.

* اما المشكلة الثالثة: فهى السلسلة الطويلة من المصاعب السياسية الناشبة عن الخلافات الإقليمية المستفحلة، ناهيك عن الصراع الدولى لبسط النفوذ فى منطقة القوقاز.

صراع المصالح والنفوذ

يشكل التنافس على نفط بحر قزوين صراعا كلاسيكيا ذا أبعاد إقليمية ودولية طويلة الأمد، فهناك محاولة أمريكية للالتفاف على كل من روسيا وإيران فى الوقت نفسه. وهناك محاولة روسية لإعادة بسط نفوذها فى جمهورياتها السابقة، وبالذات بعد أن أخذت تواجه ضغوطا متزايدة من حلف شمال الأطلسى على حدودها الغربية. وهناك تركيا وإيران اللتان تريدان الاستفادة من الوضع المتغير الحالى لتوسيع تأثيرهما فى الدول المجاورة لهما التى ترتبط معهما بعلاقات تاريخية وحضارية قديمة. إلى جانب كل هذا وذاك تحاول شركات النفط التنافس فيما بينها للحصول على أكبر نصيب ممكن من الامتيازات البترولية فى هذه المنطقة الواعدة. كما تحاول هذه الشركات منفردة ومجتمعة أن تؤمن سلامة خطوط الأنابيب التى تنوى إنشاءها فى هذه المنطقة المغلقة على البحار المفتوحة، وذلك فى ظل صراعات اثنية وقومية متعددة وشرسة.

تعمل واشنطن لتحقيق أهداف متعددة فى منطقة القوقاز، فقد راهنت فى بداية الأمر على تصدير النموذج التركى لاحتواء نفوذ إيران فى المنطقة، إلا أنها اكتشفت عجز تركيا عن لعب دور أساسى فى حل المشكلات المزمنة المترسبة فى هذه الجمهوريات. كما اكتشفت أمريكا أن النفوذ الروسى لم يتبدد مع انهيار الاتحاد السوفيتى، وأن موسكو تعمل بطرق مختلفة لاستعادة موقعها فى جمهورياتها السابقة وإن تعددت الأشكال. أخيرا وجدت أمريكا فى هذه المنطقة مصدرا مهما للنفط والغاز يساهم فى دعم هدفها المزمن للتقليل من أهمية نفط الخليج العربى ومدى الاعتماد عليه. باختصار، لقد حاولت واشنطن فى ظل أوضاع مشحونة بالمشكلات ومليئة بالمتغيرات، أن تحقق عدة أهداف فى الوقت نفسه: دعم سيادة واستقلال دول القوقاز، وتطوير مصدر نفطى جديد، وتشجيع الشركات النفطية الأمريكية، والتقليل من النفوذين الروسى والإيرانى.

توضح الموقف الأمريكى من نفط قزوين بشكل دقيق فى أواخر كانون الأول / ديسمبر من عام ١٩٩٧ بعد زيارة رئيس الوزراء التركى السابق مسعود يلماظ إلى واشنطن إثر رفض الاتحاد الأوروبى البحث فى طلب تركيا الانضمام إلى عضوية الاتحاد. لقد تم على أثر هذه الزيارة تأسيس «تحالف إستراتيجى للطاقة» ما بين واشنطن وأنقرة فى ٢٣/١٢/١٩٩٧. ويكمن الهدف الرئيسى من هذا الإعلان تشجيع الشركات الدولية والتركية على بناء خط أنابيب قزوين الرئيسى ما بين العاصمة الأذربيجانية باكو والميناء التركى جيهان. والتزمت تركيا على أثر هذا البيان المشترك العمل بجدية وبسرعة لإعداد الدراسات المطلوبة للتقدم باقتراح متكامل فى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨ حول إنشاء هذا الخط الإستراتيجى ومساره وكلفته المالية. إلا أن جميع المحاولات الأمريكية والتركية لإنجاح هذا المشروع قد فشلت حتى الآن لرفض الشركات النفطية، وبالذات شركة بريتش بتروليوم أموكو الالتزام بالتنفيذ نظرا لكلفة المشروع ولعدم العثور على كميات كبيرة من النفط تبرر الالتزام بهذه النفقات، وبالذات فى وقت يتوقع فيه أن تبقى أسعار النفط على مستويات منخفضة.

أما بالنسبة لتركيا، فمشكلتها الأساسية فى منطقة القوقاز هى فى كيفية لعب دور أساسى دون الدخول فى صراع مفتوح مع جارتها الكبرى روسيا. لقد حاولت أنقرة إقامة علاقات جيدة مع أذربيجان وأرمينيا وجورجيا، إلا أن المتغيرات الأساسية فى تلك الدول نفسها وتشابك المصالح واحتلال ناجورنى كاراباخ من قبل أرمينيا قد عقدت الموقف التركى وأضعفته. بالإضافة إلى ذلك، فإن علاقة تركيا الاقتصادية هى مع روسيا وليس مع جمهوريات القوقاز. ففى عام ١٩٩٥ بلغت قيمة التبادل التجارى بين تركيا وروسيا حوالى ٣,٥ مليار دولار أو حوالى ٦٠٪ من إجمالى التجارة الخارجية الروسية. وأخيرا، فإن تركيا تبذل محاولات مضنية، بمساندة الولايات المتحدة، من أجل مرور خط الأنابيب الأساسى عبر أراضيها وهى فى هذا تنافس جورجيا، ناهيك عن روسيا. كما تدخل فى مشاكل متعددة مع أرمينيا التى من الضرورى أن يمر الأنبوب فى أراضيها. هذا إذ تصر أمريكا على تفادى مرور الأنبوب فى إيران.

لقد استطاعت إيران التركيز على علاقاتها التجارية، وليس الأيديولوجية مع دول المنطقة بحيث أصبحت الشريك التجارى الرئيسى لكل من أذربيجان وأرمينيا، كما نجحت فى الاتفاق مع تركمنستان لتزويد المناطق الشمالية الإيرانية بالغاز الطبيعى من خلال خط أنابيب يرتبط بشبكة الخطوط الإيرانية ويمتد مستقبلا إلى تركيا. ورغم نجاح طهران فى هذه المحاولات، إلا أنها واجهت محاولات أمريكية متشددة للحد من علاقاتها ونفوذها مع عواصم الجمهوريات الجديدة، وما إبعاد الشركات الإيرانية عن المشاركة والعمل للمجموعات البترولية الأجنبية المهمة فى أذربيجان الأخير

دليل على ذلك، ورغم التنبؤات العديدة حول بوادر الانفراج ما بين واشنطن ونظام الرئيس خاتمي، لا يتوقع أن تثمر هذه السياسة عن شيئا ملموسا في المستقبل المنظور.



تحاول الشركات النفطية الأجنبية التكيف مع هذا الجو المحموم بالصراعات والمتغيرات. فأذربيجان كانت في مهب الريح إلى أن استلم الرئيس حيدر علييف السلطة، إلا أن مشكلته الأساسية تكمن في إطلاق الوعود الخلابة بالازدهار المقبل في ظل مجتمع مدقع بالفقر والفساد، ومشكلة علييف الذي شارف عمره منتصف السبعينيات والذي يعاني من أمراض عديدة، أن الثروة النفطية الموعودة لن يعود نفعها لبلاده إلا بعد ٥ إلى ١٠ سنوات في أحسن الأحوال.

وتكمن مشكلة أرمينيا في قضية ناجورني كاراباخ، إذ إنها هي العامل الأساسي وراء الحركات القومية الأرمنية التي استطاعت إزاحة الرئيس ليفون بتروسيان عن الحكم وإدخال البلاد منذ ذلك الحين في نفق مظلم غير معروفة نهايته، هذا رغم الدعم الهائل الذي تحصل عليه هذه الجمهورية من أنصارها في الولايات المتحدة، والكونجرس بالذات. وأهمية أرمينيا وناجورني كاراباخ تكمن في ضرورة عبور أي خط أنابيب من أذربيجان إلى تركيا عبر هذه الأراضي، ذلك في حال تفادي إيران. هذا هو ما تريده الولايات المتحدة وأذربيجان وتركيا، ولكن هذا ما تعرقله حتى الآن المشاكل السياسية المحلية.

وفي جورجيا التي تأمل أن تستفيد من موقعها الجغرافي لتحصل على عائد مهم من رسوم الترانزيت عبر خط أنابيب يمتد إلى ميناء سوبسا المطل على البحر الأسود، كاد الرئيس إدوار شفارنادزة أن يفقد حياته أكثر من مرة نتيجة مؤامرات مافيات النفط الروسية التي اتهمها علنا ومباشرة بمحاولة اغتياله من أجل زعزعة استقرار البلاد ودفع الشركات الأجنبية إلى العدول عن الاستثمار في أراضيه. كما يواجه شفارنادزة مشكلة مزمنة لاستعادة أبخازيا والتي أدى سلخها عن جورجيا إلى إضعاف هيبة حكمه.

في ظل هذه الأجواء المشحونة، تحاول الشركات النفطية استخراج النفط ونقله إلى البحار المفتوحة، هذا أمر صعب وليس هينا كما نعرف ذلك من تجربة بعض البلاد العربية. كما أدت الصراعات المحلية والإقليمية إلى عزوف الاستثمارات الأجنبية عن التواجد في هذه البلاد، ما عدا شركات النفط التي استطاعت أن تتعايش تاريخيا مع مشكلات من هذا النوع وفي دول متعددة ولكن بضمانة حماية أجنبية.



بحر قزوين والنفط العربي

تعج وسائل الإعلام العالمية بالأخبار والتقارير عن قرب فك اعتماد الدول الصناعية الغربية عن النفط العربي، وذلك كلما تم اكتشاف حقل نفطي في دولة معينة خارج الشرق الأوسط. ولا تختلف التغطية الإعلامية لنفط بحر قزوين عن بقية المناطق في العالم. والحقيقة أن هناك مناطق عديدة وجديدة يتم فيها اكتشاف النفط هذه الأيام وتشكل مصدرا تنافسيا مهما لنفوط الشرق الأوسط، فهناك الاكتشافات المهمة في المياه العميقة في غرب أفريقيا، وهناك التطوير الإصلاحي البطيء للحقول النفطية والغازية الكبيرة في روسيا، وهناك التصاعد المستمر للإنتاج من بحر الشمال وبالذات القسم النرويجي منه، وهناك أخيرا ازدياد الإنتاج النفطي من دول أمريكا اللاتينية مثل فنزويلا وكولومبيا والبرازيل والمكسيك.

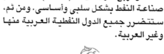
إلى جانب هذه الاكتشافات التي تؤدي تدريجيا إلى زيادة العرض من النفط في الأسواق العالمية، ومن ثم تأثيره السلبي على الأسعار. نجد أيضا بروز ظاهرة التأثير التقني على تكاليف الإنتاج. ففي العقود الماضية استطاعت نفوط الخليج مزاحمة النفط في البقاع الأخرى من العالم لأن تكاليف الإنتاج في الخليج كانت بسيطة مقارنة بالمناطق الأخرى، وبالذات من المناطق الجديدة مثل بحر الشمال. أما الآن، فإن الوضع قد تغير بفضل إدخال عنصر التقنية في عمليات المسح السزمي والاستكشاف والتجميع والنقل، ومن ثم أصبح بمقدور الشركات العالمية مزاحمة نفوط الخليج وتحقيق أرباح معقولة في نفس الوقت.

هناك أيضا تأثير التيار العالمي المتصاعد للمحافظة على البيئة ومحاولة تخفيض استعمال الوقود الاحفوري، الذي يشمل النفط من أجل تقليص كميات ثاني أكسيد الكربون في الجو. هذه الحملة الدولية من أجل تحسين المناخ والبيئة، والتي تبلورت أفكارها وتياراتها في مؤتمر كيوتو في اليابان في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧، بدأت تأخذ مفعولها تدريجيا وستؤثر حتما في العقود القادمة في الطلب على النفط من خلال قواعد المرور ونوعية السيارات التي سيتم إنتاجها في المستقبل، هذا ناهيك عن نوعية المنازل والمكاتب التي ستعيش ونعمل فيها والتي ستأخذ بنظر الاعتبار الاهتمام المتزايد بالبيئة وطرق تحسين الظروف المعيشية الملائمة معها.

إن نفط بحر قزوين ما هو إلا عامل واحد من مجموعة عوامل ستؤثر على النفط العالمي مستقبلا، لكن هناك عوامل محددة للتنافس الذي يحتمل أن يحصل ما بين نفط قزوين والنفوط العربية. فعلى سبيل المثال، سيتم تنافس قوي على الأسواق وبالذات على منطقة البحر الأبيض المتوسط وشمال غرب أوروبا، كما سيشكل الغاز الذي سيتم تصديره من بلاد القوقاز مصدرا جديدا ستعتمد عليه أوروبا لتخفيض الاعتماد على الإمدادات الغازية الحالية وهي النرويج وروسيا والجزائر. أما في الشرق وبالذات إذا تحققت المشاريع الضخمة التي يتم الكلام عنها لمد أنابيب النفط والغاز العملاقة إلى الصين أو حتى إلى اليابان، فمعنى هذا تغييب أسواق مستقبلية كانت دول الخليج تبني عليها آمالا كبيرة لتصدير النفط والغاز لها بعد فتحها للمنافسة العالمية وبعد ارتفاع مستوى معيشة أهاليها وبعد فتح أسواقها للشركات الدولية، وبالذات في الصين.

من ثم، يمكن القول أن نفط بحر قزوين ما هو إلا مصدر آخر من مصادر التنافس التي سيواجهها النفط العربي في السنوات والعقود القادمة، ولا تقل أهمية أو خطورة هذا المصدر الجديد عن بقية النفوط الحديثة التي أخذت تصل إلى الأسواق مؤخرا، أو التي خطط لها الإنتاج في المستقبل المنظور.

أما ما سيحدد فعلا أهمية وخطورة هذه النفوط على الشرق الأوسط فهو مؤشرات وبيانات الطلب العالمي على النفط، وهذا سيعتمد بشكل أساسي على معدلات النمو الاقتصادي العالمي، وبالذات في الدول النامية التي تحاول الانطلاق وتغيير وضعها الاقتصادي إلى ما هو أحسن. إن معدل زيادة استهلاك النفط العالمي في الفترات الجيدة (عامي ١٩٩٦، ١٩٩٧) قد تراوح بمقدار ٢,٠٠٪ سنويا، أو ارتفاع في الاستهلاك العالمي مقداره حوالي ١,٨٠ - ٢,٠٠ مليون برميل يوميا، وهذه زيادة محترمة في حال استمرارها، وهي ستضمن المحافظة على أهمية النفط في الاقتصاد العالمي، كما ستستطيع أن تستوعب الكثير من النفوط الجديدة، وبالذات لأن العديد من الحقول القديمة قد تعبت وبدأ ينضب إنتاجها. لكن في حال انخفاض هذه المعدلات المرتفعة للاستهلاك النفطي (كما حصل في عام ١٩٩٨ والربع الأول من عام ١٩٩٩) ستتأثر صناعة النفط بشكل سلبي وأساسي. ومن ثم، ستتضرر جميع الدول النفطية العربية منها وغير العربية.



يبقى هناك العامل المشترك ما بين النفط العربي ونفط بحر قزوين، فدول المنطقتين ومع الأسف تعتمد على النفط باعتباره المصدر المالي الأساسي للبلاد، هذا على عكس دول منتجة أخرى مثل النرويج أو إندونيسيا التي استطاعت أن تنوع من اقتصادها وتقلل من دور النفط في الاقتصاد الوطني. لذا، فإنه في حال حدوث أي ارتجاج أو قلاقل في الأسواق النفطية، مثل أزمة انخفاض الأسعار في عام ١٩٩٨، فإن هذه الدول ستكون المتضررة الرئيسية لأن الميزانية العامة في كل من هذه الأقطار ستكون الضحية الأولى لعدم وجود دخل أساسي آخر للبلاد غير النفط. هذا هو واقع الدول العربية اليوم، وهذا هو ما سيكون عليه وضع دول بلاد القوقاز في المستقبل المنظور بعد أن تبدأ بتصدير النفط إلى الأسواق العالمية في العقود القادمة.



الخلاصة

تحاول دول بلاد القوقاز، بعد أن نالت استقلالها، استقطاب الاستثمارات النفطية الأجنبية، ليس فقط من أجل تنمية مصادرها النفطية، لكن أيضا تيمنا بالحصول على الضمانات الدولية للمحافظة على هذا الاستقلال ودفعا من التدخل في شئونها الداخلية من هذا الطرف أو الآخر، إلا أن الأزمة الحقيقية لهذه الدول هي أن مشكلاتها تنبع من داخلها ومن التعدد الهائل في الاثنيات والقوميات والأجناس القاطنين فيها، وإلى أطماع الدول المجاورة لها، وتكالب الدول الكبرى على مواردها الطبيعية. لذا فإنه من الصعب جدا أن يتصور المرء حلول نوع من الاستقرار السياسي لهذه الأقطار في المستقبل المنظور.

وإذا افترضنا أنه بقدرة قادر استطاعت هذه الدول إحلال نوع من الاستقرار السياسي الداخلي، فمن الصعب التغاضي عن الصراعات الإقليمية التاريخية ما بين هذه الدول. وبما أن بلاد القوقاز لا تملك السواحل والموانئ المطلة على البحار العالمية، فمعنى ذلك أنها ستبقى تحت رحمة جيرانها وابتزازاتهم المستمرة لاستقطاع أعلى معدل ممكن من رسوم الترانزيت والخوات والمصاريف. هذه العوامل جميعها تصب في خانة عدم استقرار إمدادات النفط من بلاد القوقاز، مهما حاولت الشركات النفطية العالمية هذه الأيام من تلطيف صورة هذه المنطقة وإبراز أهميتها الاقتصادية الدولية المستقبلية.

في أحسن الأحوال، وفي حال عدم انقطاع الإمدادات بين فترة وأخرى، سيكون ثمن نفط هذه الدول باهظ التكاليف، مما يعني أن الدول القوقازية نفسها ستحصل في نهاية المطاف على ريع نفطي أقل بكثير من الدول المنتجة الأخرى، الأمر الذي سيحد من قوتها الاقتصادية ويبقيها دولا ضعيفة دون ركائز صلبة ومعرضة للتهديد والاضطرابات والقلاقل الاجتماعية والسياسية.

أخيرا، ورغم كل الأرقام المتفائلة التي صدرت عن المؤسسات الحكومية ودور الأبحاث، فإن كميات النفط المتوافرة في منطقة بحر قزوين لا تزال محدودة. وبالفعل، فإن النتائج الأولية للبحث والاستكشاف عن النفط في عام ١٩٩٨ وأوائل عام ١٩٩٩ غير مشجعة للغاية، مما دفع بعض الشركات الدولية بإغلاق مكاتبها والتنازل عن رخص الامتيازات التي حصلت عليها. لكن هذا لا يعني أن المنطقة غير واعدة نفطيا. فالوقت لا يزال مبكرا لإصدار حكم من هذا النوع، والمجال لا يزال مفتوحا للاستكشافات في السنوات المقبلة. إلا أنه إذا بقيت أسعار النفط على مستويات منخفضة نسبيا، فإن هذا العامل سيحد من استثمارات الشركات الدولية في هذه المنطقة، مما سيقلل من معدل عمليات التنقيب ويبطئ في برامج الحفر، وهذه كلها ستؤثر سلبيا على احتمال بروز منطقة قزوين كمنطقة واعدة نفطيا في المستقبل المنظور.



فصل المقال فيما بين «الخبز الحافى»

«محاولة الدفاع عن كتاب محمد شكرى
باستدراج كتاب الطيب صالح إلى المعركة، أمر مؤسف،
لأن الفارق بين الكتابين كبير جدا»



في الضجة الكبيرة التى ثارت فى مصر مؤخرا حول كتاب «الخبز الحافى» لمحمد شكرى، أشياء كثيرة قبيحة. ولأبدأ بما أعتبره قبيحا فى هذه الضجة، ثم أتناول الكتاب نفسه.

أما عن الضجة، فقد كان من أسوأ ما فيها أن يصرخ بعض الناس، سواء ضد الكتاب أو دفاعا عنه، دون أن يكونوا قد قرأوا الكتاب أصلا، باعتراف هؤلاء الناس صراحة أحيانا، أو بما يفهم من طريقة كلامهم عن الكتاب أحيانا أخرى.

أما الصارخون ضد الكتاب، فبعضهم قد حلا فى عينيه أن يظهر أمام الناس بمظهر المدافع عن الفضيلة، واتخذ من مجرد احتجاج بعض التلاميذ على الكتاب دليلا على وجوب منع الكتاب من التداول، واعتبر أن هذه الشكوى من بعض التلاميذ دليل على تعارض الكتاب مع «قيم مجتمعنا وديننا وتقاليدنا»، مع أن أبسط اطلاع على الكتاب كان من شأنه أن يبين أن الكتاب لا يتعارض مع «قيم مجتمعنا أو ديننا» بأكثر مما يتعارض مع قيم أى مجتمع آخر وأى دين آخر، كما سأحاول أن أبين فيما بعد.

كذلك من التصرفات القبيحة، ميل بعض هؤلاء الساخطين على الكتاب إلى «استعداء السلطات»، سواء كانت سلطات الجامعة التى كان يدرّس بها الكتاب، أو سلطات الدولة. مع أن الخطأ لا يزيد على سوء تقدير مما يمكن تصحيحه بسهولة دون ضجيج أو صراخ، إذ كانت نتيجة هذا الضجيج والصراخ أن أشاعا الخوف لدى الأساتذة جميعا، من أن تكون حريتهم فى التعبير عن أفكارهم، أيا كانت براءة هذه الأفكار قد أصبحت مهددة فى كل لحظة، مع أن الأمر فى هذه الحالة لا يتعلق باختلاف فى الرأى أو الأفكار، بل بأشياء مختلفة تماما.

والأسوأ من هذا، أن هذا الصراخ وهذا الضجيج قد أدّيا إلى تعرض بعض من أفضل الأعمال الأدبية وأرفعها شأنا، وأبعدها عن الابتذال، بل ومن أكثرها تعاطفا مع «قيم مجتمعنا وديننا وتقاليدنا»، للتهديد بالمنع هى الأخرى، وأعنى بذلك بالذات رواية الأديب السودانى «الطيب صالح»، التى أنقذها لحسن الحظ إجماع لا مثيل له من جانب أساتذة الجامعة على أنها قطعة من الأدب الرفيع، مما لا يجوز المساس به على الإطلاق.

إلى هذا الحد أجد نفسى متفقا مع تعليق الأستاذ سلامة أحمد سلامة على هذا الموضوع فى العدد الأخير من «وجهات نظر» (أول أبريل ١٩٩٩) تحت عنوان «الفكر الحافى»، إذ عبّر عن رفضه لهذه «السلطوية الفكرية البغيضة، والظلامية العمياء، والتحرش العقلى بأجيال ينبغى أن تتعلم فى الجامعة كيف وماذا ولماذا نقرأ دون وصاية من الشارع ولا من الوزير ولا من الخفير».

ولكنى لم أستطع التعاطف مع موقف الأستاذ سلامة عندما انتقل من الكلام عن العموميات إلى الكلام عن هذا الكتاب بالذات «الخبز الحافى»، فهو لم يقدم لنا سببا مقنعا لاعتبار تدريس هذا الكتاب أو حتى قراءته عملا مفيدا، فكل ما قاله دفاعا عن الكتاب أنه:

> «نوع من أدب السيرة الذاتية، صدر قبل نحو ثلاثة عقود، وترجم إلى لغات مختلفة، وبيعت منه ألوف النسخ فى المغرب والعالم العربى، وطرح فى المكتبات ومعرض الكتاب فى القاهرة. وتعبر القصة بصاحبها مرحلة الطفولة والمراهقة، وما صاحبها من تحولات نفسية واجتماعية ومكانية، تناوله نقاد الأدب باعتباره بعض تجليات الأدب المغربى الحديث. ولم تثر حوله مثل هذه الضجة الغوغائية التى ملأت بعض الصحف فى مصر، وشغلت من لا شاغل لهم.. ولم يؤخذ ما فيه من عرى فى العبارة أوخشونة فى اللفظ على أنه أدب جنسى بالمعنى الذى يجرّد الكتاب من قيمته الأدبية.. فقد عرف الأدب العربى أشعار أبى نواس الإباحية وقصص ألف ليلة وليلة قديما، وروايات أخرى لأدباء معروفين مثل رواية الطيب صالح (موسم الهجرة للشمال) حديثا، دون أن تعلن حالة الطوارئ الفكرية فى الجامعات ويفرض عليها منع التجول».

وقد عجزت عن أن أجد فى هذه الفقرة دفاعًا مقنعا عن الكتاب، أما أنه نوع من أدب السيرة الذاتية، فصحيح، وأما أنه صدر قبل نحو ثلاثة عقود فجائز، وأما أنه ترجم إلى لغات مختلفة فمحتمل، وأما أن آلاف النسخ قد بيعت منه فمؤكد، ولكن كل هذا لا يبرئ الكتاب من العيب، ولا يحوّل نقائصه الكثيرة إلى مزايا، بل نحن نعرف أن مثل هذه الكتب يمكن أن تباع منها ألوف كثيرة، وأن يترجم إلى لغات كثيرة، أما أن القصة «تعبر بصاحبها مرحلة الطفولة والمراهقة.. إلخ»، فهذا قد يهم صاحب السيرة الذاتية، ولكنه قد لا يهمنا، إذ الأمر يتوقف فى النهاية على كيفية عبوره هذه المرحلة وتلك، وما الذى قاله عن هذه المرحلة أو تلك. وأما أن «العرى فى العبارة أو الخشونة فى اللفظ» لا يجعلان الكتاب أدبًا جنسيا، فقد يكون صحيحا فى بعض الحالات، ولكنه ليس صحيحا دائما، كما سأحاول أن أبين. وأما محاولة الدفاع عن كتاب محمد شكرى، باستدراج كتاب الطيب صالح إلى المعركة، فهو أمر مؤسف إذ إن الفارق بين الكتابين كبير جدا، كما سأحاول أن أبيّن أيضا.

كذلك فإنى لم أتعاطف بالمرة مع ما كتبه الدكتور سعد الدين إبراهيم عن نفس الموضوع فى مجلة «القافلة» (وهى مجلة الجامعة الأمريكية بالقاهرة) تحت عنوان «الحرية الأكاديمية فى الجامعة الأمريكية» (عدد ١٤/٢/١٩٩٩) إذ حوّل الأمر إلى قضية اختلاف فى الرأى ووجهات النظر، وجعل السماح بتدريس مثل هذا الكتاب من صميم قضية الليبرالية الفكرية ونظام التعليم الحر المعروف باسم Liberal Arts وقد كنت - ولا أزال - أفهم الحرية الأكاديمية والفكرية بمعنى مختلف تماما، وكذلك كنت - ولا أزال - أفهم نظام التعليم الحر بمعنى مختلف جدا، لايشمل تدريس كتب من نوع «الخبز الحافى»، فالمسألة ليست اختلافا فى الرأى بالمرة، وليست خلافا فكريا، بل هى شىء مختلف تماما.



رواية «الخبز الحافى» رواية صغيرة الحجم، لاتزيد على ١٥٠ صفحة فى ترجمتها الإنجليزية (التى اعتمدت عليها ثم قارنت بعض أجزائها بالنسخة العربية التى تقع فى ٢٢٨ صفحة من القطع الصغير) والمعروف أنها تقوم على السيرة الذاتية لكاتبها بل هى تحمل ما يدل على ذلك فى العنوان نفسه : الخبز الحافى، سيرة ذاتية روائية (١٩٣٥-١٩٥٦).

وكاتبها محمد شكرى . لم يتعلم القراءة والكتابة إلا فى سن العشرين ثم أصبح كاتبا روائيا، وهى تصف طفولة محورها جوع وحرمان دائم، وقسوة بالغة من الأب. الأسرة فقيرة للغاية لا تجد ما يسد رمقها. الأم بائعة خضروات والأب مجرم سكير وعاطل عن العمل، والأم تحمل وتلد ويموت معظم أولادها وبناتها الواحد بعد الآخر.فلا يبقى إلا هذا الطفل(محمد) الذى يهيم على وجهه بحثا عن الرزق بكل الطرق غير المشروعة: سرقة وتهريب ودعارة، بما فى ذلك بيع جسده لمن يرغب. ويتخلل ذلك كله معاشرة للمجرمين من كل نوع وللعاهرات والسكارى ومدمنى الخمر والمخدرات من كل صنف. ولكن قبل أن تنتهى الرواية بصفحات قليلة يتعرف محمد أى صاحب السيرة على شخص مهتم بالسياسة اسمه «عبد المالك» ، ويقرر محمد بعد التعرف عليه أن يتعلم القراءة

محمد شكرى

١- الخبز الحافى: سيرة ذاتية روائية، ١٩٣٥-١٩٥٦
محمد شكرى
بيروت: دار الساقى، ١٩٩٣، ٢٢٨ ص، ط٣.

٢- For Bread Alone
Mohamed Choukry
London: Peter Owen, 1973, 151pp.

٢- موسم الهجرة إلى الشمال
الطيب صالح
بيروت: دار الجيل، ١٩٩٧، ٢٠٠ ص.

و«موسم الهجرة» من انفصال..

جلال أمين

والكتابة، فيذهب لشراء كتاب في مبادئ القراءة، ويخبر عبد المالك عن عزمه، وإن كان يختم الرواية بالتعبير عن شكّه في أن من الممكن أن يتحول إلى رجل مستقيم أو إلى «ملاك». ويرجح أن الوقت قد فات.



إن من الممكن جدا أن تكون رواية، هذا موضوعها، وهذه هي أحداثها، سرقة وتهريب ودعارة وسكر ومخدرات، رواية إنسانية بالرغم من هذا كله، ولكن لهذا بالطبع شروطا. من أهم هذه الشروط أن يكون البطل الذي يروي القصة والذي نرى كل أحداثها من خلاله، ونحكم على كل شيء من وجهة نظره، أن يكون هذا البطل شريفا في الأساس. لا أقصد بهذا أن يكون رجلا ملتزما بالقانون وبما تعارف عليه أهله ومجتمعه من قواعد أخلاقية، بل يكفي أن يكون رجلا نظيفا من الداخل. مهما كانت قذارة الأعمال التي يرتكبها رغما عنه. وهذه «النظافة من الداخل» لها مظاهر شتى، منها مثلا مدى الأسف الذي يشعر به عندما يرتكب عملا غير إنساني، أو الندم الذي يصيبه بعد ارتكابه مثل هذا العمل، أو التعاطف مع من يصادفه في حياته من رجال ونساء سيئي الحظ، أو قيامه بعمل إنساني لإنقاذ أو مساعدة أحد من هؤلاء الذين عاملتهم الحياة بقسوة،أو استعداده للصفح عمّن أساء إليه، أو التضحية بجزء من طعامه مثلا، رغم شعوره بالجوع، لمن هو أشد جوعا منه، أومقاومته، ولو لبعض الوقت، لإغراء القيام بعمل غير أخلاقي قبل أن يضطر اضطرارا للقيام بهذا العمل.. الخ. كل هذه أمثلة لما يمكن أن يدل على أن هذا البطل البائس، رغم بؤسه وانخراطه في مختلف الأعمال الإجرامية وغير الأخلاقية هو في الأساس رجل نظيف، ولكن اضطرته ظروف حياته القاسية إلى أن يظهر منه عكس ذلك. ولكننا للأسف لا نجد شيئا من ذلك في هذا الكتاب. فليس في المائة والخمسين صفحة التي تتكون منها رواية «الخبز الحافي» دليل واحد، مهما كان صغيرا، على أن بطل الرواية رجل نظيف من الداخل. ليس هناك شعور واحد نبيل، وليس هناك عمل واحد من أعمال التضحية، ولم يحدث أن أظهر مرة واحدة مقاومة لعمل من الأعمال القذرة قبل أن يقوم به. إنه لم يعبر ولو مرّة واحدة عن شعور بالصفح عن الأب الفظ البالغ القسوة، ولا حتى مايدل على أنه يفهمه أو يعذره أو أنه كان مضطرا إلى ماقام به،بل ولاتحسّ منه ولو مرة واحدة بعاطفة تشبه عاطفة الابن نحو أمه التي تعرضت لمنتهى القسوة من أبيه.

إذا كان الأمر كذلك فمن أين يأتي وصف الرواية بالإنسانية ؟ وما جدوى الخوض في وصف الفقر والبؤس إن لم يصل إلى القارئ من هذا الوصف أية إثارة للعطف؟ الخلاصة إذن أن البطل من أول صفحة في الرواية إلى آخر صفحة، يظهر تماما أنه وغد، خال من أي ميزة، سواء في الذكاء أو في الإنسانية، بل ولا يتصف حتى بالنشاط أو الشجاعة. فما الذي ينتظر من قارئ الرواية غير اللامبالاة والاشمئزاز؟

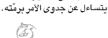
نعم، إنك تترك الرواية ساخطا ولكن ليس على الظروف الاجتماعية التي أدت بهؤلاء البؤساء جميعا إلى هذا المصير، ولكن ساخطا على بطل الرواية ومن ثم على كاتبها أيضا. إنى لم أقابل مؤلف الرواية قط، ولكنى بصراحة، بعد أن قرأت سيرته الذاتية لا أجد لديّ أي رغبة في مقابلته، لا لأنه ارتكب في شبابه الكثير من الأعمال القذرة ولكن لأني لم أشعر قط خلال قراءتي للرواية أنه كان يحسّ بمدى قذارتها.



الآن يمكن أن نأتي إلى الجنس. الرواية على صغر حجمها حافلة بالمشاهد الجنسية، ولكن ليست مشاهد جنسية عادية بل تحتوي على تفاصيل دقيقة في وصف أجزاء الجسم مع تسمية كل شيء باسمه. والتركيز في هذه المقاطع ليس على الأحاسيس، بل على الأعضاء التي ولّدت هذه الأحاسيس. وتشمل هذه المشاهد العادي من الجنس والشاذ منه أيضا، وبعض هذه الممارسات الشاذة يبدأ من شخص غير البطل يحاول أن يجذب بطل الرواية إليها، مقابل المال أحيانا، ودون مقابل أحيانا، وبعضها يبدأه البطل نفسه تعبيرا عن رغباته هو الخاصة. الأهم من هذا كله أنه لا يكاد أن يكون هناك في علاقة واحدة من هذه العلاقات الكثيرة والمتكررة في الرواية شيء غير الجنس. فليست هناك عاطفة تبدأ بها هذه العلاقة أو تنتهي بها. ليس هناك إلا الرغبة الجنسية المحضة التي لا تختلف قط عن أي رغبة تطرأ على أي عضو من أعضاء المملكة الحيوانية. والبطل عندما يتذكر أحيانا علاقة سابقة مرّ بها، من هذه العلاقات، لا تمرّ بذهنه أي عاطفة رقيقة مما يمكن أن يوصف بالحب ولا أي شعور بالافتقاد إلا افتقاد اللمس، ولا شعور بالشوق إلا الشوق إلى ممارسة الجنس من جديد.

بل إن من المدهش حقا، في هذا «الأديب الكبير»، ما يبدأ به عندما يريد أن يروي قصة البطل مع أي من هؤلاء الفتيات العديدات. فهو يبدأ بأن يقول مثلا: وكان هناك فتاة اسمها كذا، هي ابنة صاحب قهوة كذا أو بستان كذا، ثم يشرع مباشرة في وصف جسمها كما رآه بطل القصة وهو مختف في أعلى شجرة دون أن تراه الفتاة، أو وهو يراقبها من مكان ما وهي تخلع ملابسها للنزول إلى النهر دون أن تعرف بوجوده. هذه الفتاة لم يصادفها لا قارئ القصة ولابطل القصة إلا منذ ثلاثة أو أربعة سطور فقط، وهي الآن تتعرى أمام كل منهما. ولا يلي ذلك أي علاقة عاطفية من أي نوع، بل أقصى ما يحدث هو أن يتحرش بها البطل فتقبل أن تمارس الجنس معه أو لا تقبل، ولكن لا شيء هناك بالمرّة إلا الجنس.

نفس الشيء يتكرر في علاقاته الجنسية أثناء إقامته ببيوت العاهرات. فالعاهرات يجري وصف أجسادهن فقط، مع أن من الممكن أن يتصور المرء أن لهن مشاعر أيضا وعواطف، وأن شخصية الواحدة منهن لابد أن تختلف عن شخصيات الأخريات. ولكن الأمر في رواية محمد شكري غير ذلك. فهن عاهرات بمعنى الكلمة ولاشيء غير ذلك. مما يجعل القارئ يتساءل عن جدوى الأمر برمّته.



مادام الأمر كذلك، فقد كان لابد أن أستغرب جدا ما قرأته لناقدة أدبية كبيرة من دفاع عن هذه الرواية في صحيفة الأهرام ويكلي (١٨فبراير ١٩٩٩) . لقد استندت الناقدة في دفاعها إلى أمرين: الأول أن ماحتوته الرواية من أحداث يصوّر تصويرا بليغا مدى تعاسة وبؤس شريحة مهمة من شرائح المجتمع، لا تحظى عادة بمن يعرّف الناس بمدى ما يعانونه من جوع وحرمان وتشرد.

والأمر الثاني أن الرواية وإن كانت تعرض قراءها لمشاهد ومواقف فظيعة من الإجرام والأعمال القبيحة واللاأخلاقية، فإنها تنتهي نهاية أخلاقية ومتفائلة، إذ أن البطل يصادف قرب النهاية شخصا يروي على مسامعه بيتين من شعر الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي، وهما:

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر

مما يؤثر في نفس البطل ويدفعه إلى اتخاذ قرار ببدء تعلّم القراءة والكتابة. وهكذا يقدم البطل على إنهاء حياة الإجرام والدعارة، ويبدأ صفحة جديدة، مما لابد ـ على الأرجح ـ أن يترك أثرا أخلاقيا طيبا في النهاية في نفس القارئ.

وكلا الدفاعين ضعيف للغاية، فالقول بأن الرواية تصوّر حياة البؤس والحرمان لا أجد له في الرواية إلا صدى ضعيفا جدا. نعم البطل وكل معارفه كانوا مشردين ومحرومين، ولكن هذا شيء وتصوير التشرد والحرمان شيء آخر. وهذا هو بالضبط أحد الأشياء المدهشة في هذه القصة. فالكاتب يصادف مناظر البؤس



الطيب صالح

«أصبحت بعد تكرر تجربتى مع قصص مماثلة ترجمت ونشرت بالخارج، واحتفل بها نقاد «مرموقون»، أشك بشدة فى المعايير التى تحكم اختيار ما يترجم وما لايترجم من أعمالنا»

والحرمان وجها لوجه ولكنها لا تحرك قلبه لدرجة تدفعه إلى وصفها، ويفضل عليها مناظر الجنس. نعم إنه يذكر وصف ضرب أبيه له ولأمه ولأخيه، ولكن أين المشاعر الناتجة عن ذلك؟ إلا ما ذكره من حين لآخر من أنه كان يكره أباه أو يتمنى موته أو شيئا من نوع هذه العبارات التى تقال ببرود غريب. فلا تحرك شعور القارئ (أو شعورى أنا على الأقل). ولا تعكس بالتالى شعورا قويا لدى الكاتب نفسه. نعم، إنه يقضى أياما كثيرة فى بيوت العاهرات، يتركها ليعود إليها، ونحن نعرف أسماء كثيرات من هؤلاء النسوة. وهن بكل تأكيد من البائسات المحرومات اللاتى عاملتهن الحياة بقسوة بالغة، مما نعرفه من روايات وقصص أخرى كثيرة. ولكن أين هذا البؤس والحرمان وهذه القسوة فى رواية «الخبز الحافى»؟ إن الكاتب، بدلا من أن يصور هذا البؤس الذى قاد هؤلاء النسوة إلى هذا المصير، يفضّل أن يصف أجسامهن والتصاق جسم البطل بها. بعبارة أخرى ودون إطالة: لايكفى أن تدور أحداث الرواية فى أوساط بائسة لكى نقول إنها تصوّر البؤس، بل يجب أن تقوم الرواية بوصف هذا البؤس على نحو يثير مشاعر القارئ ضده، لا أن يترك القارئ لتخمينه مستعينا بقراءات أخرى سابقة.

أما القول بأن الرواية، رغم ماتصوره من فسق وفجور تنتهى نهاية فاضلة. فإنى لا أجد له أساسًا. فهذه الفضيلة المزعومة لا تبدأ بتلك الرواية المتواضعة جدا، إلا قبل نهاية القصة بصفحات قليلة، عندما يكتب أحد المسجونين على حائط السجن البيتين المشهورين لأبى القاسم الشابى: إذا الشعب يوما أراد الحياة... الخ. وهما من أكثر أبيات الشعر العربى الحديث تداولا على ألسنة تلاميذ المدارس. ولكنهما أيضا ليسا جميلين جمالا خاصا، بل شاعا على الألسنة بسبب ما فيهما من وضوح تام وتكرار للمعنى الواحد عدة مرات وحماسة زائدة قد ينفعل لها صغار السن. ولكن المهم هو أن كل ما ترتب على مقابلة البطل لهذه الشخصية الجادة وأخيه، أن البطل اشترى وهو سائر فى طريقه كتابا لتعلم القراءة والكتابة، دون أن تدلنا الرواية على أنه قام بتعلمهما بالفعل. أو حتى أن تدلنا على مدى جديته فى العزم على تعلمهما، بل إن آخر سطر فى الرواية يشككنا فى قدرته على ذلك. إذ إن هذا السطر يقول ما معناه أن الأرجح أن الوقت قد فات ولم يعد ثمة أمل فى أن يصبح الشيطان ملاكا. (أو كما يقول النص العربى بلغة عربية ركيكة يختتم بها الكتاب: «لقد فاتنى أن أكون ملاكا»).

قد يقال إننا نعرف من مصادر أخرى أن الكاتب الذى هو بطل الرواية قد تعلّم القراءة والكتابة بالفعل، بدليل أنه أصبح كاتبا مشهورا، ولكنى أتكلم عن الرواية كرواية: هل هذا الذى حدث فى صفحاتها القليلة الأخيرة كاف لأن يمحو من ذهن القارئ كل هذا الفسق والفجور؟ بل وهل تغفر لبطل الرواية كل ما ارتكبه قبل ذلك؟ هل شراء كتاب لتعلّم القراءة والكتابة كاف لأن يغفر له كل ما ارتكبه من أعمال القسوة والدعارة والسرقة والتهريب والكراهية واللامبالاة بمشاعر الآخرين التى تحفل بها الرواية؟ بل حتى إذا افترضنا أن هذا الكاتب قد أ[illegible]ج عملا فنيا عظيما، سواء فى هذه الرواية وهو فى رأيى افتراض غير صحيح بالمرة، أو فى روايات أو قصص أخرى مما لا يشوقنى البتة قراءته بعد أن قرأت هذه الرواية. حتى إذا افترضنا هذا، فهل حقا يجب علينا أن نغفر أى شىء لأى شخص يثبت أنه «فنان»؟ هل مجرد القدرة على أن يروى شخص ما قصة حدثت له، بشكل مشوق هل هذا يجعل من حقه أن يفعل أى شىء مهما كان عملا لا أخلاقيا؟ وأن يسوّد ما أراد من صفحات فى وصف مافعله؟ أنا لا أعتنق هذا الرأى. من اللطيف أن يكون لدى المرء قدرة على أن يقص قصة مشوقة، ولكن هذا فى حد ذاته لايحوّل شخصا مجرما إلى رجل فاضل جدير بالاحترام. وهذا الرأى لا علاقة له بقيم وتقاليد ودين مجتمع معين دون غيره. بل يصح على أى مجتمع وأى تقاليد وأى دين. كذلك فإن هذا الحكم الأخلاقى على الكتاب لا يتغير حسب ما إذا كان قارئه صغير السن أو كبير السن. فهو كتاب لا أنصح بقراءته طفلا صغيرا ولا شابا ولا كهلا.

إذا كان كل هذا صحيحا، فإنه لاتكون بعد هذا جدوى من أن يردد بعض الكتاب أقوالا عن عدد اللغات الأجنبية التى ترجمت إليها رواية «الخبز الحافى»، أو عن بعض الكتاب العظام الذين تعرضوا لوصف أحوال بؤس وتشرد مماثلة لما ورد فى هذه الرواية، أو القول بأن هذه الرواية جاء بها أيضا فضلا عن البؤس والتشرد، ذكر للاحتلال الفرنسى للمغرب، أو أنه قد جاء مرة، على لسان بعض شخصيات الرواية ذكر لثورة مصر فى ١٩٥٢ واسم محمد نجيب وعبد الناصر.. الخ. ماجدوى هذا كله، وأى مجد يضفيه مثل هذا على الرواية، إذا كانت حقا كما وصفت؟ أما كثرة اللغات التى ترجمت إليها فقد أصبحتُ بعد تكرر تجربتى مع قصص مماثلة، تُرجمت ونُشرت بالخارج، واحتفل بها بعض النقاد، بعضهم نقاد «مرموقون» أشك بشدة فى المعايير التى تحكم اختيار ما يترجم وما لا يترجم من أعمالنا، وما الذى يعجب بعض النقاد الأجانب من إنتاجنا الأدبى وما لا يعجبهم، مما يحسن بى ألا أخوض به فى هذا المجال. ولكنى لا أخفى على القارئ ميلى إلى الاعتقاد بأن من بين هذه المعايير التى تحكم اختيار ما يترجم وما لا يترجم من قصصنا إلى لغات أوروبية. ما إذا كانت هذه القصص تدل على «تقدمنا» فى الأخذ بآخر الموضات الأدبية فى الغرب، التى يسمح بعضها بالخوض «بمطلق الحرية» فى تفاصيل العلاقات الجنسية وأمثالها، ومدى «جرأتنا» فى التعرض لهذه الموضوعات.

فى كل هذه الأمور تكاد رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» أن تكون النقيض التام لرواية «الخبز الحافى» لمحمد شكرى. رواية الطيب صالح رواية «فاضلة» بمعنى الكلمة، سواء كان المقصود بذلك هو نبل القضية التى تعالجها أو طبيعة شخصيات الرواية، إذ ليس من بينها شخصية واحدة يمكن أن تعتبرها شخصية شريرة (سواء أيدت مواقفها أو لم تؤيدها)، أو الأثر النهائى الذى تتركه القصة فى القارئ، إذ أنت بعد الفراغ منها شخص أفضل مما كنت قبل أن تقرأها. هل بها جنس؟ نعم، وأكاد أن أقول بالطبع بها جنس. ولكن ليس فيها أى شىء يمكن أن ينطبق عليه وصف «الإثارة الجنسية»، إذ ليس لدى الطيب صالح وقت لإضاعته فى مثل هذا، ولا احترامه لقارئه يسمح له بذلك. إن البطل فى قصة الطيب صالح رجل كانت له علاقات جنسية متعددة مع نساء أوروبيات، ومع امرأة واحدة سودانية التى هى زوجته الرائعة (حسنة). ولكن العلاقة بينه وبين النساء الأوروبيات لا يقدمها المؤلف إلا كوسيلة لإثارة قضية العلاقة بين مجتمعاتنا وبين الغرب، أى قضية ذلك الصراع القديم والمستمر بين الحضارتين، فيتخذ الطيب صالح هذه العلاقة الجنسية كوسيلة، من بين وسائل أخرى كثيرة لطرح قضية العلاقة بين حضارة (أو ثقافة) مهزومة، وحضارة منتصرة. شرق حالم، وغرب واقعى وعملى، شرقى مسحوق بقلة ثقته بنفسه وتقديره البالغ لكل ما هو غربى، ولو تعلق بلون البشرة والشعر، وغربى لايخالجه أى شك فى تفوقه وأفضليته على غيره. فى مثل هذا الجو من الإثارة الفكرية الممتعة، لايهم أبدا شكل المرأة أو ما إذا كانت سمينة أو رفيعة، صغيرة أو كبيرة الثديين (هذه الأمور المهمة جدا فى قصة الخبز الحافى)، وليس من المهم بالمرة ما قد يكون قد طرأ من أحلام جنسية على ذهن البطل أو البطلة (مما لا يتعرض له الطيب صالح بتاتا)، ولكن المهم فقط هو ما يرمز له تطور العلاقة بينهما وكأنها علاقة بين حضارتين، وما تثيره هذه العلاقة من أفكار عما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين هاتين الحضارتين فى المستقبل. إذا كان الأمر كذلك فإن من الممكن جدا أن يشار إلى العلاقة الجنسية دون أن تثير لدى القارئ أى شعور بالشهوة، أو تحرف القارئ ولو لدقيقة واحدة عن انشغاله بقضية الكتاب، وهى قضية فكرية محضة.

من أكثر فصول رواية الطيب صالح إمتاعا، ذلك الفصل الذى يجرى فيه حوار بين الجدّ، أى جدّ الراوى، واثنين من أصدقائه القدامى، «ود الريس» و«بكرى»، وامرأة يسمونها «بنت مجذوب»، ويصفها الكاتب بأنها «امرأة طويلة لونها فاحم مثل القطيفة السوداء، ما يزال فيها إلى الآن وهى تقارب السبعين بقايا جمال. وقد كانت مشهورة فى البلد، يتسابق الرجال والنساء على السواء لسماع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرّج. وكانت تدخن السجاير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل. ويقال إن أمها كانت ابنة أحد سلاطين الفور. وقد تزوجت عددا من خيرة رجال البلد، ماتوا كلهم عنها وتركوا لها ثروة ليست قليلة. وقد أنجبت ولدًا واحدًا وعددا لا يحصى من البنات اشتهرن بجمالهن وعدم تحرجهن فى الحديث، مثل أمهن».

الأربعة جالسون، الرجال الثلاثة وبنت مجذوب، كلهم تجاوزوا السبعين أو يقتربون منها، بل إن الجدّ كاد يقترب عمره من المائة. جلسوا يتسامرون فى نهاية اليوم، ويفرّجون



«الجنس فى رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» ما هو إلا وسيلة يستخدمها المؤلف لإثارة قضية العلاقة بين مجتمعاتنا والغرب.. قضية العلاقة بين حضارة مهزومة وحضارة منتصرة. بين شرق حالم وغرب واقعى وعملى»



عن همومهم بالضحك والكلام الفارغ، وكلهم أناس طيبون، يجيدون الضحك كما يجيدون إغاثة المسكين وانتزاع حق المظلوم من ظالمه. يقول الراوى:

«سمعتهم يقهقهون فميزت ضحكة جدى النحيلة الخبيثة، المنطلقة حين يكون على سجيته، وضحكة ودّ الريس التى تخرج من كرش مملوء بالطعام دائما، وضحكة بكرى التى تأخذ لونها وطعمها من المجلس الذى يكون موجودا فيه، وضحكة بنت مجذوب القوية المسترجلة».

فى هذا الفصل، يصف الراوى جدّه بهذه العبارات الرائعة والعامرة بالحب والاحترام:

«تمهلت عند باب الغرفة وأنا أستمر فى ذلك الإحساس العذب الذى يسبق لحظة لقائى مع جدّى كلما عدت من السفر. إحساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال موجودا أصلا على ظهر الأرض. وحين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التى هى خليط من رائحة الضريح الكبير فى المقبرة ورائحة الطفل الرضيع.. نحن بمقاييس العالم الصناعى الأوروبى فلاحون فقراء، ولكننى حين أعانق جدى أحس بالغنى، كأننى نغمة من دقات قلب الكون نفسه. إنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع فى أرض منّت عليها الطبيعة بالماء الخصب، ولكنه كشجيرات السيال فى صحارى السودان، سميكة اللحى حادة الأشواك، تقهر الموت لأنها لا تسرف فى الحياة».

فى هذه الجلسة يداعب الجد ودّ الريس بسبب اشتهاره بحب النساء، وبأنه مزواج، ما أن يتزوج من واحدة حتى يقع فى عشق أخرى، فيرد ودّ الريس ضاحكا بأن يروى قصة وقوعه فى الغرام ببنت صغيرة، ولكن القصة تتحول على يد المؤلف إلى حكاية إنسانية لطيفة تبعث فى النفس الضحك، وحب الحياة، وحب أبطال القصة، وحب السودانيين، والتعاطف مع ودّ الريس، رغم أنه رجل شره إذا تعلق الأمر بالنساء.

وعندما يداعب الرجال الثلاثة بنت مجذوب، لأنها تزوجت ثمانية أزواج فيقول لها ودّ الريس «والآن وأنت عجوز كركبة، لو وجدته لما قلت لا» تدافع بنت مجذوب عن نفسها بأظرف كلام وألطف روح، فإذا سألها بكرى: «حدثينا يا بنت مجذوب أى أزواجك كان أحسن؟ قالت بنت مجذوب على الفور «ودّ البشير» . فيرد عليها بكرى مستنكرا: «ود البشير الكحيان التعبان؟ كانت العنز تأكل عشاءه». فتدافع بنت مجذوب عن هذا الزوج من أزواجها بالزعم بأنه عندما كان يبدأ معاشرته لها بعد صلاة العشاء «لاينتهى حتى آذان الفجر»، فيضحك الجميع ويقول لها الجدّ ممعنا فى استفزازها: «لا عجب أنك قتلته فى عز الشباب!» فتضحك بنت مجذوب قائلة: «قتله أجله. هذا الشىء لا يقتل أحدا».

مانوع هذا الكلام؟ إثارة جنسية أم كلام إنسانى جميل يصدق عليه وصف على الراعى لإحدى قصص الطيب صالح بأنها «زغرودة للحياة»؟



نعم، إن «موسم الهجرة إلى الشمال» هى فى نهاية الأمر قصة، كما أن «الخبز الحافى» قصة. وقد يختلط الأمر لدى البعض فيعاملهما معاملة متساوية، ويختلط الأمر عليه أيضا فيعتبر الإشارة إلى الجنس فى إحداهما كالإشارة إلى الجنس فى الأخرى، ولكن هل يجوز أن نغض البصر عن الفوارق الشاسعة بين الاثنين ، ونعتبر الأمر مجرد اختلاف فى الرأى أو اختلاف فى الذوق؟ لا يجوز هذا أبدا فى رأيى، كما أنه لايجوز أن تعامل قطعة من النحاس الردئ وكأنها قطعة من الذهب الخالص أو العكس. قد يخطئ البعض ويلقى بقطعة الذهب جانبا، مستهينا بها على اعتبارأنها قطعة من النحاس تافهة القيمة. فهل يجوز أن نعتبر هذا المسلك وكأنه تعبير عن مجرد «اختلاف فى الرأى» أو «اختلاف فى الذوق»؟ وأن نعتبر كلا من المعدنين جديرًا بنفس المعاملة، وأن التسوية بين المعدنين هى من سمات «الموقف الليبرالى» أو «التعليم الليبرالى» إلى آخر هذا الكلام؟

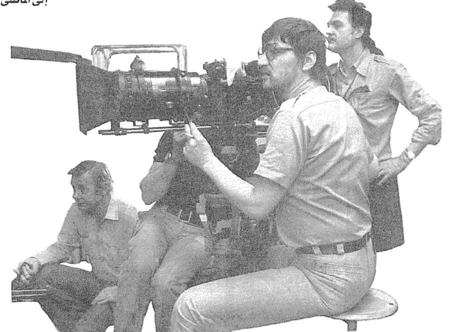
أنا لا أعتقد ذلك، بل أعتقد أن معاملة روايتين كهاتين الروايتين معاملة متساوية والامتناع عن التمييز بينهما باسم الليبرالية أو التسامح أو التحضّر، هو نفسه دليل على تدهور فى الحضارة وسمة من سمات هذا التدهور. أما التساؤل الشائع عمن يقرر ما إذا كان هذا العمل الأدبى أو ذاك عملا رفيعا أو ليس كذلك، ومن الذى يمكن أن يعطى لنفسه الحق فى الفصل فى مثل هذه المسائل الدقيقة والحسّاسة والتى لابد أن يختلف عليها الرأى؟ فردّى عليه هو بتساؤل آخر: «ومن الذى يقرر ما إذا كانت قطعة ما من المعدن ذهبا حرا أم نحاسا رديئا؟ ومن الذى يعطى لنفسه الحق فى المفاضلة بين صوت الكروان ونهيق الحمار؟ إنى أزعم أن الأمر فى الفن لا يختلف كثيرا عنه فى هذين المثلين. وأن الذى يجعل الأمر يختلط على بعض الناس لا يختلف كثيرا عما يجعل البعض يخطئ فيعتبر الذهب نحاسا أو النحاس ذهبا. فالسبب قد يكون هو محض التسرع والتهور فى الحكم، مما يمكن علاجه بالتروّى، أو أن العين غير مدربة مما يمكن علاجه بالتدريب. وقد يكون السبب مجرد مجاراة رأى شائع أو موضة جديدة سرت بين الناس والخوف من مخالفتها، مما يمكن علاجه بإبانة الحق والتشجيع على إعلانه.

«أجنحة الرغبة» فيلم فيم فندرز أحد المخرجين الذين أحبهم المهرجان

خمســـــــــون عـــــــــاما

مهرجان كان السينمائى العالمى يتجه للمستقبل ليقدم عروضا سينمائية جديدة لم يسبق عرضها، يكشفها ويسلط الأضواء عليها، بينما يلتفت الأوسكار إلى الماضى، فينظر إلى ما تم عرضه من أفلام أمريكية فى السنة السابقة ويختار منها





«قبلة المرأة العنكبوت» وتعريف مدهش بسينما أمريكا اللاتينية

.. ومهـــــرجـــــان «كـــــان»

رفيـــــق الصبـــــان

عدد من الكتب صاحب العيد الخمسينى لمهرجان كان السينمائى، الذى يعتبر بنظر الكثيرين واحدا من أهم التجمعات السينمائية العالمية ـ إن لم يكن أهمها جميعا ـ فى تأثيره واتساعه وجماهيريته والنتائج التى حققها على صعيد الجمهور والفن السينمائى معاً.

ورغم الدعاية الواسعة والإعلام المخطط الذى يحيط بجوائز الأوسكار السينمائية، فإن «الأوسكار» يبقى ـ رغم جماهيريته المصنوعة بذكاء إعلانى لا مجال لمناقشته ـ مهرجانا سينمائيا أمريكيا صرفا.. يكرم المتفوقين فى الإنتاج الأمريكى لعام انقضى، بينما يفتح مهرجان كان أبوابه واسعة أمام أى إنتاج مثير للانتباه.. كائنا ما كان مصدره.. وأيّا كانت الدولة التى تقدمه.

بالإضافة إلى أن مهرجان كان السينمائى العالمى يتجه للمستقبل ليقدم عروضا سينمائية جديدة لم يسبق عرضها، يكشفها ويسلط الأضواء عليها، ويبرز مخرجيها وفنانيها، ويحقق ربط الحلقات السينمائية المنفصلة لتشكل دائرة واحدة من نور وظلال، بينما يلتفت الأوسكار إلى الماضى، فينظر إلى ما تم عرضه من أفلام أمريكية فى السنة السابقة فيختار منها (وفق معايير خاصة به وليست دائما هى المعايير الصحيحة) ما يستحق التكريم وما يستحق لفت النظر، وإن كانت الاعتبارات التجارية والإنتاجية كما هو الشأن فى كل ما هو أمريكى تلعب الدور الأول والحاسم.

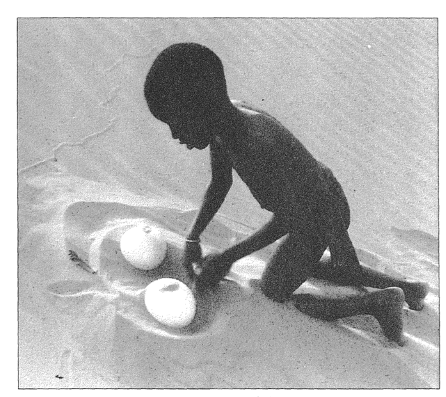
وهذا لا يعنى أن مهرجان كان فوق الشبهات، وإنه يتمتع بحيادية فنية مطلقة، فالشكوك قد وجهت إلى جوائزه أكثر من مرة، ولكن وجود نظام إدارى صارم يعطى أحيانا لرئيس لجنة التحكيم فى المهرجان سلطة ونفوذا لا حد لهما.. حول هذه الشبهات إلى هذه الشخصية الفنية المرموقة التى يختارها المهرجان كل عام لكى تحمل عنه كل التبعات، ولكى تصبح بشكل أو بآخر هى المسئولة عن اختيار الأفلام الفائزة حسب تكوينها الفنى أو ملامحها الخاصة بها أو المدرسة التى تنتمى إليها.

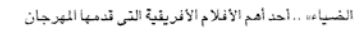
هذه الصفات كلها.. إلى جانب عيوب عدة بدأت تتفشى كالقروح الصغيرة فى جسد هذا المهرجان الهام.. هو الذى جعل هذه الكتب التى نشرت تباعا، والتى حاولت بشكل أو بآخر تحليل هذا المهرجان وتاريخه والنقاط الفاصلة فيه، والخلافات التى أثارها، والقضايا التى طرحت من خلاله، والنتائج التى حققها فى المسار السينمائى العالمى، والشخصيات السينمائية التى اكتشفها، والمدارس السينمائية التى شجعها، والتيارات الساخنة التى وقف ضدها.



خمسة كتب حاولت أن توجه أنوارا كاشفة إلى هذا المهرجان، بعضها بكثير من الجدية، والبعض الآخر بنوع واضح من التحيز، والقسم الأخير بشكل إعلامى وثائقى فيه بعض الفائدة والكثير من المعلومات.

المهرجان كما هو الآن. يضم عدة تظاهرات سينمائية تتكامل وتتضامن لتعطى المهرجان وجهه النهائى. هناك أولا وقبل كل شىء المسابقة الرسمية التى تضم كل عام (٢٢ـ ٢٤) فيلما روائيا طويلا، إلى جانب مجموعة أخرى صغيرة من الأفلام (٥ ـ ٦) تعرض على هامش المسابقة الرسمية.. وتعتبر خارج التحكيم لأسباب شتى، أهمها كون مخرجها قد تعدى مرحلة التسابق، وأصبح قيمة سينمائية معترفا بها تحوز احترام الجميع. أو كون هذه الأفلام تشكل ظاهرة سينمائية تستحق لفت النظر دون أن تكون موضعا للتنافس الحقيقى مع بقية الأفلام المختارة، أو أن تكون هذه الأفلام نوعا من الهدية الترفيهية يقدمها المهرجان الرسمى لرواده. لما تحمله من متعة حقيقية وسينمائية.





«الضياء».. أحد أهم الأفلام الأفريقية التي قدمها المهرجان



«١٩٠٠».. رائعة برتولوتشي عرض المهرجان نسختها الكاملة في خمس ساعات

إلى جانب المسابقة الرسمية، هناك تظاهرة ثانية تحمل طابعا شبه رسمي، ويطلق عليها اسم «النظرة الخاصة»، وهي تشمل عموما أفلاما كادت أن تحصل على شرف التمثيل الرسمي، ثم أبعدت عنه لوجود من هو أكثر استحقاقا منها، أو لأنها تمثل وعدًا سينمائيا يستحق المتابعة والاهتمام، أو لأنها تقدم نظرة سينمائية حاسمة على اتجاه سينمائي مبكر في دولة ما، أو تعلن رأيا فنيا سينمائيا في قضية سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية تهم المجتمع العالمي كله بشكل أو بآخر.

إلى جانب هذين القسمين اللذين يعتبران القسمين الرسميين في المهرجان، هناك تظاهرة «أسبوع النقاد» وهي تضم اختيارات سبعة أو ثمانية أفلام من قبل لجنة منبثقة من هيئة النقاد العالميين تختار أعمالا أولى لمخرجين شبان من جميع دول العالم، تمثل الاتجاهات الشابة في السينما، وتبشر بالأسلوب السينمائي الذي لم يتكون بعد تماما، ولكنه يشكل ظاهرة تستحق المتابعة.

ولاشك أن هذا الأسبوع، قد قام خلال الأربعين عاما الماضية بجهود مشكورة واستطاع حقا أن يقدم اكتشافات سينمائية تستحق الانتباه.

أما التظاهرة الأكثر أهمية إلى جانب المسابقة الرسمية، والتي أطلق عليها البعض اسم (مهرجان الظل) فهي تظاهرة (أسبوعا المخرجين)، وهي تضم أفلاما تم اختيارها من قبل لجنة مؤلفة من المخرجين، وذلك اعتراضا على لجنة الاختيار الرسمية التي تضم فئات سينمائية من كل نوع.

(أسبوعا المخرجين) يحاول أن يقدم سينما صرفة، سينما نقية، تحمل طابع مخرجها أكثر مما تحمل طابع منتجها وتحاول أن تؤكد دور المخرج الرئيسي في خلق الفيلم السينمائي.

ولاشك أن وجود هذه التظاهرة الجانبية قد أفاد المهرجان فائدة جمة؛ لأنها استطاعت أن تقدم «الرأي الآخر» ومن خلال أفلام تم اختيارها بعناية فائقة على مدار العام من خلال زيارة المسئول عن هذه التظاهرة لأغلب الدول التي تنتج أفلاما واختيار الصالح منها لعرضه بعيدا عن ضجة الأسماء الكبيرة الشهيرة التي استأثرت بالمسابقة الرسمية ولازالت تحمل الشارة الذهبية التي تفتح أمامها جميع الأبواب، على حساب الآمال الشابة التي تنتظر بفارغ الصبر فرصة مثل هذه لتجتاز العتبات الملكية التي تقودها إلى الشهرة وإلى التعريف بفنها.

تظاهرة «أسبوعا المخرجين» كانت أيضا مختبرا، قدم فيه المهرجان أطباقا شهية للمسابقة الرسمية،اختارت منها في السنوات التي تلت عرضها في هذه التظاهرة أسماء لامعة دخلت ظافرة إلى ميدان التسابق الرسمي، مسلحة بما كتب عنها، وبالتأثير الذي أحدثته أفلامها في المجتمع السينمائي العالمي الذي يتابع نشاط السينما ومخرجيها في كل أركان المعمورة.

هناك بعد هذا كله تظاهرة الفيلم الفرنسي الشاب، فمهرجان «كان» هو أولا وقبل كل شيء مهرجان فرنسي، أي أن عليه بطريقة ما تشجيع السينما التي تنتج على أرضه، وهذا التشجيع لا يقتصر على تقديم نموذج أو أكثر في المسابقة الرسمية تقف موقف الند والتنافس مع سواها من الأفلام الآتية من كل أنحاء العالم، وإنما عليه أن يلقي نظرة حنان وتشجيع على براعم المستقبل في هذه السينما، فيختار منها نماذج تستحق المشاهدة ليعرضها على رواد هذا المهرجان الكبير الآتين من كل ركن ليعرفهم بما يجري في باطن السينما الفرنسية ونوعية الجنين الذي يرتعش في أحشائها.

الأفلام الفرنسية المعروضة في هذه التظاهرة قاصرة على أفلام الشبان الصغار، وهي كما قلنا، معمل اختبار حقيقي سواء بالنسبة للمنتجين الفرنسيين أنفسهم أو بالنسبة للمتفرج العالمي، يمكن من خلال مشاهدتها معرفة ماذا يصلح لأن يكون غذاءً داخليا، وما يصلح لأن يكون طعاما دسما يوضع على موائد السينما العالمية الحافلة والمتنوعة.



الكتب الخمسة التي كتبت عن هذا المهرجان بمناسبة عيده الخمسيني تناولت المهرجان من عدة وجهات نظر، وبالطبع فإن أكثر وجهة نظر تستحق المتابعة هي العطاء الذي قدمه المهرجان لمسار السينما في العالم والاكتشافات السينمائية المبهرة التي وجه إليها النظر وأصبحت بعد ذلك قيما سينمائية ثابتة لا جدال حولها.

أول هذه الاكتشافات وأهمها، اكتشاف السينما اليابانية وإلقاء الأنوار عليها من خلال منحها السعف الذهبي عن فيلم «بوابة الجحيم» عام ١٩٥٤، والتي كان وراءها نفوذ وتأثير رئيس لجنة التحكيم آنذاك الشاعر والسينمائي الكبير الراحل «جان كوكتو»، ومنذ هذا التاريخ فتحت الأبواب الأوروبية العريضة أمام السينما اليابانية والتي كان اكتشافها الأوروبي في ذلك العام يعادل اكتشاف اللوحات المائية اليابانية في معرض الرسم في باريس في أوائل القرن، والتي قلبت مفاهيم الفن التشكيلي الأوروبي المعاصر.

«بوابة الجحيم»، أطلق في سماء السينما

لم تكن السينما اليابانية وحدها هي الاكتشاف السينمائي الذي قدمه مهرجان كان للعالم، فقد توالت هذه الاكتشافات المبهرة التي كان لهذا المهرجان فضل تقديمها.. ومنها سينما أوروبا الشرقية التي كانت السياسة الأمريكية إبان الستار الحديدي تفرض حولها تعتيما إعلاميا مهينا

١ - (ذكريات كان) **Cannes Memoires**
Jean Claude Romer
Media,1998, 320 pp.

٢ - (تاريخ كان) **Histoires deCannes**
Antoine de Baecque
Cahiers de Cinema,1998, 283pp.

٣ - **Les Realisateurs de la Quinzaine** (مسيرة نصف شهر المخرجين)
Pierre Henri Deleau
La Quinzaine,1989, pp 210.

٤ - (ذهب وجوائز) **D'or et des Palmes**
PanPierre Billord
Gallimard,1997, pp 246.

«الكترا» قصيد شعرى للمخرج يانشكو قدمه المهرجان بتركيز شديد

العالمية، أسماء وأفلام مخرجين كبار كانوا فى الظل حتى ذلك التاريخ، وأتى المهرجان ليلقى على أعمالهم أضواء باهرة وليعيد الاعتبار إلى الفن السينمائى الآسيوى، وابتدأنا نعرف كيروسافا وأوزو وكيوباشى وبتروجشى وكامورا وسواهم من عمالقة السينما الشرقية.

ولم تكن السينما اليابانية وحدها هى الاكتشاف السينمائى الذى قدمه مهرجان كان للعالم، فقد توالت هذه الاكتشافات المبهرة التى كان لهذا المهرجان فضل تقديمها وإحاطتها بالجو والمناخ الملائمين، سينما أوروبا الشرقية التى كانت السياسة الأمريكية إبان الستار الحديدى تفرض حولها تعتيما إعلاميا مهينا، والتى استطاعت بفضل هذا المهرجان أن تطلق فعالياتها، وتبرز أسماء مخرجيها الكبار كما حدث لياتشكو المجرى شاعر الثورة والجمال الجسدى والأحاسيس الحارة والتعلق الشبقى بالأرض والتاريخ، أو كوستاريتزا اليوغوسلافى الذى حاز السعفة الذهبية لفيلمه «أبى فى رحلة عمل» والذى كان نقطة الانطلاق الرئيسية لأسلوب سينمائى متميز لازلنا نجنى ثماره حتى اليوم.

البولندى كوسلوفسكى الذى لفت النظر منذ أفلامه الأولى التى عرضها فى أسبوع النقاد ثم انتقلت إلى نصف شهر المخرجين قبل أن تصل إلى طرح نفسها بقوة فى المسابقة الرسمية وتنجح فى أن تفوز بالجائزة الكبرى فى فيلم «تحت الأرض». ولم يكن كوسلوفسكى أول بولندى توجه له (كان) الانوار، فقد سبقه إلى ذلك اندريه فايدا الذى عرض معظم أفلامه الكبرى فى هذا المهرجان وحاز هو أيضا جائزة السعف الذهبى لفيلمه «رجل من حديد».

حتى الاتحاد السوفياتى استطاع أن يدعم اتجاهات سينمائيين جدد، والذين لم يكن النظام السوفياتى ينظر إليهم آنذاك نظرة كبيرة كتاركوفسكى وكوتشالوفسكى أو كالاتوزوف الذى فاز أيضا بالجائزة الكبرى لفيلمه «عندما تمر الدقائق» ، والذى كان بمثابة جواز سفر حقيقى للسينما الروسية، دخلت بعدها وبواسطته إلى عواصم أوروبا كلها، بل استطاعت أيضا أن تعبر المحيط وتصل إلى عرين الأسد فى أمريكا.

السينمات الجديدة القادمة من العالم الثالث، كان لها أيضا دور كبير فى هذا المهرجان، انطلقت منه محققة لنفسها رواجا لم تكن تحلم به، وأمكنها أن تحصل على مناطق للعرض كانت محظورة عليها لولا هذا المجد المفاجئ الذى أتاها من المدينة الصغيرة الواقعة على شاطئ البحر.

تركيا بفيلم بلمزجونى (الطريق) الذى تحدى به المهرجان النظم السياسية التركية التى حاولت أن تطيح بمخرجها الكبير الذى فر من سجونها ليرسم عنها صورة شعرية مليئة بالألم والشجن وطافحة بأوراق الأمل الخضراء رغم كل اليأس المحيط بها، بفيلم لا حد لجماله استحق من أجله الجائزة الأولى.

«الأخضر حامينا» الذى نجح فى أن يجعل أول دولة عربية وهى الجزائر تفوز بهذا التكريم الكبير الذى تتمناه كثير من دول العالم المتقدمة سينمائيا عندما استطاع فيلمه «وقائع سنوات الجمر» أن يفوز على كل الأفلام التى اشتركت معه فى ذلك العام.

مصر.. التى كرم المهرجان مخرجها الكبير يوسف شاهين فى عيد المهرجان الخمسينى وأعطاه دويًا إعلاميا ليس بحاجة إليه فى فرنسا، قدر ما هو بحاجة إليه لكى يغزو مناطق أخرى من العالم يرفع بها راية الرؤية السينمائية المصرية المتقدمة.

والجميل أن اكتشافات مهرجان كان لم تقتصر على الدول الصغيرة التى تحتاج إلى دعم إعلامى وفنى، كى تستطيع الوقوف على قدميها النحيلتين أمام التنين الأمريكى، بل إنها تعدتها إلى مخرجين وأفلام قدموا من دول شديدة التقدم سينمائيا، ولها أسواقها وجمهورها ومحبوها.

ألم يكن مهرجان (كان) هو السبب فى لفت الأنظار إلى المخرج الإيطالى الكبير ميشيل انجلو انطونيونى، بعد الفضيحة المادية التى سببها عرض فيلمه «المغامرة» الذى استقبله جمهور كان بالنقد اللاذع والهتاف المضاد، والذى جعل الكثيرين يرغبون برؤية هذا الفيلم «الفضيحة» ليكتشفوا بعدها قيمته الحقيقية وتميزه السينمائى، وليصبح رأس مدرسة سينمائية كاملة تحمل اسم هذا المخرج العبقرى وتدافع عن أسلوبه.

وألم يكن مهرجان كان أيضا هو أول من أعطى فريدريكو فيلينى قيمته الحقيقية عندما استقبل بحماس لا حد له فيلمه «لاستررادا» ثم منحه جائزته الكبرى عن رائعته «الحياة حلوة» مما جعل فيلينى بعد ذلك شديد الوفاء لهذا المهرجان.. يخصه دائما بأفلامه التى يعرضها على شاشاته مفضلا إياه على أى واحد من المهرجانات الأخرى التى كانت تدعوه وتستعطفه للاشتراك فى فعالياتها».

وحتى السينما الأمريكية.. التى ابتدأت منذ سنوات تعلن بواسطة شركاتها الكبرى حربا صريحة على المهرجان وأن تبعد عنه أفلامها التى تتميز بإبهارها ودعايتها والنجوم الكبار الذين يزينونها، وذلك بسبب وقوف المهرجان على السينما المستقلة وتشجيعها وإعطاء الجوائز لروادها الكبار كستيفن سودربرج عن فيلمه الأول «أكاذيب وفيديو كليب» أو الثائر جون ترانتينو عن فيلمه «أقاصيص شعبية» الذى استطاع رغم صعوبته وخصوصية أسلوبه أن يفرضه على شاشات الدنيا كلها بعد فوزه بالسعفة الذهبية.

والسؤال الملح فى كل هذا هو: ماذا فعل هذا المهرجان بالنسبة للسينما الفرنسية خلال مرور الخمسين عاما أو يزيد على إقامته؟.. ماذا استطاعت السينما الفرنسية أن تحقق فيه؟.

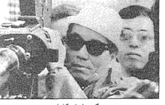
مايدفع على الاحترام فى هذا المهرجان الفرنسى هو هذه الحيادية التى تميزه إلى حد كبير فى جوائزه.. إذ عندما ندرك أن فرنسا لم تنل خلال فترة نصف قرن الجائزة الكبرى إلا ثلاث أو أربع مرات، والأفلام لاشك أنها تستحق هذا التكريم.. يتجه حكم المرء إلى تصديق هذه

ميلوس فورمان



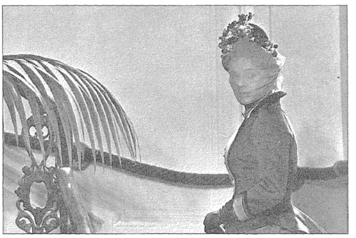
آرثر بن

ماى زترلينج



كون إيشيكاوا

مخرجون لمعوا بنصف شهر المخرجين



«البرىء»... آخر أفلام فيسكونتى الذى عرضه المهرجان

الحيادية.. التى يطعن فيها عموما فى أغلب المهرجانات الأخرى.

وإن كان ليس من المستبعد أن تلعب الأهواء السياسية أحيانا أو الاتجاهات الدولية أثرا غير مباشر فى التأثير على أعضاء لجنة التحكيم ورئيسها كما حدث بالنسبة لفيلم «رجل الحديد» لأندريه فايدا. أو «وداعا عشيقتى» الصينى الذى رغم تميزه الشديد ومستواه الفنى الذى لا يحتمل الجدل.. قد أثار الشكوك حول اختياره لأن فوزه تصادف مع التقارب الصينى الفرنسى آنذاك على شتى المستويات.

أو فوز اليونانى الكبير أنجولوبولس بالجائزة الكبرى عن فيلمه «الأبدية يوم واحد» والذى كان بمثابة اعتذار علنى من المهرجان لعدم حصول هذا المخرج العبقرى على الجوائز التى يستحقها فى أفلامه السابقة التى عرضها فى مهرجان (كان) كخطوة اللقلق المعلقة أو نظرة أوليس الذى فاز مع ذلك بجائزة لجنة التحكيم الكبرى.. والتى تتميز بشكل ملحوظ عن فيلمه الجميل والأخير الذى نال من أجله الجائزة.

وتبقى كما قلنا فى مطلع الحديث مسئولية إعطاء هذه الجائزة التى تعتبر مفتاحا حقيقيا للمخرج وللبلد الذى ينتمى إليه، للخروج من محلية ربما تكون ضيقة بعض الشىء، إلى عالمية حقيقية يتمناها كل فنان.

هذه المسئولية تسقط بشكل مباشر على عاتق رئيس لجنة التحكيم. لذلك فإن تحديد شخصية هذا الرئيس يحدد معالم الجائزة المتوقعة ويرسم خطا سينمائيا واضحا لاتجاه المهرجان فى ذلك العام.

لذلك يسعى مهرجان كان قبل انعقاده بشهور طويلة إلى البحث عن الرئيس المناسب للمهرجان المقبل ويعلن عن ذلك قبله بمدة معقولة تتيح للدول المشاركة أن تنتقى بموجبه أفلامها المرشحة للعرض.. والتى تتلاءم بشكل ما مع ذوق وجماليات واتجاه الرئيس المنتظر.

الكتاب الثانى الذى ظهر عن المهرجان كتاب يؤرخ لدور نصف شهر المخرجين، ويحدد الدور الذى لعبته هذه التظاهرة الفنية الكبيرة من خلال هامش المهرجان.. والأهمية المتزايدة التى يحظى بها لدى الدول الصغيرة وشباب المخرجين، وكيف استطاعت هذه التظاهرة أن تكون العتبة الحقيقية لسلالم المهرجان الرئيسية وكيف ساعدت فى انطلاق عدد كبير من المخرجين الذين يحتلون اليوم مكانة لا حد لأهميتها فى خارطة السينما العالمية والتى كان «أسبوع المخرجين» هو السبب الحقيقى والدفعة الرئيسية التى وجهتهم إلى بؤرة النور.



السينمات الجديدة القادمة من العالم الثالث، كان لها أيضا دور كبير فى هذا المهرجان، انطلقت منه محققة لنفسها رواجا لم تكن تحلم به، وأمكنها أن تحصل على مناطق للعرض كانت محظورة عليها.



نصف شهر المخرجين ابتدأ نشاطه كما يقول الكتاب الذى صدر عنه سنة ١٩٦٩ عندما أراد بعض المخرجين وعلى رأسهم جابرييل البيكوكو أن تفتح نافذة للتعبير الحر فى مهرجان كان السينمائى يطلق عليها اسم «السينمات الحرة» ويقدم فيها مجموعة من المخرجين الشبان الذين يحاولون إبراز أفكارهم بحرية مطلقة غير عابئين بالأساليب التقليدية أو الميزانيات الكبيرة أو الضغوط السياسية والرقابية التى تمارس عليهم، أى أن تكون هذه التظاهرة وسيلة للتعريف بالسينما القادمة.

وبالفعل فقد استطاعت هذه التظاهرة منذ أول انعقاد لها أن تثير الرأى العام السينمائى العالمى عندما عرفته باتجاه السينما الكوبية من خلال فيلم «لوسيا» لإليجو كاربانتييه الذى أثار الدهشة والإعجاب.. وتداولته فورًا شركات التوزيع لعرضه فى أكثر من عاصمة أوروبية. وكان ذلك أول الغيث.. وحظيت هذه التظاهرة بالدعم الجماهيرى والعالمى ونجحت أيضا فى استقطاب الدعم الرسمى للحكومة الفرنسية إثر تكاثر طلبات المخرجين الشبان والدول الصغيرة على عرض أفلامهم من خلالها.

وهكذا عرفنا من خلال العروض السنوية المستمرة لهذه التظاهرة أسماء ما كان يمكن لنا أن نعرفها من غيرها. عرفنا وجوها مدهشة من سينما أمريكا اللاتينية كجلوبير روشا وارنالدو وجابور وروى جويرا.

كما انطلقت أيضا من هذه التظاهرة أسماء أكبر مخرجى ألمانيا المعاصرة: فاسبندر وهرتزوج و فيم فندرز. كما تأكدت موجة العبث الشعرى التى كان الكثيرون ينظرون إليها على أنها نوع من الألاعيب السينمائية الخادعة كافلام ورنر شروتر.

كما نجحت أيضا فى تأسيس دعائم السينما الأيروتيكية وفصلها تماما عن السينما الجنسية البورنوجرافية التى كانت تلاحقها باستمرار وتمنع عرض أفلام قد تحتوى فعلا على بعض المشاهد الجنسية، ولكنها تقدمها بأسلوب سينمائى شعرى عال يجعلها تقارن بلوحات العرى الشهيرة بالفن التشكيلى. وهكذا فعلا عرضت أفلام بول موريس الأمريكى. ثم فيلم المخرج اليابانى أوشيما «امبراطورية الحواس» الذى كان الخط الفاصل الحقيقى لولادة سينما ايروتيكية رسمية يمكن عرضها كتحفة فنية للسينما تعلو فوق كل الشبهات.

نصف شهر المخرجين قدم لنا مخرجين فى أفلامهم الأولى.. قطعوا بعد ذلك شوطا كبيرا وأصبحوا ملء السمع والبصر كالأخوين تافيانى من إيطاليا وجيمس ايفورى من أمريكا وثيوانجلو بولس من اليونان وفيرامير من الهند وجيم جاراموش سيد السينما المستقلة الأمريكية الآن دون منازع.

ولكن إذا كانت مساهمة تظاهرة نصف شهر المخرجين موجهة إلى السينما الشرقية وسينما أمريكا اللاتينية وسينمات المعسكر الشرقى فى تلك الفترة، فإن السينما العربية قد حظيت باهتمام ملحوظ، وكانت هذه التظاهرة سببا لعرض أفلام من عدد من الجنسيات العربية المتميزة بالإضافة إلى السينما المصرية.. التى قدمت لهذه التظاهرة عددا من كبار مخرجيها كيوسف شاهين فى «العصفور» وتوفيق صالح فى «المخدوعون»، فإنها قدمت أيضا نماذج جيدة من سينما الشبان كفيلم عاطف الطيب «حب فوق هضبة الهرم» وفيلم يسرى نصرالله «سرقات صيفية». سوريا تمثلت فى فيلم أسامة محمود «نجوم النهار». وتونس بأفلام متعددة منها «طائر السطح» لفريد بوجدير و«شمس الضباع» و«الملائكة» و«صمت القصور» لحفيدة تلاتلينى. و«عزيزة» لعبد اللطيف بن عمار - الكويت - رغم قلة إنتاجها السينمائى كانت موجودة أيضا من خلال فيلم «عرس الزين» لخالد الصديق. وفلسطين من خلال أفلام متعددة أشهرها عرائس من قصب لجلالى فرحاتى.

الدور الذى لعبته هذه التظاهرة بتقديم هذه النماذج المختارة الجيدة من السينمات العربية المختلفة دور لا يستهان به على الإطلاق، خصوصا عندما نعرف أن الأسواق الأوروبية والأمريكية كانت مغلقة تماما فى وجه السينما العربية والتعبير السينمائى العربى.



ونصل أخيرا، إلى مجموعة من الكتب الأخرى التى حاولت أن تقدم صورة أخرى للمهرجان من خلال الأحداث السياسية والفنية التى تهم الجمهور الكبير وما يحيط بهذه الأحداث من قضايا ومن فضائح.. يأخذ البعض منها وجهها الباسم ويأخذ البعض الآخر وجهها الانتقادى الحاد.. كما حدث مثلا سنة ١٩٦٨ فى أحداث مايو.. حيث تدخل عدد من المخرجين الفرنسيين لإيقاف فعاليات المهرجان تضامنا مع أحداث الطلبة التاريخية فى ذلك الوقت وعلى رأسهم جان لوك جودار وفرانسوا تروفو. أو الضجة الإعلامية التى صاحبت ظهور انجمار برجمان المخرج السويدى الذى وافق لأول وآخر مرة على عقد مؤتمر صحفى ضخم فى قاعة العرض الكبرى للمهرجان إثر تقديم رائعته «همس وصرخات».

أو الفضائح الصغيرة التى تثير البسمات كظهور مادونا فى ثوب نوم قصير تحت فرائها الأبيض فى حفلة افتتاح «النوم مع مادونا» أو الأسئلة الحرجة التى تعرضت لها شارون ستون النجمة الأمريكية عقب عرض فيلمها «الغريزة الأساسية».. أخبار البعض منها يصلح للمجلات الفنية، ولا يستحق أن يورد فى كتاب جاد. والبعض الآخر يؤرخ للحدث من خلال قضية تثار أو فيلم يعرض تحاط به علامات الاستفهام الكثيرة أو مخرج يستغل أضواء المهرجان ليعبر عن موقف سياسى أو أخلاقى.

المهم فى هذه الكتب كلها أنها تشكل مجموعة من المراجع تؤرخ لتطور الحركة السينمائية فى العالم.. وجوهها المميزة وأفلامها الهامة ومخرجوها الكبار وتؤطر أساليب سينمائية أصبحت الآن من ضمن كلاسيكيات الفن السابع.. وذلك من خلال مهرجان سينمائى هام يعتبر دون شك من خلال عطائه وأهميته وسيطرته والسوق السينمائية التى تعقد على هامشه واحدة من أهم مهرجانات السينما فى العالم وأكثرها عطاء ووعودًا. ■



كتاب الزاوية

الساق على الساق

فى وصف باريس وأهلها

واعلم أن أهل باريس قد اصطلحوا على أمور فى المعاش والنساء تميزوا بها عمن سواهم. أما فى أمر المعاش فإن من يأكل منهم فى المطاعم الشائعة فإنه يشارط صاحب المحل أو بالحرى صاحبته على أن يعطيها فى الشهر قدرا معلوما ويأكل عندها شيئا معلوما. فتعطيه تذاكر تؤذن بعدد المرات فيدفع ثمنها ثم يعيدها عليها فيؤدّى عن كل غداء أو عشاء تذكرة. فيتوفر عليه فى ذلك ربع المصروف. وقس عليه الحمامات والملاهى وما أشبهها. فأما أمر النساء فإن أصحاب البيع والشراء لما كانوا قد اتخذوا لإدارة أشغالهم نساء حسانا كما سبقت الإشارة إليه، فإذا خرجن فى الليل بعد انقضاء أشغالهن ترصدتهن الرجال ودعوهن إلى مواضع الأكل والقهوة والرقص واللعب. فتذهب كل واحدة مع من تحب. فمتى رافقته إلى أحد هذه المواضع علم أن حقه عليها صار ضربة لازب. فإما أن يستوفيه منها تلك الليلة فقط أو يوافقها على إعادة الوصل فى كل أسبوع مثلا مرتين أو ثلاثا وأن يعطيها فى آخر الشهر أجرة معلومة. ومابقى لها من الساعات فإنها تؤجره لآخرين بأجرة معينة. فترى للواحدة منهن عدة عشاق تواصلهم فى أوقات مختلفة من الليل والنهار. ومع ذلك فلاتزال تلقب بدموازل وهى كلمة تطلق على الأبكار على وجه التعظيم. ومعناها سيدة غير ذات بعل. ومنهم من يتصدى لمعرفة هؤلاء البنات من المراقص. فيعمد الرجل إلى بنت ويدعوها للرقص. فإذا أعجبته وأعجبها دعاها للشراب فى موضع مخصوص فى المرقص وعقد عليها عقد الزيارة الشهرى. ومن عامل واحدة منهن مشاهرة لم ينفق عليها نصف ما ينفقه لو قضاها على كل مرة على حدتها، وللنساء رخصة فى باريس أن يدخلن جميع المراقص العمومية من دون أن يدفعن شيئا اجتذابا للرجال بكثرتهن. ولكن عليهن أن يرقصن معهم إذا استرقصوهن. إلا إذا اعتذرن لهم بعذر يقبلونه كأن تقول المدعوة مثلا قد دعانى آخر من قبلك فلابد لى من أن أرقص معه أو نحوذلك. ثم لاحرج أيضا على من اكترى فى منزل بيتا مفروشا كان أو غير مفروش أن تزوره صاحبته فى مسكنه. سواء كانت من النوع الذى ذكرناه أعنى من النساء اللائى بمنزلة بين الحرائر والزوانى أو من غيره. وأن تبيت عنده على علم من الجيران والسكان. فإن منزلة هذا عند منزلة أهل باريس كمنزلة المتزوج. ولافرق عند أهل باريس بين امرأة متزوجة لها سبعة بنين وسبع بنات تربيهم فى تقوى الله وطاعة الملك، وبين قحبية تبيع عرضها لكل ابن سبيل وتتفنشخ لكل مجتاز فى الطريق كما تقول التوراة.

عـــــروض مـــــوجـــــزة

كتب عربية

تعال نفكر معًا
أنيس منصور
القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٩.

أكثر من ثمانين مقالًا، يضمها هذا الكتاب، موضوعاتها متعددة واهتماماتها تتقافز بين الأدب والسياسة والبحث العلمي والفكر والفلسفة وغيرها، وتطل عليك عبرها وجوه من زماننا وأخرى من زمن فات وثالثة من الفضاء وكائناته الواقعية والمحتملة.

ينقل المؤلف عن الكاتب السويسري دورينمات قوله له:

> شيء واحد يخجلني في هذه الدنيا، أن تكون بلادي على الحياد، كيف يمكن أن تكون محايدا أمام الشر والفقر والمرض، كيف تجمع كل أموال الدنيا ولا تنفقها على الدنيا، كيف يعيش مجتمع على فلوس الشعوب، كيف نرضى لأنفسنا أن نكون حراسًا للفلوس المسروقة والمنهوبة، كيف نحمي الظلم والقهر وكل الذي يهمنا هو امتلاء بنوكنا.

لكن معظم مقالات الكتاب يشغلها الهم العام والشأن المصري والعربي، ففي مقالة عنوانها «أي غزو» يرفض المؤلف ادعاءات البعض عن الغزو الأجنبي الذي يتم عبر وسائل الاتصال الحديثة، ويقول في عبارة صريحة:

> النجاة ليست في مقاومة التكنولوجيا المتطورة جدا، وإنما في تعلمها، النجاة في العلم والإنتاج وشيء من الخيال.

ويهاجم في مقال آخر البيروقراطية التي تعيق مصر عن التقدم والتطور، ويتحدث في مقال رابع عن حسابات مؤسسة نوبل واختياراتها في عالم الأدب، وفي خامس عن السياسة التي يرى أنها «فن السفالة الأنيقة»، وفي سادس عن الإنجازات العلمية المهمة في مجال الفضاء، حيث يتوقع العلماء - كما يقول المؤلف - أن نعيش بعد ربع قرن على القمر، وأن نهبط آمنين على المريخ، وثمة مقالات أخرى عن كيفية الراحة والترويح عن النفس بين فترات العناء الطويلة.

التغيير
الصراع والضرورة
رفيق حبيب
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩.

على غرار صيحات المناضلين في ثورة المصريين عام ١٩١٩، يرفع هذا الكتاب شعار «التغيير التام أو الموت الزؤام».

فالمؤلف يرى أن الأمة العربية والإسلامية تواجه تحديا يهدد وجودها في الصميم.. «الحرب الآن ضد ضمير الأمتين العربية والإسلامية ومحاولة هزيمة هذا الضمير». فما تم بحسب قوله هو جلاء للمستعمر، لكن ما لم يتم هو تغيير الأوضاع التي خلقها المستعمر وبناء أوضاع وأنظمة جديدة.

والفكرة الأساسية للكتاب تقوم على رفض دعاوى التوفيق بين مشروع الإحياء الحضاري كما يتبناه دعاة تجديد تراث الأمة وأصولها، ومشروع التماهي الكلي مع الحضارة الغربية بكل ما فيها، وهو تيار التغريب كما يسميه المؤلف، الذي يرى أن التغيير لن يتحقق إلا بسيادة أحد المشروعين، والمشروع الذي يرشحه للسيادة هو ذاك الذي ينادي بالنهضة من خلال إحياء الموروث وتجديده وتطويره، لأن نجاح فكرة إدماج الأمة في الحضارة الغربية يؤدي إلى تفكك وتحلل قيمها الخاصة، بما يقود إلى انقطاع حضاري كامل وإبادة شاملة للمنظومة الحضارية الموروثة.

وبرغم أن المؤلف يشدد على رفضه لفكرة استبعاد الآخر، إلا أنه يؤكد عليها في سياق آخر..

> «المشكلة بين هذين المشروعين، أن كليهما ضد الآخر، فللتغريب قيمه ولحضارتنا قيمها. ولذلك فإن أي مشروع منهما إذا نجح، ينفي الآخر في الواقع».

ولايدعو المؤلف إلى الالتزام الحرفي بالمرجعية وإعادة إنتاج الماضي، فهذا من شأنه أن يؤدي إلى ظهور تيارات متطرفة تتبنى حلولا صدامية عنيفة، والمطلوب نهضة تتولد من داخل الأمة لتجدد نفسها، ثم ينتج عنها تطوير للأنظمة والقوانين، وهذا يعني أن برنامج التغيير الحضاري موجه أساسا نحو النظم الحاكمة لحياتنا، لكنه لايهدف إلى هدم نموذج الدولة، بل إعادة إنتاجها حسب شروط المرجعية. وفي هذا الإطار، فإن شرط النهضة هو تفكيك التغريب ومصطلحاته الوافدة، ويورد المؤلف مفاهيم مثل حقوق الإنسان ونظام السوق وحقوق المرأة، كنماذج لأفكار وافدة بحاجة إلى تفكيك.

ضعف الثقافة الجنسية
سر شقاء الزوجين
عبد الهادي مصباح
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩.

لم يعد ممكنا، في عصر صار فيه العالم عند أطراف أصابعنا عبر الإنترنت والأطباق الهوائية والقنوات الفضائية، أن نستمر في إحاطة موضوع الجنس على أهميته، بهذه الهالة الهائلة من الغموض، التي تشيع من المخاوف أكثر مما تبعث على الاطمئنان، فأين يمكن للشاب والفتاة أن يحصلا على معلومات صحيحة عن الجنس تؤهلهما لأن يصبحا زوجين صالحين في زمن انتشرت فيه أمراض الاتصال الجنسي حتى جاوزت أربعين مرضًا، كما أن عدم التوافق الجنسي، واحد من أهم الأسباب التي تقود إلى الانفصال، وهو يمثل - حسب إحصائيات يشير إليها الكتاب - ٧٥٪ من أسباب الطلاق في أوروبا والولايات المتحدة.

ويلقي المؤلف ضوءًا مهما على الأسباب النفسية الكامنة وراء الضعف الجنسي والبرود عند الرجال والنساء؛ والعلاقة السلبية بين التدخين والمخدرات والكفاءة الجنسية، ويتعرض بشكل موسع للمنشطات الجنسية سواء منها الأدوية المعتمدة على المركبات الكيميائية أو المستحضرات الطبية المشتقة من الأعشاب والمواد الطبيعية، وكذلك يعرض للأغذية ذات العلاقة بالنشاط الجنسي مثل التمر والجرجير والجزر والبقدونس والخس والحيوانات البحرية وغيرها، كما يفسر علميا التغييرات الجنسية الطبيعية التي تحد من مقدرة الرجل الجنسية مع تقدم العمر، أما الفياجرا - ذلك الأمل أو الكابوس - الذي لاح أخيرا للرجال كبار السن، والشباب الذين يعانون ضعفا جنسيا، فإن المؤلف يقيمه علميا، مستندا إلى نتائج أبحاث أجرتها مراكز دراسات يعتد بها.



النظام السياسي وقضايا التحول الديمقراطي في مصر
هالة مصطفى
القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩.

عشرات الدراسات يضمها هذا الكتاب يشملها جميعا عنوان عريض هو «التحول الديمقراطي»، ذلك الذي تمثل مرحلة الثمانينيات والتسعينيات في مصر نقلته الهامة بحسب ما تقول المؤلفة، ففي رأيها أن عملية الإصلاح الاقتصادي استكملت، وبدت مصر أكثر قدرة على تحقيق الاستقرار وترسيخ التعددية السياسية، ومن ثم، يصبح استكمال الإصلاح السياسي ممكنا، ويسهم الإصلاحان - الاقتصادي والسياسي - في تحقيق التحول الديمقراطي المنشود.

وتدور مقالات الكتاب جميعا حول هذه المضامين، فتتناول الحياة الحزبية والتعددية السياسية والانتخابات والانتقال إلى الاقتصاد الحر ودور المؤسسة التشريعية، فضلا عن دراسات تعنى بشئون المجتمع المدني وتنتقد الإرث الثقافي السياسي الذي يحكم النخبة الفكرية، ويؤثر سلبا - كما تقول المؤلفة - على عملية التحول نحو الديمقراطية.



العنف الأسري
إجلال إسماعيل
القاهرة: دار قباء للنشر، ١٩٩٩.

ثمة أسباب عديدة للعنف الأسري في المجتمعات المعاصرة، بعضها عام، وبعضها يخص كل مجتمع على حدة، وإن كانت البشرية عرفت العنف الأسري منذ الخليقة، حين قتل قابيل أخاه هابيل، لكن المؤلفة تؤصل نظريا وميدانيا للظاهرة، خصوصا أن مشكلة الضرب المبرح للطفل لم تكن معروفة - كما تقول - حتى عام ١٩٦٢.

وهي تقدم لدراساتها بثلاثة فصول نظرية عن إشكالية تعريف العنف والاتجاهات الاجتماعية النظرية التي تدرسه والاجراءات المنهجية الحديثة في دراسته، وتدرس في الفصلين الرابع والخامس ظاهرة العنف من خلال البحوث الميدانية، وتحلل واقع العنف الأسري في المجتمع، وتقدم في الفصل الأخير، رؤية نقدية لدراسات العنف وتلاحظ المؤلفة في تحليلها للعنف الأسري في المجتمع المصري، أن العنف صار متبادلا، كما أن قيم التراحم بدأت تنحسر وتتلاشى، وهو أمر لا يقتصر على الأميين فحسب، وإنما يوجد أيضا بين المتعلمين والمتعلمات، وتلاحظ أيضا، أن الإحصاءات والبيانات الرسمية عن العنف الأسري متناقضة، وإن كانت في مجملها تكشف عن زيادة كبيرة في معدلات العنف ضد الأطفال والزوجات والآباء والأمهات كبار السن. وترد المؤلفة شيوع هذه الظاهرة عند ممارسيها إلى التنشئة الاجتماعية وظروف المعيشة المتدنية والضغوط الاقتصادية المتزايدة.



التعايش مع الخوف
فهم القلق ومكافحته
إيزاك م. ماركس
ترجمة: محمد عثمان نجاتي
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩.

حكمتان يسوقهما المؤلف للانتصار على القلق والمخاوف، الأولى: تعلم أن تتعايش مع الخوف وسوف يخمد بالتدريج.

والثانية: نحن في حاجة لأن نسلك سبيلا وسطًا بين الجبن من جهة، والتهور الأحمق من جهة أخرى.

ويقدم الكتاب عبر فصوله الاثني عشرات النصائح للتعامل مع كل أنواع المخاوف التي يواجهها الفرد، وأشكال الأرق المتعددة التي تقض مضاجعه.

والقلق كما يعرفه المؤلف، هو الانفعال الذي نشعر به عندما نجد أنفسنا محاصرين في ركن ضيق، فنشعر حينئذ بأننا مهددون برغم أن مصدر التهديد قد لايكون واضحا.

أما الخوف، فيراه استجابة عادية لخطر فعلي أو متخيل، يُحدث اضطرابات

عروض موجزة

في أحوال الفرد وتغييرات بدنية يشعر بها ويراها الأفراد الآخرون.

وبحسب المؤلف، فإن القلق والخوف إذا كانا خفيفين قد يكونا مفيدين..

«إذ إنهما يؤديان إلى فعل سريع في مجابهة التهديد، ويساعدانا على أن نكون متيقظين في المواقف الصعبة».

ويؤكد المؤلف على أن الخوف والقلق ينشآن عن تفاعل ثلاثة أنواع من المؤثرات: مؤثرات فطرية موجودة منذ الولادة، ومؤثرات تعتمد على نضج الجهاز العصبي، ومؤثرات تنشأ بالخبرات الشخصية والاجتماعية.

وثمة اضطرابات اكتئابية يعانيها كثير من الناس، بعضها وراثي، وأكثرها يرتبط بمواقف أليمة مرت بالشخص المصاب بها، مثل الاضطرابات الخوافية المتعلقة بالأماكن المفتوحة أو الأماكن المغلقة، أو الخواف الاجتماعي الذى يصيب الرجال والنساء على السواء، وكلا النوعين يصيب الراشدين. والمبدأ الأساسي في طرق العلاج لتلك الحالات كما يشير المؤلف، هو تعريض المريض للموقف الذى يخيفه حتى يصبح معتادا عليه بالتدريج.



خصائص اللغة للثعالبي

تحقيق: خالد فهمي

القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٩.

هذا الكتاب مختصر للقسم الأول من كتاب الثعالبي الكبير «فقه اللغة»، الذي يضم عدة مجلدات، والذي حققه محقق هذا الكتاب أيضا، وهو كتاب بين مائة وثلاثين كتابا لأبو منصور الثعالبي، وهو من العلماء الذى شرّق علمهم وغرّب بحسب ما يقول الدكتور رمضان عبد التواب العميد السابق لكلية الآداب جامعة عين شمس في تقديمه للكتاب. وقد اختصر الثعالبي «خصائص اللغة» ليصبح مجموع فصوله خمسة وسبعين فصلا، بعدما كانت في الأصل خمسمائة وواحدًا وستين فصلا، وتمثل الألفاظ المشروحة أو الواردة في خصائص اللغة والبالغ مجموعها ٦٨١ لفظة، ٤٤,٧٪ من الأصل، البالغ مجموع ألفاظه ١٥٢٦ كلمة تقريبا.

وقد حذف الثعالبي في هذا المختصر كل الشواهد من قرآن وحديث أو شعر أو نثر، وترك ألفاظا كما يقول المحقق، يبدو أنه استغربها أو لم يورد لها شاهدا أصلا في فقه اللغة، وجاء بألفاظ لم توجد في الأصل، ولم يذكر غير اسم أربعة من الرواة، وأحال في غالب الفصول إليهم بقوله: عن ثقات الأئمة، كما أنه - كما يقول المحقق أيضا - لم يضبط كلمة واحدة بأي من طرق الضبط المعروفة في زمانه.

ويؤكد المحقق أن هذه المخطوطة هي الوحيدة، وقد صوّرها من معهد المخطوطات العربية، وهي بدورها مصوّرة عن نسخة المكتبة الظاهرية في دمشق.



التنوير الزائف

جلال أمين

القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩.

يهدف هذا الكتاب إلى إيضاح التمايزات الأساسية بين ما يمكن اعتباره تنويرا في الغرب، وما يسعى إليه التنويريون عندنا، وهو يضع التنوير الغربي في سياقه التاريخي، ويفرّق بين ما جرى في أوروبا في القرن الثامن عشر على الأصعدة السياسية والاقتصادية والفكرية، مما استدعى تنويرًا يعلي من شأن العقل ويخلصه من الخرافات والتحيزات المسبقة التي تعوق حركته، وبين ما جرى عندنا بعد ذلك بقرن تقريبا. منذ رفاعة الطهطاوي وحتى اليوم، مؤكدا على اختلاف التربة التي استقدمت دعوات التنوير إليها عن مثيلاتها في أوروبا. ومشيرًا إلى أن دعوات حرية التعبير وتحرير المرأة والمساواة وتقديس العقل دون سواه، لايمكن أن تكون صالحة للتطبيق عندنا بالطريقة ذاتها التي طبقت بها في أوروبا، ناهيك عن أنها لم تطبق - كما يقول المؤلف - بشكل مطلق دون اعتبارات بعضها سياسي وبعضها مجتمعي.

والتنوير المطروح في ظل النظام العالمي الجديد كما يقول الدكتور جلال أمين، هو تنوير الجواد الرابح، تنوير أمريكي صرف، يسعى إلى سيادة نمط وحيد في السياسة والاقتصاد والحياة اليومية، تنوير استهلاكي تحركه آلة الإعلام الجهنمية، هدفه أن تدور عجلة الاستهلاك في بلدان تحتاج إلى تنمية حقيقية، وأن تتسابق شعوب هذه البلدان نحو اقتناء مزيد من سلع لا تحتاجها، وأن تعتاد على الجينز والماكدونالدز وغيرها، وهو أمر باتت تعاني منه حتى دول أوروبية.

والآن .. ما طريق الخلاص؟ يقول جلال أمين:

ليس هناك طريق للخلاص إلا بتخليص مفهوم التنوير مما رسخ فيه، وإعطائه المضامين التي تتفتق عنها أذهاننا نحن، لمواجهة المشكلات التي نقوم نحن بتشخيصها، وصولا لأهداف نقوم نحن بتحديدها.



أزياء المرأة في العصر العثماني

آمال المصري

القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩.

تهبط الموضات، وخصوصا أزياء النساء من أعلى إلى أسفل، ولهذا كان على النساء في مصر، أن يتشبهن بأزياء نظرائهن من الأتراك، بعدما أصبحت مصر ولاية عثمانية، وصارت القسطنطينية هي العاصمة التي على مصر أن تحذو حذوها، وتشير المؤلفة إلى أن ذلك لم يحدث اختيارا دائما، وإنما جرى أحيانا بفرمانات، حرمت على النساء ارتداء أزياء المماليك السابقة من الزنط والتخفيفة والكلوتة، تماما كما جرى بالنسبة للرجال، حين مُنعوا من ارتداء القباء والطيلسان والكلفتاه، وأجبروا على لبس العمامة والجبة. كما أن النساء عرفت أنواعا من الأقمشة لم تكن شائعة قبل العصر العثماني، مثل الجوخ والفراء. وهو أمر كان يبدو أكثر بين نساء الطبقة الأرستقراطية. وتستعرض المؤلفة وهي أستاذة للآثار والفنون بجامعة القاهرة، عبر أبواب ثلاثة، أهم العوامل التي أثرت في أزياء النساء في مصر منذ الفتح العثماني وحتى عصر محمد علي، وهي عوامل دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية، ثم تدرس تفصيلا مكونات أزياء النساء في ذلك العصر، ثم مكملات الأزياء من حلي وأدوات تجميل وزينة.

وتلاحظ المؤلفة أن الزي بقي محتفظا بحشمته ووقاره وفقا للتعاليم الدينية، وأن الناس انقضوا في أعقاب خروج الحملة الفرنسية من مصر، على من ساير الفرنسيين في ملبسهم وأزيائهم، وقتلوا مئات من النساء ليكنّ عبرة لغيرهن، وعادت النساء إلى زيهن السابق على دخول الحملة مصر.

كما أن الفروق كانت واضحة بين نساء الطبقة العليا وغيرهن من نساء الطبقة الوسطى والطبقات الدنيا اللاتي كن يجدن ما يستر أجسادهن بالكاد، وبعيدا عن هذه الدراسة ذات الطابع التاريخي التحليلي، فإن المؤلفة تقدم فكرة شاملة وتفصيلية عن أزياء النساء في ذلك العصر، طبيعتها وألوانها وأجزائها وطرق تفصيلها.



الحيلة في التراث العربي

ثابت عيد

القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٩.

يقدم مؤلف الكتاب معانٍ للحيلة تبعدها عما يتبادر إلى الذهن بوصفها واحدة من طرق الكذب والخداع، فالحيلة كما يصفها صاحب كتاب «السياسة والحيلة عند العرب»، وهو مجهول «ثمرة العقل ومستخرجة بقوانينه، وهي أكثر الوسائل حذقًا ومهارة للوصول إلى الأهداف» ويعتبرها ابن مسكويه «خيرا من الشدة» ويفرق الطرطوش بين الحيلة والمكر، فالأولى مستحسنة مرغوبة، أما المكر فمذموم، وجاء في «لسان العرب» أن الحول هو الحيلة والقوة، ما يعني أن الحيلة والقوة متلازمان.

ويورد المؤلف في كتابه عشرات النماذج من الحيل، يرتبط بعضها بالأنبياء والخلفاء والأمراء، وينقل عن تاريخ الطبري قول عمر بن الخطاب لأصحابه، تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية، كما كان إذا استضعف رجلا في رأيه قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد، يريد خالق الأضداد نظرا لدهاء عمرو الشديد.

إن استخراج الحيلة كما يقول المؤلف، يحتاج إلى عقل متفتح بعيد عن التزمت، لا يقف عند ظاهر النصوص بل يتعداها إلى المعاني والمقاصد، وأصحاب الحيلة كما يعرفهم هم أصحاب العقل وأهل العلم، وأعداء الحيلة هم أهل الجهل والجمود.



إعادة اكتشاف فلسطين
أهالي جبل نابلس ١٧٠٠ - ١٩٠٠

بشارة دوماني

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨.

ويركز هذا الكتاب على نابلس، تلك المدينة التي اعتقد أهلها دوما ألا مكان يوازيها في العالم، ويدرس جبل نابلس في الفترة من ١٧٠٠ وحتى ١٩٠٠م.

وخلال القرن الثامن عشر وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت نابلس هي المركز الاقتصادي والسياسي لفلسطين، ولعب جبل نابلس الذى عرف بجبل النار أدوارا مهمة في النضال ضد القوات المصرية عام ١٨٣٤ وضد الحكم البريطاني بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩، وفي الانتفاضة الفلسطينية التي انفجرت عام ١٩٨٧.

وعلى مدى خمسة فصول يدرس المؤلف جبل نابلس مدنه وريفه، وأهم العائلات التي أقامت فيه وأنماط ثقافتها وتجارتها، ثم القطن والأقمشة والسياسات التجارية، وزيت الزيتون وأهميته في اقتصاد نابلس، ثم تصنيع الصابون وعلاقته بالدولة. ويشير المؤلف إلى أن تجارة نابلس جرت في الأساس مع دمشق والقاهرة، فكان ثلاثة أرباع إنتاج نابلس من الصابون يشحن إلى القاهرة التي استوردوا منها الأرز والسكر والتوابل، فيما كانت الأقمشة بأنواعها والنحاس أكثر ما يستوردونه من دمشق.

وأوجدت العلاقات الاقتصادية المتشابكة علاقات مصاهرة بين تجار الأقمشة وتجار الصابون، وقامت صناعة الصابون على ملكيات مشتركة في أغلب الأحوال، بسبب نفقاتها الباهظة، وبالتوسع في إنتاج الصابون زاد تركيز الثروة، وذابت الحدود بين السلطة السياسية والمكانة الاجتماعية، وتبلورت نخبة جديدة مع بدايات القرن التاسع عشر قوامها من التجار. أما محصلة ذلك كله - كما يشير المؤلف - فكانت التشبث بأعراف وتقاليد عززت انتماء أهالي نابلس لهويتهم المحلية.

عروض موجزة

كتب أجنبية

To End a War: From Sarajevo to Dayton and Beyond.

(من أجل إنهاء حرب)

Richard Holbrooke
New York: Random House, 1998, 408 pp. $ 27.95

ريتشارد هولبروك هو الوسيط الخاص الذى عينه الرئيس كلينتون فى عام ١٩٩٥ من أجل إنهاء حرب البوسنة. فى هذا الكتاب يقدم هولبروك روايته الشخصية عن المفاوضات التى أدارتها الولايات المتحدة لإنهاء الصراع فى البوسنة فى قاعدة رايت - باترسون الجوية فى دايتون بولاية أوهايو. والكتاب يعد عملا من أعمال التاريخ الدبلوماسى ويقدم خلفية جديدة للمأساة البوسنية. حيث يتحدث المؤلف عن أفراد الدائرة الصغيرة المحيطة بالرئيس كلينتون فى الإدارة الأمريكية، كما يروى انطباعاته وآراءه فى قادة البلقان.

وينتقد هولبروك بشدة الجهود السلبية غير المؤثرة لكل من الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى فى إنهاء المجازر التى حدثت فيما بين ١٩٩٢ و ١٩٩٥.

وينتهى الكاتب إلى دروس عن إمكانات الدبلوماسية وحدودها. وعن أثر استخدام القوة والتهديد بل وقيمة استخدام أسلوب الغش والخداع. وهنا يكشف لنا هولبروك ما قام به شخصيا من تشجيع فرانجو تودجمان الرئيس الكرواتى الذى كان صاحب الشرارة الأولى فى الحرب على التقدم بجيشه إلى الأمام والاستيلاء على بعض المدن التى كانت تحت السيطرة الصربية، وذلك خلافا لما كان معروفا عن الموقف الرسمى لواشنطن، حين ادعت الولايات المتحدة أنها قد طلبت من تودجمان رسميا وقف القتال.

وعن المأساة البوسنية يقول هولبروك إنها لم تكن أبدا مقدرة مسبقا أو حتمية، بل إنها جاءت نتيجة وجود قادة سياسيين «مجرمين»، شجعوا على حدوث مواجهة اثنية دامية من أجل الحصول على مكاسب سياسية وشخصية ومالية لأنفسهم.

Breaking The Cycle

(إيقاف الدورة)

Roderick Von Lipsey (editor)
London: Macmillan. 1998, 310 pp.,£ 5.

تهدف هذه الدراسات إلى وضع نظرية عامة للتدخل الخارجى فى الأزمات. فهى تحلل تسع حالات تدخل ناجحة أو غير ناجحة فى يوغسلافيا والصومال ورواندا و هاييتى، والضفة الغربية وغزة ، وناجرنو - كاراباخ ، والسلفادور وطاجيكستان والشيشان . ويبدأ المحرر بفصلين نظريين يحددان الخطوط العريضة للدراسة، ثم يتناول كل فصل بعد ذلك أسباب نزاع كل منها وتاريخ التدخل ثم أهم الدروس المستفادة من الحالة ، ليجمع المحرر الخلاصة بعد ذلك فى الخاتمة. وللتدخل الخارجى عادة ثلاثة أهداف : منع النزاع، أو الحد منه أو حله. ومع أن هذه الأهداف متصلة ببعضها، إلا أن كلا منها يحتاج إلى استراتيجيات مختلفة تماما.

والهدف الأول هو الأسهل، وإن كان الأصعب فى الوقت نفسه. فهو الأسهل لأنه يمكن دائما إصلاح ما أفسده استخدام العنف والسياسة أو الأيديولوجيا. ولكنه الأصعب أيضا لتعسر التكهن بوقت انفجار النزاع. كما أن المنع دائما ما يكون أقل شعبية من حل النزاع وتقف سيادة الدولة دائما فى وجهه. ويرى المحرر أن سبب النزاع يرجع إلى تهميش اجتماعى واقتصادى وسياسى لقطاعات هامة من المجتمع. وأفضل طريقة لتلافى ذلك تتمثل فى استخدام توليفة من الضغوط الدبلوماسية والمساعدات الاقتصادية والتهديد بفرض عقوبات اقتصادية وسياسية كى تكبح الدول الكبرى جماح نفسها للسيطرة على مقادير الدول الصغرى.

ويختتم المؤلفون بأن التدخل الخارجى ليس عملا واحدا متناسقا. إنما يمر بمراحل متعددة لكل منها أهدافه المحددة التى تحتاج لإستراتيجيات مختلفة وعلى الوكالات التى تتولى الأمر أن تراعى هذه الفروق. فالتركيز الأساسى يجب أن يكون على حل النزاع، حتى فى الحالات الإنسانية. فلا يكفى إرسال الغذاء لإنقاذ الناس من المجاعة. فالغذاء يمكن أن يسرق أو يتم الاستيلاء عليه من قبل أحد طرفى النزاع. كما أن المساعدات الإنسانية قد تخدر الضمير العالمى والغربى بالذات وتغنيه عن التدخل الحاسم لحل النزاع.

The Chan's Great Continent: China in Western Minds

(قارة تشان العظيمة: الصين كما يراها الغرب)

Jonathan D.Spence
W.W.Norton & Sons, 1998.

يقيس المؤلف عظمة الدول بقوة تأثيرها على خيال وأفكار الآخرين، فيتناول الصين من خلال كتابات التجار والدبلوماسيين، والمبشرين، والكتاب ، والشعراء، والمغامرين. إن بعضهم لم ير الصين فى حياته، ومع ذلك حكى عنها والبعض الآخر عاش هناك، بل منهم من توفى هناك كذلك.

يورد المؤلف كتابات الرحالة الشهير ماركو بولو، الذى أغفل ذكر فن الكتابة الصينية والشاى وتقييد نمو أقدام الفتيات حتى أن بعض الآراء الحديثة تعتقد أنه لم يذهب إلى الصين قط. وروايات المبشرين اليسوعيين الذين وصفوا الصين بالدولة العظيمة الواسعة الموحدة المنظمة التى تحكمها الكنفوشية بنظام مركزى صارم . وشهادات كتاب عصر النهضة أمثال فولتير ومونتسكيو وليبنتز الذين رأوا فى الصين مثالا للدولة المتجددة التى يعد انشغالها بالماضى وصعوبة لغتها سبب تجمدها. وهناك كذلك مذكرات الدبلوماسيين الأوروبيين مثل اللورد مكارتنى - أحد مبعوثى الإمبراطورية البريطانية فى القرن التاسع عشر - الذى وجد نفسه مراقبا بدقة وفضول غير مرغوب فيه. إلى جانب الشهادات النسائية التى تشرح عزلة الأجانب فى المجتمع الصينى. بالإضافة إلى كارل ماركس، وازار باوند، وبيرل بك، وأندريه مالرو، وبرتولت بريخت، وريتشارد نيكسون، وهنرى كيسنجر، وفرانس كافكا، وبورخيس، وإيتالو كالفينو. فالكتاب يحتوى على ٤٨ نصا تغطى الصين من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين. ويحلل المؤلف دوافع كل من هؤلاء حيث كان بعضهم مهتما فعلا بالصين والبعض الآخر اتخذها مرآة عاكسة لاهتمامات أخرى. ومما اكتشفه أن رؤاهم تتباين بدرجة كبيرة ولذلك خلص إلى أن حواس الإنسان تلتقط ما تريده وتتوقعه فقط.

يظهر المؤلف التفاعل الثقافى الخلاق بين الغرب والصين. فالغرب يرى فى الصين معينا لا ينضب للخيال والإثارة والغموض. معين يستحيل الوصول إلى كنهه أو معرفته.



André Citroen, Louis Renault, Un Duel Industriel

(أندريه ستروين ولويس رينو: مبارزة اقتصادية)

Alain Frerejean
Albin Michel, 1998,290p,125F.

نحن نستخدم أسماء أنواع السيارات بطريقة جعلتنا ننسى أن هذه الأسماء كانت قبل كل شىء لرجال من لحم ودم،لهم زوجات وأطفال وصديقات والكثير من الأسرار. فى حالة رينو فإن فحص هذه الشخصية مرتبط بأحداث تاريخية، ففى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٤ قتل رئيس مصنع بيانكور تحت أعين الشرطة لكونه متهما بالتعاون (مع الألمان) وبالخيانة. ويؤكد المؤلف أن رينو قتل فعلا فى السجن. كما أن القرار الصادر فى ١٦ يناير ١٩٤٥ بتاميم مصانع رينو كان بمثابة تاكيد العقوبة على صاحب تلك المصانع. وبعد فترة زمنية طويلة فى ٢٩ يوليو١٩٦٧، صدر قانون يعطى ورثة رينو الحق فى التعويض.

أما بالنسبة لأندريه سيتروين فقد قهره السرطان عندما وصل إلى عز مجده الصناعى، فمات فى ٣يوليو ١٩٣٥، وفى هذا التاريخ نفسه أصيب رينو باضطرابات فى الدورة الدموية مما أثر على المخ. وأصبح فى حاجة إلى «مترجم» حيث إن كلامه لم يعد مفهوما، وبقى هذا الأمر سرا حتى بداخل بيانكور.

بالرغم من هذه النهاية التراجيدية ، كانت ملحمة عالم السيارات قد جعلت من هذين الرجلين أبرز أبطالها. ولد سيتروين بعد سنة من مولد رينو ، أى سنة ١٨٧٨. وقد أتى كلاهما من عائلة تجار غنية ولم يكونا مجبورين على العمل، فقضوا وقتهما فى اللعب وفى الابتكار. فى عامه العشرين، كان لويس رينو رساما«يرى» بالأبعاد الثلاثة. وبالرغم من عدم حصوله على أية شهادة عليا. فقد استطاع أن يطور فى محرك السيارات قطعة قطعة ثم بنى لويس سياراته ومصانعه وإمبراطوريته.. وجعلت الحرب العالمية الأولى من هذا الملياردير بطلا من أبطال الدفاع الوطنى. فالعربات التى نقلت الجنود كانت تحمل علامة رينو. حتى دبابات النصر الـ FT 17، خرجت من عقل ومصانع رينو.

أما أندريه ستروين فقد كان ينتمى إلى أسرة يهودية بولندية تعمل فى مجال الماس وتعيش فى فرنسا منذ ١٨٧٢. وبالرغم من حصوله على شهادة الفنية العسكرية، لم يخترع ستروين بنفسه، كما فعل رينو، ولكنه كان يستفيد من اختراعات الآخرين.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ظهر ستروين على ساحة عالم السيارات، كان أول من فهم فى فرنسا أنه يجب التصنيع من أجل العامة، بعكس ما كان يعتقد صاحب بيانكور. أطلق سيتروين سيارته الـHP 10 بسبعةآلاف فرنك أى بنصف ثمن أية سيارة تباع فى أحسن أسواق فرنسا. باع منها ١٢ ألف سيارة. وفى ١٩٣٣ أطلق السيتروين الـ5HP ، كان النجاح حينئذ محققا. ولكن أندريه كان أيضا عبقريا فى الدعاية. فاخترع لعب أندريه سيتروين(سيارة مصغرة)، وأقام مؤسسةتمويلية (السوفاك)، كما استخدم برج إيفل كلوحة إعلانات لسياراته. وأخيرا، تم اختراع وتصنيع العربات ذات «الجر الأمامى» عن طريق مهندس كان رينو قد طرده فعيّنه فورا خصمه. وفى ١٩٢٦، تقدم سيتروين مرة أخرى على رينو بإنتاج سنوى حجمه ١٠٠ ألف سيارة، أى حوالى ضعف إنتاج رينو.



La Fatigue d'etre Soi: Depression et Sociètè

(الاكتئاب والمجتمع)

Alain Ehrenberg
Gdile Jacob, 320 p. 145f.

يعتبر «الاكتئاب» مرض القرن العشرين النفسى الأكثر انتشارًا فى العالم. وقد تضاعفت فى السنوات الأخيرة أعداد المرضى النفسيين الذين تم تشخيصهم ضمن هذا التصنيف. فتشير الإحصاءات فى فرنسا مثلا إلى أن عدد المصابين بمرض «الاكتئاب» قد تضاعف

عـــــروض مـــــوجــــزة

بنسبة ٥٠٪ فى الفترة ما بين أوائل الثمانينيات وأوائل التسعينيات.

وقد أصبح «الاكتئاب» موضوع اهتمامات اجتماعية ودراسات طبية كثيرة.

وللاكتئاب أعراض متنوعة منها اللامبالاة، والانطواء، البطء الحركى والفكرى، الإعياء الجسمانى الشديد، الفراغ النفسى، فقدان الرغبة، والإحساس بالنقص وعدم الكفاءة.

وقد استطاع الطب النفسى الحديث أن يجد بعض الحلول لهذه الأعراض، وإن كانت هذه الحلول موضع مناقشات مستمرة بين الأطباء، ومنها عقار الـ «بروزاك» Prozac أو (حبوب السعادة) كما يطلق عليها البعض.

يستعرض «ايرنبرج» Ehrenberg فى كتابه تطور المفهوم الطبى «للاكتئاب» على مر العصور مرورًا بالقرن التاسع عشر ووصولا إلى التصنيف المعاصر لحالات الاكتئاب المختلفة وأعراضها.

ويعقد الكاتب مقارنة مفصلة لرأى كل من «فرويد» Freud، وچانيه Janet فى مصدر «الاكتئاب النفسى» عند أى إنسان.

فنجد «چانيه» يُرجع معظم الاضطرابات النفسية التى يتعرض لها الفرد إلى عدم تكيفه مع الواقع المحيط به فى المجتمع وإحساسه بالعجز أمام المتطلبات الاجتماعية المختلفة، مما يؤدى إلى تقلص قدراته الذهنية وصولا إلى الاكتئاب.

أما «فرويد» فنجده يركز بصورة أكبر على الصراع النفسى الداخلى ويشير إلى أهمية الشعور بالذنب، وكبت الرغبات فى حدوث الاكتئاب. ولذلك يكمن نجاح العلاج النفسى من منظور «فرويد» فى إعادة توجيه الطاقات غير المسموح بها اجتماعيًا نحو قنوات أخرى مشروعة لتفادى شعور الشخص بالإحباط والاكتئاب.

كان النموذج «الفرويدى» للاكتئاب هو الأكثر شيوعا فى فترة ما، ثم أصبح علماء النفس المعاصرون يميلون إلى اتجاه «چانيه» الاجتماعى الأنثروبولوچى لدراسة ظاهرة الاكتئاب، نظرًا لتحرر الفرد فى كثير من المجتمعات من القيود الاجتماعية - التى كانت مفروضة عليه بصراحة فى الماضى - والتى كانت مصدرًا لكثير من الكتب.

لقد أصبح الإنسان يرسم لنفسه الأهداف ويسعى لتحقيقها. فإن فشل،كان ذلك بسبب قصور أو عجز منه وليس نتيجة لضغوط المجتمع.



Environment and Sustainable Development in Eastern and Southern Africa: Some Critical Issues.

(البيئة والتنمية المستديمة فى شرق وجنوب أفريقيا: القضايا المهمة)

Abdel Ghaffar M.Ahmed and Wilfred Mlay (eds.)

London: Macmillan, 1998, pp., 233 £ 45 .

يضم الكتاب مجموعة دراسات وأبحاث تغطى عدة فروع أكاديمية لمتخصصين فى الشئون الزراعية الأفريقية. يظهر من خلالها بوضوح الارتباط الوثيق بين البيئة والسياسة فى القارة، خاصة مع ازدياد الشك فى كون أسباب المجاعات وانخفاض خصوبة الأراضى سياسية واجتماعية فى الأساس بالإضافة إلى البيئة بالطبع.

ومن أهم أبحاث الكتاب بحث لعلى عبد القادر على يثبت فيه العلاقة الوثيقة بين سياسات البنك الدولى للتعمير وزيادة الفقر فى بعض المناطق الزراعية وانخفاض خصوبة الأراضى. أما الفصول الأخرى فتناقش دور المنظمات غير الحكومية، والسبل الآمنة لتحسين إنتاجية الأرض، والجوانب السلبية للسياسات الزراعية الحكومية فى السنوات الأخيرة، ومشاكل قوانين الأراضى طبقا لنظم تشريعية وعرفية وتقليدية مختلفة ومتعارضة فى بعض الأحيان.

وهناك كذلك بعض دراسات الحالة كتغيير تنزانيا لأساليبها الزراعية وأهمية انتظار الوقت المناسب لإدخال التكنولوجيا الجديدة. فإدخالها قبل ذلك سيقصر فائدتها على مجموعة صغيرة من الفلاحين وإدخالها متأخرة سيدمر توازنا بيئيا ضعيفا بالفعل. كما تناولت دراسة أخرى تفسير تكيف قبائل الزغاوة بغرب السودان مع الجفاف والمجاعة بشكل أفضل من قبائل الهنادوه بشرقى السودان وهو ما ترجعه إلى ثقافة كل منهما . حيث تسمح الأولى بالإبداع والابتكار والتفكير المختلف وتشجعه، بينما ترفضه تقاليد الأخرى.



Kitchener: The Road to Omdurman

(كتشنر: الطريق إلى أم درمان)

John Pollock

London: Constalde, 1998, 282 pp., £ 20.

ظهر فى لندن كتاب جديد عن «حياة هربرت هوراشيو كتشنر، أو من نعرفه نحن باسم اللورد كتشنر، واتسمت سيرته بكثير من التناقض، ما بين قدراته العسكرية الفذة واستهتاره بأعداد القتلى، وبين وحشيته وقسوته فى القتال، ورقته وخجله مع من يعرفونه.

كان والده أحد قادة الخيالة الإنجليز المشهورين بسوء الخلق، وقد استقر بعد تقاعده فى ضيعة بأيرلندا، حيث اتسم بالقسوة الشديدة فى معاملة خدمه وعائلته، مما أثر على الابن بعد ذلك فاعتزل العالم، وانغمس فى العمل، حتى أنه كان يفضل أن يساء فهمه عن أن يظن الناس أن له مشاعر. ودخل المدرسة الحربية فأرسل كمسَّاح إلى قبرص، ثم تطوع للقيام بعمليات سرية فى فلسطين، كما أرسل كعميل سرى لإنقاذ جوردون من حصار المهدى له ولقواته فى السودان، ولكنه لم يصل فى الوقت المناسب. وبمرور الوقت ارتقى فى المناصب حتى عين سردار الجيش المصرى، فزحف فى عام ١٨٩٦ إلى أم درمان لينتقم لجوردون ويسترجع السودان.

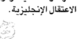
أما عسكريًا فيؤكد المؤلف أنه بينما كان يترك الجوانب التكتيكية لضباطه، فإنه كان عبقريًا فى التنظيم وإرساء خطة المعركة وتهيئة الظروف المناسبة للانتصار، مثل مده خطوط السكك الحديدية لنقل الجنود والمؤن ونقل السفن للمدافع عبر شلالات السودان الصعبة ليهزم السودانيين هزيمة ساحقة فى موقعة أم درمان.

ولكن يؤخذ على كتشنر تركه جثث ١٦ ألف سودانى بعد المعركة ما بين قتيل وجريح واهتمامه بمداواة جرحى جيشه فقط، كما شعرت الملكة ڤيكتوريا بالاشمئزاز حينما علمت أنه قد نبش قبر المهدى وألقى عظامه فى النيل، كما يقال أنه ربما احتفظ بالجمجمة لاستخدامها كحبارة.

إلا أن المؤلف يستشهد بشهادة طبيب مصرى عين من قبل الجيش المصرى لرعاية ٤٠٠ من أسوأ حالات الضحايا السودانيين، يفسر نبش كتشنر لقبر المهدى بأنه كان بدافع إثبات أن المهدى لم يكن إلا بشرًا على عكس ما كان يعتقده أتباعه، وإن أضر ذلك بسمعته.

ويتتبع المؤلف بعد ذلك دور كتشنر فى حرب البوير بجنوب أفريقيا، وهى آخر حرب شارك فيها بشكل مباشر، واستطاع مواجهة حرب العصابات باقتداره كما أدار بعد ذلك دفة المفاوضات مع الثوار البوير والسود بكفاءة عالية، فرجع إلى بلاده حاملاً لقب ڤيكونت وهبة تقدر بخمسين ألف جنيه استرلينى.

ومازال يُذكر إلى الآن فى جنوب أفريقيا بأنه الرجل الذى ترك ٤٠ ألف امرأة وطفلاً يموتون فى معسكرات الاعتقال الإنجليزية.



Gesundheit! Bringing Good Health to you, the Medical System, and Society through Physician Service, Complementary therapies, humor and Joy.

(جيزوندهايت! تقدم لكم الصحة الجيدة والنظام الطبى من خلال الخدمة الطبية والعلاجات المكملة والفكاهة والمتعة)

Patch Adams,M.D. with Maureen Mylander

Vermont:Healing Arts Press, pp., 227.

مؤلف هذا الكتاب طبيب أمريكى كرس عمله وحياته لتقديم خدمة الرعاية الطبية بمفهوم جديد وبشكل يختلف عما هو سائد بين ممارسى الطب الغربى. ويروى لنا هنا مشواره وفلسفته فى العلاج التى يطبقها فى معهد«جيسوندهايت» الذى يطمح فى تطويره إلى مستشفى مجانى مفتوح لأى شخص من أى مكان فى العالم.

فعندما كان طالبا يدرس الطب وجد أثناء التدريب العملى أساتذته الأطباء يتعجرفون و يتعالون على مرضاهم الذين لا يعرفون لديهم بأسمائهم وإنما بأسماء الأمراض التى يحملونها. وكان أكثر المشاهد لا إنسانية من وجهة نظره هو دخول مجموعة من الأطباء وطلابهم حجرة مريض والتفافهم حوله أثناء الكشف.

أما المريض فما هو إلا متلق سلبى للحكمة الإلهية التى ينطق بها الطبيب الذى يمثل دور البطل الواجب الاستماع إليه بلا مناقشة.

وشاهد باتش أدمز أثناء الممارسة كيف أصبحت مهنة الطب مجرد مصدر للثراء والجاه الاجتماعى للأطباء، وكيف يخفون أخطاء بعضهم البعض فى الوقت الذى يظهرون فيه أمام مرضاهم بهذا الغرور العلمى.

وخلص أدمز إلى أن العلاج الطبى يمر بأزمة لا تنفصل عن أزمة الحياة العائلية والحياة الاجتماعية الموجودة فى مجتمعه، حيث أصبح الطب أكثر الخدمات غلاءً. وانتهى باتش أدمز بخبرته من معايشة المرضى إلى أنهم يعانون أكثر ما يعانون من الألم النفسى والروحى النابع من الوحدة والآمال المحبطة.

فهم غير سعداء بأنفسهم أو بحياتهم وفى حاجة إلى إنعاش روحى بالأساس، ولهذا وجد أدمز نفسه يقود ثورة اجتماعية سلمية من خلال مركز «جيسوندهايت». حيث تقوم فلسفته على أن الصحة تعتمد بالأساس على السعادة، السعادة التى تأتى من الضحك و الشعور بدفء علاقات الأسرة والأصدقاء والرضا فى العمل والإحساس بالطبيعة والفن.

ويقوم باتش أدمز حاليا بإلقاء المحاضرات فى الجامعات والمؤتمرات الطبية المختلفة شارحا تجاربه والنجاح الذى لاقاه فى معالجة الكثير من الحالات.

وقد بدأ باتش معهده الطبى أساسا من منزله واعتمد ومازال على المتطوعين من الأطباء وغيرهم من مختلف أنواع المعالجين. ويقوم العلاج عنده على دمج الرعاية الطبية بالتسلية والمتعة والصداقة بين المريض والمعالج حيث يشتركون جميعا معالجين ومعالَجين فى أعمال مختلفة تشمل الزراعة وتربية الحيوانات والأعمال الفنية واليدوية المختلفة التى تجرى فى المعهد والمزرعة الملحقة به. يؤمن باتش أدمز بعبارة أحد أطباء القرن السابع عشر التى تقول أن وصول مهرج مضحك إلى مدينة ما يفيد صحة أهلها بأكثر مما يفيدهم وصول ٢٠ بغلا محملا بالعقاقير والأدوية.

وقد أنتجت هوليوود فى العام الماضى فيلما سينمائيا عن مسيرة هذا الطبيب غير العادى.

قــــــــراءات جـــــــــــديـدة

اجتمـــــاع

دين الحرافيش في مصر المحروسة
على فهمي
القاهرة : ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩
يضم عددا من الدراسات العلمية التي تقع على تخوم التاريخ الاجتماعي والثقافي المصري. ويدرس الباحث في هذا الكتاب كثيرا من الظواهر الاجتماعية التي التصقت بالدين وممارساته الشعبية وبدت كما لو كانت جزءا أصيلا منه.

□ □ □

يهود اليمن
كاميليا أبو جبل
دمشق : دار النمير، ١٩٩٩
دراسة أكاديمية تعرف بيهود اليمن وتحلل ظروفهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، تستند الدراسة إلى مجموعة نادرة من المخطوطات العربية والعبرية.

□ □ □

Pierre Bourdieu et la Theorie du Monde Social
(بيير بورديو وقانون العالم الاجتماعي)
Louis Pinto
Albin Michel, 1999, 264p, 120f.
تتمثل ثورة بورديو من وجهة نظر المؤلف في تلك النظرة الجديدة للعالم الاجتماعي والتي تهتم بالتركيبة الرمزية للمجتمع.

□ □ □

She Works / He Works: How Two-Income Families are Happy,Healthy, and Thriving
(هي تعمل / هو يعمل: كيف تكون الأسر ذوات الدخل المزدوج سعيدة وصحية وناجحة)
Rosalind C.Barnett and Caryl Rivers
Harvard University Press,1998, $15.95.
دراسة استغرقت أربع سنوات تخلص إلى أن الزوجين المتعاونين ينجحان في أدوارهما المتنوعة رغم انشغالهما ويولدان الكفاءة والثقة في أطفالهما.

□ □ □

The Social Animal
(الحيوان الاجتماعي)
W.G. Runciman
Harper Collins, 1998, 230pp, £14.99.
مقدمة في علم الاجتماع، تحتوي على رؤية في ماهية هذا العلم وما يجب أن يكون عليه وهدفه الرئيسي الذي يتركز وفقا للمؤلف في محاولة تفسير أسباب وجود المجتمعات والمؤسسات الإنسانية المختلفة كما هي عليه.

أديـــان

الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية
الشيخ محمد الغزالي
القاهرة : نهضة مصر، ٩٨
كتابات عن أسباب تدهور المجتمعات العربية والإسلامية من وجهة نظر دينية، كتبها الداعية الراحل الشيخ محمد الغزالي، يقدم فيها تحليلاً لأوجه الفساد وفرص النجاة منها.

□ □ □

من فقه الأقليات المسلمة
خالد محمد عبد القادر
الدوحة : سلسلة كتاب الأمة، ١٩٩٨.
دراسة لموضوع فقه الأقلية المسلمة في البلاد غير الإسلامية تتناول الأحكام الشرعية والفقهية والاجتهادات المتعددة في مجال العبادات والمعاملات والعلاقات الاجتماعية.

□ □ □

An Introduction to the Bible
(مقدمة في الإنجيل)
J.W.Rogerson
Penguin, 1999, 256pp, £ 7.99
يتناول أستاذ الدراسات الإنجيلية بجامعة شيفيلد مراحل تطور الإنجيل إلى أن وصل لأشكاله المعروفة، وأثره في تشكيل الأحكام الأخلاقية.

□ □ □

Buddhism Plain and Simple
(البوذية في بساطة ووضوح)
Steve Hagan
Penguin,1999,176pp, £6.99
كتاب عن البوذية في عالم اليوم.

إعـــــلام

الإعلان
منى الحديدي
القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩
يدرس الإعلان وخصائصه وتعريفاته، ويتناول التشريعات الإعلامية في مواجهة التدفق الإعلاني المستمر، وتحلل المؤلفة لغة الإعلان وأساليبه في دول عربية عدة، بينها مصر والكويت وقطر والسعودية وعمان والإمارات وغيرها.

□ □ □

التخطيط الإعلامي
حميد الديلمي
القاهرة : دار الشروق، ١٩٩٨
يقدم رؤية جديدة للتخطيط الإعلامي تختلف عن الأدبيات السابقة التي تناولت الموضوع ذاته، في عصر بات الإعلام فيه يلعب دورا بالغ التأثير والأهمية.

□ □ □

The Entertainment Economy
(اقتصاد الترفيه)
Michael Wolf
Penguin, 1999, 288pp, £16.99
المؤلف أهم خبير إعلامي وترفيهي في العالم من بين عملائه روبرت مردوخ وتد ترنر وديزني.
يقدم تحليلا للكيفية التي تعمل بها شركات الإعلام الكبرى في العالم كما يقدم نصائح للشركات الصغيرة عن كيفية النمو والاستمرار. ويتنبأ بأن اقتصاد الترفيه هو الذي سيقود الاقتصاد العالمي فيما بعد.

تـــاريـــخ

اليهود في مصر المملوكية
محاسن محمد الوقاد
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩
يتناول حياة هذه الطائفة في مصر المملوكية، كيف مارسوا شعائرهم؟ كيف كانت علاقاتهم بغيرهم من المصريين من الطوائف الأخرى؟ ماهي مساهماتهم في الحياة العامة والمهن التي عملوا بها؟

□ □ □

صدمة الاحتكاك : حكايات الإرسالية الأمريكية في الخليج والجزيرة العربية (١٨٩٢ - ١٩٢٥)
إعداد وترجمة : خالد البسام
بيروت : دار الساقي، ١٩٩٨
يروي نشاط الإرسالية الأمريكية ورحلاتها في منطقة الخليج، إضافة إلى العراق واليمن، والتي كان عملها يجمع بين العمل التبشيري والطبي والثقافي والتعليمي والإنساني.

□ □ □

Religion in Roman Egypt: Assimilation and Resistance
(الدين في مصر الرومانية: الاستيعاب والمقاومة)
David Frankfurter
Princeton University Press, 1998.
تناول جديد للديانة المصرية القديمة التي يرى المؤلف أنها استمرت حتى بعد دخول المسيحية إلى مصر لعدة قرون.

□ □ □

Silent Images: Women in Pharaonic Egypt
(صور صامتة: النساء في مصر الفرعونية)
Zahi Hawass
Foreword by H.E. Mrs. Suzanne Mubarak
Cairo: The AUC Press,1999, 238pp(pb), L.E 90.
يبحث زاهي حواس في الكتاب الذي كتبت مقدمته السيدة سوزان مبارك عن صورة واقعية لحياة المرأة في مصر القديمة، معتمدا على مواد لم تنشر بعد من خلال كشوفاته الأثرية الأخيرة في منطقة الجيزة، فيلقي لنا الضوء على حياة العاملات اللاتي شاركن في بناء الأهرامات.

□ □ □

The Life and Times of Pancho Villa
(حياة وزمن بانشو فيلا)
Freidrich Katz
Stanford University Press, 1999, 985pp. $85.
فصول وأحداث الثورة المكسيكية (من ١٩١٠ إلى ١٩١٧) من خلال حياة أحد أبطالها.

تراجم وسيـــر

داج همرشولد - حياته وفكره
السيد أمين شلبي
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩
يقدم الكتاب صورة متكاملة عن حياة وشخصية همرشولد كسكرتير عام للأمم المتحدة في مرحلة عاصفة من تاريخها في الفترة من ٥٣ - ١٩٦٠، ويبرز الجانب الفكري والفلسفي في حياته واهتماماته الأدبية والفنية، وانحيازاته لمجموعة من القيم التي رسخت استقلالية الأمم المتحدة، وهي سمة تحتاجها المنظمة الدولية اليوم أكثر من أي وقت آخر.

□ □ □

مشاهير وساخرون وصعاليك
كمال سعد
تحقيق : قاسم السامرائي
القاهرة : دار الشعب، ١٩٩٨
يغوص الكتاب في أعماق ٧٠ شخصية سياسية وأدبية وثقافية لمشاهير مصر والعرب والعالم.

□ □ □

Memories of a lost Egypt: Reminiscences and Recipes
(ذكريات عن مصر: تذكارات ووصفات)
Colette Rossant
Crown, 1999, 176 pp, £20 (hb)
الكاتبة يهودية من أب مصري وأم فرنسية، عاشت طفولتها في مصر في فترة الثلاثينيات وتعمل الآن كاتبة في صحيفة «الدايلي نيوز» نيويورك. تشرح ضمن مذكراتها طرق إعداد الأكلات المصرية مثل الزلابية والكشري.

□ □ □

The Messenger: The Rise and Fall of Elijah Muhammed
(الرسول: صعود وسقوط إليجيا محمد)
Karl Evanzz
Pantheon, 1999, 656 pp, £27.50
ترجمة لحياة الرجل الذي أسس «أمة الإسلام» في الولايات المتحدة الأمريكية. وبالرغم من أن أفكاره التي تميز بين الأسود والأبيض تتنافى مع مبادئ الإسلام، إلا أنها قادت ٤ ملايين أمريكي من ذوي الأصل الأفريقي إلى اعتناقها، ومن بينهم مشاهير مثل محمد على كلاي وجيسي جاكسون ومالكوم إكس ولويس فارخان.

اقتصاد وتنمية

الاقتصاد العربي في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين
إشراف : محمود عبد الفضيل
القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٨، ٤٣٣ ص.
ويشمل دراسات عن الآثار الاقتصادية المحتملة لكل من اتفاقات الشراكة الأوروبية / المتوسطية واتفاقات تحرير التجارة العالمية واتفاقية الاستثمار

المتعددة الأطراف. بالإضافة إلى دراسات تتناول التحديات التي تواجه الزراعة والنفط والتطور التكنولوجي في العالم العربي.

□ □ □

مستقبل الاقتصادات العربية

عبد الرحمن صبري

القاهرة: المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، ١٩٩٩.

دراسة في تطور الناتج المحلي الإجمالي للدول العربية، إذ يحلل المؤلف هذا الناتج استناداً إلى الإطار الإقليمي الذي تتم فيه التنمية العربية، والاختلالات الهيكلية الاقتصادية والمالية التي عاناها الاقتصاد العربي في الثمانينيات، ويقدم رؤية لمستقبل الاقتصاد العربي في ضوء هذه المحددات.

□ □ □

المرأة والتنمية

تحرير: هبة أحمد نصار. صلاح سالم زرنوقة

القاهرة: مركز دراسات وبحوث الدول النامية، ١٩٩٩.

يتناول الكتاب عددا من الدراسات التي قدمت إلى ندوة عن المرأة والتنمية، وتتناول القضية من منظور جديد، يعتبر المرأة فاعلا أساسيا في عملية التنمية، والتنمية كما تبينها هذه الدراسات متعددة الأبعاد سياسية واجتماعية وفكرية بأكثر مما هي اقتصادية.

□ □ □

The New Global Economy and Developing Countries: Making Openness Work

(الاقتصاد العالمي الجديد والدول النامية: كيف نجعل الانفتاحية تنجح)

Dani Rodrik

Johns Hopkins Up, 1999,100pp, $13.95

يرى المؤلف أن الانفتاح الاقتصادي على العالم لا يجب أن يكون هدفا في حد ذاته في الدول النامية، حيث تحتاج هذه الدول في رأيه إلى استراتيجية للاستثمار المحلي الذي يعده مفتاح النمو الاقتصادي. ويضيف أنه لن يحمي هذه الدول من الصدمات الاقتصادية سوى استقرار الديمقراطية فيها وحكم القانون والتأمين الاجتماعي.

روايـــات

أربع وعشرون ساعة فقط

يوسف القعيد

القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩.

تدور أحداث الرواية في عام ١٩٩٢، بالتحديد في أكتوبر من هذا العام الذي شهد أحد أيامه زلزالا هز مصر جميعها، ويعرض المؤلف للحظات الإنسانية التي امتزج فيها الخوف بالتضحية بالسخط، عبر عديد من الشخصيات في «محروسة عبد الحي» حيث تقع أحداث الرواية.

□ □ □

ريّا النهر. رواية

جبور الدويهي

بيروت: دار النهار، ١٩٩٨.

وهي الرواية الأخيرة للمؤلف الذي صدر له من قبل «الموت بيد الأهل نعاس» مجموعة قصصية، ورواية «اعتدال الخريف».

□ □ □

غناء البطريق/ رواية

حسن داود

بيروت: دار النهار، ١٩٩٨.

الرواية الأخيرة للأديب والصحافي اللبناني حسن داود الذي صدرت له من قبل روايات «بناية ماتيلد»، و«أيام زائدة»، و«سنة الأوتوماتيك»، ومجموعة قصصية هي «نزهة الملاك».

□ □ □

غواية الشحرور الأبيض

محمد شكري

كولونيا: منشورات الجمل، ١٩٩٨.

يدخلنا محمد شكري إلى مختبره السري كاشفا مصادر إبداعه، وتأثره بالحياة في طنجة وفاس وغيرهما من مدن المغرب، ويسلط الضوء على الكتابة وأهلها، مفرّقا بين البعدين التسجيلي والإبداعي فيها، وكأنه يرد سلفا على من هاجم سيرته الذاتية خصوصا الجزء الأول منها «الخبز الحافي».

□ □ □

مثل صيف لن يتكرر

محمد برادة

الرباط: الفنك، ١٩٩٩.

يصف المؤلف حياته في مصر خلال فترة دراسته بالقاهرة، ومشاركته في فرق الدفاع الشعبي في حرب ١٩٥٦، ليس الكتاب سيرة ذاتية بالمعنى الحرفي، وإنما عمل أدبي يستند إلى واقع عايشه المؤلف.

□ □ □

A Man in Full

(رجل بالتمام)

Tom Wolfe

Farrar, Straus and Giroux,1998, 742 pp. $28.

الرواية الجديدة للأديب الأمريكي صاحب رواية The Bonfire of the Vanities والتي اعتبرها النقاد أهم ظاهرة أدبية في الثمانينيات.

□ □ □

Kafka's Curse

(لعنة كافكا)

Achmat Dangor

Pantheon, 1999, 240pp., $ 22.

رواية كتبها أديب جنوب أفريقيا الذي اشتهر مؤخرًا في أمريكا، تدور حول أسرة مسلمة وملونة تعيش في أواخر عهد التمييز العنصري في جنوب أفريقيا.

□ □ □

Les Particules Elementaires

Michel Houellebecq

Flammarion, 1998,394 pp, FFr105

أكثر الروايات مبيعا الآن في فرنسا، مؤلفها ماركسي سابق يبلغ من العمر ٤٠ عاما، تدور حول أخوين غير شقيقين من أم عاهرة، أحدهما فاشل كمدرس وكاتب وزوج وأب، والآخر عالم جينات منعزل يحتقر الإنسانية ويتمنى عالما جديدا لاجنسيا، أفراده من البشر المهندسين جينيا.

سيـاسـة

أزمة الحل العنصري

أحمد صدقي الدجاني

القاهرة: المستقبل العربي، ١٩٩٩.

يتناول بالتحليل عرضًا لجذور المشكلة الفلسطينية والحلول التي اقترحت لإقامة وطن لليهود منذ مؤتمر بازل بسويسرا وحتى اليوم، ويفند التوجهات العنصرية لحل المشكلة اليهودية، والتي أوجدت مشكلة أخرى يعاني آثارها الفلسطينيون وتدفع فواتيرها المنطقة العربية ككل.

□ □ □

التاريخ السياسي لتركمان العراق

عزيز الصمانجي

بيروت: دار الساقي، ١٩٩٩.

يتناول التاريخ السياسي لتركمان العراق منذ أقدم عصورهم وحتى اليوم، ويلقي الضوء على أحوال هذه القومية المتمايزة، دورهم في تاريخ العراق وأمانيهم القومية والوطنية.

□ □ □

التحدي الإسلامي في الجزائر

ترجمة: عادل خير الله

الأردن: المطبوعات للنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

يدرس التحديات التي تمثلها الجماعات الإسلامية المسلمة في الجزائر وتأثيرها على السلطة وشرعيتها في بلد يعاني أزمة شرعية بين جماعات إسلامية تؤكد حقها في تولي مقاليد الحكم وسلطة فعلية تنازعها هذا الحق.

□ □ □

الخاتمية

محمد صادق الحسيني

بيروت: دار الجديد، ١٩٩٩.

يتناول الآثار المترتبة على وصول محمد خاتمي إلى منصب الرئاسة في إيران، وهو ما أوجد ما يسميه المؤلف بالظاهرة الخاتمية، التي تواجه مواقف محافظة مما يعكس صراعا بين ما تطرحه وما يطرحه المحافظون.

□ □ □

خروج الأهل عن الدولة

وضاح شرارة

بيروت. دار المسار، ١٩٩٩.

يشتمل الكتاب على عنوان فرعي يكشف محتواه «فصل من تاريخ الحروب الملبننة»، ويضم عشرة فصول فضلا عن تمهيد و«خاتمة مؤقتة» كما يسميها المؤلف، وهي جميعها بتحليلها للأوضاع في لبنان والحوادث التي مرت به، تلقي أضواءً على مسرح الأحداث الحالي واحتمالات انفراجه مستقبلا.

□ □ □

Capitalism with a Comerade's Face

(رأسمالية لها وجه شيوعي)

Roman Frydman, Kenneth Murphy and Andrzej Rapaczynska

Central European University Press,1998, 389pp. £31.

دراسة تفصيلية للأثر الاجتماعي للإصلاحات السياسية والاقتصادية في البلدان الشيوعية السابقة. فتعرض مثلا «للصفقة الفاوستية» التي سمح الشيوعيون بمقتضاها بتنفيذ الإصلاحات السياسية في مقابل سماح الإصلاحيين لهم بأن يصبحوا أغنياء في ظل النظام الجديد.

□ □ □

Pakistan: A Modern History

(باكستان: تاريخ معاصر)

Ian Talbot

London: Hurst, 1999,432pp.£16.50

يحلل المشاكل المزمنة التي ألمت بباكستان منذ عام ١٩٤٧ مثل الانقسام الإثني والمذهبي، وتدخل الجيش في السياسة، والتذبذب الاقتصادي إلى جانب العلاقة المعقدة مع الهند، وهشاشة النظام الديمقراطي.

□ □ □

This Blessed Plot: Britain and Europe from Churchill to Blair

(المخطط المبارك: بريطانيا وأوروبا من تشرشل إلى بلير)

Hugo Young

Macmillan, 1999, 543pp, $39.95.

يحلل المؤلف موقف الحكومة البريطانية تجاه أوروبا والوحدة الأوروبية منذ سنوات الحرب العالمية الثانية من خلال مواقف وتصريحات الساسة البريطانيين بدءا من تشرشل وبيفن وانتهاءً بتوني بلير.

□ □ □

Twilight of the West

(غسق الغرب)

Christopher Coker

Boulder: Westview Press, 1998,203pp. $ 28.00

يحلل المؤلف التاريخ الثقافي لبلدان الجماعة الأطلنطية التي كان من المفترض أن تكون الأساس السياسي ـ الثقافي لحلف الناتو. ويخلص المؤلف إلى أن ذلك التحالف السياسي لم يحصل أبدا على ولاء عاطفي يكفي لاستمراره بعد زوال التهديد السوفيتي، وذلك بسبب الرؤية المنافسة لفكرة الهوية الأوروبية الموحدة إلى جانب التغيرات الديموجرافية الأخيرة التي تتجه نحو التعددية الثقافية.

علـــوم

العرب وتحديات العلم والتقانة

أنطوان زحلان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.

تتوج هذه الدراسة أكثر من ثلاثين عاما

من البحث، سعى فيها المؤلف وهو أستاذ للفيزياء ومحاضر في عديد من جامعات العالم إلى إيضاح العلاقة بين العلم والتكنولوجيا من جهة، والبرامج الاقتصادية وعملية صنع القرار في الدول العربية من جهة أخرى، خصوصا مع التحديات الكبرى التي يفرضها التقدم المذهل والمستمر في المجالات العلمية والتكنولوجية على مستوى العالم.

□ □ □

The Fifth Miracle : The Search for the Origin of Life

(المعجزة الخامسة: البحث عن أصل الحياة)

Paul Davies

Simon and Schuster, 1999, 400pp.$25.

المؤلف أستاذ للفيزياء الرياضية كما أنه فائز بجائزة تمبلتون لتقدمه في الفكر الديني.

يتحدى في كتابه هذا علماء التطور البيولوجيين أنصار الفكر الدارويني في تفسيره لأصل الحياة وقوانينها التي تحكمها.

□ □ □

The Thread of Life: The Story of Genes and Genetic Engineering.

(خيط الحياة: قصة الجينات والهندسة الوراثية)

Susan Aldridge

Cambridge University Press, 1998.

مدخل إلى عالم الجينات والاستخدامات المتعددة للهندسة الوراثية.

عمـــــارة

Legacies For the Future: Contemporary Architecture in Islamic Societies

(ميراث للمستقبل: العمارة المعاصرة في المجتمعات الإسلامية)

Cynthia Davidson (editor)

Thames and Hudson, 1999, 176pp, $22.00

كتاب جديد يتناول المشاريع المعمارية السبعة التي فازت بجائزة أغاخان للعمارة في المجتمعات الإسلامية هذا العام. جدير بالذكر أن هيئة التحكيم ضمت المفكر الجزائري محمد أركون وقد فاز بهذه الجائزة من قبل المهندس المصري حسن فتحي.

□ □ □

Paris along the Nile: Cairo Architecture from the Belle Epoque

(باريس على شاطئ النيل: المعمار القاهري في العصر الذهبي)

Cynthia Myntti

Cairo: The AUC Press,1999,112 pp (hb). LE90.

قرر الخديوي إسماعيل بعد أن زار باريس في ١٨٦٧ أن ينشئ مدينة حديثة على نفس الطراز المعماري الموجود في باريس. يحتوي هذا الكتاب على ٢٠٠ صورة فوتوغرافية لمباني القاهرة التي أنشئت على الطراز الفرنسي. وتصاحب الصور تعليقات تحتوي على عنوان المبنى واسم مصممه وعام إنشائه واسم أول مالك له.

□ □ □

The Traditional Architecture of Saudi Arabia

(العمارة التقليدية في السعودية)

Geoffery King

St.Martins Press, 1998, 256pp, $75.00

الكتاب يستعرض طرز المعمار التقليدي المختلفة في أنحاء الجزيرة العربية، حيث يختلف الطابع المحلي للقرى والمدن على ساحل البحر الأحمر عن تلك الموجودة على الخليج وبين الجبال وفي سهول نجد الداخلية.

فكـــر

أبي آدم.. قصة الخليقة بين الخيال الجامح والتأويل المرفوض

عبد العظيم إبراهيم المطعني

القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٩

يفند الآراء التي تبناها الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه عن خلق آدم، والذي قال فيه إن آدم ليس هو أول البشر، ويستخدم المطعني أدوات لغوية وبلاغية وفقهية ليرد مزاعم شاهين، ويؤكد عبر سطور كتابه خطورة الخوض في مثل هذه الأمور التي يعتبرها من الغيبيات.

□ □ □

القراءات وأثرها في علوم العربية

محمد سالم محيسن

بيروت: دار الجيل، ١٩٩٩

يتعرض لأثر علوم القراءات في اللغة العربية وإعجاز القرآن وبيانه وسره ولغته الجميلة وأثرها في العربية.

□ □ □

القضاء القبطي في مصر

مجدي جرجس

القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات

تتناول الدراسة نشأة القضاء القبطي المسيحي وتطوره في العصر الروماني، والأسس النظرية التي قام عليها وتداخل التشريعات الكنسية مع التشريعات المدنية، والمراحل التي مر بها القضاء القبطي منذ الفتح العربي الإسلامي وأثرها على مساره، ويتعرض الكتاب بالتفصيل للإجراءات المتبعة في سير الدعاوى في القضاء القبطي وكيفية إصدار الأحكام وتنفيذها.

□ □ □

اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم

كمال بشر

القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٩٩

يرفض المؤلف في كتابه القول بأن اللغة الفصحى جامدة وغير قادرة على مجاراة معطيات العصر والتعاطي مع مشكلاته، ويقدم تصوراته لإمكانيات تطورها وقدراتها الكامنة القادرة على استيعاب كل جديد والتعبير عن كافة المشكلات المعاصرة بأقصى درجة من الوضوح والإبانة.

□ □ □

مجرد ذكريات

رفعت السعيد

دمشق: دار المدى، ١٩٩٩

ذكريات يمزج فيها المؤلف همه الخاص بهموم الوطن وقضايا أمته، لايبعد الدكتور رفعت السعيد كثيرا عن رؤاه التاريخية، لكنه يقدمها هنا من وجهة نظر شخصية وإنسانية في آن معا.

□ □ □

مقاربات فكرية وسياسية في الشأن العربي الراهن

محمد مصطفى القباج

الرباط: المؤسسة العربية للنشر والإبداع، ١٩٩٩

يحتوي الكتاب على مجموعة من المقالات التي تتناول الوضع العربي الراهن، ويقدم المؤلف عبرها رؤية استشرافية للمستقبل العربي في ضوء المعطيات الآنية.

□ □ □

The Culture of Secrecy: Britain 1832 - 1998

(ثقافة الكتمان: بريطانيا ١٨٣٢ - ١٩٩٨)

David Vincent

Oxford University Press / Clarendon Press, 1998.

أول دراسة شاملة للكتمان في بريطانيا. يتناول من خلالها أسباب إخفاء الأسرار وأثرها في تأسيس نظم الحكم وفي هدمها خلال المائة والستين عامًا الماضية.

□ □ □

Uncommon People: Resistance, Rebellion and Jazz

(ناس غير عاديين: المقاومة والتمرد والجاز)

Eric Hobsbawm

The New Press, 1998.$ 27.50

يبدأ المؤرخ الشهير مجموعة مقالاته بمناقشة الفن والأيديولوجيا ثم يفسر كيف أسهمت اتحادات العمال في تفوق عمل الرجال على عمل المرأة؟ ولماذا قاد صناع الأحذية على وجه الخصوص الكثير من الثورات. كما يعترف في كتابه بولعه المبكر جدا بموسيقى الجاز حتى في حفلاتها «الإمبريالية».

فلسفـــة

تاريخ فلاسفة الإسلام

محمد لطفي جمعة

القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٩

يحوي اثنى عشر فصلا تتناول الفلاسفة على مر العصور، بدءا من أرسطو وحتى فلاسفة العصر الحديث، مرورا بفلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرهم، عارضا لأهم آرائهم في القضايا المختلفة.

□ □ □

الوجه الآخر لحداثة ابن رشد

محمد المصباحي

بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٩

يأتي هذا الكتاب في مناسبة مرور ٨٠٠ سنة على وفاة الفيلسوف أبو الوليد بن رشد، وفي هذا الكتاب يحاول المؤلف كشف الوجه الخفي لابن رشد عبر فلسفته المرنة القابلة للتفاعل مع هموم العالم المعاصر.

□ □ □

Beyond Evolution : Human Nature and the Limits of Evolutionary Explanation

(ماوراء التطور: الطبيعة الإنسانية وحدود التفسير التطوري)

Anthony O' Hear

Clarendon Press, 1999. £11.99

يقف أنتوني أوهير أستاذ الفلسفة بجامعة برادفورد ضد «موضة» تفسير السلوك الإنساني من خلال نظرية التطور. فيرى أن النظرية تصلح فقط في تفسير تطور الكائنات الحية ولكنها لاتقدم تفسيرا «شاملا» لأوجه الحياة الإنسانية الأخرى مثل الوعي بالذات والبحث وراء المعرفة والحس الأخلاقي وتقدير الجمال. حيث إنه في تلك الأمور يتجاوز الإنسان أصله البيولوجي ولا يكون خاضعا لإرثه الجيني أو الثقافي.

□ □ □

Principes de la Philosophie du Droit de Hegel

(مبادئ فلسفة القانون لهيجل)

Traduction et presentation de Jean Louis Baron

GF - Flammarion, 1999, 448p, 62f.

ترجمة فرنسية جديدة لكتاب هيجل الشهير موجهة إلى القارئ العادي ببساطة في الأسلوب. هذا الكتاب لاقى نجاحا وشعبية كبيرة منذ أن ظهر في ١٨٢٠ حيث يمس موضوعات مهمة مثل الملكية والعدل والأخلاق والأسرة والدولة.

□ □ □

Truth: A History and a Guide for the Perplexed

(الحقيقة: تاريخ ودليل لمن اختلط عليهم الأمر)

Felipe Fernandez - Arnesto

London: Black Swan, 1998.

رأى غير نسبي عن طريقة تحديد الحقيقة.

فنـــون

قراءات نقدية في أفلام التسعينيات

قصي صالح الدرويش

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٩.

يقدم الكتاب قراءة نقدية وتحليلية لعدد من أهم الأفلام العربية التي عُرضت في السنوات العشر الأخيرة. ويصوغ المؤلف عبر هذه القراءة رؤية شاملة

لأوضاع السينما العربية الراهنة، وآفاقها المستقبلية، بين ما يعرض له المؤلف: المصير ليوسف شاهين، وكومبارس لنبيل المالح، وابنة الهواء لمارون بغدادى، وباب الواد الحومة لمرزاق علواش، وبيزنس لنورى بوزيد، وعصفور السطح لفريد بو غدير وغيرها.

□ □ □

متحف فى كتاب
مختارات من مجموعة د. محمد سعيد فارس (الأعمال المصرية)
صبحى الشارونى
القاهرة : دار الشروق، ١٩٩٨

يضم عشرات الأعمال لفنانين تشكيليين مصريين يمثلون أجيالاً مختلفة منذ محمد ناجى، ومحمود مختار، وراغب عياد، ويوسف كامل إلى صلاح عنانى، ومحمد الناصر، وميشيل معلوف مرورًا بحامد ندا، وإنجى أفلاطون، وحامد عبد الله، وجاذبية سرى، وحسن سليمان، وحلمى التونى، وفاروق شحاتة وغيرهم.
وتمثل هذه المجموعة متحفا يؤرِّخ للفن المصرى باتجاهاته ومدارسه وتطوره على مدى قرن كامل تقريبا.

□ □ □

Tchaikovsky and his World
(تشايكوفسكى وعالمه)
Leslie Kearney (Editor)
Princeton University Press, 1998.

باحثون من عدة مجالات يكشفون نواحى مختلفة لتشايكوفسكى تغير من الفهم السائد عن حياته وأعماله والوسط الثقافى الذى عاش فيه.

متنوعـــات

الأحجار الكريمة
السيد الجميلى
القاهرة : مكتبة مدبولى، ١٩٩٩

بحث جغرافى تاريخى جيولوجى ودينى أيضا فى الأحجار الكريمة، كاشفا عن بعض الأمراض التى تتعرض لها هذه الأحجار وتؤثر فى نقاوتها، كما يصف كرسى سليمان ـ عليه السلام ـ الذى صممه الجنى المسخر بكل ما حواه من إعجاز ورفاهة.

□ □ □

وسائل المواصلات
يعقوب الشارونى
القاهرة : دارسفير، ١٩٩٩

يتعرض لنشأة وسائل الموصلات وتاريخ تطورها برا وبحرا وجوا، وفضل قدماء المصريين والقوافل العربية فى تطور هذه المواصلات واكتشافهم للطرق البحرية.

□ □ □

The Madman and the Professor
(الرجل المجنون والأستاذ)
Simon Winchester
Harper Collins,1998, $ 22.

قصة واقعية عن رجل أمريكى قاتل ومجنون، استطاع أن يساعد جيمس موراى فى تجميع مادة قاموس أكسفورد الإنجليزى من مقر إقامته فى مصحة عقلية.

مراجـــع

دليل إصدارات الناشرين
شعبان خليفة
القاهرة : اتحادالناشرين، ١٩٩٩

يقدم ببليوجرافيا كاملة عند أحدث الإصدارات التى أخرجتها دور النشر المصرية، إذ شارك فيها نحو تسعة وخمسين ناشرًا، والحق بهذه الببليوجرافيا كشافان، أحدهما هجائى بأسماء المؤلفين والآخر هجائى بالعناوين، ويقدم الدليل بهذا المحتوى صورة واضحة لما انتجه الناشرون المصريون وتوجهات إصداراتهم، بما يعين القارئ على الاختيار والاقتناء.

□ □ □

The Dictionary of Global Culture
(قاموس الثقافة العالمية)
Kwame Anthony Appiah and Henry louie Gates, Jr.
Penguin, 1999, 736 pp, £ 12.99 (pb)

مقالات عن كتاب موسيقيين ومفكرين من جميع أنحاء العالم إلى جانب موضوعات عن الدين والفلسفة. جمعها المحرران إيمانًا بأن العالم يتجه إلى ثقافة عالمية بعد ٥٠٠ عام من الهيمنة الغربية. ففى عام ٢٠٠٠، نصف سكان العالم سيكونون من الآسيويين، وثمن السكان من أفريقيا، كما ستكون الأغلبية غير مسيحية، بل إن أكبر مدن العالم لن تكون فى أى من أوروبا أو الولايات المتحدة.

□ □ □

The Modern Arabic Novel: Bibliography and Critical Introduction, 1865-1995.
(الرواية العربية الحديثة: مقدمة نقدية وببليوجرافيا ١٨٦٥ـ١٩٩٥)
Hamdi Sakkut
Cairo: The AUC Press,1999, 3200 pp. 5Vols. (pb), LE. 450

يشتمل المجلد الأول على مقدمة باللغتين العربية والإنجليزية عن أصول الرواية العربية وخصائصها فى كل من مصر والدول العربية المشرقية والدول العربية فى شمال أفريقيا.
أما المجلدات من الثانى إلى الخامس فتتناول معلومات ببليوجرافية عن كل رواية عربية نشرت ما بين ١٨٦٥ و١٩٩٥، بالإضافة إلى معلومات عن الأعمال النقدية المرتبطة بكل رواية.

□ □ □

The Penguin Biographical Dictionary of Women
(قاموس بنجوين لتراجم النساء)
Margaret Bluman (editor)
Penguin, 1998, 636pp (pb), £ 12.99

يحتوى على سيرة حياة مختصرة لألف وستمائة سيدة، أكثرهن من أمريكا وأوروبا، وأكثرهن من سيدات القرن العشرين.

مســـرح

الحركة المسرحية فى لبنان (١٩٦٠ ـ ١٩٧٥)
خالدة سعيد
بيروت : لجنة المسرح العربى، ١٩٩٩

تتناول الناقدة فى هذا الكتاب مشوار المسرح فى لبنان، وهى لاتقدم ببليوجرافيا تاريخية، وإنما رؤية نقدية لهذه المسيرة، تجيب خلالها على عديد من التساؤلات المطروحة على الساحة المسرحية العربية، وتبدى آراءً فى رواد المسرح مثل مارون نقاش وجورج أبيض وآخرين.

□ □ □

رواد وأساتذة فى المسرح المصرى
أحمد سخسوخ ـ فوزى فهمى
القاهرة : أكاديمية الفنون، ١٩٩٩

كتاب تذكارى يتناول نفرا من رواد المسرح الذين أسهموا فى نشأته وتطوره من أمثال زكى طليمات وتوفيق الحكيم وإبراهيم حمادة.

□ □ □

مسرحيات عراقية
قاسم محمد، عبدالخالق الركابى، عواطف نعيم
القاهرة : دار عشتار، ١٩٩٩

تحت عنوان أدب ضد الحصار تأتى هذه الإبداعات من العراق الشقيق، وهى مسرحيات لمسرحيين عراقيين يقيمون فى العراق، يمتزج فيها الجد بالسخرية والواقع بالفانتازيا والتراث بالمعاصرة.

□ □ □

On Directing
(عن الإخراج)
Gabriella Giannachi (editor)
Foreword by Peter Brook
Faver, 1999, 256pp, £9.99

الأساليب الجديدة فى الإخراج المسرحى المعاصر فى بريطانيا.

نقد أدبى

حوار مع الرواية المعاصرة
حلمى القاعود
دمشق : أشبيلية، ١٩٩٩

يحلل فيه المؤلف عددًا من الروايات التى يمس مضمونها قضايا مهمة فى مجتمعاتنا، فهو لايقدم رؤية نقدية جمالية فحسب، وإنما يعنى أساسا بالهموم التى تعكسها تلك الأعمال الروائية ومدى تعبيرها عن شواغل المواطن والإنسان العربى.

□ □ □

ظاهرة التعالق النصى فى الشعر السعودى الحديث
علوى الهاشمى
السعودية : صحيفة الرياض ـ الكتب الشهرية، ١٩٩٨

يحلل المؤلف شبكة العلاقات النصية التى ترد الشعر السعودى إلى بنى فنية وثقافية واحدة، وقد رُصد بعضها فى سياق آخر تحت عنوان «شعراء الظل» مؤكدا أصالة هذه العلاقات فى الوعى الاجتماعى والسياسى.

□ □ □

نزار قبانى والثورة العربية
صبرى العسكرى
القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩

يلقى الضوء على واحد من الجوانب المهمة فى شخصية نزار قبانى، ونعنى به الجانب العروبى الذى شغل الشاعر كثيرا وكتب فيه عددًا من أهم قصائده التى يستشهد بها المؤلف فى تحليله لمواقف الشاعر القومية

□ □ □

هسهسة اللغة
رولان بارت
ترجمة: منذر عياش
سوريا: مركز الإنماء الحضارى، ١٩٩٩

يأتى هذا العمل استمرارًا لترجمة روائع رولان بارت التى قام بها المترجم، وهو واحد من النقاد الحداثيين المتابعين للتوجهات النقدية الحديثة فى الغرب.

□ □ □

An Introduction to Modern European Literature: From Romanticism to Postmodernism
(مقدمة فى الأدب الأوروبى الحديث: من الرومانسية إلى ما بعد الحداثة)
Martin Travers
St. Marting Press, 1998, 276 pp, $19.95

□ □ □

Bad Girls and Sick Boys: Fantasies in Contemporary Art and Culture
(فتيات سيئات وصبيان مرضى: الأوهام فى الفن والثقافة المعاصرين)
Linda S. Kauffman
University of California, 1998, 324pp., $10.95.

تدافع المؤلفة عن المؤلفين والفنانين الذين تعرضت أعمالهم للإيقاف من جانب الرقابة، وتحلل أثر الحرب والتكنولوجيا على نظرة الفنان المعاصر للجسد الإنسانى.

□ □ □

Tending the Heart of Virtue: How Classic Stories Awaken a child's Moral Imagination
(رعاية قلب الفضيلة: كيف توقظ القصص الكلاسيكية الخيال الأخلاقى للطفل)
Vigen Guroian
Oxford UP, 1998, 176pp, $22.00

المؤلف عالم لاهوت بالأساس ولكنه يعمد إلى دراسة اثنتى عشرة قصة من كلاسيكيات التراث الغربى مبينًا أثرها الأخلاقى الإيجابى على وعى الأطفال.



الكتابة التاريخية فى مصر
أزمة منهج أم أزمة تطبيق؟

رغم أهمية التأليف باللغة العربية فى منهج البحث فى التاريخ، والاعتراف بفقر المكتبة العربية فى المؤلفات «الرصينة» الخاصة بهذا الباب على نحو ما أشار الدكتور رءوف عباس فى صدر مقالته، إلا أن أزمة البحث فى التاريخ فى تقديرى أكبر من نقص الكتابة فى المنهج، إذ يكفى ما كتب فيه سواء أكان ترجمة عن الآخرين أو تأليفا مزودا ببعض خبرات المؤلف من واقع ملاحظاته وتأملاته. أما ماينقص بعد ذلك فهو استيعاب المكتوب استيعابا جيدا والتدريب على كيفية استخدامه وتطبيقه.

والمشكلة التى أصبحت تبدو إشكالية، تكمن فى الفصل بين تدريس المنهج تدريسا نظريا مجردا فى قاعة الدرس وبين ممارسة تطبيقه عمليا.. فمثلا يحاضر الأستاذ طلابه فى أهمية العلوم المساعدة للبحث فى التاريخ وتتحدد بدائرة العلوم الاجتماعية والإنسانية. ويؤكد أنه عند البحث فى موضوع له بعد اقتصادى فيتعين دراسة الاقتصاد والاقتصاد السياسى حتى يمكن التعامل مع المادة التاريخية، والتقاط ما فيها من إشارات اقتصادية.. وهكذا فيما يتعلق بالموضوع الذى يكون له بعد اجتماعى أو قانونى.. الخ. ومن هنا يدرك الطالب استحالة الفصل بين الظواهر، ويتعلم صعوبة دراسة ظاهرة فى التاريخ بمعزل عن الظواهر الأخرى، كما يتعلم الربط بين جزئيات معارف الموضوع حتى تكتمل عنده صورة الموضوع. ولكن عندما يكتب الباحث بحثه نجده خلوا من الاتصال بأساسيات العلم المساعد الذى يتصل بموضوع بحثه، ومن ثم يأتى البحث مجرد معلومات مصفوفة منقولة من أوراق قديمة صفراء على ورق أبيض.

ويدرس الطالب ـ ليس فى جميع أقسام التاريخ بالكليات ـ فلسفة التاريخ.. أى تفسير حوادث التاريخ فى ضوء مفاهيم نظرية مثالية ومادية ليدخل بأى واحدة منها لموضوع البحث، ويردد الطالب وراء الأستاذ هذه المفاهيم لكنه لايعرف كيفية استخدامها.. إما لأن القائم بالتدريس فى كثير من الأحيان لايعرف من التاريخ سوى أنه فن رواية الحوادث وليس تعليلها وفق مفاهيم معينة، وإما لأن الباحث لا يتمتع بقدرة ذهنية على استيعاب الأفكار المجردة وأصبحت فلسفة التاريخ فى قاعة الدرس عبارة عن حديث عن مفاهيم نظرية، وليس تعليم الكتابة بها.

ومن مظاهر بؤس الدراسة فى التاريخ أن يتعلم الطالب أن المؤرخ ما هو إلا قاض!!.. وطالما أنه اعتلى منصة القضاء فإن عليه أن يحكم.. ولاراد لأحكامه. وهذا فهم مبتسر لمهمة الباحث فى التاريخ. ومقابلة وظيفة المؤرخ بالقاضى تفتقد شروطا كثيرة، لعل أبسطها أن القاضى لايحكم إلا بعد الاستماع إلى مرافعة المتهم، التى تشمل بيان الظروف والأسباب التى أدت إلى ارتكاب الجريمة أو إلى اتهامه خطأ. ومن هنا يأتى الحكم القضائى فى إطار الظروف الموضوعية المعروضة.. فمن أين للمؤرخ هذه المرافعة؟.. هل يكتفى بالاحتكام إلى بيانات ووثائق متاحة قد لاتكون كل وثائق «القضية».. لقد نسى هؤلاء أن مهمة الباحث فى التاريخ هى التفسير وليس المحاكمة، وذلك بالبحث عن الأسباب والعلل وراء مجموعة الحوادث التى يدرسها، ليقول لنا فى النهاية ما إذا كانت النتائج مرتبطة ارتباطا شرطيا بالأسباب المؤدية إليها.. أم أن صاحب القرار السياسى سار فى طريق غير الذى كانت الظروف ترسمه له وتخطه، ومن هنا أهمية المفاهيم النظرية للتعامل مع المعلومات التاريخية.

ويرتبط بتصور أن المؤرخ ما هو إلا قاض، تصور آخر مؤداه أن المؤرخ ـ القاضى لايجب أن ينحاز، وينبغى أن يكون محايدا، والمقصود بهذا أن لا يُحكم المؤرخ ـ القاضى تفضيلاته الذاتية فى الحكم على الحدث الذى يتناوله، من حيث الانتماء السياسى أو الدينى أو الاجتماعى. على أن الذين يقولون بهذا يرمون إلى إسباغ فضيلة الحياد على أحكامهم وإيهام القارئ بعدم انحيازهم، وهو افتراض كاذب فى كل الأحوال، لأن الذين يقولون بهذا هم أبعد الناس عن تلك الفضيلة، وأكثرهم عدوانا عليها، ويختفون وراء المصالح الخاصة التى تربطهم بموضوع البحث. ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء يخلطون بين حياد الباحث فى العلوم الطبيعية وحياد الباحث فى العلوم الاجتماعية.. فالأول لا تنشأ علاقة انتماء بينه وبين موضوع بحثه الذى يدور فى دائرة الجماد والحيوان والنبات، أما الثانى وهو الباحث فى العلوم الاجتماعية فلابد أن تربطه بموضوع البحث رابطة ذاتية ما. ومن هنا صعوبة الحياد أو خرافته عند البعض. ورغم كل هذا فإن الدارس يتعلم من أستاذه أهمية إبداء الرأى فى موضوع بحثه. وهذا الرأى المستند إلى أكبر قدر ممكن من المعلومات من المصادر المتباينة هو ما يعرف بالانحياز الموضوعى.

إن أحد الأسباب عقم بحوث التاريخ لدينا حيث تتسع أفقيا دون إضافة، وليس رأسيا بإضافات متنوعة تشكل التراكم المعرفى، غياب النقد الذى يساعد على تصويب الباحث وتصحيحه أولا بأول ووضعه على الطريق السليم. والأسباب كثيرة لعل أبسطها أننا لم نتعلم النقد الذاتى أولا قبل أن ننقد الآخرين، ونخلط بين ماهو شخصى وما هو موضوعى، وبدلا من أن ننقد العمل المنشور نمسك بتلابيب كتابه ونهيل التراب على أصله وفصله. وفى هذا الخصوص أعرف أستاذا كبيرا ـ يرحمه الله ـ لم يكتب إلا قليلا، وكان يقول إنه يخشى المطبعة. والمعنى أنه يخشى النقد حتى ولو كان شفاهة من أصدقائه.. فمابالك إذا كان النقد مكتوبا ومنشورا، وفى الوقت نفسه كان يتجنب نقد الآخرين علنا إلا فى جلساته الخاصة، ومن نواقص البحث فى التاريخ لدينا الافتقاد إلى طبيعة العمل الجماعى Team Work ذلك أن هناك أعمالا تاريخية كبرى لايقدر باحث بعينه أن يقوم بها، وتحتاج إلى فريق عمل توزع فيه الأعباء تحت إشراف محرر Editor غالبا ما يكون صاحب الفكرة. لكننا لم نتعلم العمل الجماعى، وكل فرد فى المجموعة يرى نفسه الأكفأ من غيره، ولايقبل بأى تعديل فيما كتب حتى من باب الاتساق مع السياق العام فما بالك إذا طلب المحرر تصويب بعض الأخطاء وبعض الأفكار؟

ويدرس الطالب أن بحث موضوع فى التاريخ يجب أن تتوافر له المصادر من وثائق وكتابات مرجعية. ومن هنا يجئ القول بأن التاريخ لايكتب إلا بعد مرور خمسين عاما أو ثلاثين. وبسبب هذا القول أن بعض الدول لا تفرج عن وثائقها إلا بعد خمسين سنة أو ثلاثين حسب الأحوال. وهذا لايعنى الجمود إذ المقصود توافر المعلومات. أما إذا كانت الأرشيفات الحكومية تسمح بالإطلاع على الوثيقة فور حفظها، يصبح من السهل البحث فى الموضوع. لكن هناك بعض الباحثين تغريهم الكتابة عن الحوادث التى ماتزال فى حكم التاريخ الجارى current history اعتمادا على ماتنشره الصحف من أخبار. مع أننا نعلم حقيقة دورة الخبر من مصدره عبر وكالات الأنباء، واختلاف صيغة نشره بين صحيفة وأخرى. فإذا ما دخل باحث التاريخ فى هذا المجال يصبح أقرب إلى الكاتب الصحفى الذى يغير من تعليقاته يوما بعد يوم حسب حركة الوقائع. ومع هذا فلابأس من وجود من يقوم بتسجيل وقائع التاريخ الذى يعاصره على نحو ما فعل المؤرخون القدامى مثل ابن اياس، والجبرتى، بل وعبدالرحمن الرافعى فيما كتبه عن وقائع تاريخ مصر منذ ثورة ١٩١٩، بصرف النظر عن آرائه، فمثل هذه الكتابات هى من قبيل الرواية الشفهية التى تأخذ مكانة كبيرة عند الباحثين بعد قدم الزمن بها.

أما ما طرحه اريك هوبسباوم من دراسة تاريخ المجتمع History of Society بدلا من التاريخ الاجتماعى Social History خشية أن يتحول التاريخ الاجتماعى إلى قاعدة لعلم الاجتماع، فأمر غيرمفهوم لأن المجتمع المقترح دراسة تاريخه موضوع كلى يشمل وقائع سياسية واقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية فى زمن معين. وعلى هذا لايمكن دراسته دراسة كلية، إذ فى النهاية لابد من تحديد مجال موضوع دراسة تاريخ المجتمع بين أن يكون فى المجال السياسى أو فى المجال الاجتماعى أو فى المجال الاقتصادى أو فى المجال العسكرى.. الخ، وكذلك الحال فيما يتعلق بتخوفه من التاريخ الاقتصادى لئلا يتحول إلى قاعدة للنظرية الاقتصادية. والحقيقة أن هذا الطرح من قبل هوبسباوم يقودنا إلى فعل ما ينهانا عنه و هو تجنب عزل الظاهرة موضع الدراسة عن سياقها المجتمعى. ولعله يعلم أن دوائر العلوم الاجتماعية ـ بعد تقسيم كل منها إلى تخصصات جزئية ـ تتداخل فيما بينها وتتماس.

وبعد.. ليس المقصود بما سبق نفى وجود إبداع فى الكتابة التاريخية فى مصر، فهناك عناصر بارزة فى دائرة البحث فى التاريخ يكتمل لديها إتقان المنهج واستخدامه مع سعة فى الاطلاع فى دائرة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولكن الظاهرة تقاس دائما بأغلبية عناصرها التى تشملها الجزئيات، ومن هنا ما نرصده من ملاحظات. إن صناعة الباحث فى التاريخ لايجب أن تترك فقط للفروق الفردية بين الناس، بل ينبغى أن يولد الباحث من خلال نظام تعليمى system يتعلم فيه أدوات البحث، ويتدرب على تطبيقها، ويتعلم أن البحث فى التاريخ يستهدف اكتشاف العلاقة بين الجزئيات وصولا للصورة الكلية من خلال تجريب المفاهيم النظرية، وليس مجرد جمع معلومات من بطون المصادر وإعادة كتابتها وربما بطريقة تنزعها من سياقها.

د.عاصم الدسوقى
أستاذ التاريخ المعاصر



أسلحة الدمار الشامل
وتطور التكنولوجيا الحديثة

يتناول مقال «هستيريا الحرب ضد مجهول» رؤية جديدة للتهديد الذى قد تتعرض له الولايات المتحدة الأمريكية من أسلحة الدمار الشامل، وهو يقوم على تصور إمكانيات استخدام هذه الأسلحة ضد التجمعات السكانية فى داخل مدن الولايات المتحدة.

ورغم أن هذا التصور ليس بالجديد، إلا أن الكاتب يعرضه بتحليل عميق للفكر الأمريكى للردع والسياسة الأمريكية تجاه هذا السلاح.

ويفتح المقال بعض النقاط التى يجب التركيز عليها:

١ ـ تعاظم دور التكنولوجيا الحديثة التى أكسبت الولايات المتحدة قوة ردع جديدة متمثلة فى الأسلحة المتطورة ونظم التسليح المتكاملة، والتى أثبتت فاعلية لا نظير لها فى الخليج، وتحول الاهتمام الأمريكى بالتالى إلى الردع بالأسلحة المتقدمة بدلا من أسلحة التدمير الشامل.

ويرى الكاتب أن هذا التطور المتعاظم للأسلحة ذات التكنولوجيا الحديثة لن يمكن لأغلب الدول ملاحقته حتى إذا امتلكت أسلحة متقدمة.

وقد يترتب على ذلك احتياج دول «الدرجة الثانية» إلى اللجوء للردع بأسلحة التدمير الشامل، وبالتالى مواصلة الجهود للحصول على أفضلها وفقا لقدراتها.

وهنا يجدر الوقوف قليلا للتعرف



على فكر الردع بالأسلحة الحديثة، فالولايات المتحدة قامت بتطوير نظم متكاملة من الأسلحة، منها ما ظهر فعلا، والباقى مازال تحت التطوير بحيث يحقق فاعلية لاشك فيها على الأجيال السابقة من الأسلحة والتى تتصارع حولها وبها دول «الدرجة الثانية».

التطور التكنولوجى الكبير الذى تمتلكه الولايات المتحدة فى مجالات التسليح خلق طفرة فى القدرات العسكرية لا يمكن لدول العالم الثالث بالفعل الوصول إليها، وبالتالى باتت الولايات المتحدة فى غير حاجة إلى أسلحة التدمير الشامل لردع هذه الدول، وكما كانت حريصة على حظر تسرب تكنولوجيات واحتياجات أسلحة التدمير الشامل عن هذه الدول، فإنها ستكون أكثر حرصا على حظر التكنولوجيات الحديثة عنها أيضا بمختلف الأساليب من الحظر التكنولوجى إلى قيود ضبط التسلح التى تفرضها ويجب توقع ازدياد اهتمام السياسة الأمريكية بالحظر التكنولوجى.

ولعل التطور الجديد الذى أدى إلى تقليل اهتمام الولايات المتحدة بالردع بأسلحة التدمير الشامل يكون دافعا لدعمها فكر التخلص من أسلحة التدمير الشامل فى العالم أجمع، حيث لن تعتمد عليها فى ردع أعدائها.

إلا أن هذا يعيدنا من جديد إلى فكر الردع بالأسلحة الحديثة الذى طورته الولايات المتحدة ودوره فى فرض إرادتها على العالم. فبهذا التنوع العريض من نظم التسليح الحديثة أثبتت القدرة على التعامل مع أى نظم عسكرية بأى من أسلوبين: الأول بإحداث تدمير فعال ومن آماد بعيدة يدخل فى إطار الردع. والثانى بشل قدرة النظم الإلكترونية ونظم القيادة والسيطرة والاتصالات والمعلومات المعادية فيما يعرف بالـ Soft Kill. وكلا الأسلوبين يعتمد على قدرات تكنولوجية فائقة، إلا أن الأسلوب الأول من الردع يسبب خسائر كبيرة مادية وبشرية (من العسكريين والمدنيين) للطرف تحت الردع، وبذلك لا يقل تأثيرا عن بعض أسلحة التدمير الشامل.

٢- تزايد الاهتمام العالمى بالأسلحة البيولوجية كسلاح ردع بالنسبة للدول الأقل تكنولوجيًا وما يمكن أن يترتب على ذلك من تسرب بعض هذه القدرات إلى جماعات إرهابية أو مناهضة للولايات المتحدة - سياسيا أو أيديولوجيا - إلا أنه يجدر توسيع هذا التصور ليشمل الاحتمالات أن تلجأ أى جماعات إرهابية أو عقائدية إلى استخدام هذا الفكر ضد أى نظم حاكمة فى العالم.

ويرتبط هذا التصور بالضرورة بوجود دعم علمى وفنى يحقق إمكانية التطبيق العملى لهذا الأسلوب ولو على مستويات أقل تأثيرا، وذلك على تجمعات محدودة، مما يحتاج بالتالى إلى وجود تنظيم تخطيطى وإدارى وعلاقات بين جهات قادرة علميا على توفير الإمكانيات المطلوبة لهذه التنظيمات المستخدمة.

٣- تبقى نقطة مهمة للغاية هى إمكانية استخدام السلاح البيولوجى المحدود من قبل مجموعات إرهابية - وهو موضوع المقال - كسلاح ردع للدول وهى نقطة جديرة بالبحث، حيث إن مثل هذا الاستخدام سيكون من الأرجح من قبل مجموعات عقائدية تعمل بشكل سرى وتستطيع استخدام الأساليب المتطورة لضرب تجمعات سكانية محدودة أو كبيرة نسبيا فى دول مناهضة. وقد يزيد هذا الاحتمال دعم بعض القوى، خاصة فنيًا (بالإمكانيات والمعلومات والخدمات) للقيام بمثل هذه الأعمال، وذلك على غرار دعم مثل هذه المجموعات بالأسلحة من قبل بعض الدول، إلا أن استخدام السلاح البيولوجى قد يكون أكثر سهولة فى التداول والاستخدام وأصعب فى الرقابة والسيطرة بالإضافة إلى صعوبة مقاومته.

وقد يكون هذا الأسلوب لاستخدام الأسلحة البيولوجية ذا تأثير خطير على الدول الكبرى كردع لها يجعلها تفكر جيدا قبل التورط فى خصوصيات الدول، وخاصة أن مثل هذا التأثير قد يعد دافعا لتحرك شعبى فى الدول الكبرى للضغط على حكوماتها للتراجع.

ولعل هذا التصور هو أبسط صور الاستخدام حيث لا يمكن استبعاد التصور الآخر وهو استخدام مثل هذا السلاح لأعمال التطهير العرقى التى أخذت تنتشر فى العالم، وخاصة مع صعوبة تحديد المسئوليات وبما لاشك أن أهم أساليب مواجهة هذا الخطر هو من خلال التعاون الدولى فى مجالات الاستخبارات والتكنولوجيات المرتبطة بالأسلحة البيولوجية، والأهم من ذلك أن يكون النظام العالمى الجديد مبنيا على التكافؤ والتوازن العسكرى وليس على السيطرة العسكرية والردع بأى من صوره.

لواء .م مختار الفيومى

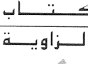


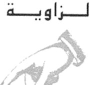
عن الأوبئة والاستعمار
الوباء عائد من جديد

بدأ مرض الدرن فى الانتشار بشكل واضح فى مصر كما هو الحال فى العديد من الدول الأوروبية والأمريكية بعد أن كان قد اختفى من كثير من دول العالم، وأصبح المرض يصيب ثمانية ملايين من البشر كل عام ويحصد أرواح الملايين منهم سنويا حتى أن عدد الوفيات بسبب مرض الدرن فاق فى بعض الدول الوفيات بسبب مرض الإيدز.

وقد أعلنت منظمة الصحة العالمية WHO أن ٩٥٪ من حالات الدرن توجد فى الدول النامية وأن ٧٥٪ من هذه الحالات تحدث بين أفراد المجتمع المنتجين اقتصاديا أى من سن ١٥-٥٠ عاما وهذا يوضح كم الضرر الواقع على الاقتصاد القومى.

وتعود أسباب انتشار المرض مرة

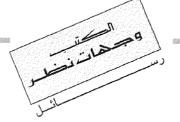




الساق على الساق

فى سفر وتصحيح غلط اشتهر

كانت زوجة الفارياق لاتدرى شيئا سوى بيت أهلها . ولاتتكلم فى أمر إلا فيما جرى لها مع أمها أو لأمها مع الخادمة أو لهذه معهما، وكانت إذا خبرت مثلا بأن الخادمة ذهبت إلى السوق لتشترى شيئا تخللت كل جملة بضحكة طويلة . فاقتضى لإخبارها من الوقت نحو ما كان اقتضى للخادمة من الذهاب والإياب، وسبب ذلك أن البنات فى مصر والشام لا يعاشرن أحدا سوى الخوادم وأهل البيت . أما أمهاتهن فلا يطالعنهن بشىء من أمور الدنيا مخافة أن تنجلى الغشاوة عن أبصارهن فيعرفن ما يراد منها . فمن ثمّ كان تحصيل معارفهن كلها من الخوادم لاغير . ولما كنّ هؤلاء يرين أن إخبار البنات بما يهوين ويملن إليه بالطبع خير لهن عظيم . فإذا رأت إحداهن مثلا فتى جميلا بادرت من ساعتها إلى البنت وقالت لها : قد رأيت اليوم ياسيدتى شابا مليحا ظريفا لا يصلح إلا لك . وإنه حين نظرنى وقف وشخص إلىّ وكأنه يريد أن يكلمنى . وأخاله عرف أنك أنت سيدتى . فإذا رأيته المرة الآتية كلمته . وأشباه ذلك من الكلام مما يجعل البنت ذات ضلع معها إذا غضبت منها الأم . ولا يخفى أن البنات إذا كنّ جاهلات بالقراءة والكتابة وحسن المحاضرة وبآداب المجلس والمائدة وغيرها، فلابدّ وأن يتعوضّن عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمكايد التى يتخذنها وسيلة لما يرمن . فإن البنت إذا اشتغلت بقراءة فن من الفنون أو بمطالعة الكتب المفيدة صرفها ذلك عن استنباط الحيل . فأما إذا لم يكن لهنّ شغل غيرملازمة البيت وليس فيه غير الخادمة فإن أفكارهن وأهواءهن كلها تتجمع إلى مركز واحد وهو اتخاذ الخادمة وسيلة لهن وسندا . فكلامها عندهن أصدق من كلام أمهاتهن . فالأولى عندى أنا العبد الحقير أن تشغل البنت بأحد الفنون والعلوم النافعة سواء كان ذلك عقليا أو يدويا . ألا ترى أن الأنثى مفطورة على حب الذكر والذكر على الأنثى؟ فجهل البنات بالدنيا غير مانع لهن من معرفة الرجال واستطلاع أحوالهم . بل ربما أفضى بهن هذا الجهل إلى التهافت عليهم والانقياد إليهم من دون نظر فى العواقب بخلاف ما إذا كن تأدبن بالمحامد والعلم اللائق بهن، فإنهن يعرفن ما يعرفن من الرجال عن تبصر وتدبر . وهناك قضية أخرى وهى أن النساء إذا علمن من أنفسهن أنهن أكفاء الرجال فى الدراية والمعارف تحصن بها عند تطاول الرجال عليهن . بل الرجال أنفسهم يشعرون بفضلهن فيرتدعون عن أن يهتكوا حجاب التأدب معهن . مثال ذلك إذا اجتمع غلام وبنت فى خلوة وكان الغلام قد قرأ ودرى والبنت لم تعرف شيئا غير ذكر اللباس والزينة والخروج إلى البستان . لم يلبث الغلام أن يتعدى طور الأدب معها لاعتقاده أنها لم تخلق فى الدنيا إلا لقضاء وطره منها . بخلاف ما إذا رآها ذات رأى رشيد . وقول سديد . وفكرة مصيبة . وفهم للأمور البعيدة والقريبة . وحسن محاضرة وجواب عتيد . ومعارضات ومماتنات . فإنه والحالة هذه يهابها ويحترمها .



أخرى إلى انتشار فيروس نقص المناعة المكتسبة AIDS وكذلك ظهور فصائل من ميكروب الدرن مقاومة للعقاقير المستخدمة في العلاج وأهمها الريفامبيس والأيزونيازيد MDR Strains وحسب الإحصائيات العالمية فإن هذه الفصائل تزيد من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مرة في المصابين بالإيدز عن غيرهم.

ويرجع ظهور هذه الفصائل المقاومة Resistant Strain لعدة أسباب أهمها عدم كفاية الموارد المالية مما يؤدي إلى عدم توافر العقاقير المعالجة أو عدم استكمال العلاج الذي يجب أن يستمر ٦ شهور على الأقل حيث أن المريض نتيجة لعدم الوعي الصحي يتوقف عن العلاج بمجرد شعوره بتحسن فيعاوده المرض بشراسة مرة أخرى نتيجة لحدوث تغيير بجينات الميكروب تجعله مقاوما (للميكروب). كذلك فإن سوء استخدام العقاقير بدون استشارة الطبيب المختص تؤدي لنفس النتيجة.

ومن العوامل المؤدية لزيادة نسبة الإصابة بالمرض التدخين وخصوصا تداول الشيشة على المقاهي ومرض السكر وسوء التغذية والأماكن المغلقة، وتعمل وزارة الصحة بالتعاون مع الإدارة المركزية للمعامل ومنظمات الصحة العالمية WHO بوضع خطة مفصلة لمكافحة الدرن في مصر حتى لا يستفحل عدد المصابين بالميكروب المقاوم للعقاقير.

وأهم بنود هذه الخطة هي العمل على التشخيص السليم والسريع للمرض حتى يتم العلاج فورا وذلك عن طريق الاهتمام بالمعامل بوحدات الصدر المختلفة وتزويدها بالأدوات والكيماويات الخاصة بالعمل. وكذلك تدريب الأطباء والفنيين بدورات متخصصة بالمعامل المركزية وكذلك إدخال الأجهزة الحديثة التي يمكن بها تشخيص المرض خلال ساعات عن طريق الكشف عن الحمض النووي بخلية الميكروب (DNA).

كذلك تم إدخال نظام جديد في العلاج معروف باسم DOTS وهو يستمر لمدة ٦ شهور ويتم فيه مراقبة المريض وإعطاؤه العلاج يوميا بواسطة جهاز التمريض أو المراقبين الصحيين. ويتم وضع المريض في المستشفى لمدة شهرين ولا يخرج حتى يصبح بصاقه خاليا من الميكروب.

كذلك تقوم المعامل المركزية بعمل بحث عن نسبة المقاومة الأولية والثانوية وقد توصلت النتائج المبدئية إلى ارتفاع نسبة المقاومة الأولية التي وصلت إلى ٤٤٫٨٪ أما نسبة المقاومة لأكثر من عقار MDR Strain وبالذات للريفاميسين والأيزونيازيد وهما من أهم الأدوية المعالجة للدرن فقد وصلت نسبتها لـ ٢٪ وهذه تعتبر نسبة عالية ويعود ذلك لاستخدام عقار الريفاميبيسن في علاج أمراض أخرى غير الدرن ولمعالجة هذه المشكلة أصدرت وزارة الصحة لائحة لحظر استخدام هذا العقار لعلاج أي أمراض غير الدرن.

د. مشيرة إسماعيل الإبياري
مديرة قسم الدرن بالمعامل المركزية



في التدين الشعبي

لا بأس بإعادة الاعتبار.. ولكن دون تبسيط مخل

تعقيبا على موضوع [التدين الشعبي: من الموالد إلى شم النسيم.. رباط بين العقيدة والحياة اليومية] للأستاذة هبة رءوف عزت، وهو عرضها لكتاب (النقاء والقوة: دراسات في المجتمع الإسلامي المعاصر) من تأليف د. نادية أبو زهرة - والمنشور في مجلتكم الغراء في العدد الثالث - أبريل ١٩٩٩، فلا بأس بإعادة الاعتبار ولكن دون التبسيط المخل. فالأستاذة هبة رءوف عزت تستحق التهنئة على عرضها الجيد للكتاب وإثارة اهتمام القراء والمثقفين، بل «واستفزازهم» ليدلوا بآرائهم فيها.

والقضية في حقيقة الأمر شديدة التشابك بالغة التعقيد، ولذلك فنحن وإن كنا من أنصار فض الاشتباك بين عالم المثقفين أو النخبة وعالم العوام، والتقريب بين الفصحى والعامية، وغير ذلك من عوامل الالتقاء والتوحيد في إطار نهضة شاملة، لا نستطيع أن «نهضم» بعض الأطروحات التي وردت في الكتاب أو نقبلها على علاتها من خلال العرض الذي لا نشك في أنه جاء «أمينا» وواضحا بقلم الأستاذة هبة.

فطبقا للعرض يتحدى كتاب نادية أبوزهرة افتراض انفصال النص عن الواقع وأن الناس تمارس إسلاما لا صلة له بالنص الشرعي، بل يحوي من التقاليد أكثر بكثير مما يحوي من الأصول الدينية، كما يتحدى أيضا افتراض انفصال دوائر الإسلام الصحيح والإسلام الشعبي والإسلام الرسمي/المؤسسي والعلماء.

وطوال المقال تنقل لنا كاتبة العرض ما يمكن اعتباره دفاعا محموما من جانب المؤلفة عن العامة والبسطاء ومظاهر تدينهم الشعبي، وانحيازا يكاد يكون مطلقا لفكرة براءة ممارساتهم وطقوسهم الدينية/الشعبية من أية شبهة تعارض أو انفصال عن «النص الشرعي» و«إسلام العلماء والمشايخ»..إلخ..



برنامج
حفلات شهر مايو ١٩٩٩

المسرح الكبير	التاريخ	المسرح الصغير
فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية	السبت ١	
أوركسترا آلات النفخ - قيادة: مجدي البغدادي	الأحد ٢	
حفل خاص - جامعة أكتوبر	الاثنين ٣	حفل خاص - مدرسة مصر للغات
	الثلاثاء ٤	حفل خاص - مدرسة مصر للغات
	الأربعاء ٥	أمسية الأوبرا الشعرية
أوركسترا القاهرة السيمفوني - سوليست (فيولينه): حسن شرارة - قيادة: سيد عوض	الخميس ٦	جمعية الشباب الموسيقي
	الجمعة ٧	مجموعة موسيقى الحجرة «الكونسرفتوار»
باليه جوفري (شيكاغو)	السبت ٨	أوركسترا القاهرة السيمفوني - موسيقى الحجرة (٧)
باليه جوفري	الأحد ٩	ثنائي فيولينه وهارب - هاني فرحات - هدى عمار
باليه جوفري	الاثنين ١٠	حفل خاص - مصر للطيران
باليه جوفري	الثلاثاء ١١	
باليه جوفري	الأربعاء ١٢	ندوة الأوبرا الثقافية
باليه جوفري	الخميس ١٣	ثنائي الجاز اليوناني - ساكيس بابا ديمتريو - جيورجيا سيلليو
باليه جوفري	الجمعة ١٤	ثنائي الجاز اليوناني - ساكيس بابا ديمتريو - جيورجيا سيلليو
أوركسترا القاهرة السيمفوني - سوليست (بيانو): محمد صالح - قيادة: جون روبيرتسون	السبت ١٥	مشاهد من الأوبرات العالمية
أوركسترا أكاديمية الفنون السيمفوني - قيادة: تاليه جانييف - سوليست بيانو: دوجلاس ويتس	الأحد ١٦	
ريسيتال بيانو - ناوم شتاركمان	الاثنين ١٧	حفل خاص - مصر للطيران
	الثلاثاء ١٨	ريسيتال ميلوديات والليد - رتيبة الحفني - كارولين دوما - أولجا كورنتسوفا
	الأربعاء ١٩	صالون الأوبرا الثقافي
أوركسترا القاهرة السيمفوني - قيادة: توماس كونلين	الخميس ٢٠	فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية
	الجمعة ٢١	شرقيات - فتحي سلامة
أوبرا «تاييس» - فرقة أوبرا القاهرة - أوركسترا القاهرة السيمفوني - قيادة: باتريك فورنيليه - إخراج: جان لوي بيشون	السبت ٢٢	حفل خاص - مدرسة سقارة للغات (٥ - ٩ م)
أوبرا «تاييس»	الاثنين ٢٤	
أوبرا «تاييس»	الأربعاء ٢٦	فيلم ومخرج
الفرقة القومية العربية للموسيقى - قيادة: سليم سحاب	الخميس ٢٧	مجموعة عازفي الفلوت (فصل أ.د. إيناس عبد الدايم)
أوبرا «تاييس»	الجمعة ٢٨	أوركسترا أوبرا القاهرة - الموسيقى للجميع ٨ - سوليست: ياسر مختار، علاء عبد الله - قيادة: إيفان فليف (٣ ظهراً) - ريسيتال غنائي (حسن كامي - إيمان مصطفى) (٨م)
أوركسترا القاهرة السيمفوني - قيادة: أحمد الصعيدي	السبت ٢٩	ريسيتال بيانو - باول كوالسكي
مجموعة سوليستي فينيتي (إيطاليا)	الأحد ٣٠	أوركسترا أماديوس للحجرة - قيادة: تاليه جانييف
أوبرا «تاييس»	الاثنين ٣١	

مسرح الجمهورية	التاريخ	المسرح المكشوف
ريسيتال بيانو (جيلدا أوزوالداو) - البرازيل	الثلاثاء ٤	
فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية	الخميس ٦	
أوركسترا أوبرا القاهرة - سوليست بيانو: عمر خيرت - قيادة: شريف محيي الدين	الجمعة ٧	
أوبرا باستيان وباستيانا - قيادة: شريف محيي الدين - إخراج: وليد عوني	السبت ٨	
أوبرا باستيان وباستيانا	الأحد ٩	
أوبرا باستيان وباستيانا	الاثنين ١٠	
الفرقة القومية العربية للموسيقى - قيادة: سليم سحاب	الثلاثاء ١١	
حفل خاص - فرقة مصر للطيران المسرحية	الأحد ١٦	ريسيتال درامز - أحمد ربيع
حفل خاص - فرقة مصر للطيران المسرحية	الاثنين ١٧	
حفل خاص - فرقة مصر للطيران المسرحية	الثلاثاء ١٨	
حفل خاص - فرقة مصر للطيران المسرحية	الأربعاء ١٩	
حفل موسيقى الحجرة - المجر	الخميس ٢٠	
	السبت ٢٢	حفل موسيقى الجاز - الثنائي الألماني (تسفينجينبرجاز، بوجي ووجي)
	الأحد ٢٣	فرقة سعيد الأرتيست
أوبرا «الخادمة السيدة» - فرقة أوبرا القاهرة - قيادة: طه ناجي - إخراج: چيهان مرسي	الخميس ٢٧	
أوبرا «الخادمة السيدة»	الجمعة ٢٨	
شرقيات - فتحي سلامة	الأحد ٣٠	

دار الأوبرا المصرية

دار الأوبرا - للاستعلام: ٣٣٩٨١٤٤ - ٣٣٩٨١٣٢
مسرح الجمهورية: ٣٩٠٧٧٠٧

وهذا الطرح لا نعتقد أننا نكون متجنين أو مبالغين أو متجاوزين للحدود إذا وصفناه - مضطرين - ومع كل الاحترام الواجب حتى فى حالة الخلاف فى الرأى - بأنه «تسطيح شديد للقضية» و«تبسيط مخل للمشكلة».

إن المسألة ليست أن باحثين أجانب رصدوا هذه الطقوس الشعبية ولاحظوا تباعدا جليا بينها وبين معطيات الدين الإسلامى، ثم تأتى باحثة «مصرية الأصل» فتنتصف لهؤلاء العوام البسطاء الأنقياء الذين لا يقصدون أى خروج على الدين، وترى من خلال دراستها الميدانية التزامهم بمفهوم التوحيد الخالص فى الموالد، وأن افتراض انفصال هذه الطقوس أو تعارضها مع الدين النصّى لابد من دحضه تماما!

المسألة هى أن الباحثة أرادت أن تتفادى مَزلق المبالغة فى الحكم على هذه الطقوس بعدم المشروعية الدينية، ومزلق التعالى على البسطاء والعوام ودفع تصرفاتهم البسيطة بالتجريم الدينى، فوقعت - فى رأينا - فى مزلق أخطر هو عدم القدرة على رصد أية مشكلة على الإطلاق فى هذه الممارسات. بل وانتقاد أجيال سابقة من علماء الدين والاجتماع والمثقفين والباحثين والمستشرقين لاحظوا جميعا - ومعهم كل الحق - أن كثيرًا جدا من ممارسات العوام فيما يسمى (تدينهم الشعبى) هذا - سواء فى طقوس الزواج والموت والولادة والموالد والتصوف والعادات المنزلية والتفاؤل والتشاؤم - الخ.. عبارة عن ركام هائل ضخم من الموروثات التى تداخلت فيها الخرافات والأساطير والعقائد التى يتصادم بعضها أو معظمها مع الإسلام تصادما جذريا لا حيلة فى دفعه أو تبريره أو الاعتذار عنه أو التعايش معه!

ونحن لانعرف مدى التصاق مؤلفة الكتاب بالطبقات الشعبية أو مدى عمق الدراسة الميدانية التى قامت بها ولكننا كنا نفترض عدم غربتها عن الواقع المصرى، لأنها مهما كانت تعيش فى الخارج وتقوم بالتدريس فى أعظم جامعات الغرب - مصرية أساسا، ويكفى أن يكون والدها هو الراحل العظيم الشيخ محمد أبو زهرة، ذلك العلامة الفذ، ومع ذلك، فإن الرؤية التى تطرحها فى كتابها - وعرضتها لنا الأستاذة هبة - تشكك للأسف فى هذا «الانتماء» وتجعل الباحثين الأجانب أكثر فهما لهذا الواقع.

ومن الطريف أن هذه العالمة الكبيرة الفاضلة تستند فى تبرئتها لمظاهر التدين الشعبى من أية شبهات إلى مايقوله العوام أنفسهم لها! جاء فى العرض: (لانهاية للموالد التى تقام فى مصر، ويصعب عدها وحصرها، ولانهاية للقصص التى تروى عن كرامات آل البيت والأولياء، وعلى مدار العام هناك دائما احتفال بمولد لأحد الأولياء فى مكان ما بمصر المحروسة، وساد اعتقاد بأن البسطاء يرون الأولياء كواسطة بين الإنسان وخالقه، ويعترفون لهم بسلطان لاحدود له، ويضفون عليهم صفات خارقة، لكن د. نادية أبو زهرة حين تقترب من الناس وتعيش بينهم ترى أنهم يحرصون فى الزيارة وفى الموالد على تأكيد التزامهم بمفهوم التوحيد الخالص لله، وأنهم يبدأون وينهون تحيتهم وزيارتهم للأضرحة بالشهادتين وصيغ التوحيد الواردة فى الدعاء القرآنى، مؤكدين أن الزيارة محبة ومودة وليست شركًا بالله ولا التماس واسطة»..

وليت شعرى ماذا كانت الدكتورة الفاضلة تتوقع من هؤلاء البسطاء، هل أن يقولوا لها إن ممارساتهم تتضمن بدعًا وخروجًا على الشرع ورواسب من عقائد أخرى وخرافات الخ..؟! إن أحد أهم أسباب تعقد المشكلة هو أن هؤلاء العوام لايدركون ذلك، وهم فى حاجة إلى توعية وتنقية مفاهيمهم، والارتقاء بمستوى فهمهم وتدينهم، وهذا هو واجب العلماء والمثقفين وضريبة علمهم وزكاة وعيهم، لا أن يتركوهم فى ظلام خرافاتهم وطقوسهم المتخلفة ويباركوا كل مايفعلون بدعوى إعادة الاعتبار للتدين الشعبى!

إن العوام كانوا ولايزالون للأسف يتبنون عقائد ويمارسون طقوسا ويحافظون على عادات - جميعها أو معظمها فى حاجة لثورة إصلاحية تبدأ بالتعليم والتوعية ومحو الأمية العلمية والدينية والثقافية ومواجهة المنتفعين من بقاء الحال على ما هو عليه (راجع الموالد وصناديق النذور).

والأستاذة الفاضلة التى لاحظت أن زوار المقام الزينبى يبدأون الزيارة وينهونها بالشهادتين لعلها لم تلاحظ ما بين البداية والنهاية من طواف حول الضريح ولمس للمقصورة وتوسل وشكوى - مسموعة أحيانا - لصاحبة الضريح ونذور لايعلم إلا الله أين تذهب ومدى مشروعيتها، ولم تحضر بنفسها أى «مولد» للسيدة (رئيسة الديوان). وبالذات الليلة الختامية حيث تحدث أبشع المساخر والمهازل والجرائم والانحرافات مما لا علاقة له بالدين ولا بالسيدة زينب رضى الله عنها! وكان عليها أن ترجع إلى كتب التصوف لتعرف معنى (رئيسة الديوان) وهل يتفق هذا المعنى مع عقيدة الإسلام الصحيحة أم لا!

معتز محمود شكرى
باحث وصحفى



نون

إنتاج المعرفة واستخدامها

ثلاثة مشاهد متباينة، تتقاطع فيما بينها، ويقع كل منها فى مجال يختلف عن الآخر تمام الاختلاف.. ولكنها جميعا ترتبط فى سياق واحد، وتكشف عن عمق الأزمة التى تعانيها مجتمعاتنا العربية، وهى تقف على عتبة القرن القادم تبحث لنفسها عن موطئ قدم بين شعوب العالم.

المشهد الأول تتبين خطورته فى الضجة التى أثيرت، وتناثرت أصداؤها فى كتابات بعض المثقفين العرب، ينعون على مصر وقاهرتها، التى كانت عاصمة التنوير بامتياز، ومهد محاولات التحديث، قاهرة جمال الدين الأفغانى، ورفاعة الطهطاوى، ومحمد عبده، وطه حسين، وقاسم أمين.. أنها تتعرض الآن لهجمة رقابية عاتية، حيث سحبت النسخة الإنجليزية الأصلية من كتاب «النبى» أشهر كتب جبران خليل جبران من التداول، فى الوقت الذى تصدر فيه ترجمة عربية لنفس الكتاب عن «دار الشروق» بالقاهرة قام بها الدكتور ثروت عكاشة.. وفى الوقت الذى يحتفل العالم فيه بالذكرى المئوية لجبران.

سحب كتاب جبران الذى ظل متداولا منذ مطلع القرن فى مصر، وسط حملة شملت عددا من الكتب الأخرى، قيل إن من بينها مؤلفات لأجاثا كريستى وفلاديمير نابوتوف، ونحو ٧٠ كتابا آخر تراوحت بين التجميد من التداول أو منع إعادة طبعها وتوزيعها أو إحالتها للأزهر لإبداء الرأى. وكان آخر هذه الكتب كتابا لنوال السعداوى بعنوان «أوراق حياتى» نشرته دار الهلال مسلسلا فى مجلة المصور القاهرية فى حلقات، وصدر فى كتاب عن نفس الدار قبل عام واحد. ثم ترجم الكتاب فى دار «زد بوكس» فى لندن إلى الإنجليزية، وبعد أن شرعت الجامعة الأمريكية فى نشره عن طريق إدارة النشر فيها، تراجعت فجأة وقررت الاعتذار لأسباب غير مفهومة، لم تزد على القول بأنه «قد يؤدى إلى إثارة حساسيات دينية»!

هذه الضجة تأتى فى أعقاب منع تدريس كتاب «الخبز الحافى» للأديب المغربى محمد شكرى لأسباب مشابهة. وأيا كانت وجهة الخلاف حول انتساب هذا الكتاب للأدب أو بعده عنه، فإن المسألة هنا هى إلى أى مدى سوف تصل الرقابة على الفكر والإبداع؟ ومن الذى يضع الحدود والضوابط فى عصر سقطت فيه كل الحدود والقيود؟

المشهد الثانى يقع فى أسرة مصرية عادية، أتاحت لها التكنولوجيا الحديثة أن تقتنى جهاز كمبيوتر، وأن تتاح الفرصة أمام أبنائها وبناتها لاستخدامه واستخدام الإنترنت، فوجئت الأم وهى تفتح موقعها على البريد الإلكترونى برسالة من إحدى شبكات المعلومات تسألها إن كانت توافق على اشتراك ابنتها الصغرى - ١٣ سنة - فى الحصول على ما تطلبه من معلومات وقراءات ومشاركة فى حلقات النقاش الإلكترونية.. واتضح أن الفتاة أتقنت الإبحار فى عالم الإنترنت، ودخلت فى حوارات ومناقشات حول موضوعات مختلفة مع شباب مثلها أو أصغر أو أكبر منها من أنحاء العالم، ينتمون إلى ثقافات وخلفيات أخرى. وحين سألتها الأم: هل تتعرض لأنواع من السخافات أو العبث من جانب المحاورين معها فى محادثات الإنترنت؟ ردت الفتاة فى حزم بأنها قادرة على وقف أى حوار لا يعجبها!

هل الأفضل أن تغلق الأم الجهاز وتلغى اشتراك الإنترنت، وتريح نفسها وتستريح من مخاطر الحرية المتدفقة عبر الإنترنت بدون حدود، بكل ما تحمله من مخاطر وإغراءات ومعاكسات حماية لابنتها، أم تقف إلى جانبها تعلمها وتمنحها الثقة بالنفس والاعتماد على الذات ومواجهة التحديات الحضارية والثقافية التى تنهال علينا تأثيراتها من كل حدب وصوب عبر السماوات المفتوحة والفضائيات التى لا سيطرة لأحد عليها ودون رقيب يمنع النشر أو حسيب يمنع التداول؟



لو انحزنا إلى هذا الرأى ونصحنا الأم بتحطيم الكمبيوتر وإغلاقه وحظر استخدامه فسوف ننتقل لا محالة إلى المشهد الثالث. وهو مشهد تتردد أصداؤه فى التقارير التى لا تكف وسائل الإعلام عن نشرها ومتابعتها والتحذير منها حول انتشار الزواج العرفى بين الشباب، وهى ظاهرة تؤرق الآباء وتقض مضاجعهم، وتفجر مشكلات اجتماعية وأخلاقية وتربوية وقانونية لا سبيل إلى حصرها، تنبع فى أساسها من كبت منافذ التعبير الحر والمشاركة الطبيعية لدى الشباب، واغتصاب حقهم فى المعرفة والحوار وإبداء الرأى، وفى توجيه طاقاتهم نحو العمل العام والتنمية الاجتماعية، والاهتمام بمشكلات الوطن وهمومه، وتحمل المسئولية السياسية التى تربى الوعى وتخلق القدرة على الاختيار الصحيح.

لقد اختزلت مشاكل الشباب فى مصر والعالم العربى فى مشكلة واحدة هى المشكلة التعليمية وأهملت الجوانب التربوية، وحتى هذه المشكلة فإن علاجها مازال قاصرا عن الارتفاع إلى مستوى التطورات الجارفة والمثيرة التى تتلاحق، والتى تتصل بالتطور الاجتماعى والعلمى وثورة المعلومات فى العالم.



هذه المشاهد الثلاثة هى وجوه مختلفة لقضية واحدة تتعلق بالرقابة الذاتية التى نفرضها على أنفسنا من ناحية، وبالرقابة الخارجية التى تفرضها سلطة أعلى خارج ذواتنا من ناحية أخرى، ولابد من حل هذه الإشكالية التى تعطل الإبداع وتقضى على حرية الفكر وتمنع مشاركتنا فى إنتاج المعرفة، بوضع حد لخلط الفكر والفن بالدين، ولإطلاق الأحكام القيمية على الاجتهادات الفكرية.. فالذى لا يملك القدرة على استخدام المعارف لن يكون طرفا فى إنتاجها، والذى يحال بينه وبين الحصول على الأفكار والمعلومات لن يكون مشاركا فى إبداعها، وإطلاق ملكاته وطاقاته لإثرائها وتصديرها إلى الآخرين.. سوف تظل أجيالنا والأجيال القادمة تستهلك الثقافة ولا تنتجها، وتعتمد على ما يجود به الآخرون علينا، وهذه هى أسوأ أشكال التبعية فى عصر الهيمنة السياسية والاقتصادية والتكنولوجية.

سلامة أحمد سلامة